نِيل سلبرمَن

بحثاً عن إله ووطن

صراع الغرب على فلسطين وآثارها

(1799-1917 م)

ترجمة :

فاضل جتكر

بحثاً عن إله ووطن:

صراع الغرب على فلسطين

وآثارها (1799-1917 م)




al-maktabeh
www.
.com
مكتبة
المهتدين

الكتاب : بحثاً عن إله ووطن: صراع الغرب على فلسطين وآثارها (1799- 1917 م).
تأليف: نيل سلبرمن
ترجمة عن الإنكليزية: فاضل جتكر
راجع الترجمة: زياد مني
تصميم الغلاف: نبيل المالح
الإخراج: طارق صبح
الطبعة الأولى: (2001 م).

قدمس للنشر والتوزيع
ص.ب: 6177
دار المهندسين (905)-الفردوس
دمشق، سورية
هاتف: 9836 222 (11- 963+)
برّاق: 7226 224 (11- 963+)
بريد إلكتروني: cadmus@net.sy

التوزيع خارج سورية:
شركة قدمس للنشر والتوزيع (ش. م. م)
ص.ب: 113/6435
شارع البصرة (بناء قرطاس)- الحمرا
بيروت، لبنان
هاتف: 054 750 (1- 961+)
برّاق: 053 750 (1- 961+)
بريد إلكتروني: cadmus@inco.com lb

يمكن الاطلاع على كتب الدار ومنشوراتها على صفحة الشبكة التالية:
http//:www.alfurat.com

تأشيرة الرقابة: 46246 تا 1999/11/17 م.

نِيل سِلْبَرْمَن

بحثاً عن إله ووطن

صراع الغرب على فلسطين وآثارها
(1799 - 1917 م)

ترجمة: فاضل جتكر

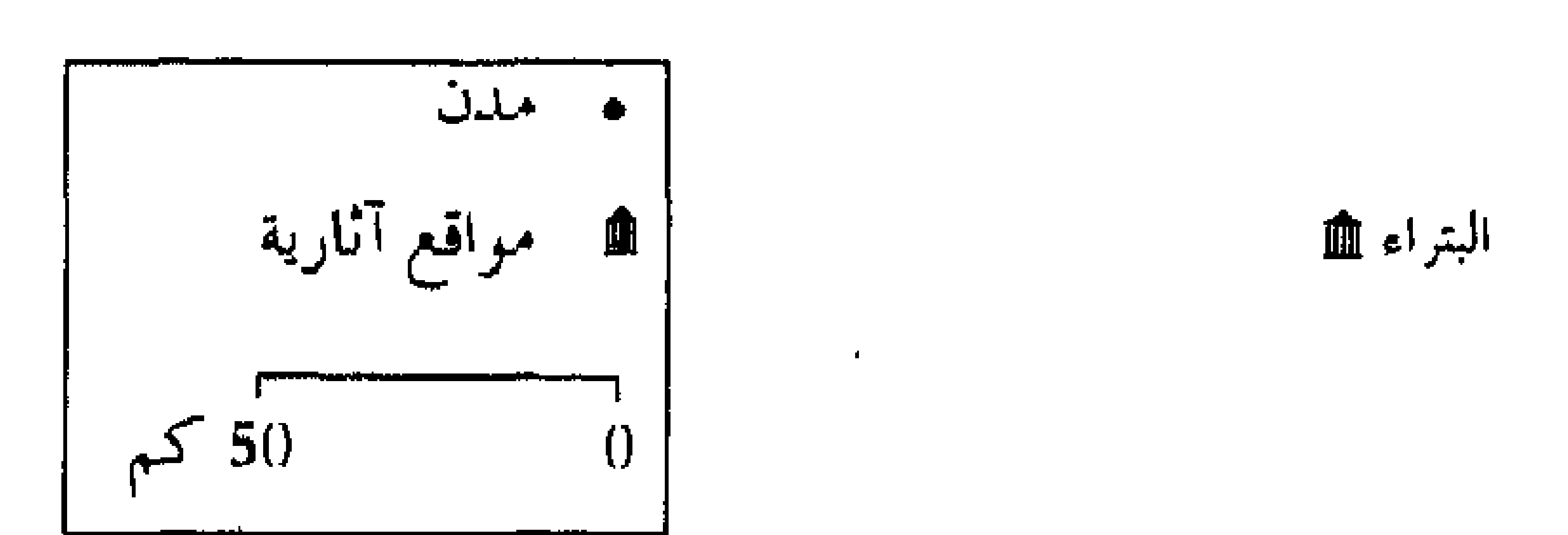


المحتـوى

خرائط:

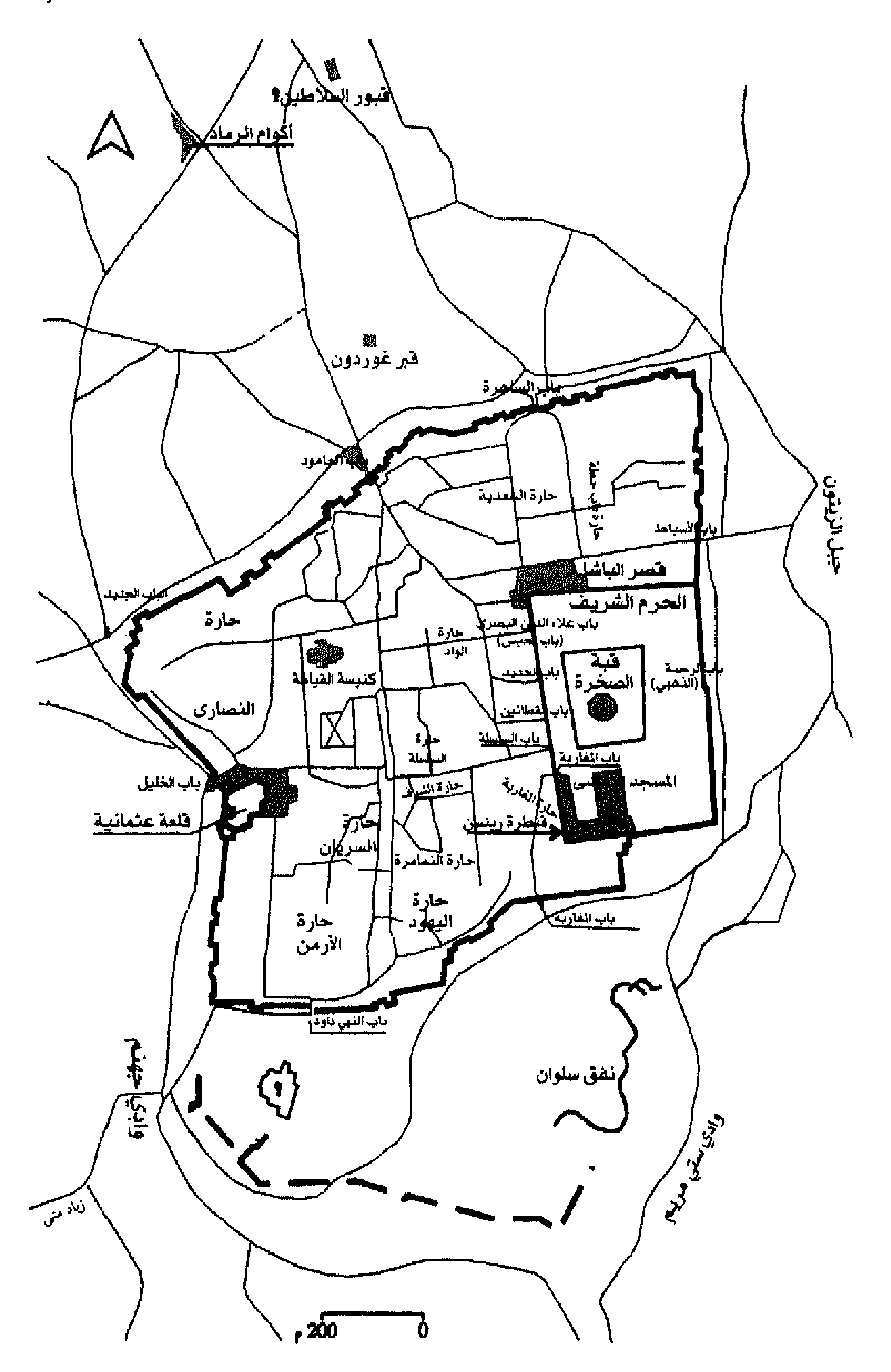
الجزء الثالث: وانتصر العلم

بيروت
صيدا
دمشق
صور
صفد
تل حوم
عكّا
حيفا
طبرية
الناصرة
تل المتسلم
تل تعنك
سبسطية
نابلس
يافا
السلط
عمان
تل جازر
إريحا
القدس
تل الصافي
تل الجديدة
بيت لحم
خان مشطة
عسقلان
تل صنداحنة
تل الحسي
غزة
ذيبان
عين جدي
تل زكريا
خربة السَّبَّة (مسعدة)
بئر السبع
الكرك
العريش
نصّان



العقبة

فلسطين إبّان العهد العثماني



القدس في القرن التاسع عشر



استدراك من الناشر

لقد واجهتنا في هذا المؤلف الهام مجموعة من المصطلحات والآراء التي نرى أنها تتناقض مع أحدث المكتشفات العلمية في حقل تاريخ فلسطين القديم. وقد رغبنا في وضع ملاحظاتنا التعليقية في داخل النص نفسه، وتوضيح أبعادها السياسية والعقيدية. ولكن قبل إدخال ملاحظاتنا النقدية، وانطلاقاً من حق المؤلف في تقرير شكل مؤلفه النهائي، حتى لو كان مترجماً، نقلنا إليه رغبتنا هذه، لكنه تمسك بحقه في عدم إضافة أية ملاحظة أو تعليق منا داخل النص. لذا فقد كان من الطبيعي أن نحترم رغبته هذه والامتناع عن وضع تعليقاتنا التي نرى أنها مهمة.

لكن، وتفادياً لأي سوء فهم محتمل لموقفنا، كدار نشر ملتزمة، من مسائل وردت في الكتاب، مارسنا حقنا أيضاً في توضيح معارضتنا لاستخدام مقولات ومصطلحات غير دقيقة كانت أم غيرعلمية عبر هذا الاستدراك. ومن المصطلحات التي نعترض عليها نذكر، على سبيل المثال، التالية: (أرض الكتاب، الهيكل، المرحلة الكتابية، هيكل اليهود، أرض الميعاد، استقلال اليهود القومي، المعبد اليهودي، المؤرخ اليهودي، عودة اليهود، الدقة التاريخية للكتاب، حركة تمرد يهودية؛ وأخيراً، وليس آخراً: الحيل والأحابيل الشرق أوسطية).

هذا من جهة، ومن جهة أخرى نود اغتنام هذه الفرصة للتذكير بأننا لا نتفق أبداً مع رؤية المؤلّف لبعض جوانب تاريخ فلسطين القديم حيث أثبتت الأبحاث الجديدة، والتي أنجزها جمع مهم من كبار علماء التاريخ والكتاب الغربيين، خطأ الرؤية السائدة، وبدءوا يقدمون طروحات وتصورات لتاريخ فلسطين وبقية أقاليم سورية، تختلف عما تعودت آذاننا على سماعه، وأعيننا على قراءته.

رغم ملاحظاتنا، المهمة، تلك، نرى أن الكاتب التزم، إلى حد بعيد، في تقديم مادة المؤلف الرئيسة، كما حصلت فعلاً، ألا وهي تقديم تأريخ مثبت وموثق لصراع القوى الغربية على فلسطين وآثارها، منذ تعرضها إلى أول غزو غربي حديث قام به نابليون في عام (1799 م) وحتى سقوطها بيد قوات الغزو البريطانية في عام (1917 م). وهذا ما قادنا إلى تبني الكتاب ونقله إلى اللغة العربية وتقديمه إلى القارئ العربي، ليسد بعض الفراغ في المكتبة العربية المتخصصة، آملين أن نسهم بذلك في فتح النقاش الهادئ عن الموضوع، خدمة لقضية العلم الملتزم.

الناشر

دمشق في 2001/1/29

مقدمة

خلافاً للعديد من الكتب الأخرى التي كُتبت في السنوات الأخيرة عن آثار إسرءيل،[1] لا يهتم هذا الكتاب بالآثار الدفينة والثقافات أو الحضارات القديمة إلا بصورة غير مباشرة. فتركيز هذا الكتاب أقرب بكثير من أيامنا الراهنة. إن هدفه هو توجيه تقنيّات علم الآثار الحديث نحو أحد فروع هذا العلم بالذات؛ نحو تعقب الخلفية التاريخية، وتلمس أصول البيئة الثقافية لعملية الاستكشاف الغربية لأرض الكتاب،[2] من أوائل القرن التاسع عشر إلى نهاية الحرب العالمية الأولى.

يشكل علم الآثار الكتابي تعبيراً ثقافياً فريداً عن العصر الذي وُلد فيه. فعلى امتداد القرون السبعة عشر السابقة، ظل العالم المسيحي محتفظاً بكتلة ثابتة من التراث الديني عن الأراضي المقدسة، كتلة متكاملة بأساطيرها ومعجزاتها العتيدة والعريقة ومزاراتها القادرة على عَمَل الأعاجيب. غير أن ذلك التراث ما لبث فجأة أن فقد قوته وباتت الدقة الحَرْفية للكتاب [المقدس] [3] تتطلب الدفاع عنها من منطلقات جديدة، مع تقدم الوعي (العلمي) في القرن التاسع عشر. وهكذا، فإن العالم المسيحي الغربي بدأ يطور فهماً جديداً لتاريخ مكان ولادة عقيدته بالانطلاق من علم الآثار الكتابي. ومسار ذلك التطور يشكل الموضوع الرئيس لهذا الكتاب.

أما الإتيان على ذكر كل من الباحثين والمستكشفين الذين ساهموا في تقدم علم الآثار الكتابي في القرن التاسع عشر فلم يكن أحد أهدافي. فعلى الرغم من أن المساهمات العلمية لشخصيات مرموقة مثل تيتوس

توبلر،[4] وكارل رتّر[5] وهنري بيكر تريسترام،[6] وجورج آدم سمث،[7] كانت بالغة الأهميّة على الصعيد البحثي الأكاديمي، فإن هؤلاء لم يحدثوا أي تغيير في المسار الأساسي لعملية استكشاف فلسطين. فتلك المهمة اضطلع بها شخصيات هذا الكتاب المختلفة الذين عبروا، بمراتبهم، ومعتقداتهم الدينية، أو بطموحاتهم الإمبريالية، تعبيراً واضحاً وضوحاً خاصاً في نشاطاتهم الأثرية عن مزاج عصرهم، وأثروا، بفعلهم هذا، تأثيراً ملحوظاً في المسار اللاحق لعلم الآثار الكتابي.

أفراد كثيرون ساعدوني في البحث لإعداد هذا الكتاب، وناقشوا معي جوانب مختلفة من المراحل التاريخية التي يتناولها. وفي المقام الأول أريد أن أشكر البروفسور موشي دوثان من القدس. فحتى قبل أن أفكر بكتابة هذا الكتاب بزمن طويل، كان هو الشخص الذي ساعدني على الشروع بفهم مدى غنى كنز الآثار في إسرائيل وتعقيده. ومن الباحثين الآخرين الذين أرغب في أن أعبر عن شكري لمساعدتهم لي؛ ثمة الدكتور ريتشارد بارنت[8] من لندن، والسيد بنيامين يوفه من القدس، والدكتور ديفيد باترسون[9] من مركز الدراسات العبرية ما بعد الجامعية بجامعة أكسفورد، الذي أحاطني برعاية بالغة الكرم خلال إقامتي هنا. إن فهمي التاريخي تأثّر كثيراً بمعارفهم، وإن كنت وحدي مسؤولاً عن استنتاجاتي.

كما أصبح بحثي ممكناً بفضل المساعدة التي وفّرتْها لي ملاكات عدد من المؤسسات المختلفة، بما فيها [مكتبة سترلينغ التذكارية][10] و[مكتبة باينكة للكتب والمخطوطات النادرة بجامعة ييل][11] و[مكتبة أولن التذكارية بجامعة ويسليان][12] و[قسم النسخ والتصوير في مكتبة الكونغرس][13] و[المحفوظات القومية بواشنطن العاصمة][14] و[مكتبة أشموليان وبودليان بأكسفورد][15] و[قسم المخطوطات في المكتبة البريطانية][16] ومحفوظات [صندوق استكشاف فلسطين][17] بلندن. فكل من هذه المؤسسات تمتلك كنزاً من المواد ذات العلاقة بفلسطين القرن التاسع عشر، التي من شأنها أن تُعتبر، يوماً، منطوية على قيمة أثرية تضاهي قيمة أية مجموعة من الأواني الخزفية العائدة للعصر البرونزي، أو القطع النقدية الهلينية.

منذ البداية الأولى لفكرة هذا الكتاب ظل شركاء السيد ستيفن إليوت ساتشم[18] في النشر بغيلفورد الكونكتكتية[19] يقدمون دعماً ثميناً لا يعرف الكلل. كما أن الدكتور كلفن جيمَس[20] من مدينة نيويورك ساهم في صياغة القصة وتشذيب أسلوبها. أما ناشري تشارلز إليوت فقد قدّم، بالمجان، حكمته وخبرته في كل من مراحل العمل. وإني أقدم له شكري؛ فقد أصبح الكتاب أفضل بكثير مما كان يمكن أن يكون عليه دونه.

ودون الدعم الثابت من أسرتي وأصدقائي ما كنت سأتمكن من إتمام مهمة البحث والكتابة التي بدت غير قابلة للانتهاء أحياناً هذه. فزوجي إيلين، بالدرجة الأولى، عاشت قريبة من ضجيج آلتي الكاتبة، وبالتالي فإن هذا الكتاب هو نتاج صبرها وتفهمها، بمقدار ما هو نتاج أي عنصر آخر. أرجو أن تتمكن حصيلة جهودي من تسويغ ثقتها بي.

برانفورد ـ كونكتِكت 2 تموز 1981 م

نِيل سِلْبَرمَن

ملاحظة المؤلف

طلباً لما هو مريح استخدمت عبارتي (فلسطين) و(الأرض المقدسة) الجغرافيتين بصورة متبادلة من بداية الكتاب إلى نهايته، للدلالة علي المنطقة المشغولة الآن بكل من دولتي إسرائيل والأردن الحديثتين، جنباً إلى جنب مع شبه جزيرة سيناء. ففي أثناء الحقبة العثمانية التي يتناولها هذا الكتاب، كانت المنطقة مقسمة إدارياً وملحقة بإقليم سورية الأكبر، ولم تكن تحمل تسمية رسمية واحدة.

الجزء الأول
أرض زاخرة بالخرافات



1) إغواء الأرض المقدسة :
فلسطين وخيال الغرب الديني

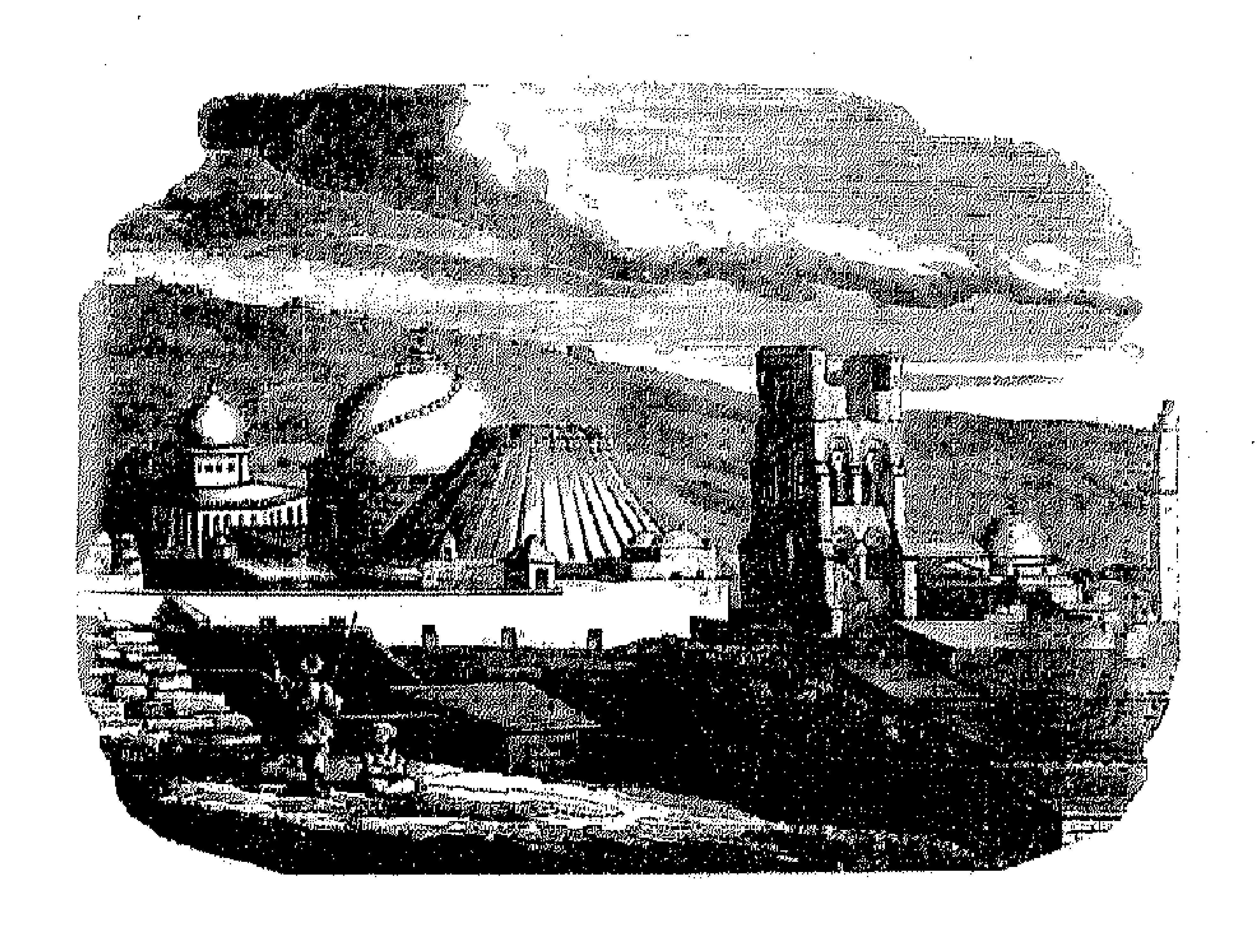
لدى اختتامه رحلة طافت به عبر الأرض المقدسة في عام (1867 م) أطلق مارك توين إحدى عباراته الساخرة قائلاً: «ما عادت فلسطين من هذا العالم العملي؛ إنها مقدسة بنظر الشعر والتقاليد، إنها أرض أحلام».

ومثله مثل أي حاج عصري حديث، كان مارك توين قد جاء لزيارة أرض يلفها إكليل من آيات التقديس والخرافات، وليرى بنفسه مهد عقيدته المسيحية. ولكن ما وجده كان شديد التناقض مع تصوراته السابقة؛ إلا أنه، ورغم عُقْم المشهد ومنغصات المناخ الشرق أوسطي ومُزاح الأدلاء المحليين الذي لا يوحي بالثقة، ظل، على ما يبدو، أسير "أرض أحلامه". فبعد رحلة مضنية إلى الجنوب، من بيروت إلى القدس، على ظهر فرس، قدّم صورة أمينة عن مواقع العهدين القديم والجديد في سلسلة من الرسائل الصحفية النابضة بالحياة والتي نُشرتْ لاحقاً في كتاب ذَ إنوسنتس أبرود [الأبرياء في الخارج].[1] والحالة المعاصرة للبلاد وأهلها لم تشكّل بالنسبة إليه إلا عاملاً يبعث على السخرية المريحة؛ أما احترامه الحقيقي الأصيل فظل مكرساً على ماضي فلسطين المجيد.

و لم يكن مارك توين، إطلاقاً، السائح الغربي الوحيد الذي قام بمثل رحلة الحج الخيالية هذه في تلك الأيام. فمنذ العام الأول للقرن التاسع عشر وحتى العقود الأولى من القرن العشرين، ظلت تلك الأقاليم المتخلفة

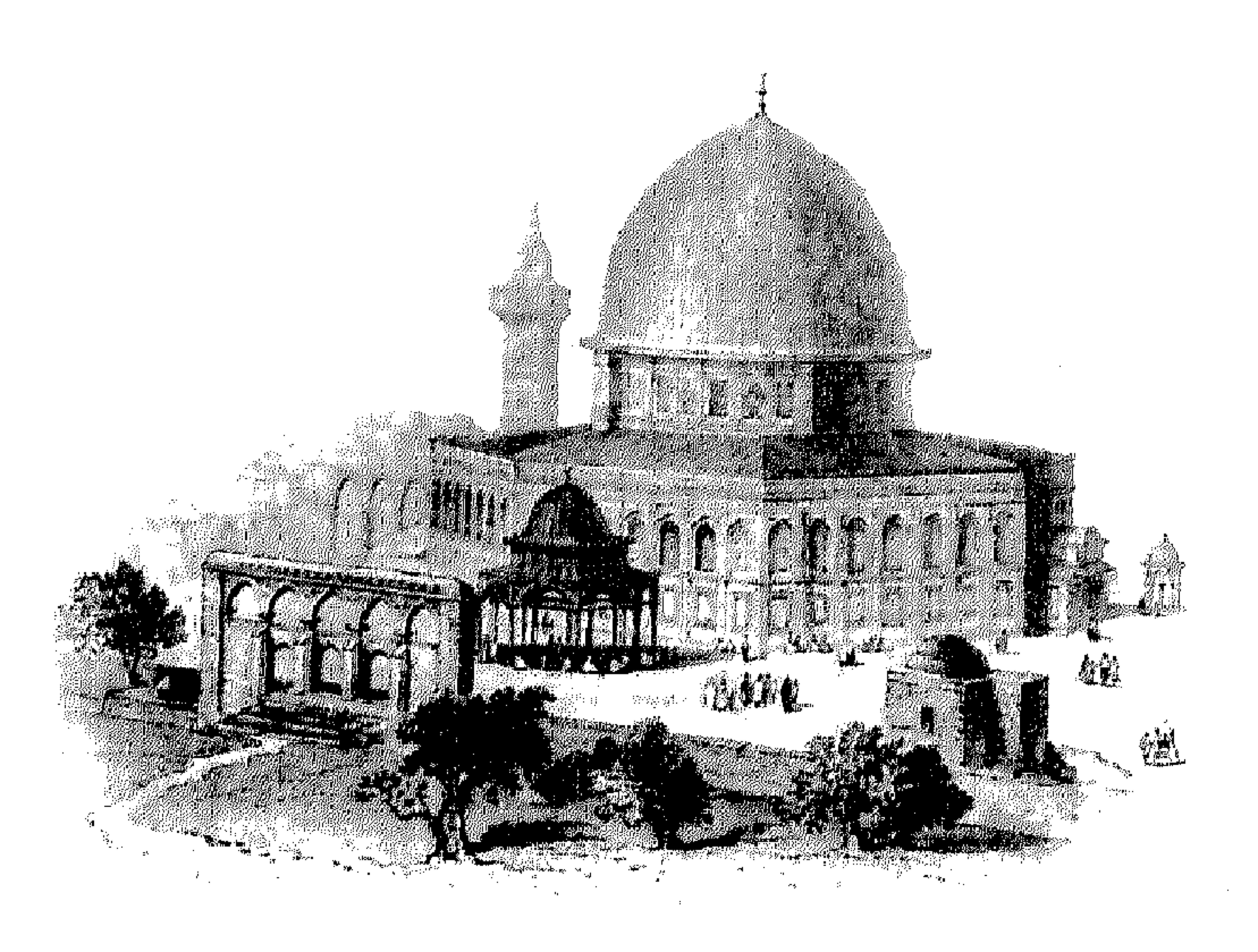
القليلة المعروفة في العالم المسيحي بأسماء (فلسطين) حيناً و(الأرض المقدسة) حيناً آخر، و(أرض الكتاب) حيناً ثالثاً من الإمبراطورية العثمانية تجتذب بعض أكثر شخصيات العصر دهاء ومكراً. فإغواء (الآثار الكتابية) ظل يفعل فعل ما يشبه السحر في كل من نابليون بونابرت على رأس جيوشه الثورية، واللورد بايرون الباحث عن موضوعات شعرية، وهيرمان ملفيل،[2] وب. ت. بارنوم،[3] وغليوم الثاني قيصر ألمانيا، مع الآلاف من الباحثين القساوسة والسياح والمغامرين الغربيين.

وفي لب هذا الهاجس (الرومنطيقي) كان ثمة تراث قوي ومُلِحّ كامن في أعماق قلوب المسيحيين منذ أيام بناة الكنائس من مطارنة بيزنطة وعبر قرني الغزوات الصليبية الدامية وما بعدهما؛ كانت فلسطين هي الأرض التي مشى عليها مخلصهم، حيث كانت أحداث العهد القديم الرهيبة قد تفجرت لتصبح تاريخياً ففي مدينة القدس الجبلية كان ملوك العبرانيين قد بنوا هيكلاً ليهوه، وكان صَلْب المسيح وقيامه من القبر قد تم خلف أسوارها المدينية. ولطالما ظل المسيحيون يعتقدون بأنهم، لا اليهود، الورثةُ الروحيون لهذه الأرض مما جعلهم يعتبرون، طوال قرون من الزمن، اكتشاف مزاراتها وكنائسها القديمة وتقديسها وحمايتها من واجباتهم المقدسة.



القدس في خيال رسام أوروبي (1815 م)

ومع ذلك فإن موجة الرحلات والاستكشافات الغربية في القرن التاسع عشر كانت مختلفة عن موجات الحج السابقة العديدة إلى الأرض المقدسة. فالقرن التاسع عشر كان عصر البحث العلمي؛ وعلم الآثار الوليد كان يوفر أساليب جديدة بالغة الإثارة لكشف النقاب عن الماضي الكتابي والحفاظ عليه. ولُغز الأرض المقدسة ما لبث أن تحول فجأة من موضوع للحج إلى موضوع للاكتشاف، والسعي الجديد إلى الآثار القديمة ما لبث أن تمخض عن غزو غربي جديد لفلسطين لم يسبق له مثيل منذ أيام الصليبيين. ما من بقعة في البلاد حتى آخر ميل مربع إلا وجرى نقبها من قبل سيل من الرهبان والباحثين والعسكريين. فالجمعيات الأثرية المتنافسة والبعثات الممولة بسخاء تعاقبت في استعادة العديد من المواقع الكتابية الهامة من براثن ركام القرون. وجملة التفسيرات والنظريات المتضاربة حول تاريخ الأرض توحدت تدريجياً في تاريخ حديث مُعَلْمَن. وإضافة إلى إنجازاته في الميدان العلمي الخالص، فإن استكشاف فلسطين أفضى أيضاً إلى تنافس دولي حاد حول جملة من الأهداف القومية الملموسة والمتضاربة.



قبة الصخرة
في عام (1842 م)

فحول التقديس الديني التقليدي للأرض المقدسة تزاحمت الوقائع العنيدة للتغيرات السياسية الحاصلة في القرن التاسع عشر. فالإمبراطورية العثمانية كانت متداعية والمصير النهائي للشرق الأوسط كان ملفوفاً بضباب كثيف من الشك. والقوى الإمبريالية الصاعدة في أوروبا كانت شديدة الدأب على تحقيق النفوذ في تلك المنطقة التي كانت فلسطين الواقعة بين مصر وبلاد ما بين النهرين قلبها الجغرافي. وبالتالي فإن البحث عن الآثار الكتابية ما لبث أن أصبح أسلوباً ماكراً لعملية التغلغل والتنافس الغربيين في إحدى أكثر مناطق العالم أهمية استراتيجية ـ امتداداً هادئاً لـ(المسألة الشرقية) على أرض معركة الماضي.

ولفهم مدى وعمق العواطف المكرسة للصراع الآثاري في القرن التاسع عشر على فلسطين، من الضروري فهم جذور هذه العواطف في تاريخ العالم المسيحي وتراثه. فمنذ القرون الأولى للمسيحية وحتى صعود الإمبراطوريات الأوروبية العظمى، كان ثمة نوع من الانبهار بالأرض المقدسة ـ مع الرغبة الملحة المستمرة في استكشافها ـ لم يغب قط عن المحور الأساس للفكر الديني الأوروبي.

وفي وقت مبكر يعود إلى القرن الثاني الميلادي بدأ الحجاج المسيحيون الأوائل القادمون من مختلف أجزاء الإمبراطورية الرومانية يصلون إلى فلسطين ليعاودوا تعقب خطوات يسوع وحوارييه. وفي أثناء طوافهم في أرجاء البلاد بمجموعات صغيرة كان هؤلاء يتوقفون للصلاة والتأمل في الأماكن التي كان السكان المحليون يرشدونهم إليها على أنها مواقع نشاط يسوع وآلامه. ولكن الحج المسيحي بدأ، مع حلول القرن الثاني، يأخذ، بالضرورة، طابع التنقيب الآثري لأن المشهد كان قد بات شديد الاختلاف عما كان في العهود الكتابية.

في عام (70 م) أفضت حركة تمرد قومية للأهالي اليهود إلى قيام حاميات فسباسيان وطيطس الدكتاتورية الظالمة بعملية قمع وحشية. فالعديد من قرى يهوذا والجليل التي كانت مأهولة بصورة شبه مستمرة منذ عهد ملوك العبرانيين، جرى تحويلها إلى خرائب. كما تعرض الهيكل

في القدس للتدمير، فضلاً عن إحراق المدينة من حوله. وعملية إخماد حركة تمرد يهوذية أخرى في عام (135 م) أكملت خراب البلاد التي باتت بعد ذلك تعرف لدى الرومان باسم [فلسطين][4] وهو الشكل اللاتيني لـ(فيليستيا)[5] الإغريقي الذي يعني (أرض الفلسطينيين). وبإرادات إمبراطورية لم يعد مسموحاً لليهود بزيارة القدس التي أعيدت تسميتها: آيليا كابيتولينا،[6] كما تمت إعادة بنائها بوصفها إحدى الحاميات الرومانية.

وبعض أوائل المسيحيين اعتبروا نفي اليهود والإجهاز على استقلالهم الوطني عقاباً سماوياً لرفضهم قبول إنجيل المسيح. ومع ذلك فإن تقلبات التاريخ تركت بصماتها على التراث المسيحي لفلسطين هو الآخر. فالعديد من نقاط علام البلاد الرئيسية تعرضت للتدمير أو التغيير الجذري جراء عمليات إعادة البناء الرومانية. ونظراً لأن التأكد من الموقع الدقيق للعديد من أقدس مواقع حياة يسوع كان بالغ الصعوبة، فإن أقدم الروايات المسيحية عن تلك المواقع كانت في الغالب مستندة إلى الخيال والتخمين الغارق في بحور النسيان.

وطوال بقاء المسيحية ديانة غير معترف بها في الإمبراطورية الرومانية، ظلت الرغبة في تحديد مواقع العهد الجديد من فلسطين هاجس جماعة صغيرة نسبياً. أما في القرن الميلادي الرابع، حين أعلن الإمبراطورية قسطنطين رسمياً أن المسيحية هي دين الدولة الرومانية، فإن الأرض التي عاش ووعظ فيها يسوع اكتسبت فجأة قدراً كبيراً من الأهمية لدى الجزء الأكبر من العالم الغربي.

فبعيد انقضاء ما لا يزيد عن سنة على المجمع المسكوني الأول في إزنيق[7] [بتركيا] عام (325 م) جمعت الإمبراطورة هيلينا والدة قسطنطين، حاشية مهيبة تمهيداً للقيام برحلة ملكية إلى الشرق عبر مسقط رأس مُخَلّصَها المعترف به حديثاً. وخلافاً لحال الحجاج المسيحيين السابقين الذين سلموا بالروايات المحلية المتضاربة أحياناً، أرادت هيلينا ليس فقط أن تتعقب بتواضع خطوات يسوع الأسطورية، بل وأن تحدد بحسم مواقعها الفعلية تمهيداً لتكريسها أماكناً مقدسة إلى الأبد.

وبرفقة حاشية كبيرة من المطارنة والرهبان، طافت الإمبراطورة الأرملة المهيبة في أرياف البلاد القاحلة، باحثة عن الأماكن الحقيقية للمذود الذي ولد فيه المسيح بكنيسة المهد، لتل كالفاري (حيث صُلب المسيح) وكنيسة القيامة، أي اللحد المنحوت في الصخر الذي وُضع فيه جثمان يسوع قبل البعث. وبعثة الإمبراطورة اعتُبرت ناجحة تماماً. فبمساعدة الإلهام السماوي والتنقيب الواسع استطاعت أن تحدد تلك المواقع بما يرضي جميع المهتمين. وحين وصلت الإمبراطورَ قسطنطين أنباءُ اكتشافاتها أصدر أمراً قضى بإقامة (باسيليقات) مهيبة إحياء لذكراها. واسم (أورشليم) تمت استعادته ثانية، فعادت المدينة مركز التقديس الديني، ولو لم يكن بالنسبة إلى اليهود الذين كانوا ما زالوا ممنوعين من زيارتها. وخلال قرون الحكم البيزنطي التي أعقبت ذلك، فإن أعداداً لا تّحصى من الأماكن المقدسة انتصبت في سائر أرجاء البلاد طولاً وعرضاً، مشيرة ليس فقط إلى مواقع العهد الجديد، بل ومواقع العهد القديم أيضاً.

إن أعداداً متزايدة من الحجاج القادمين من كل زوايا العالم المسيحي وفدت إلى فلسطين، حيث قاموا بمسيرات على امتداد طرق الحج المحددة رسمياً، وصلّوا، وقدموا تبرعاتهم للأديرة والرهبنات التي انتصبت بجانب المواقع المقدسة. أما الإقليمان اليهوذيان السابقان: يهوذا والجليل فقد جرى قلبهما رأساً على عقب، إذ أصبحا، بنظر المسيحيين، أرضاً زاخرة بالبهاء (الميتافيزيقي) والقداسة. وفيما ظل اليهود الذين باتوا الآن مبعثرين في الشتات يعقدون الآمال على العودة اللاحقة إلى "أرض إسرءيل" فإن العالم المسيحي دأب على توظيف موارده الكبيرة وتصميمه الأكيد من أجل الحفاظ على ذلك البلد نفسه برهاناً مادياً على تقواه وورعه.

وعلى الرغم من انهيار الحكم البيزنطي في فلسطين وتعرض البلد للاجتياح العسكري من قبل القوات الإسلامية في عام (638 م) فإن الحجاج المسيحيين استمروا في الإقبال على مواجهة مخاطر السفر لزيارة المزارات المقدسة. ودام ذلك خلال العصور الوسطى. وتنامي الولع بالآثار في أوروبا كان قد أحدث قدراً أكبر من الانبهار بالبقايا المادية من المخلفات

المسيحية القديمة، وما لبث أهالي فلسطين أن تعرفوا على إمكانيات الاتجار بأجزاء من (الصليب الحقيقي) وبقوارير حليب مريم، بل وبخصلات من شعر يسوع. والولع بالآثار بلغ حداً من الشعبية في أوروبا مكّن العديد من الكنائس هناك من أن تعيش على تقديس السكان المحليين للصناعات اليدوية الثمينة المجلوبة من قبل المواطنين الذين حجوا إلى القدس. والأرض المقدسة نفسها كانت قد أصبحت أثراً، ورمزاً لهذا الارتباط الخاص، فقام شارلمان بعقد معاهدة في القرن الثامن الميلادي مع الخليفة العباسي هارون الرشيد لضمان (الحماية) المسيحية للمزارات القديمة في فلسطين.

غير أن المسلمين كانوا، في هذه الأثناء، قد طوروا روابطهم الدينية الخاصة بالقدس، حيث أنجز محمد، كما جاء في القرآن، صعوده إلى السماء من على الصخرة المقدسة التي كانت ذات يوم تشكل قاعدة قدس الأقداس في المعبد اليهودي. ففي عام (691 م) قام الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان ببناء قبة الصخرة في المكان ورسخ تقليداً للحج الإسلامي لذلك المزار وللمسجد الأقصى القريب. أما الأرضية التذكارية للمعبد اليهودي فقد أصبحت تُعرف باسم الحرم الشريف المنتصب تحدياً دينياً مباشراً ليس للتقاليد اليهودية فحسب، بل ولأولوية كنيسة القيامة أيضاً.

وطوال بقاء الحج المسيحي مسموحاً به، لم تفعل القوى الغربية شيئاً لمعارضة خضوع الأرض المقدسة للحكم الإسلامي. غير أن التدمير الطائش لكنيسة القيامة في عام (1009 م) من قبل الخليفة الفاطمي الحاكم (بأمر الله) أدى إلى قلب الأمور رأساً على عقب. فمنذ ذلك التاريخ وصاعداً أصبحت قضية استرجاع المزارات القديمة في فلسطين هاجساً ملحاً في سائر المخططات السياسية والعسكرية لبابوات أوروبا العصر الوسيط وأمرائها، والدافع الكامن وراء العديد من الحروب والحملات الصليبية التي تمخضت عن أنهار من الدماء. وعلى الرغم من أن ثمان من الحملات العسكرية الكبرى للأمراء والفلاحين أخفقت، آخر المطاف، في انتزاع القدس من أيدي "الكفار" إلا لفترات وجيزة، فإن ملحمة الصليبيين نفسها التي تكررت روايتها جيلاً بعد جيل، أضفت مسحة إضافية من الأسطورة

والتقديس على التصور المسيحي للأرض المقدسة. فالمعارك البطولية لكل من غودفري البويوني[8] وريتشارد قلب الأسد ما لبثت أن غدت ملاحم وطنية في كل من فرنسا وإنجلترا، والفكرة الأساسية للحملات الصليبية ـ ضرورة بقاء مزارات الأرض المقدسة القديمة في حيازة المسيحيين وحمايتهم ـ باتت حلماً دينياً لابد له من أن يتحقق، يوماً.

إن سقوط المملكة الصليبية في (1291 م) شكل نهاية العصر العظيم للحج المسيحي، وما لبثت الأديرة والرهبنات التي كانت ما تزال تزركش الريف أن تحولت، شيئاً فشيئاً، إلى جزر صغيرة في بحر من العداء. صحيح أن جماعات مسيحية محلية ذات شأن بقيت حيث هي، ولكن أعضاءها، مثلهم مثل اليهود الباقين في البلاد، كانوا مطالبين من قبل الحكام المسلمين بدفع ضرائب خاصة وبارتداء ألبسة مميزة. وصحيح أن أصحاب سفن بندقانيين ظلوا ينقلون جماعات من الحجاج إلى الأرض المقدسة في أعياد الفصح المسيحي، غير أن السفر براً داخل البلاد أصبح محفوفاً بقدر متزايد من الأخطار إذ كثيراً ما كان الغربيون يتعرضون لمختلف أشكال الإزعاج والسطو، بل وحتى القتل أحياناً. ومع بداية القرن السادس عشر تمخض صعود نجم الأتراك العثمانيين في الشرق الأوسط عن وقف الحج المسيحي بصورة شبه كاملة.

وبعد احتلاله القدس عام (1516 م) قام السلطان سليم الأول بتقسيم فلسطين إلى عدد من المناطق الإدارية وأخضعها لابتزازات جامعي الضرائب المتعسفين الذين كانوا يتولون مهام الولاة المحليين حاملين ألقاب الباشوات. ومع تزايد وهن الروابط المادية بين الأرض المقدسة والعالم المسيحي، أصبحت المطالبات الغربية بالمزارات القديمة في البلاد موضوع صراع مرير فيما بين الإمبراطوريات الصاعدة في العالم الغربي. ففي عام (1535 م) كان ملك فرنسا فرنسيس الأول أول عاهل مسيحي يعقد معاهدة صداقة مع السلطان العثماني مما وفّر لبلده حق "حماية" الأماكن المقدسة. ولكن إمبراطور روسيا لم يتأخر في الاعتراض على ذلك الحق بدعوى تمثيله للأكثرية الأرثوذكسية من مسيحيي فلسطين

المحليين. وفضلاً عن مزاعم الكاثوليك والأرثوذكس، برزت على السطح ادعاءات العديد من الطوائف الصغيرة كالأرمن، والأقباط، والسريان، والأحباش؛ وجميعها كانت تطالب بنوع من الوجود الرمزي، على الأقل، بين أقدس الكنائس الفلسطينية.

ومع مرور الوقت تم إجبار حكام فلسطين العثمانيين على اجتراح أنظمة تقسيم معقدة داخل كنائس الأرض المقدسة للحيلولة دون الصدام بين القوى المسيحية المتنافسة، مع حقوق حيازة ومرور شديدة التعقيد فيما بينها. وفي كثير من الأحيان، صارت هذه الحقوق موضوع نزاع حاد لدى تفجر الخصومات الكامنة بين الطوائف المسيحية المختلفة وانقلابها إلى اضطرابات شاملة. وحتى مع وصول موجة الحج الجماعي إلى ما يشبه التوقف، فإن حيازة البقايا المادية من الآثار الكتابية القديمة أصبحت قضية هيبة قومية وشرف طائفي.

لعل أحد الأسباب الكامنة وراء تراجع الحج المسيحي كان متمثلاً بالاصلاح الديني الكبير الذي اكتسح أوروبا الشمالية في القرن السادس عشر. فالأمم البروتستانتية، الملتهبة حماساً للعقيدة الجديدة، أعلنت أن الحج ليس في الحقيقة إلا واحداً من الطقوس الفارغة. وبما أن الحج سيكون بعد الآن، بالنسبة إلى أتباع المذهب البروتستانتي، أمراً يعود للروح لا للجسد، فما من دولة بروتستانتية رأت ما يدعوها إلى المطالبة بحصة من المزارات التقليدية في فلسطين. ولكن التصور البروتستانتي للأرض المقدسة ما لبث، رغم هذا الفصل الطوعي، أو ربما بسببه، أن تعرض لانقلاب جذري عميق وبعيد المدى.

بتشجيع توزيع الإنجيل على نطاق واسع من قبل الثورة (البيوريتانية) في إنجلترا في القرن السابع عشر، ازدهرت أسماء (أورشليم) و(صهيون) و(كنعان) و(نهر الأردن) بل وحتى (الأرض الموعودة) وأثمرت تراتيل وصلوات وقصائد، وجلّ أشكال التعبير الديني. فثمة مواعظ حماسية ملتهبة تناولت موضوع تدمير مدينتي سدوم وعمورة الملعونتين، وقصائد غنائية نشوى تغنت ببهاء (أرض كنعان الجميلة) وروايات مثل [موكب الحج](9)

قلبت التلميحات الكتابية إلى أشياء مألوفة. لقد خطا العالم البروتستانتي خطوة منطقية؛ قام بقلب الأرض الكتابية إلى صورة مجازية.

وهكذا فإن الروايات المسيحية المختلفة عن الأرض المقدسة نمت وتعمقت مع مرور القرون. وسواء عن طريق الامتلاك المادي للمواقع المقدسة أم عبر التأويل اللاهوتي والتوظيف الشعري، فإن خيالات العالم المسيحي كله وآماله الروحية أصبحت وثيقة الارتباط بذلك القطاع الصغير من الأرض، الواقع على الشاطىء الجنوبي ـ الشرقي للبحر الأبيض المتوسط. وطوال بقاء المصالح الاستراتيجية والتجارية للقوى الغربية متركزة على مكان آخر من العالم، فإن مطالبات هذه القوى المتضاربة بالأرض المقدسة كانت ذات طابع ديني صارم. أما الآن فإن فجر حقبة جديدة بدأ ينبلج.

وما هذا الكتاب إلا القصة الحديثة لإعادة اكتشاف فلسطين من قبل دول الغرب، لارتباطها الوثيق وغير القابل للفصل مع السياسة والدين والعلم والتوسع الإمبراطوري منذ فجر القرن التاسع عشر وحتى الحرب العالمية الأولى. فدول العالم الغربي المختلفة، تحت ضغوط حوافز الحماس الديني والهيبة القومية والمكائد الدبلوماسية، اندفعت باتجاه الصراع في سبيل تحقيق التفوق السياسي في فلسطين عبر وسيلة بعيدة الاحتمال هي علوم الآثار الكتابية. وحتى عام (1917 م) والاحتلال البريطاني للقدس لم يتوقف الصراع الذي ما زالت آثاره الباقية محسوسة في الشرق الأوسط اليوم.

2) ضجة وقعقعة سلاح في الشرق:

نابليون والصراع الأوروبي على الشرق (1798-1799 م)

مع حلول نهاية القرن الثامن عشر كانت قوى التغيير في الشرق الأوسط قد شبت عن الطوق. فالسلطان سليم الثالث كان يحكم من قصوره الفاخرة، وبين حريمه، في استانبول، إمبراطورية عجوزاً متداعية.

قبل حوالي خمسمئة سنة كان مؤسس عائلة سليم المالكة، وهو زعيم قبيلة تركية اسمه عثمان، قد أقام إمارة صغيرة على الأطراف الشرقية لبيزنطة في آسيا الصغرى. ومع حلول القرن السادس عشر كان خلفاء عثمان قد وسعوا سيطرتهم حتى شملت الشرق الأوسط كله، وشمال إفريقية، وأوروبا الشرقية. والإمبراطورية العثمانية العملاقة، الممتدة من المغرب [؟] إلى الخليج الفارسي؛ والمتحكمة بالطرق التجارية، والمواد الخام، والموارد الضريبية لثلاث قارات، كانت عاملاً قوياً من عوامل التوسع الإسلامي خلال ما يزيد عن قرنين من الزمن. غير أن الموجة كانت، مع حلول نهاية القرن السابع عشر، قد بدأت تغير اتجاهها. فبعد هزيمتها على أبواب فيينا عام (1683 م) وتجرعها سلسلة من كؤوس الهزيمة الكارثية على أيدي الروس في القرن التالي، توقفت الإمبراطورية العثمانية عن التوسع. وفي غياب ضم الأراضي والموارد الضريبية الجديدة، بدأت الإمبراطورية تتدهور وبدا أمرُ موتها، لدى صعود السلطان سليم الثالث إلى العرش عام (1789 م) مسألة وقت لا أكثر.

ولكن تفكك الإمبراطورية ما كان مقدراً له أن يتم في فراغ؛ فقد هددت عملية التفكك هذه بإثارة تزاحم خطير على الأرض فيما بين إمبراطوريات العالم الغربي الصاعدة. فآل رومانوف الروسية، وقد شُحذت شهيتهم جراء انتصارات كاترين العظيمة، في القرم، في سبعينيات القرن الثامن عشر، كانت تواقة للتوسع أكثر فيما وراء حدودها الجنوبية، وصولاً إلى القسطنطينية وفرض السيطرة على مضيق الدردنيل. أما آل هَبْسبورغ في النمسا، فقد كانوا ينظرون بعين الشّره إلى أقاليم السلطان البلقانية الخصبة، في حين كان التجار المزدهرون في كل من بريطانيا وفرنسا طامعين بشرق البحر الأبيض المتوسط كله بوصفه سوقاً محتملة لتجارتهم المتنامية فيما وراء البحار.

وبريطانيا، بشكل خاص، أبدت اهتماماً كبيراً بالمصير النهائي للإمبراطورية العثمانية، لأن الاقتصاد البريطاني كان قد أصبح، مع فقدان المستعمرات الأمريكية، متزايد الاعتماد على التجارة مع الهند والشرق. فأقصر الطرق البرية والبحرية الموصلة إلى تلك الأسواق كانت تمر عبر الأراضي التابعة للسلطان. وإحدى هذه الطرق، طريق القوافل البرية العابرة لمضيق السويس، كانت قد باتت تُعْتَبَر حيوية في تأمين الاتصالات العاجلة والملحة بين لندن ومراكزها الهندية المتقدمة. وطوال بقاء قناة السويس مفتوحة، دونما عوائق، كان الارتباط البريطاني المباشر مع الهند مضموناً. أما إذا حصلت أية عملية قطع فقد كان من شأن ذلك أن يؤدي، دون شك، إلى إنزال ضربة موجعة بجملة المصالح التجارية والاستراتيجية البريطانية.

كان البريطانيون راضين، مؤقتاً علي الأقل، وسمحوا للسلطان بالبقاء على عرشه المهزوز. فالسويس كان آمناً، فضلاً عن أن تهديداً أشد إلحاحاً في الداخل كان يشغل تفكيرهم فيما يخص المستقبل المباشر.

في عام (1797 م) عبر الجنرال نابليون بونابرت، على رأس جيوش فرنسا الثورية، جبال الألب إلى إيطاليا وألحق هزيمة مؤكدة بقوات إمبراطورية آل هبسبورغ التي كانت قد احتشدت لمواجهته. وبموجب بنود معاهدة كامبو فورميو،[1] الموقعة مع النمسا في تشرين الأول، كانت الجمهورية

الفرنسية قد حققت لنفسها مكاسب إقليمية بالغة الأهمية في كل من أوروبا والمتوسط. وقد كان ممكناً توقع المزيد من العدوان من جانب جيوش نابليون دونما تأخير؛ فالجنرال الشاب بدا مقتنعاً باستحالة قهره.

كانت بريطانيا العظمى، الخصم الوحيد المتبقي لفرنسا، الهدف الجلي لمغامرة نابليون التالية. فطوال شتاء عام (1797 ـ 1798 م) ظل الشعب البريطاني مستنفراً للتصدي لغزو فرنسي متوقع. فالملك جورج الثالث ووزراؤه أطالوا تمحيص العديد من التقارير التي تحدثت عن حشود فرنسية هائلة في ميناء طولون، والمهندسون الملكيون سارعوا إلى إقامة التحصينات الساحلية، وتجمعت وحدات الميليشيا المحلية تجمعت في القرى والبلدان في سائر أرجاء البلاد، وأمير البحر هوارتسيو نلسَن تم إرساله إلى البحر الأبيض المتوسط على رأس قوة بحرية لمراقبة تحركات الأسطول الفرنسي عن كثب.

وبالإفادة من الرعب الصاعق الذي أحدثه، اهتدى نابليون إلى طريقة مكّنته من إنزال ضربة بخصمه الرئيسي دون أن ينطوي ذلك على عبور ولو مقاتل واحد القناة الإنجليزية. فبعد التسلل خلسة والخروج من طولون مع أسطول الغزو الهائل الذي كان متوقعاً أن يتركز على دوفر، حوّل اتجاهه، بصورة غير متوقعة، نحو الشرق. وكان هدف خطته السرية، التي رسمها تاليران[2] ونالت موافقة مجلس فرنسا الثوري، متمثلاً بتعطيل تجارة بريطانيا الحيوية فيما وراء البحار عن طريق إقامة مستعمرة فرنسية واسعة في الشرق الأوسط.

كان إقليم مصر العثماني هدف نابليون حيث بدا له، وكان على صواب، أن أكثر حلقات سلسلة حكم السلطان هشاشة كانت هناك. فلعقود من الزمن كان هذا الأقليم الغني، أشبه بالرهينة بين أيدي باشوات المماليك المحليين الذين كانت خصوماتهم وصراعاتهم المستمرة على النفوذ قد أبقت كلاً من الموارد الضريبية الغنية للإقليم والتحكم بطريق قوافل السويس الاستراتيجية خارج السيطرة الفعلية للإدارة العثمانية إلى حد يثير الشفقة. ولطالما كان السلطان قد اقتنع بحالة الفوضى الدائمة في مصر، منتزعاً التزامات غير جادة بالولاء من الباشوات المتصارعين،

وراضياً بالحفاظ على وهم السيادة العثمانية، على الأقل.

ولكن ذلك الوهم ما لبث أن تلاشى إلى الأبد خلال أسبوع واحد بعد نزول الفرنسيين على شواطىء الإسكندرية. فتكتيكات نابليون الحديثة ومدفعيته الثقيلة سرعان ما سحقت، بسهولة، وحدات الفرسان المملوكية العتيقة التي لم يكن السلطان نفسه قادراً على قمعها إلا بصورة متقطعة وموقتة. وللمرة الأولى منذ سقوط المملكة الصليبية عام (1291 م) كان جيش أوروبي يخترق دفاعات الشرق الأوسط بقوة سلاحه، وبات قادراً على متابعة عمليّة الغزو والاجتياح في غياب شبه كامل لأية مقاومة.

وما إن وقعت عينه، للمرة الأولى، على النيل حتى انطلق نابليون مبحراً إلى القاهرة حيث قامت قواته بتحطيم المقاومة المملوكية المنظمة الأخيرة في معركة الأهرامات. ومع دخوله الظافر إلى القاهرة استقر فوراً في قصر عائد لأحد المماليك المهزومين وراح يضع موضع التطبيق مخططاته العظمى الخاصة باحتلال مصر. لقد كان نابليون يحلم بمستعمرة فرنسية مزدهرة على امتداد النيل، بما يفضي إلى بعث الأبّهة القديمة لمصر الفرعونية من جديد. فقد اعتقد بأن قوى المدنيّة الحديثة قادرة على قلب قرون من فساد الحكم والاستنقاع الاقتصادي رأساً على عقب. وهكذا فإن نابليون كان قد جلب معه، جنباً إلى جنب مع معدات الحصار والمدفعية الثقيلة التي حملتها السفن في طولون، هيئة علمية وفنية مؤلفة من أبرز العلماء والمهندسين وعلماء الطبيعة والمستشرقين وعلماء الآثار الفرنسية. ومهمة هؤلاء كانت متمثلة بمسح كل جانب من جوانب مصر المعاصرة واقتراح أفضل أساليب استعادته. وكإسكندر جديد، إذ كان نابليون يتخيل نفسه متعقباً خطوته، حاول نشر نور مدنيته الخاصة في أعقاب غزواته الظافرة.

ادعى نابليون في مذكراته أنه ناشد جنوده المشتبكين مع العدو المملوكي على مرأى من الأهرامات قائلاً: «أربعون قرناً تنظر إليكم من الأعلى». صحيح أن الدقة التاريخية لتلك اللحظة كانت موضع نقاش، ولكن الأمر لم يكن بعيداً عن طبيعة نابليون الذي لم يكن فك الارتباط بين صوَره عن الأمجاد الغابرة والفتوحات المستقبلية أمراً سهلاً على الدوام. فإغواء الماضي وعلم الآثار الحديث أبهراه، وكان تواقاً لجني

المحصول الوفير من الآثار القديمة التي باتت الآن في متناول يده.

وفي حملته عبر إيطاليا عام (1797 م) كان نابليون قد أرسل أعداداً كبيرة من حاويات اللوحات والأعمال الفنية المصادرة إلى المتحف الذي كان يتأسس في قصر اللوفر. ولم تكن لوحة الموناليزا إلا واحدة من هذه الغنائم المتألقة. وقد بات نابليون، الآن، متأكداً من أن كنوزاً أعظم بكثير يمكن العثور عليها. وللمرة الأولى في التاريخ، كانت القوة العسكرية لدولة أوروبية قد مهدت الطريق أمام أبحاث المنقبين عن الآثار القديمة. فالفنان فيفان دنُون[3] رافق الجنرال دُسيه[4] إلى قلب مصر العليا واضعاً مخططاً دقيقاً لَمعبدي الكرنك والأقصر الأثريين للمرة الأولى؛ أما في مصر السفلى فما لبث علماء آخرين تابعين للهيئة العلمية والفنية أن كشفوا النقاب عن سلسلة من المعابد والقصور القديمة، ووضعوا خرائط تضريسية وجمعوا كميات هائلة من الآثار القديمة، بما فيها (حجر رشيد) الذي سيلعب، بعد عشرين سنة، دوراً أساسياً في فك رموز الكتابة الهيروغليفية المصرية. وهكذا فإن العلم الحديث المعروف باسم (العلوم المصرية) كان قد ولد، ومعه نشأ قدر كبير من الاهتمام الجديد بالدراسة العلمية للآثار القديمة. ومثل هذا الاهتمام كان سيستمر في إعطاء الثمار المتمثلة بالنشاط الأثري ذي النطاق الواسع بعد رحيل نابليون عن الشرق الأوسط بزمن طويل.

أما بالنسبة إلى بريطانيا، فلم يكن غزو نابليون المتمدن لمصر مجرد جري وراء الكنوز الأثرية. فأي حضور فرنسي دائم على امتداد النيل كان، بحد ذاته، أمراً لا يطاق، كما أن إمكانية أن يفضي ذلك إلى هجوم لاحق على المستعمرات البريطانية في الهند، كانت مسألة يتعذر التغافل عنها. وهكذا لم تَرَ حكومة اللورد بت أي بديل عن عقد تحالف رسمي مع السلطان العثماني، رغم قرونَ عدمِ الثقة والاحتقار للأتراك. أما الغرض الظاهري لذلك التحالف فقد تَمثّل بدعم الوحدة الإقليمية لإمبراطورية سليم الثالث؛ في حين تركز هدفه المباشر على إبعاد نابليون مع علمائه وجيوشه الثورية عن الشرق الأوسط.

وفي مساء الأول من آب عام (1798 م) ظهر أسطول أمير البحر نِلسَن

في عرض البحر بالقرب من شاطىء الإسكندرية. ونلسَن هذا كان يجوب في مياه البحر الأبيض المتوسط حتى قبل الغزو الفرنسي. ولم يستطع أسطول نابليون أن يفلت منه ليصل إلى البر دون مقاومة إلا بالإفادة من ليلة كثيفة الضباب. كانت ليلة (1ـ2). آب صافية، ولكن نلسَن أصدر أمراً بالهجوم المباشر بدلاً من تأجيل المعركة الحتمية. ومع حلول الفجر كانت قوة الغزو الفرنسية كلها، عدا ثلاثة مراكب، قد تعرضت إما للإغراق أو التدمير، مما أدى عملياً إلى قطع خطوط اتصال نابليون وإعادة تموينه مع فرنسا.

وحين وصلت إلى لندن أنباء انتصار نلسَن العظيم في خليج أبو قير، قدرت الحكومة أن تدمير قوة الغزو الفَرنسية لم يعد إلا مسألة وقت. وفي تلك الأثناء كان جيش عثماني كبير يجري حشده في سورية في حين كان البريطانيون دائبين على إعداد الخطط الرامية لغزو مصر الصيف التالي. وساد الاعتقاد الراسخ بأن نابليون سوف يعترف، في مواجهة هذا التهديد المزدوج، بعزلته الاستراتيجية وسيكون مستعداً للتفاوض حول ضمان معبر آمن لقواته العائدة إلى فرنسا.

ولكن ذلك لم يكن ليحدث إلا بعد أكثر من ثلاث سنوات حيث أن الحرب البريطانية في الشرق الأوسط كانت ما تزال في بدايتها.

طالما شكل ذلك الجسر البري الضيق المعروف باسم فلسطين، والمُقْحَم بين البحر والصحراء السورية الكبرى، مَعْبَراً للإمبراطوريات. فسهل فلسطين الساحلي الخصيب كان يوفر الطريق العسكرية المناسبة الوحيدة من إفريقية إلى قلب آسيا، مما جعل الفراعنة المصريين والملوك الآشوريين والبابليين والفرس، بل وحتى الإسكندر الأكبر، يعترفون بأهميتها لضمان السيطرة على المنطقة كلها. وبعد أن هب البريطانيون إلى مساعدة السلطان، رأى نابليون أنه لم يعد هناك ما يدعوه ولو إلى كيل المديح اللفظي لأسطورة الحكم العثماني. فمن شأن فلسطين أن توفر حاجزاً مناسباً لحماية جَنْبه المصري، كما أن من شأن إلحاق الهزيمة بالقوات العثمانية هناك أن يشجع حتى على نشوب حركات تمرد وعصيان

واسعة في ولايات أخرى من إمبراطورية السلطان.

وفي كانون الثاني عام (1799 م) أي بعد تدمير أسطوله في (أبو قير) بستة أشهر، أمر نابليون قوة استطلاع مؤلفة من حوالي ثلاثة عشر ألفاً من الرجال بالانطلاق من قواعدها في مصر والتقدم إلى قلب أرض الميعاد. وهدفه المباشر كان متمثلاً بتدمير جيش الباشا العثماني المحلي أحمد الجزار قبل تمكن التعزيزات المرسلة من سورية من الوصول إليه. كما أن المزيد من التوسع شمالاً وشرقاً لم يكن مُسْقَطاً من الحساب، وإن ظلت سرعة الحملة عاملاً بالغ الأهمية. فنابليون كان يعلم أن عليه أن يكون قد عاد إلى مصر مع حلول الصيف لإحباط الغزو الإنجليزي ـ العثماني المتوقع.

العقبة الأولى التي اعترضت القوات الفرنسية كانت حامية العريش السينائية الصغيرة التابعة لجيش الجزار التي أبدت مقاومة شديدة غير متوقعة لمدة عشرة أيام. الهدف الثاني للغزو الفرنسي، كانت غزة، الواقعة إلى الشمال منها، قد استسلمت دون أي قتال. ومن هناك تابعت قوات نابليون تقدمها إلى قلب الأرض المقدسة، حاذية حذو الجيوش الصليبية. ولكن الدفاع التركي الثابت، هذه المرة، بدا عاجزاً عن الصمود في وجه التكتيكات الحيوية لجيش أوروبي حديث.

وكانت ثمة أوجه اختلاف أخرى أيضاً. ففي زمن غزو نابليون لم تكن المعلومات العلمية عن الوضع الراهن في أرض الكتاب متوفرة إلا نادراً. فهذه البلاد لم يزرها إلا حفنة من التجار والمستكشفين الأوروبيين المولعين بالمغامرة خلال القرون السابقة، وتقاريرهم عن تضاريس البلد وسكانه وموارده الطبيعية كانت مجتزأة في أفضل الأحوال. وللحصول على هذه المعلومات الاستراتيجية ذات الأهمية البالغة، اصطحب نابليون جيشاً تم اختياره بشكل خاص من العلماء وصانعي الخرائط الذين تلقوا أوامر تقضي بمد مجال أبحاثهم إلى فلسطين. ومع تقدم الغزو الفرنسي المتواصل على الشاطىء، انحرف مستكشفو نابليون نحو المناطق الجبلية الداخلية من البلاد منشغلين بتجميع الآثار، ووضع مخططات نقاط العلام المميزة ورسم الخريطة التضريسية الحديثة الأولى لهذا البلد.

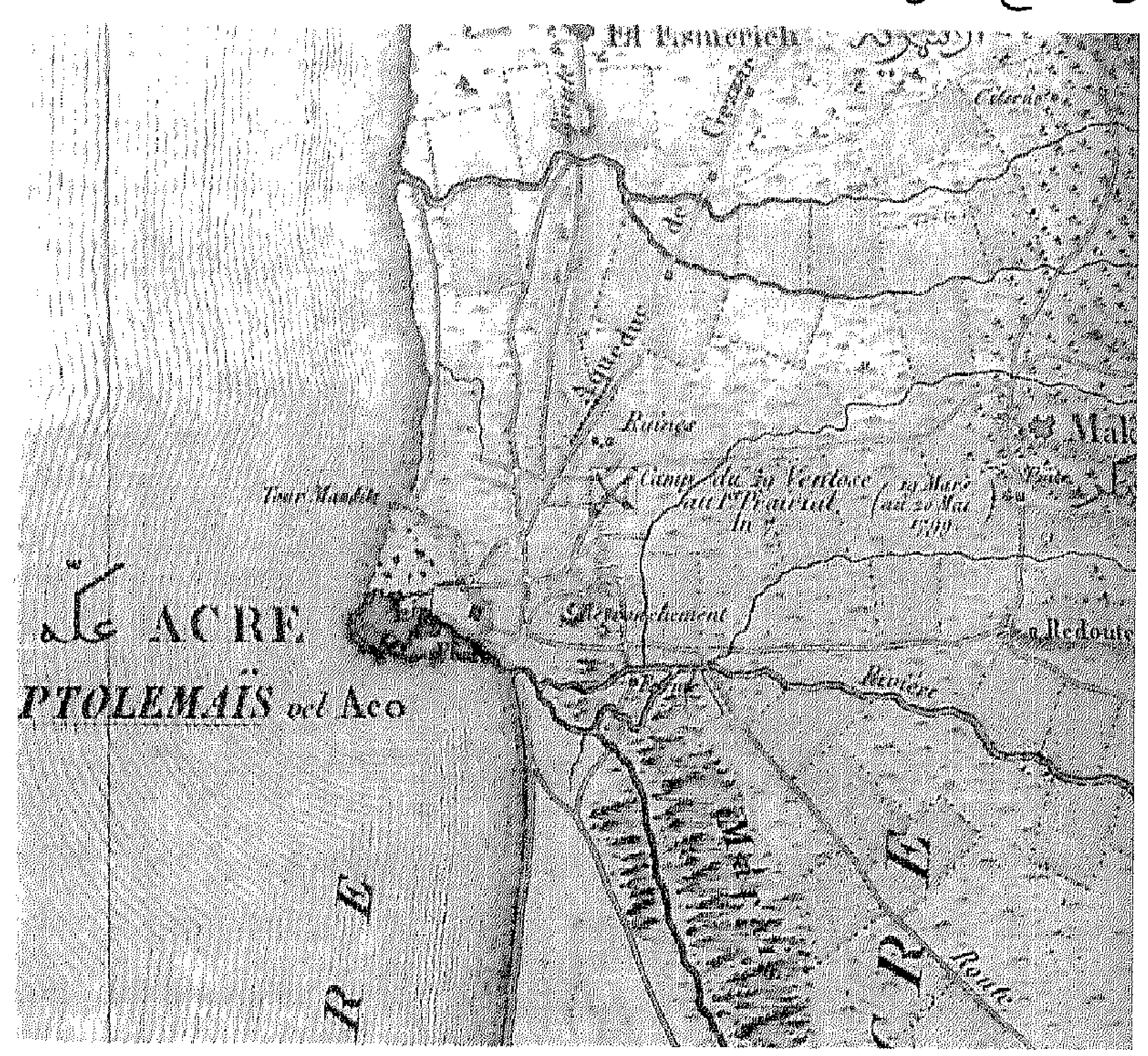
وكحاله في مصر، فقد كان نابليون مدركاً لمدى تأثير أفكار البعث

القومي (الرومنطيقية) التي كان مثل هذا الاستكشاف يرمز إليها. فمن الموقع الحصين لمقر قيادته العامة في الرملة أصدر سلسلة من النداءات العاطفية الموجهة إلى جميع أهالي البلاد من اليهود والمسلمين والمسيحيين والدروز، داعياً إياهم إلى خلع أمرائهم العثمانيين وترسيخ استقلالهم تحت الحماية الكريمة والخيّرة للثورة الفرنسية. ولكن نابليون لم يكن سيتأخر حتى يعلم أن وعود الحرية والأخوّة والمساواة كانت بلا معنى بالنسبة إلى جمهور يتساوى الغزاة الغرباء عنده مع الحكام المستبدين الطغاة المألوفين، على صعيد نشر آيات الرعب والذعر.

كان هناك ما يدعو العامة إلى القلق. في يافا، تلك التي كانت الميناء الملكي للملك سليمان ذات يوم، رفضت الحامية التركية الاستسلام بعناد. وحين تم آخر الأمر، تدمير تحصينات المدينة، اندفعت قوات نابليون إلى الشوارع في عملية عربدة دامت أربعاً وعشرين ساعة وهي تقوم بأعمال السلب والنهب والاغتصاب والذبح. وخلال الأيام القليلة التالية، أمر نابليون باعدام ثلاثة إلى أربعة آلاف من أسرى الحرب العُزّل. وسرعان ما تعرضت وعود الحماية الفرنسية السخية إلى النسيان. ومع تصاعد روائح الأجساد غير المدفونة في سماء يافا، وبروز الوجه الحقيقي للغزو النابليوني للأرض المقدسة، لم ير بعض الناجين من الحصار ما هو أقل من نوع من الإنتقام الإلهي في الانتشار المفاجىء للطاعون الأسود في المعسكرات الفرنسية.

غير آبه بالخزعبلات وعازماً على متابعة زَخَم الاندفاع نحو الشمال، قام نابليون بتوجيه قواته المُرْهَقَة المبتلية الآن بالطاعون نحو ميناء عكا، مكان إقامة الباشا سيء الصيت: أحمد الجزار. وعكا هذه كانت القلعة الحصينة الأخيرة للملكة الصليبية، غير أنها كانت، قبل الصليبيين بزمن طويل، قد شهدت ما لا يعد ولا يحصى من الغزوات الأخرى. وعلى الرغم من أنها كانت قد فقدت الجزء الأكبر من بهائها السابق، فإن أسوارها السميكة، والمحاطة من ثلاث جهات بصخور مثلمة عصيّة وأمواج يتعذر التنبؤ بها، شكلت تحدياً أكبر بكثير من تحصينات يافا المتداعية في وجه قوات نابليون.

وكلمة (الجزار) لم تكن إلا لقب الباشا؛ وهو لقب يُطلق بالعربية على من يحترف (الذبح). ولكن نابليون كان قد برهن في يافا على أن هناك أكثر من جزار واحد في الأرض المقدسة. ومع استقدام مجانق الدك ومعدات الحصار بحراً من مصر لتُضاف إلى سلاحي المدفعية والمشاة الحديثين في قوة الغزو، بدا نابليون مصمماً على تحويل عاصمة الجزار إلى مسلخ هائل.



مقطع من خريطة فرنسية رسمية لفلسطين رُسمت إبان الغزو

ما إن وصل نابليون إلى عكا حتى ووجه بمفاجأة غير سارة. فتشكيلة من السفن الحربية البريطانية كانت راسية على بعد بضع مئات من الياردات عن الشاطىء الصخري، وقد كان وصولها غير المتوقع قد تمخض عن اعتراض معدات حصاره الثقيلة ومصادرتها. والإنجليز كانوا قد قاتلوا

وماتوا في عكا، تحت قيادة ريتشارد قلب الأسد لدحر الكفار، أما الآن فإن مئات إضافية منهم، كانوا مستعدين ليقدموا تحت قيادة (الأدميرال) البحري سيدني سمِث، أرواحهم دفاعاً عنهم. ومن المؤكد أن اهتمام البريطانيين



نابليون يقود قواته في معركة عكّا (1799 م)

بالسياسة الداخلية للإمبراطورية العثمانية، ناهيك عن سلامة أحمد الجزار، لم يكن كبيراً، ولكنهم كانوا مصممين على جعل معركة عكا مقاومة نابليون الأخيرة في فلسطين.

وأدرك نابليون أنه بسبب افتقاره إلى مجانق الدك من جهة ومدفعية الحصار من جهة ثانية، لن يستطيع أن يحتل المدينة إلا مقابل أعداد كبيرة من القتلى. ولكنه كان قد ربط مصير حملته الصليبية في الأرض المقدسة باحتلال عكا قبل أوائل الصيف، وكان الوقت يتلاشى. فعلى الرغم من استمرار الطاعون في الإجهاز على قواته، والانهمار المتواصل

للقذائف البريطانية، مع تضاؤل إمكانية التعزيز أو إعادة التموين، فإنه أمر بشن سلسلة من هجمات الموجات البشرية المتكررة على تحصينات المدينة خلال الشهرين التاليين. ونجحت قواته أكثر من مرة في اختراق الأسوار، ولكنها أخفقت في تحطيم الدفاع الأنغلو ـ عثماني المشترك.

في العشرين من أيار عام (1799 م) بعد خمسة أشهر من قدومه الظافر إلى الأرض المقدسة، أمر نابليون البقية الباقية المثيرة للشفقة من قوة غزوه، وقد تقلصت إلى نصف حجمها الأصلي، بالتخلي عن معسكر الحصار. ثم استدعى على عجل مستكشفيه المبعثرين هنا وهناك ليبدأ تقهقره المهين إلى السلامة النسبية في مصر. وبهذا كان نابليون يتجرع كأس الهزيمة الأولى في حياته العسكرية، فضلاً عن ضياع مبادرة غزوه للشرق الأوسط. وعن عكا قال نابليون بأسف: «وفي تلك القلعة البائسة كَمَنَتْ مصائر الشرق».

على الرغم من أن أحمد الجزار وولي نعمته العثماني كانا قادرين على استعادة راحتهما بيسر مرة أخرى، فإن الجسر البري الاستراتيجي المتمثل بفلسطين لم يكن ليغيب ثانية، قط، عن اهتمام القوى العظمى في العالم الغربي. فحتى قبل إزاحة آخر الجثث عن أرض المعركة خارج عكا، سارع الجزار إلى أداء القسم متعهداً بذبح جميع المواطنين المسيحيين في البلاد، هؤلاء الذين شكّ في أنهم ساعدوا الفرنسيين سراً. صحيح أن المذابح كانت من امتيازات الجزار، ولكن هذه المذبحة الأخيرة لم تتم على الإطلاق. فـ(الأدميرال) البحري البريطاني سيدني سمث بادر، ما إن سمع بتهديدات الجزار، إلى إصدار إنذار عنيف. فالبريطانيون أيضاً كانوا مسيحيين، والمدافع التي صدت نابليون نفسها يمكن توجيهها بالسهولة ذاتها إلى الجزار. صحيح أن الفرنسيين ربما هُزموا، ولكن الغرب قد جاء ليبقى.

وفي تعبير بالغ الوضوح عن تلك الحقيقة، قام سمث لاحقاً بانزال فصيل من بحارته إلى اليابسة لتنفيذ مسيرة مهيبة ومتفاخرة إلى القدس، حيث تلقوا النداءات العُصابية الصادرة عن الطوائف الكاثوليكية والأرثوذكسية المطالبة بـ(الحماية). وهكذا كان البريطانيون، لا الفرنسيين،

أول من حمل الأعلام المسيحية إلى داخل القدس منذ أيام الصليبيين، وإن تمكن مستكشفو نابليون من التوغل في العديد من أجزاء البلاد. ومع حلول آخر القرن الذي بدأ لتوه كانت الأعلام المسيحية والبعثات الاستكشافية المسيحية على حد سواء ستغدو مشاهد مألوفة في القدس.

3) أرض الجزّار:

صدامات قاسية في أرض موعودة (1801-1818 م)

مع قيام القوات البريطانية، لاحقاً، بطرد الفرنسيين من مصر، وشروع البواخر البريطانية بالتردد المنتظم على السواحل الفلسطينية للتزود بالمؤن، تدفق على الأراضي الخاضعة لحكم باشا عكا، فجأة، سيلٌ من الزوار الفضوليين. ففيما كان سيدني سمث وحرس شرفه يقصرون استكشافهم في الداخل على القدس، فإن ضبّاطاً بريطانيين آخرين راحوا الآن، بمبادراتهم الذاتية، يجوبون أرجاء البلاد، راسمين المخططات واللوحات المائية المجسّدة للمناظر، ومؤلفين تقارير مطولة عن زيارتهم لمختلف الأماكن المقدسة. وما لبثت هذه المعلومات عن الحالة الراهنة للأرض المقدسة، جنباً إلى جنب مع القصص الوطنية البطولية عن معركة عكا، أن تمخضت بصورة مفاجأة عن إثارة اهتمام الجمهور البريطاني بأرض الكتاب، التي لم يزرها طوال القرنين الماضيين إلا حفنة من المسافرين الإنجليز، رغم طول بقائها موضوعاً للتقديس.

نشأ جزء من هذا الانبهار المتجدد من حقيقة أن الواقع الحالي للأراضي كان شديد الاختلاف عن تلك الواردة في الكتابات الوصفية الكتابية. فـ(أرض اللبن والعسل) لم تعد كما من حيث الخصب والغنى؛ والغابات الكثيفة الموصوفة في الكتاب كانت قد اختفت منذ أمد طويل، مخلفة سفوح التلال الداخلية أرضاً صخرية وقاحلة. صحيح أن مناطق مزروعة على نطاق واسع، عامرة ببيارات البرتقال وحقول القمح والقطن،

كانت ممتدة على طول الساحل، ولكن مستنقعات موبوءة بالبرداء وكثبان رملية متحركة دونما رحمة لتدفن سنوياً مزيداً من المساحات الثمينة القابلة للزراعة، كانت هي الأخرى موجودة. فالعديد من المدن والبلدات القديمة المذكورة في الكتب المقدسة بدت متلاشية دونما أثر، بل وحتى مدن القدس وبيت لحم والناصرة المقدسة لم تعد حينذاك أكثر من بلدات أسواق محلية.

صحيح أن مؤلفي التقارير البريطانية الأولى عن الأرض المقدسة كانوا من هواة المستكشفين، ولكن الحضور الحامي للأسطول البريطاني في شرق المتوسط سرعان ما شجع على البحث العلمي أيضاً. فإدوارد دانيال كلارك،[1] وهو أحد أشهر الجغرافيين والرحالة العالميين في إنجلترا، وصل إلى عكا في صيف عام (1801 م) كمسافر مدني على ظهر سفينة تموين بريطانية، وأنجز في ظرف سبعة عشر يوماً أحد أوفى وأكمل التقارير الأثرية التي كانت أُلِّفت عن فلسطين حتى ذلك التاريخ.

وكان كلارك، ابن الأعوام الاثنين والثلاثين، يجسد روح حب الاستطلاع العلمي التي ميزت العصر الذي عاش فيه. فخلال أكثر من سنتين من عمليات الاستكشاف الواسعة، لاحظ وسجل تفاصيل الحياة اليومية للابيين،[2] وعَبَرَ السهوب الروسية على ظهور الجياد برفقة جموع القوزاق، وجال، وحيداً، في أرجاء سهول آسيا الصغرى بحثاً عن مدينة طروادة القديمة. وكلارك الذي لم يكن حاجاً بقدر ما كان عالماً مشحوناً بروح الشك، جاء إلى الأرض المقدسة وعَيْنُهُ على الاكتشاف. ومع ذلك فإن الأهمية الدينية للبلاد لم تفته كلياً؛ فالهدف المعترف به لرحلته كان متمثلاً بالقيام بمعاينة شاملة لـ(جميع الأماكن التي باتت مشهورة جراء حياة يسوع المسيح وأفعاله).

وعلى رأس موكب مهيب من الجنود المسلحين الذين وفرّهم الجزار، قام كلارك، أولاً، بالطواف على مناطق الجليل، مسجلاً ملاحظات عن الحياة النباتية، منقباً عن الآثار القديمة، وجامعاً عينات جغرافية. ولكن كلارك هذا ما لبث أيضاً أن اكتشف، لخيبته الدينية (غير المميزة) أن «الروح الحقيقية للإنجيل مجهولة في الأرض المقدسة أكثر مما هي

حتى في كاليفورنيا (كذا) أو هولندا الجديدة». ولدى توقفه في قُرى الجليل، لاحظ أن المسيحيين المحليين لم يكونوا يختلفون في شيء عن جيرانهم اليهود والمسلمين، وأن المزارات القديمة التي حرص الحجاج المسيحيون، طوال قرون من الزمن، على رؤيتها، لم تكن إلا (أماكن خرافية تافهة).

تزامنت زيارة كلارك للناصرة مع انتشار مرض الطاعون، فأرعبته رؤيةُ الأهالي المسيحيين متدفقين على الدير الفرانسيسكاني هناك طلباً للعلاج السحري. ولكنه لم يعثر على أي دليل يشير إلى أن المكان الذي يُعرف باسم (مكان ميلاد مريم العذراء) كان أكثر من مغارة محشوة بالأيقونات يُشك في قدَمها. وبعد الرحيل جنوباً عبر سامريا إلى قلب يهوذا، أقدم أقاليم جنوبيّ فلسطين وفق التقسيم الإقليمي للبلاد إبان حكم الفرس والإغريق والرومان، ما لبث المظهر الخارجي لسور مدينة القدس أن لفت نظر كلارك، ولكنه سرعان ما أصيب بخيبة أمل مريرة حين اكتشف أن كنيسة القيامة الشهيرة بدت (كأية كنيسة كاثوليكية ـ رومانية عادية).

وإخفاق كلارك في الاهتداء إلى بقايا أي ضريح قديم داخل كنيسة القيامة دفعه إلى تحقيق الخطوة المتقدمة الأولى على طريق الاستكشاف العلمي للأرض المقدسة، إذ بادر، بعد أن أقسم على (عدم النظر من خلال مناظير الرهبان) إلى التخلي عن طرق الحج التقليدية داخل القدس، ليبدأ بحثاً عن "المواقع الحقيقية" لضريح المسيح، وجبل صهيون، وأضرحة الملوك العبرانيين (أضرحة الملوك). وعلى تلة، على مسافة بضع مئات من الياردات إلى الجنوب من سور المدينة، لاحظ كلارك وجود العديد من الأضرحة المنحوته في الأرض الصخرية فاستنتج، بالاستناد إلى قراءته لبعض الكتابات الإغريقية المجزوءة، أنه كان قد اهتدى إلى المكان الصحيح لجبل صهيون الوارد في الكتاب.

ومع مرور الزمن وقيام المزيد من المستكشفين العلميين بالقدوم والعمل في الأرض المقدسة، ما لبث "اكتشاف" كلارك أن تبيّن عن أنه لم يكن أقل اتصافاً بالخيال والوهم من اكتشافات الآخرين. لكن تلك الحقيقة لم تكن، بحد ذاتها، تنطوي على قدر كبير من الأهمية التي كانت

كامنة بدورها في نَظْرته. فإدوارد دانيال كلارك كان أول من قام بتوظيف المعرفة العلمانية، بدلاً من التقاليد الكنسية، في معاينة آثار فلسطين القديمة، بعد أن بات مقتنعاً بأن الأوابد الأثرية الكتابية مبعثرة في أرجاء الأرياف القاحلة المهجورة، بعيداً عن أيدي الجماعات المسيحية المحلية التي ظلت أسيرة تقاليد رهبانهم الجهلاء.

شهد العام التالي لرحلة كلارك مستكشفاً غربياً آخر في فلسطين سيكون ذا تأثير مواز في الأهمية على عملية استكشافها. إنه أُلرِخ سيْتْزِن،[3] وهو طبيب سويسري مولع بالمغامرة تعلم ذاتياً لغات الشرق الأوسط وأحاط بعاداته، وتنكر كعربي، وأصبح الأوروبي الأول، منذ أيام الصليبيين، الذي جال عبر الأقاليم شبه المجهولة إلى الشرق من بحيرة طبرية على امتداد المجرى المتعرج لنهر الأردن وعبر جبال شبه جزيرة سيناء، وكتب عنها.

وعلى الرغم من أن سيتزن زار العديد من المزارات المسيحية التقليدية في فلسطين، فإن الحافز الديني لم يلعب إلا دوراً ثانوياً في أسفاره؛ فولي نعمته وممول مشروعه كان دوق ساكسه ـ غوتا بألمانيا، الذي كان حريصاً على امتلاك بعض (الغرائب الشرقيّة) ليضيفها إلى موجودات متحفه الخاص. ومن الواضح أن بحث سيتزن عن تلك الغرائب كان ناجحاً إذ حصل، قبل إتمامه عملية استكشاف للأرض المقدسة، على الرعاية الإضافية لجامع تحف شهير آخر هو القيصر ألكسندر الأول. وبنظر كل من الدوق والقيصر، لم تكن حاويات الغرائب الأثرية والطبيعية التي شحنها سيتزن إلى أوروبا إلا غيضاً بالغ الشح من فيض الكنوز الأثرية التي يمكن للأرض المقدسة أن تضمها.

وفي أجواء الحرب المحمومة للحقبة النابليونية اكتسبت عمليات استكشاف الأراضي البعيدة شبه المجهولة أبعاداً وطنية ذات علاقة بالكبرياء القومي. وكان نابليون تحديداً من أطلق المنافسة في فلسطين. وعلى الرغم من أن الخريطة التي وضعها علماؤه لم تكن دقيقة في العديد من النواحي، فقد شكلت تقدماً مهماً بالمقارنة مع خرائط الحجاج القرون أوسطية التي رأت القدس مدينة سماوية أكثر منها أرضية، مدينة بهية وعامرة بالأبراج.

وأهوال غزو الأرض المقدسة كانت شديدة البعد عن أن تكون ذات علاقة بالسماء، فقبل أن تتوافر لمستكشفي نابليون فرصة تجميع ولو صورة أولية جداً عن البلاد بزمن طويل، تم إجبارهم على الالتحاق بركب الجحافل المهزومة المتقهقرة، بهَلَع، إلى مصر.

أما بالنسبة إلى البريطانيين، فإن فتح أبواب البلاد في السنوات التي أعقبت هزيمة نابليون، ما لبث أن وَفّرَ فرصة ممتازة للقيام ببعض عمليات الاستكشاف الرسمية الخاصة. وخلال العقود السابقة كان توق البريطانيين إلى توسيع إمبراطوريتهم وفتح الطرق التجارية والوصول إلى مصادر جديدة للمواد الخام قد حفز على تأسيس جمعيات بريطانية لاستكشاف إفريقية، وآسيا، والمحيط الهادي. وكانت الرحلات الاستكشافية المدعومة بتلك الجمعيات قد ضاعفت كثيراً من المعرفة العلمية والتجارية للعالم عن طريق وضع المخططات النباتية والحيوانية والتضارسية والجيولوجية المتقنة. وعلى الرغم من رحلتي كل من كلارك وسيتزن، فما كان يمكن لفلسطين أن تنطوي عليه من ثروات طبيعية، أو أن توافره من طرق مفضية إلى الشرق، شبه مجهول.

وفي عام (1804 م) عقدت مجموعة صغيرة من الأثرياء الإنجليز اجتماعاً في لندن لتشكيل منظمة خاصة تعنى باستكشاف الأرض المقدسة. وعلى غرار ما فعلته جمعيتهم فيما يخص الرابطة الإفريقية الناجحة جداً، والتي رعت عدداً من البعثات الاستكشافية الموجهة إلى (القارة السوداء) فإن الأعضاء المؤسسين لـ[رابطة فلسطين][5] وعدوا بالمبادرة، فوراً، إلى نشر (المعلومات التي تستطيع اللجنة توفيرها حول أوضاع البلاد: جغرافيتها، وشعبها، ومناخها، وتاريخها).

ولكن عام (1804 م) كان أيضاً، لسوء طالع مخططات الرابطة، عام وفاة أحمد الجزار، بما أفضى إلى غرق المناطق التي كانت خاضعة لحكمه بسرعة في بحرٍ من الفوضى. وما لبثت المعارك المستمرة بين المرشحين لخلافته أن جعلت الاستكشاف العلمي للبلاد من قبل أناس غربيين مشروعاً بالغ الخطورة. فالمستكشفان الأولان من [رابطة فلسطين] توقفا في مالطا؛ حين علما بأنباء الاضطرابات الجارية في الأرض المقدسة

وسارعا، معتبرين أمنهما الشخصي أغلى من الأهداف العلمية لمستخدميهما، إلى العودة إلى لندن حيث استقالا من وظيفتيهما.

لا شك أن هذا الحدث أزعج مؤسسي رابطة فلسطين، ولكنه لم يكن مرشحاً لأن يكون قاتلاً لأحلامهم. فبين طلاب الأستاذ إدوارد دانيال كلارك بكمبردج في خريف عام (1808 م) كان هناك متطوع شاب سويسري يعمل لصالح [الرابطة الإفريقية] يدعى جون لويس بوركهاردت،[6] كُتب له أن يصبح الشخصية الرئيسة التالية في عملية الاستكشاف الفلسطينية. وبوركهاردت هذا كان خصماً لدوداً لنابليون الذي كانت قواته قد أسرت أباه، وآمن بأن أفضل وأقصر طريق لتحقيق هزيمة نابليون هي طريق توسيع الإمبراطورية البريطانية. ذلك هو الهدف الذي كان وراء مجيء بوركهاردت إلى إنجلترا، وقبوله بوظيفة السفر إلى الشرق الأوسط واكتشاف طريق جديدة إلى إفريقية من جهة الشمال، عبر التسلل خلسة إلى قافلة حجاج مسلمين عائدة من مكة.

وبعد عام من التتلمذ على يد الدكتور كلارك وغيره من كبار المستشرقين في كمبردج، انطلق بوركهاردت إلى سورية متنكراً في زي تاجر من مسلمي



جون بوركهاردت (الشيخ إبراهيم)

الهند، متخذاً لنفسه اسم: إبراهيم بن عبد الله. ومن غير المعروف ما إذا كان واثقاً من أن تاجر هندي كان ذا شعر كشعره الأشقر، أو عينين كعينيه الزرقاوين، ولكن من المؤكد أنه عبّر عن قَدْرٍ من الفطنة إذ قرر، على الأقل، أن يختبر مدى نجاح تنكره في أسفاره عبرً سورية والأرض المقدسة قبل أن يخاطر باحتمال اكتشاف حقيقته المبكر في الجزيرة العربية.

كان الدكتور كلارك قد أثار في كمبردج اهتمام المستكشف الشاب بآثار الأرض المقدسة. وخلال إقامته التي دامت عامين في حلب ودمشق، كان بوركهاردت قد أمضى جزءاً كبيراً من وقته في استكشاف الأطلال القديمة، ناسخاً مئات النقوش القديمة، ومتابعاً مراسلاته الكثيفة مع أستاذه السابق. ومن الواضح أن بوركهاردت كان يشعر بالغيرة من الاكتشافات التي حققها سيتزن لصالح كل من الدوق الألماني والقيصر الروسي، وعبّر عن دهشته في إحدى رسائله إلى الدكتور كلارك إزاء «عدم قيام أي رحالة إنجليزي حتى الآن بالظهور في هذه البقاع منذ تحقق السلام مع تركيا؛ فاللحظة مناسبة الآن ولن تكون أفضل مما هي عليه».

وبصرف النظر عما إذا كانت اللحظة مناسبة أم لا، فإن الاهتمام البريطاني بفلسطين كان ينمو باضطراد. فالدكتور كلارك قد كان تلقى عرضاً سخياً من ناشر لندني للكتابة عن تجربة رحلاته، كما بادرت [رابطة فلسطين] بعد أن صَحَتْ من كبوتها، إلى نشر ترجمة إنجليزية لأحد تقارير سيتزن، وقد كان عنوانه: [**تقرير موجز عن البلدان المشاطئة لبحيرة طبرية، الأردن، والبحر الميت**].[7] وقد وافر الكراس الصغير للجمهور البريطاني فرصته الأولى لإلقاء نظرة على مناطق حوران، وباشان، وجلعاد، ومؤاب الكتابية، مما كاد يعوّض حقيقة أن كاتبه أجنبي.

ومع حلول ربيع عام (1812 م) كان موعد قيام جون لويس بوركهاردت بانهاء فترة تدريبه في سورية والتقدم جنوباً نحو إفريقية قد حان. وبغية إخفاء تنكره، تعين عليه أن يتجنب الطرق المطروقة أكثر في الأرض المقدسة، غير أنه اكتسب أيضاً دافعاً آخر لاختيار مساره. فقد كتب للدكتور كلارك قائلاً: «حتى بعد نشر رحلات سيتزن كان هناك أشياء كثيرة جداً ما تزال يمكن اكتشافها في فلسطين» وقرر أن يوظف سفره باتجاه الجنوب

لتعقب خطوات أُولرِخ سيتزن آملاً، بصدق، في المساهمة ببعض الاكتشافات الكبيرة التي تخصه.

انطلق بوركهاردت من دمشق وقام بجولة قصيرة على بعض المواقع التقليدية حول بحيرة طبرية، مظهراً ضيق ذرعه بالكنائس الصغيرة المزدحمة المضاءة بالشموع وأماكن إقامة الحجاج الملأى بالنزلاء. فرسالته لم تكن رسالة حج بل رسالة استكشاف؛ وبالتالي فقد تنكر ثانية وانطلق مع اثنين من الباعة المتجولين العرب كانا في طريق عودتهما إلى الشاطىء الشرقي للبحر الميت. فـ(الشيخ إبراهيم) كان مصمماً على السفر على طول وادي الأردن، والقيام، إن أمكن، بتحديد مكان مدينة القوافل القديمة المعروفة باسم البتراء، التي كان منافسه سيتزن قد أخفق في التعرف عليها.

ومع تقدم الرحلة جنوباً، ملأ بوركهاردت دفاتره بالمخططات ونقل النقوش المكتوبة على عشرات المواقع القديمة غير المكتشفة من قبل. ورغم الحذر الحصيف الذي أبداه رفيقاه من التعرض دونما سبب لهجوم البدو، فإن بوركهاردت ظل يصر على التوقف مرة بعد أخرى لدى رؤية أضعف البينات على وجود الآثار. ولتفوّق اهتمامه بما قد يكتشفه على خوفه مما قد يصادفه، نجح الرجل، آخر الأمر، في تحديد مكان بقايا البتراء في بطن واد بعيد إلى الجنوب من البحر الميت. صحيح أن الموقع لم يكن ينطوي إلا على روابط كتابية ثانوية، ولكن بهاء مقبرته [مدينة أمواته] الخالدة المنحوته في الصخر الرملي الأحمر المحلي سيؤدي إلى اجتذاب أجيال من الرحالة والسياح الغربيين في المستقبل.

ومع انتشار أخبار اكتشافات بوركهاردت، تشجع رحالة بريطانيون آخرون على المجيء إلى فلسطين ليروا ما يمكنهم أن يعثروا عليه خدمة لشرف أمتهم. والمكتشف المرموق التالي في الأرض المقدسة كان شاباً وسيماً احترف الكتابة والمغامرة في طريقه إلى الهند؛ ولكن جيمس سلْك بكنغهام[8] خلافاً لحال سيتزن وبوركهاردت قبله، لم يكن يسعى إلى كَنوز البلاد القديمة، بل إلى ثرواتها المعاصرة وآفاقها المستقبلية.

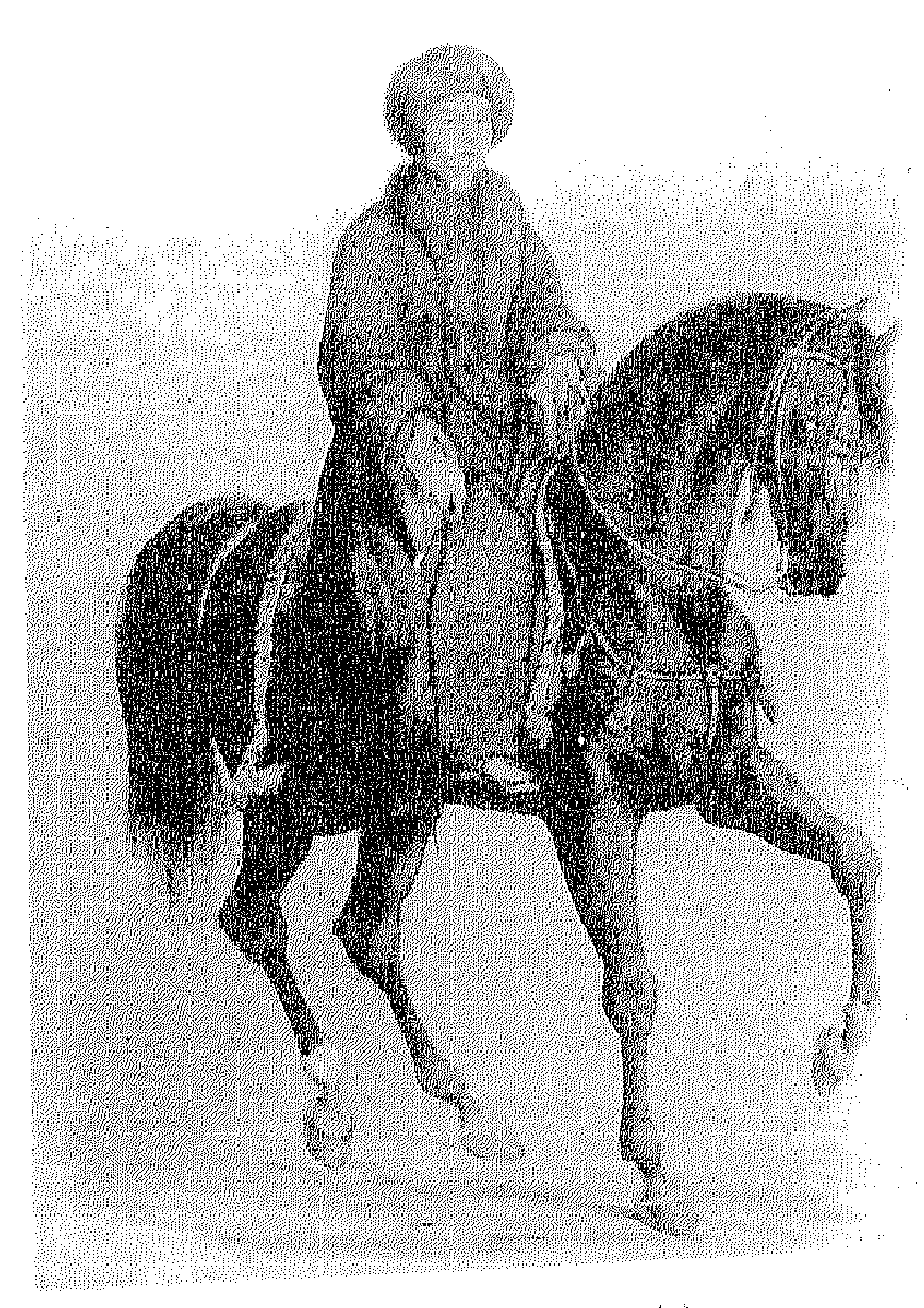


جيمس بكنغهام

وبالعودة إلى بريطانيا فقد شكلت الطرق التجارية المفضية إلى الشرق سبباً حيوياً الإمبريالي بالشرق الأوسط، وكان بكنغهام واثقاً من أن طريق بوركهاردت من بحيرة طبرية إلى خليج العقبة كانت قد كشفت، عن غير قصد، عن معبر جدي. انطلق بكنغهام حاذياً حَذْوَ سلفه ومتنكراً بزي شيخ عربي في تعقب خطوات بوركهاردت. ولكن نتائج اكتشافاته لم تكن حاسمة، لأنه عجز عن متابعة السفر جنوباً بعد البحر الميت؛ إذ كانت المنطقة غارقة في فوضى حرب دائرة بين قبائل بدوية متجاورة. ومهما يكن من أمر فإن بكنغهام كان، لدى حلول موعد استعداده لمتابعة السفر باتجاه كالكوتا، قادراً على التباهي بأنه اكتشف الأرض المقدسة بشكل أكمل من أي رحالة سابق، وأن أمله في الاهتداء إلى طريق تجارية بقي، رغم عدم تأكده، مفعماً بالحياة.

وفي إنجلترا كان اهتمام الجمهور بفلسطين يزداد حدة يوماً بعد آخر. فقد تم نشر المجلد الثالث من كتاب رحلات الدكتور كلارك بما حفز

اللورد بايرون على الكتابة للمؤلّف معبّراً عن رغبته في الذهاب شخصياً إلى هناك. وفي عام (1815 م) كانت الحروب التي مزقت أوروبا قد انتهت، لتخرج منها بريطانيا العظمى بوصفها الزعيمة المعترف بها للعالم الغربي. صحيح أن المغامرات الأسطورية لـ(الشيخ إبراهيم) وغيره من المستكشفين البريطانيين في الأرض المقدسة أثارت الكبرياء الوطنية لدى العديد من مواطنيهم، ولكنها حركت أيضاً نزعات الحَسَد والغيرة لدى إحدى أكثر شخصيات العصر سحراً؛ لدى أرستقراطية طموحة متعالية متكبرة، سرعان ما ستغدو المنقّبة الأثرية الأولى في الأرض الكتابية.



(الليدي) هسترستانهوب

كانت الليدي هستر لوسي ستانهوب[9] قد جاءت إلى الشرق الأوسط في عام (1810 م) بعد موت أخيها المفضل في الحروب النابليونية، وانهيار حياتها المستقرة في إنجلترا. وبوصفها حفيدة وليم بِتْ[10] الجَدّ

وابنة شقيقة رئيس الوزراء وليم بتّ الحفيد فقد وُلدت في قمة المجتمع البريطاني، ولكن مزاجها الحاد المتهور قد كان أكسبها عدداً كبيراً من الأعداء، الصامتين في الغالب. غير أن أولئك الأعداء ما لبثوا، بعد موت بتّ الحفيد أن تخلوا عن صمتهم المعهود، فقررت الليدي هستر التي لَم تبق لها أسرة ذات شأن، مثل العديد من الرومنطيقيين الآخرين في زمانها، أن تزيح رفاهية المجتمع اللندني، ومباهجه جانباً، لتنجذب إلى إغواء السواحل البعيدة.

كان اختيار الليدي هستر لهدف أسفارها، مثل شخصيتها، فريداً. وكامرأة أكثر شباباً، مولعة بخلق الإثارة لدى قريناتها الأرستقراطيات، كانت [هستر] قد زارت مصح الأمراض العقلية اللندني المعروف باسم بدلام،[11] بعد سماعها أن أحد النزلاء كان قد رأى حلماً حول مستقبلها. والنزيل الذي ربما كان مجنوناً، ولكنه كان مقنعاً مع ذلك، أعلن أن الليدي هستر مقدّر لها أن تعيد يهود العالم إلى وطن أجدادهم ـ وأن تصبح ملكة الصحراء وتعيد احتلال القدس. وذكرى تلك النبوءة لم تفارق [هستر] قط، وحين قررت، آخر الأمر، أن تغادر الوطن، كان محتماً عليها أن تسافر إلى الأرض المقدسة.

أقنع لقاء مصادفة لها مع جون لويس بوركهاردت في الناصرة؛ بأن مسار قدرها كامن في الاستكشاف. من المؤكد أن (الشيخ إبراهيم) لم يترك لديها أي انطباع إيجابي؛ فالليدي هستر امتعضت من قيام [الرابطة الإفريقية] بإرسال أحد الأجانب لإنجاز مثل هذه المهمة الخطيرة، كما راودها الشك حول إنجازات بوركهاردت لأنها كانت تحتقر تنكره غير المصقول والبعيد عن التهذيب. أما هي فلم تكن بحاجة لإخفاء هويتها، ربما فيما عدا ارتداء الثياب الرجالية؛ وتلك عادة أقبلت على تبنيها في الشرق الأوسط، كما زعمت، لضمان معاملتها باحترام.

وكما لو كانت حريصة على الوفاء بما تباهت به حين قالت إن جرأتها لم تكن أقل من جرأة المستكشف السويسري، قامت بتجميع قافلة صحراوية فخمة لزيارة آثار تدمر الرائعة القريبة من مجرى نهر الفرات.

كان الخوف من هجمات البدو قد حال دون قيام رحالة غربيين أقل تهوراً بمثل هذه الرحلة ـ المغامرة، ولكن الليدي هستر اقتحمت الصحراء دون أية رهبة. وبدلاً من تعرضها للهجوم تمت استضافتها وإكرامها من قبل شيوخ المنطقة سيئي السمعة، الذين استمتعوا، دون شك، ليس بزي السيدة الإنجليزية الغريبة فقط، بل وبسلوكها أيضاً.

وبعد زيارتها المظفرة لتدمر استقرت الليدي هستر في طرابلس على الشاطئ السوري حيث تعرض شغفها بالترحال، للأسف، للتقييد جراء انتشار الطاعون في الريف. ولدى مرضها هي نفسها حظيت بتمنيات الشفاء وبعطف العديد من الأهالي المحليين الذين كانوا مبهورين بحكايات إنجازاتها في الصحراء. وخلال إحدى هذه الزيارات قدم لها رهبان دير فرانسيسكاني قريب نسخة وثيقة قديمة ملتبسة [مراوغة] كانت ستقود هذه المستكشفة المثيرة جداً إلى مغامرة أخرى إضافية.

كان نص الوثيقة يصف كنزاً رائعاً من سبيكة ذهبية قيل إنها دُفنت سراً في خرائب مدينة عسقلان القديمة على شاطئ البحر الأبيض المتوسط، مع تقديم تفاصيل دقيقة عن مكان الكنز. في البدء كانت الليدي هستر متشككة، وطالبت الرهبان بجلب الوثيقة الأصلية التي تم نسخ النص عنها. وما إن فعلوا ما طُلب منهم على الفور، حتى اقتنعت بصحتها، وقررت أن من شأن استرجاع الكنز أن يكسبها الشهرة الخالدة التي طالما افترضت أنها قَدَرُها المحتوم.

لم يكن الكنز بحد ذاته موضع اهتمام الليدي هستر؛ فأحلامها تركزت على أشياء أعظم بكثير من مجرد الثروات. لقد اعتقدت أن من شأن نجاح جهود امرأة إنجليزية في استعادة الكنز وتقديمه بالطريقة المناسبة إلى السلطان، دليلاً على الاحترام البريطاني له، أن يؤدي إلى تمتين الصداقة بين الدولتين العظيمتين (البريطانية والعثمانية) وضمان استمرارها إلى الأبد. وفور تعافيها من مرضها، سارعت الليدي هستر إلى تمرير رسالة ملكية إلى السفير البريطاني في القسطنطينية تكشف النقاب عن تفاصيل خطتها الرامية إلى استعادة الكنز، وتطلب خدمات فرقاطة بريطانية تتولى مهمة استطلاع الشواطئ. ولكن نفوذ الليدي هستر السياسي لدى

الحكومة البريطانية كان، للأسف، قد تلاشى مع موت خالها المتنفذ. وحين وصل مركب صغير يتيم بعد بعض الوقت مع رسالة جوابية تقول: إن الخطة حمقاء وغير عملية، صارت [الليدي هستر] أكثر تصميماً على تنفيذ الخطة بنفسها.

وبعد إبلاغ السلطان في القسطنطينية بما تنوي القيام به، انطلقت الليدي هستر في الرحلة الساحلية المفضية إلى عسقلان. وعلى الطريق التحق بالقافلة ممثل خاص للحكومة العثمانية التي بدت مثل باشا يافا محمد أبو نبوت أكثر إيماناً بالليدي هستر وكنزها من الحكومة البريطانية. وما إن وصلت إلى أطلال المدينة الفلسطينية، حتى استقرت الليدي هستر في كوخ مريح في إحدى القرى المجاورة وجندت المئات من الفلاحين المحليين للشروع بأعمال التنقيب. كانت خريطة الكنز تشير إلى أن الذهب كان مدفوناً تحت جامع خرب، وبالتالي بدأت عملية الحفر هناك.

تم آخر اليوم الرابع من التنقيب اكتشاف بضعة أعمدة هائلة ممددة جنباً إلى جنب كما لو كانت تغطي مخبأ سرياً؛ فسارع ممثل السلطان إلى استدعاء روافع خاصة وأمراس، ولكن ما إن تم رفع الأعمدة الحجرية الأسطوانية الضخمة وإزاحتها حتى تبين أن الكنز المخبوء تحتها لم يكن فضة ولا ذهباً. لقد كان (الكنز) هو التمثال الكبير الذي لا رأس له، لأحد أباطرة روما، وهو العمل الأثري الأول الذي تم اكتشافه حتى ذلك التاريخ عن طريق التنقيب في فلسطين.

لم يوجد تحت التمثال أي شيء، رغم أن الليدي هستر كانت تبحث عن الذهب لا عن أثر فني كلاسيكي. وبعد إصدار الأوامر بإيقاف التمثال منتصباً، وإبعاده عن الطريق، أمرت [هستر] العمال باستئناف البحث عن الكنز في زاوية أخرى من الموقع.

وبعد بضعة أسابيع إضافية من التنقيب، ما لبثت متاهةٌ من الخنادق الخاوية والأكوام المبعثرة من الأتربة المقلوبة أن أكدت بكآبة، على عدم انطواء عملية البحث على أية فائدة. وقد زاد تكرار نوبات غضب الليدي

هستر من استنفاذ عمالها كل الفرص الممكنة. وبدلاً من أن تعترف، بينها وبين نفسها، بأن خريطة الكنز لم تكن إلا خدعة، أصبحت مقتنعة بأن الجزار الراحل بالذات كان قد استخرجه قبل بضع سنوات فقط، فلم يبق لها إلا التمثال الروماني.

غير أن الليدي هستر بقيت مصممة على إثبات حقيقة أنها ، خلافاً لحال هواة الآثار القديمة البريطانيين الآخرين، لم تكن مهتمة بملء أي متحف بالآثار؛ فعملية بحثها هي تمت بصورة لا أنانية، ومن منطلق الحرص على صداقة الحاكم العثماني فقط. فقد سبق لها أن رأت بنفسها العواقب التي ترتبت على قيام اللورد إلغن[12] بنقل إفريز البارثينون (هيكل الإلاهة أثينا) وهي في أثينا قبلَ بَضعة أعوام، ولم تكن تريد لأعمالها التنقيبية أن تشجع على عمليات سرقة مماثلة في الأرض المقدسة. وبتلويحة من يدها أمرت العمال بتحطيم التمثال الأثري العملاق وإلقاء أشلائه في البحر.

وبذلك العمل وضعت الليدي هستر ستانهوب حداً لممارستها الأثرية الوجيزة، ولكن الجديرة بالتذكر. ففي غضون بضعة أيام توجهت ثانية شمالاً مع قافلتها على امتداد الشاطىء. وفي يافا ودّعت الباشا محمد أبو نبوت الذي كان أقل منها شعوراً بالإحباط إزاء النتائج التي ترتبت على البعثة. وكان الأخير سيحصل على الشهرة من خلال إعادة بناء مدينته: فالأطنان من الرخام العتيق وأحجار البناء التي حصل عليها من التنقيبات في عسقلان كانت ستجمل قصور يافا وحماماتها.

وبالمثل فإن ممثل السلطان لم ينزعج هو الآخر ازاء إخفاق الليدي هستر في العثور على أي كنز؛ فقد استمتع بالرحلة الفاخرة أيما استمتاع وكان قادراً على الكتابة بصدق عن أن مصالح السلطان بقيت محفوظة. أما بالنسبة لليدي هستر فإن بعثة عسقلان كانت قد أجهزت على أحلامها. وبعد العودة إلى ملاذها الجبلي في لبنان عاشت فيما يشبه العزلة إلى أن وافتها المنية بعد أكثر من عشرين سنة. فالمرأة، التي كان قَدَرُها متمثلاً بأن تحكم بوصفها ملكة لليهود، باتت معروفة لدى الرحالة والأهالي المحليين، سواء بسواء، بوصفها راهبة لبنان المجنونة.

وسرعان ما تسربت التقارير المجتزأة عن البحث غير الموفق عن الكنوز لليدي هستر إلى أوساط المجتمع اللندني، ولكن المتعة التي كان من شأن تلك التقارير أن توحي بها تبددت بسرعة جراء وصول رسائل أخرى من الشرق أكثر بعثاً على التأمل. فحقيقة شخصية أولريخ سيتزن تكشفت أخيراً، وجرى تسميمه بأمر من إمام اليمن؛ وجون لويس بوركهاردت استسلم لحمى البرداء في القاهرة عام (1817 م) حتى قبل مجرد الشروع بتحقيق الغرض الحقيقي من رسالته في إفريقية. وثمة بعثة استكشافية بريطانية أخرى، بقيادة ضابطين بحريين هما: تشارلز إربي[13] وجيمس مانغلز،[14] انطلقت إلى الأرض المقدسة في العام نفسه؛ ولكن هذين الرجلين لم يستطيعا، رغم أسفارهما الناجحة، عبر منطقة البحر الميت، فعل شيء ذي شأن على صعيد قلب الصورة السلبية التي رسمتها تجارب أسلافهما عن البلاد وأهلها.

ولدى حلول عام (1809 م) كانت [رابطة فلسطين] قد علقت اجتماعاتها الدورية، بل ويبدو أنها ما لبثت أن حُلت تماماً بعد نشر تقرير سيتزن. فأرض الكتاب لم تعد موجودة فقط في الصور (الرومنطيقية) المثالية الواردة في خطب الوعّاظ وقصائد الشعراء؛ فبفضل جهود أوائل المستكشفين كانت صور نابضة بالحياة عن أرض قاحلة، ومزارات زائفة، وسكان غير متمدنين قد بدأت تتضارب تضارباً غير سار مع الصور الدينية الأكثر جاذبية. ومع تداعي الآمال الطموحة للمستكشفين العلميين الأوائل، بات واضحاً أن الموجة الكبرى الأولى لاستكشاف فلسطين قد كانت انتهت.



4) رؤى نهاية العالم:

أحلام نبوءة وآمال مبشرة (1818ـ1833 م)

مثل سهام نارية حمراء متألقة منطلقة إلى قلب ظلام المستقبل الكحلي الدامس، تُقَدّم نبوءة دانيال في العهد القديم، ورؤيا القديس يوحنا في العهد الجديد لمحات مرعبة عن الأحداث المحيطة بنهاية العالم. فعلى امتداد قرون ظل المسيحيون الوَرعون، من سائر البلدان والأقوام، يلوذون، أيام الكوارث الطبيعة، والهبّات السياسية، وطغيان الرذيلة والفساد، بهذين الكتابين بحثاً عن الطمأنينة المريحة الناتجة عن إيمانهم بأن عقيدتهم ستكافئهم، وآيات الشقاء والبؤس ستنتهي آخر المطاف. ونبوءة دانيال تقول: «وفي ذلك الزمان. . . وكثيرون من الراقدين في تراب الأرض يستيقظون بعضهم للحياة الأبدية وبعضهم للعار والرّذْل الأبدي».[1] وبعد فترة من الشقاء والعذاب لا مثيل لهما سيبادر الصالحون إلى مقاتلة أعداء الرب، وسينقلب العالم إلى جنة نعيم مزدهرة.

والأرض المقدسة اعْتُبرت مركزية بالنسبة إلى هذه الحقبة الكارثية الأخيرة من التاريخ الأرضي، إذ اعتقد كثيرون بأن الهزيمة الحاسمة للقوى المناهضة للمسيح ستكون في مكان يدعى (هَرْ مَجدون) [جبل مجدو ـ ز. م] في تلك الأرض، وبأن أورشليم السماوية ستنزل إلى الأرض، وبأن يسوع المسيح سيعود إلى هناك ليحكم أتباعه المخلصين لمدة ألف عام.

وما لبث الإيمان بأن هذه الألفية السعيدة باتت وشيكة أن لَفَّ قطاعات واسعة من العالم البروتستانتي خلال العقد الأخير من القرن الثامن عشر. وقد بدا أن العالم لم يسبق له قط أن مر بمثل تلك الفترة الزاخرة بالاضطرابات والعذابات. فالتقارير المشؤومة عن الملوك الذين قطعت رؤوسهم والحشود الغاضبة، أثارت موجات من نوبات القلق والتوجس على مصير الأساس التقليدي للمدنية الأوروبية. ومع ذلك فإن عصر الثورة والمعرفة العلمانية الراهن هذا بدا للبعض كما لو كان بالفعل تلك الحقبة الملهمة من السماء من التاريخ الإنساني المبرمج قدومها قبيل خلاص العالم النهائي. فقد سبق لدانيال نفسه أن تنبأ بأن (آخر الأزمنة) سيكون مسبوقاً بفترة «سيجري فيها كثيرون ذهاباً وإياباً وستزداد المعرفة».

في عام (1792 م) قام رجل دين أنغليكاني اسمه جيمس بتشنُو[2] بنشر [علائم الأزمان] [3] وهو كتاب ضَمّنه سلسلة من المقارنات القابلة للتصديق، وإن كانت غريبة ومُرْعبة، بين جدولي مواعيد دانيال ورؤيا القديس يوحنا النبوئيين من جهةَ، وأحداث زمانه هو من جهة ثانية. فحسب بتشنُو بدت الثورة في فرنسا ورفع الحصانة عن الكنيسة الكاثوليكية الفرنسية تعبيراً واضحاً عن تنفيذ عملية تدمير (الوحش الرابع) الذي تنبأ به دانيال. والمزيد من الآلام والمحن كان يمكن توقعها في المستقبل القريب، بل وغامر بتشنُو حتى راهن على أن سلطان تركيا، وهو المسيح الدجال "الشرقيّ" بنظر الكثيرين، هو المرشح لأن يعاني في المرة القادمة.

بدا غزو نابليون لمصر والأرض المقدسة برهاناً على صحة ما قاله بتشنُو مما زاد من أعداد المؤمنين بأن النهاية باتت قاب قوسين أو أدنى. ولكن التوقع الألفي في إنجلترا كان، حتى قبل غزو نابليون، قد توجه نحو أرض الكتاب على يد ريتشارد برَذْرْز[4] وهو ضابط بحري سابق انقلب إلى داعية سلام، والذي ألقى خطاباً حماسياً أمام حشود هائلة في لندن، ضمنه نبوءات واثقة بأنه سيقوم عما قريب بقيادة يهود العالم وإعادتهم إلى أرض أجدادهم. وكانت عملية هداية اليهود فعودتهم إلى

الأرض مقدسة إحدى العلامات المميزة لدنو الألفية السعيدة، كما وافرت أحد الدوافع الرئيسية للعمل التبشيري [المسيحي - ز.م] بين صفوف اليهود على امتداد القرن التاسع عشر. ومواعظ برَذَرْز سرعان ما أكسبته العديد من الأتباع المتحمسين في إنجلترا كلها، ولكنها أدت في الوقت نفسه إلى وضعه تحت المساءلة العصابية من جانب الحكومة البريطانية؛ التي بدأت تعاني من الاضطراب، جراء تحركات الطبقات الدنيا التي ألهمها برَذَرْز. (وما لبث برَذَرْز هذا أن اعتُقل وأودع في سجن بدلام، حيث كسب أكثر المهتدين إلى مذهبه بعداً عن الاحتمال. فقد كان برَذَرْز أول من وجه أنظار الليدي هستر ستانهوب نحو الشرق، حين أقنعها بأن مصيرها "الملكي" سيتحقق في فلسطين).

وعلى الجانب الآخر من المحيط الأطلسي، كان الاهتمام في أمريكا بالنبوءة الكتابية وانتظار الألفية السعيدة الوشيكة، أكثر انتشاراً وانطلاقاً من الحماس الديني، الذي كان سيفضي عما قريب إلى صعود موجة (اليقظة العظيمة الثانية [البروتستانتية - ز. م]) حيث بادرت بعض القيادات الدينية الأمريكية إلى تقديم تواريخ محددة لتحقق نبوءات دانيال ورؤيا القديس يوحنا. فالقس ديفيد أُستن،[د] أحد خريجي كلية ييل، أعلن، بوقار، أمام جمهور المصلين في كنسيته النيوجيرسية، أن العالم سينتهي في الخامس عشر من أيار، عام (1796 م). غير أن عدم حدوث أي شيء غير مألوف في ذلك اليوم لم يتمخض إلا عن تغيير بؤرة اهتمام أوستن، الذي عاد فوراً إلى نيوهفن، حيث كليّته الأم التي تخرج فيها، وبدأ يستجدي الأموال اللازمة لبناء الأرصفة والمرافق المرفئية، من أجل الشروع بإعادة اليهود إلى الأرض مقدسة.

أما مسألة كيف سيجري تجميع اليهود المبعثرين في كونّكتكت؟ وكيف سيتم إقناعهم بالتزاحم على مراكب استأجرها قسيس طائفيّ؟ فلم تحظ، على ما يبدو، بقدر ذي شأن من التفكير الجدي. إلا أن نقطة عامة واحدة كانت قد ترسخت وهي: لا خير في الانتظار السلبي لقدوم العصر الألفي السعيد ولا بد من العمل على تحقيقه بالجهد المدروس، بـ(أدوات بشرية) ولا بد من هداية، ليس اليهود فقط، بل وجميع كفار العالم ووثنييه

إلى مذهب البروتستانتية المتنور، قبل توافر إمكانية حدوث (المجيء الثاني). ومن واجب جميع المسيحيين الحقيقيين المقدس أن يساعدوا على ذلك. وبالتالي بدأت أعداداً كبيرة من الجمعيات التبشيرية الخاصة تزدهر على ضفتي الأطلسي، وتوافد النشطاء من المتدينين الورعين لإقامة الإرساليات الدينية وتوزيع نسخ الكتاب المقدس في سائر أنحاء العالم.

بينت موجة الاستكشاف التي أعقبت غزو نابليون لفلسطين، بوضوح مدى ضخامة العمل الذي ينتظر الإنجاز هناك إذا كانت أورشليم السماوية ستتجلى فعلاً خلال سني الحياة الراهنة. وجاء كلام أوائل المستكشفين ليؤكد أدق تفاصيل حالة الفقر والاضطهاد والجهل المطبق الطاغية التي يعاني منها جميع أهالي البلاد. فمن تجب هدايتهم لم يكونوا المسلمين (المتعصبين) واليهود (المتشددين) فقط، بل والمسيحيين المحليين، أسرى التعاليم الدوغمائية للكنيستين الكاثوليكية والأرثوذكسية. وهكذا توضح أن الاستعادة التبشيرية للأرض المقدسة كانت مهمة تتعذر مراوغتها أو الهروب منها، على الرغم من أن أنظار البعثات التبشيرية الإنجليزية كانت تنجذب أكثر فأكثر نحو الحاجات الروحية لكل من الهند وإفريقية والشرق، حيث طريق إمبراطورية أمتها. وقبل أن يمضي وقت طويل بادرت نظيراتها الدينية في أمريكا إلى قبول التحدي، إذ كانت الجهات الأولى التي أوْفَدت بعثة مقدسة إلى أورشليم الأرضية.

كان أوائل المستوطنين البيوريتانيين في نيوإنغلاند، والهاربين من ملاحقات الكنيسة الأنغليكانية العليا حفاظاً على مستلزمات ديانتهم التقشفية المعارضة، يكنّون احتراماً فريداً لأرض الكتاب. فطلائع بيوريتانيي نيوإنغلاند، الذين قطعوا أشجار الغابات الكثيفة، واستصلحوا السفوح الصخرية للتلال لتحويلها إلى حقول وقرى وبلدات، اعتبروا أنفسهم الخلفاء الحقيقيين لبني إسرءيل. والعالم القديم كان مصْرَهم؛ في حين كانت البراري الأمريكية الواسعة أرضهم الموعودة، ولاهوتهم، كما تمت صياغته عبر المواعظ الملتهبة لكل من إنكريز وكوتون ماثر،[6] وجون ونثروب[7] ونثانييل وارد،[8] لم يتضمن إلا القليل من الرحمة والشفقة الموجودتين في العهد الجديد. فقد رأوا أن قصص الخروج من مصر،

والضياع في التيه الذي دام أربعين عاماً، وإلحاق الهزيمة بالكنعانيين، شديد القرب من الوقائع التي كانوا يعيشون في ظلها.

والمدن التي أسسوها حملت أسماء "كتابية" مثل بيت إيل[9] وحبرون[10] وكنعان الجديدة[11] وأريحا،[12] بيت لحم،[13] وصهيون.[14] أما الأسماء التي حملوها هم وأورثوها لأبنائهم مثل: يشوع،[15] وموسى،[16] وجوناثان [يهونتن] وإيبنَزَر،[17] وأبيغيل،[18] وربكّا [رفقة][19] وآحاب، وسارة، وراحيل،[20] فكانت مأخوذة بصورة مباشرة منَ صفحات أناجيلهم العائلية المهترئة. وما من مكان آخر في العالم المسيحي تحول فيه تقديس الأرض مقدسة إلى واقع ملموس مثلما حصل في نيوإنغلاند. فأهالي هذه الولاية اعتبروا ولايتهم حلماً يجسد ما يجب أن يكون عليه العالم. وبقدر أكبر من التخصيص، رأوا فيها حلماً يجسدهم هم بالذات.

كانت الفعاليات التبشيرية لأبرشيي نيو إنغلاند قد بدأت في وقت مبكر، تزامن، تقريباً، مع نشاطات نظرائهم الأنغليكانيين. وهذه المحاولات كانت تقوم في المقام الأول، على إرسال رجال دين شباب شاحبين إلى مجاهل الحدود الغربية، وإلى قلب الأحياء الفقيرة في المدن المتنامية، لهداية متوحشي العالم الجديد واليهود إلى إنجيل المسيح (النقي والبدائي). ولكن أبرشيي نيوإنغلاند ظلوا شديدي الحرص على نشر كلمة عقيدتهم الخاصة في أرض ميلادها ونشوئها، على الرغم من افتتاح العديد من المدارس الهندحمرية، وتوزيع ما لا يحصى من الكراريس التبشيرية على يهود بوسطن ونيويورك، ومشاركة اثنتي عشرة من بعثاتهم التبشرية الخاصة في العمل المقدس لإخوتهم الإنجليز بين صفوف الجماهير الهندحمرية.

ومع حلول خريف عام (1818 م) ما لبثت دعوات المؤمنين أن استُجيبت أخيراً. فقد أعلن [المجلس الأمريكي لمفوضي البعثات الأجنبية][21] الذي تأسس في عام (1810 م) لتحقيق التطلعات الألفية لدى أتباعه المخلصين، خططاً لإنجاز توسيع تاريخي للعمل القدسي. ومما جاء في البيان العام: أنه «تقرر تعيين السيدين المحترمين ليفي بارسنز[22] وبليني فسك[23] مسؤولين عن القدس وغيرها من مناطق آسيا الغربية وفق الضرورة كما تقرر أن من الضروري إيفادهما فور توافر الظروف المناسبة. . .».

وبالنسبة إلى العديد من الجماعات الطائفية المنتشرة بين شعب الولايات المتحدة الجديدة، التي طالما عاشت على رؤى الأرض مقدسة والآمال المعقودة على انقلابها الألفي السعيد، فإن مجرد الحديث عن بعثة أمريكية إلى القدس أثار قدراً كبيراً من الهياج، ومستوى ذا شأن من الفخار القومي، وتدفقاً مفاجئاً للتبرعات على خزانة [المجلس الأمريكي لمفوضي البعثات الأجنبية]. وقام الشابان اللذان اختيرا للعمل في فلسطين، وهما خريجان جديدان من [معهد اللاهوت في أندوفر](24) بجولة في أرجاء البلاد في الأشهر التي أعقبت الإعلان الرسمي، وهما يقدمان المواعظ ويجمعان التبرعات في الاجتماعات الكنسية من جورجيا إلى الحدود الشمالية الغربية. كما قام وزير الخارجية جون كوينسي آدامز(25) بتوفير الحماية الكاملة من جانب حكومة الولايات المتحدة لبعثتهما، بل وحتى هنود ستُكبريدج،(26) ماساتشوسيتس، وقد تم الآن إعادة توطينهم في أوهايو، حيث كانت الإرساليات التبشيرية السابقة قد لقنتهم ما يشي بأنهم من ذرية الأسباط العشر الضائعة العشر، تبرعوا «بمبلغ (5.67) دولاراً مع سوارين ذهبيين لصالح أجدادهم في القدس».

عقد مساء يوم الأحد الواقع في الحادي والثلاثين من تشرين الأول لعام (1819 م) اجتماع مهيب في كنيسة أولد ساوث(27) البوسطونية للصلاة والدعاء من أجل نجاح المبعوثين التبشيريين الأمريكيين عشية مغادرتهما، حيث تلا القس ساموئيل وورستر(28) من مدينة سالم، وهو يحدق في الجموع المتزاحمة على المقاعد الخشبية الطويلة، جملة التوجيهات الرسمية الصادرة عن [لجنة التدبير](29) إلى الشابين اللذين اختيرا لأداء المهمة المقدسة. فقد طُلب منهما أن يتصلا بالبعثات التبشيرية الإنجليزية في مالطا، وأن يتعلما لغات البلدان التي سيمران بها، وأن يعاينا إمكانيات تداول الكتب والكراريس الدينية وتوزيعها وأن يعملا، وهذا هو الأهم، على إقامة "محطة" دائمة في القدس.

ومن ثم تحول القس وورستر عن جمهور المصلين، ليلتفت إلى الشابين بالذات، معبراً عن مشاعره الخاصة في مثل هذه اللحظة الميمونة وهو يقول: «من أعالي الأرض مقدسة، من كالفاري [المكان

الذي صلب فيه المسيح - ز. م] من جبل الزيتون،[30] من صهيون، ستلقيان نظرة واسعة على الخرائب المنتشرة والمشاهد المرقعة التي تقدم نفسها من كل حدب وصوب إلى الفهم المسيحي، وستحرصان أشد الحرص على حصر مختلف قبائل وطبقات الكائنات البشرية التي تعيش في تلك البلاد والبلدان المحيطة. ثمة سؤالان كبيران سيشغلان عقليكما على الدوام: 'ما الخير الذي نستطيع أن نفعله؟' و'بأية وسيلة؟' من جهة، و'ما الذي يمكن عمله من أجل اليهود؟ ومن أجل الوثنيين؟ ومن أجل المحمديين؟ من أجل المسيحيين؟ من أجل شعب فلسطين؟ من جهة ثانية'».

وأمام الجمهور الغارق في جو من الصمت نهض أحد المبشرين، وهو الشاب الناحل ذو النظارات الطبية واسمه: ليفي بارسنز وألقى خطبة خاصة به هو. أما الموضوع فقد كان (سبي اليهود وإعادتهم)[31] حيث لامس الخطيب وتراً حساساً في عقول جمهوره حين ربط نجاح بعثته بنبوءات رؤيا يوحنا. أما زميله الوسيم الواثق من نفسه واسمه بليني فسك، فقد ألقى خطاباً أكثر راهنية، كان محاضرة أكثر منها موعظة، بعنوان: [الأرض المقدسة: أحد الميادين التبشيرية المهمة]. ولكنْ حتى فسك هذا كان واعياً لمدى خطورة المشروع، حيث اختتم ملاحظاته باقتباس مشؤوم من سفر أعمال الرسل: «وها أنا ذا أمضي أسير الروح إلى أورشليم دون معرفة الأشياء التي ستقع لي هناك».

ظلت الطريق التي كانت تنتظر المبشرين الشابين الأمريكيين غامضة. ففي عام (1851 م) كانت [الجمعية التبشيرية] التابعة للكنيسة البريطانية قد تلقت تقارير غير مشجعة من الأرض المقدسة، تحدثت عن مدى صعوبة العمل هناك جراء تعصب المسلمين، وعداء اليهود، والقبضة الفولاذية للكنيستين الكاثوليكية والأرثوذكسية على السكان المحليين من المسيحيين. وفيما عدا هذه التقارير العامة لم يكن يتوافر، على أية حال، إلا بالذال اليسير من المعلومات عن الوضع الحالي للبلاد. وبالتالي فقد كان من شأن رحلة بارسنز وفسك أن تصبح عملية استكشافية مقدسة. ومثلهما مثل سيتزن وبوركهاردتَ قبلهما، كانا سيسافران عبر أقاليم نادراً

ما زارها غربيون، وسيوافران معلومات جديدة عن أرض الكتاب. وفي غضون يومين بعد قداس كنيسة أولد ساوث، انطلق المبشران الشابان في رحلتهما الطويلة باتجاه الشرق على متن الباخرة الشراعية البوسطنية المعروفة باسم سالي آن،(32) وليس معهما سوى حقيبتي سفر مملوءتين بالكراريس الدينية والكتب.



الأب بليني فسك رئيس أول إرسالية بروتستانتية في القدس

وما إن وصل فسك وبارسنز إلى مرفأ إزمير التجاري الصاخب في آسيا الصغرى أحد أيامَ شباط من عام (1820 م) حتى ألفيا فوراً آفاق قدرتهما على هداية أقوام "آسيا الغربية" بصورة أكثر واقعية. تمثلت مهمتهما الأولى بتعلم اليونانية الحديثة، بما يمكنهما من التواصل مع أتباع الكنيسة الأرثوذكسية في الشرق الأوسط. وبعد ستة أشهر من متابعة الدراسة في جزيرة كيوس، انطلق بارسنز وفسك في رحلة طويلة شاملة لأرجاء آسيا الصغرى، لزيارة مواقع كنائس آسيا السبعة والجاليات القديمة التي كان القديس يوحنا قد أسمعها رؤياه. فثمة أشياء كثيرة ما زال تعلّمُها مطلوباً

قبل الشروع بتحقيق الهدف الأولي لبعثتهما. ولكن إلحاح توجيهات بوسطن المتعجلة بصورة متزايدة، ما لبث أن أدى إلى اتخاذ قرار قضى بأن يبقى بليني فسك في إزمير لإقامة محطة تبشيرية لصالح المسيحيين المحليين، في حين يتابع ليفي بارسنز السفر وحده إلى القدس لتقويم الصعوبات وإقامة رأس جسر ساحلي.

وبوصفه المبشر البروتستانتي الأول الذي يزور القدس، وَجَد بارسنز نفسه مخلوقاً يثير الفضول في نظر الناس. فقد استقبله بطريرك المدينة الأرثوذكسي بدفء. ومن ثم تجول في كنيسة القيامة وغيرها من المزارات القديمة، ووزّع الكراريس، وأجرى العديد من الاتصالات مع الأهالي آملاً في «إعادة إيقاد شعلة التقوى البدائية على المذابح المتداعية لمسيحية طال فسادها». ولكن القليل فقط من تلك الاتصالات تمخض عن النتائج المرجوة. فحتى الرهبان الأرثوذكس الذين جرى إسكان بارسنز معهم شعروا بقدر كبير من الاطمئنان إلى مواعظه؛ حتى أن مطرانهم ودعه بحرارة لدى مغادرته المدينة، وعبر عن الأمل في أن يعود ثانية في موعد قريب.

ولكن ذلك لم يحصل. فمشاق السفر والترحال في أرجاء الأرض مقدسة كانت قد هدت صحة بارسنز، حتى وافته المنية في شتاء عام (1822 م) بُعَيْد عودته إلى إزمير، تاركاً بليني فسك لإنجاز العمل وحيداً. سارع الأخير إلى التخلي عن نشاطاته في إزمير والإبحار إلى مالطا، حيث كان المبشرون الإنجليز قد رسخوا وجودهم، ومن هناك أرسل رسالة عاجلة إلى بوسطن طالباً، بإلحاح، إرسال المزيد من المبشرين؛ وفي غضون بضعة أشهر حصل على خدمات القس جوناس كنغ،[33] وهو زميل تخرج في معهد اللاهوت بآندوفر، وكان يدرس اللغات الشرقية في باريس. وجرى فيما بعد، أواخر عام (1823 م) تعزيز الجهد التبشيري الأمريكي بوصول كل من آيزاك بيرد[34] ووليم غوديل[35] مع زوجيهما؛ وهؤلاء هم الذين أسسوا محطة جديدة في ميناء بيروت.

وبعد زيارة تمهيدية للقدس قام فسك وبيرد بحجز مقر دائم للإقامة في المدينة، كما استخدما شماساً من الجالية الأرثوذكسية لتعليمهما اللغة

العربية، وراحا يوزعان الكراريس والكتب بالجملة. ولكن عمل الأمريكيين ما لبث، هذه المرة، أن أثار معارضة جدية. فالبروتستانتية لم تكن ديانة تحظى بالاعتراف الرسمي في الإمبراطورية العثمانية. وفي حين أن زيارة ليفي بارسنز الوجيزة للقدس كانت قد مرت بقدر أكثر أو أقل من إثارة الاهتمام، فإن إقامة محطة تبشيرية أمريكية دائمة شكلت تهديداً للأمر الواقع الديني التقليدي.

وما إن وصلت الفاتيكان، عن طريق ممثليها في الأرض مقدسة، أخبارٌ عن وصول المبشرين البروتستانت إلى البلاد، وشروعهم بتوزيع الكراريس والكتب هناك، حتى بادر البابا ليو الثاني عشر إلى إصدار تصريح غاضب يدين عملهم ويحظر على الكاثوليك المحليين قراءة أعمالهم القائمة على الهرطقة أو ترجماتهم للكتاب المقدس. وسرعان ما وجدت قيود الفاتيكان هذه صدىً لها في القسطنطينية أيضاً، حيث أصدر السلطان محمود الثاني فرماناً يحظر تداول سائر الأناجيل والمزامير الأجنبية داخل الأراضي الخاضعة لسلطانه، بغية الحيلولة دون ما رآه سبباً محتملاً لحصول اضطرابات دينية خطيرة بين صفوف الأقليات المسيحية. وبالنسبة إلى فسك وبيرد فقد انطوى ذلك على مشكلة حقيقية. وما لبثت هذه السياسة العثمانية أن أفضت إلى اعتقال الرجلين في القدس مع مصادرة ما بحوزتهما من أدبيات. وعلى الرغم من أن إطلاق سراحهما تم بسرعة، بفضل تدخل نائب القنصل البريطاني في يافا، فإن خطوط المعركة كانت قد رُسمت. وبنظر البروتستانت بدا البابا والسلطان متحالفين ضدهم. وما لبثت الآمال المعقودة على الجهود التبشيرية لنيوإنغلاند في فلسطين أن تلقت ضربة إضافية أخرى في خريف عام (1825 م) حين وَقَعَ بليني فسك، وهو على الطريق من القدس إلى بيروت، في كمين نصبه قطاع الطرق، حيث أصيب بجروح لم يتعاف منها.

ومع وفاة ثاني المبشرين الأصليين، وبقاء المتطوعين الجدد بلا قائد، ساد شعور بأن الحصافة تقضي بنقل جميع النشاطات إلى ميناء بيروت، حيث من شأن وجود قنصلية بريطانية وجالية (كوزموبوليتية) كبيرة أن يضمن سلامة الأمريكيين الشخصية. وهناك قام المبشرون بتأسيس كنيسة ومدرسة،

واستأنفوا توزيع الكتب والكراريس الدينية. أما الأرض المقدسة فليس أمامها إلا أن تنتظر. وكما بات واضحاً الآن فإن العدو الحقيقي لم يكن متمثلاً بجهل الشعب وتعلقه بالأباطيل [فحسب] بل كان كامناً في الامتيازات والمصالح الراسخة للكنيستين الكاثوليكية والأرثوذكسية [أيضاً].

لم يكن غزو نابليون لمصر وفلسطين إلا الفصل الأول في سفْر التأريخ الطويل لجملة الويلات التي نزلت على الإمبراطورية العثمانيةَ في القرن التاسع عشر. فمع حلول العقد الثالث من هذا القرن، شكلت انتفاضة قومية خطراً هدد بالإطاحة بالحكم العثماني في اليونان، حيث بادر المتمردون، مستلهمين لا تجربة الثورة الفرنسية فقط، بل والهواجس الرومنطيقية لدى المهتمين بالآثار القديمة ودارسي المؤلفات الكلاسيكية في أوروبا أيضاً، إلى تشكيل حكومة يونانية مستقلة. تدفّق المتطوعون الأوروبيون على البلاد للالتحاق بالميليشيات المتمردة المتشابكة مع جيوش السلطان في سلسلة من المعارك الدامية. ودارت رحى الحرب لغير صالح الأتراك، الذين لم يتمكن جنودهم، سيئو التغذية وذوو الرواتب المتدنية، من مجاراة الحماس اللاهب لدى اليونانيين، فاضطر السلطان لقبول الوضع المهين المتمثل بالاضطرار إلى طلب المعونة من أحد ولاته، وهو محمد علي، باشا مصر.

صحيح أن وصول الأسطول المصري إلى المياه اليونانية أدى إلى قلب ميزان المعارك، ولكن وحشية الهجوم التركي المعاكس، مهما نجحت على صعيد عدد القتلى من جنود العدو والمساحات التي تمت استعادتها، أنزلت ضربة قاتلة بفرص السلطان المتاحة لتحقيق النصر. فدول أوروبا، المقتنعة بأنها كانت تدافع عن شعب مسيحي ضد الهمجية التركية، سارعت، الواحدة بعد الأخرى، إلى الوقوف إلى جانب الثوار اليونانيين. وفي عام (1827 م) قدمت القوى الأوروبية إنذاراً إلى السلطان طالبة منه الاعتراف باستقلال اليونانيين، أو مواجهة ما سيترتب على رفضه طلبها من عواقب. ولكن محمود الثاني، المصمم بعناد على حماية وحدة إمبراطوريته مهما بلغ الثمن، رفض الطلب وراح يراقب في حالة من

العجز عملية تدمير أسطوله كله مع أسطول باشا مصر في معركة نافارينو[36] من قبل قوة بحرية أوروبية مشتركة هائلة.

تمخض التدخل الأوروبي في اليونان عن آثار مباشرة على البعثات التبشيرية الأمريكية، التي ظلت متشبثة بموطئ قدمها الصغير في لبنان. فانحلال السلطة العثمانية ووصول أسطول يوناني، قام بقصف مرفأ بيروت، أديا إلى جعل الرسميين الأتراك من جهة وحشود الرعاع السائبة في الشوارع من جهة ثانية، ينظرون بعين الشك إلى جميع الغربيين. ففي عام (1827 م) تعرض مقر البعثة الأمريكية بالذات للحصار لبعض الوقت؛ ومع حلول العام التالي كانت الأوضاع في بيروت قد أصبحت بالغة الخطورة؛ حتى إن مبشري نيوإنغلاند المتبقين وافقوا على الجلاء على ظهر باخرة نمساوية إلى ملاذ مالطا الآمن نسبياً. أما بعثة القدس فقد "غلقت" رسمياً. ولكن الضرورة الدينية للمزيد من الاستكشاف والتحويل اللاحق للأرض المقدسة بقيت كحالها على الدوام شديدة الإلحاح.

ومع تمضيتهم للوقت في صحبة المبشرين الإنجليز بمالطا كان الأمريكيون يعدون العدة لعودة لاحقة إلى أرض الكتاب. فعملية حظر استيراد الكتب الأجنبية يمكن مراوغتها عن طريق طبع المؤلفات البروتستانتية محلياً في الشرق الأوسط، ومع وصول طابع صاحب خبرة من بوسطن، راحوا يراكمون كميات كبيرة من الأدبيات الدينية المختلفة تمهيداً لتوزيعها. وبما أن الترجمة إلى العربية كانت ستصبح مطلوبة للوصول إلى جمهور أوسع من المهتدين المحتملين، تم إيفاد خريجاً آخر من معهد آندوفر اللاهوتي، وهو شاب يدعى إيلي سمث،[37] من بوسطن ليبدأ فترة من الترحال، والاستكشاف، والتدريب اللغوي.

ما لبثت المشكلات الدولية التي واجهت الإمبراطورية العثمانية أن صبت الماء في طاحونة المبشرين الأمريكان. ففي عام (1821 م) قام باشا مصر، الغاضب من أن تعرّض أسطوله للتدمير دفاعاً عن السلطان لم يُكسبه أية مكافأة ذات شأن، بتحريك جيوشه شمالاً من سيناء بسرعة

وعزيمة كان من شأنهما أن تثيرا غيرة نابليون بالذات، فانتزع إقليمي سورية وفلسطين من قبضة السلطان، مخففاً من القيود المفروضة من جانب السلطات العثمانية.

صحيح أن جهود إيلي سمث الرامية إلى تعلم لغات الشرق الأوسط وعاداته كانت تحقق تقدماً يثير الإعجاب، ولكن الاستكشاف التبشيري المثالي في الأرض المقدسة كان سيتطلب مجيء فارس آخر قبل أن يتمكن فعلاً من الحديث عما يشي بأي انتصار. وقبل عقد من الزمن، في خريف عام (1821 م) كان باحث شاب بعيد عن التباهي من كونكتكت قد وصل إلى معهد آندوفر اللاهوتي في ماسوتشيستس، مركز تدريب المجلس الأمريكي لمفوضي البعثات الأجنبية. وعلى الرغم من أنه كان قد أتى للقيام بعمل مختلف تماماً عن الاستعادة التبشيرية للأرض مقدسة، فقد كان سيتولى، بالتعاون مع إيلي سمث، مهمة التمهيد اللاحق لأحد أكبر انتصارات هذه العملية.



5) ويكبر الحلم:

ولادة علم الآثار الكتابي (1821-1842 م)

ولد إدوارد رُبنسن[1] في ساوثنغتن،[2] بولاية كونكتكت في عام (1793م) لأب كان رجل دين متجهم وقسيس إحدى الأبرشيات، ما لبث أن تخلى عن منبر الوعظ للاضطلاع بمسؤوليات إدارة مزرعة مزدهرة كبيرة. ولكن رُبنسن أبدى، على الرغم من توجه عقل أبيه العملي، اهتماماً استثنائياً بالكتب والتعلم منذ نعومة أظفاره. ومع بلوغه أواخر العقد الثاني من عمره بات واضحاً بأنه لم يكن على الاطلاق ميالاً إلى إنفاق حياته على استنبات تربة نيوإنغلاند القاسية. فبعد أن عمل معلماً وصيدلانياً عدداً من السنين، تمكن رُبنسن من إقناع أبيه بوضع مستقبله بين يدي عمه الذي كان في كلية هاملتون بولاية نيويورك. وفي هاملتون أثبت رُبنسن تفوقه المتألق، إذ أبدى قابلية مميزة لتعلم مادتي اللغة اليونانية والرياضيات. وما إن تخرج حتى تم تعيينه أستاذاً في الكلية.

بدت قدرة رُبنسن على تحقيق النجاح بلا حدود. وبفضل زواجه الناجح من ابنة إحدى الأسر الغنية، لم يعد رُبنسن بحاجة إلى الراتب الضئيل لوظيفته التعليمية، فأصبح قادراً على الاستقالة لمتابعة دراساته الخاصة في منزله. والباحثون الكلاسيكيون الذين هم من مستوى رُبنسن في دولة الولايات المتحدة الجديدة، كانوا قليلين. وحين ترمل بصورة غير متوقعة وهو في السابعة والعشرين من العمر، وجد رُبنسن أنه بات يملك تركة كبيرة وأمامه مستقبل غير محدود. وبعد بضع سنوات من الدراسة الخاصة

أحَسّ بأنه أصبح مهيأ لنشر ترجمته المنقحة الخاصة لإلياذة هوميروس، مما دفعه إلى بيع مزرعة زوجه المتوفاة في ولاية نيويورك والتوجه إلى معهد آندوفر اللاهوتي بمستشوستس، الذي اعتبره (انطلاقاً من تنشئته الطائفية الصارمة) المكان الأنسب للاشتغال بمشروع أكاديمي جاد.



ادوارد رينسن

ولكن سرعان ما تكشف أن معهد آندوفر أقل من جزيرة البحث الأكاديمي الهادئة التي عقد رُبنسن آماله عليها إذ كان على خط جبهة جدل ديني بالغ الحدة داخل نيوإنغلاند نفسها. فحتى قبل الثورة الأمريكية، كان شبح الليبرالية الخطر قد بدأ ينسف الأسس اللاهوتية الصوانية التي أرساها الآباء البيوريتانيون. فقد قامت جماعة متنفذة من موحدي بوسطن بمهاجمة القيادة التقليدية لكنيسة نيوإنغلاند وبدأت تعاين كلاً من الطقوس والنصوص الدينية من مواقف نقدية صارمة، محللة ورافضة جزءاً كبيراً من عقائد المذهب البيوريتاني التقليدي الجامدة التي باتت، حسب رأيها، بالية وجوفاء.

وبالنسبة إلى قساوسة البلدات النيوإنغلاندية المتطرفة المحافظين، ممن كان إيمانهم متجذراً في الاتّباع المطلق، دونما سؤال، للطقوس التقليدية، فإن مثل تلك الآراء لم تكن إلا هرطقة صارخة؛ فمن شأن التخلي عن جزء من النصوص والطقوس المقدسة أن يفضي إلى زرع بذور الشك في الكل، وتلك فكرة لا يمكن إقرارها أو السكوت عليها. ولكن الموحدين كانوا، لسوء حظ المحافظين، يتمتعون بتأييد قوي في بوسطن مما مكنهم من تعيين أستاذ ليبرالي لشغل كرسي اللاهوت في كلية هارفارد عام (1803 م). وقد كان هذا، بالنسبة إلى المحافظين، إعلان حرب، إذ سارعوا إلى الانسحاب من هارفارد، جنباً إلى جنب مع وقف سحب دعمهم وأبنائهم؛ وأسسوا معهداً منافساً في آندوفر. والمعهد المحافظ الجديد كان سيوفر القوة البشرية للبعثات التبشيرية في سائر أرجاء الأرض من جهة، وسيبدي، من الجهة الثانية، مقاومة محافظة حازمة ضد الهجمة الليبرالية القائمة على الهرطقة على الصعيد المحلي الداخلي.

وقع رُبنسن بُعيد وصوله إلى آندوفر وانكبابه على ترجمة الإلياذة، تحت تأثير القس موزس ستيوارت، أحد أكثر لاهوتيي العصر جاذبية ونفوذاً. أصيب ستيوارت بقدر كبير من الدهشة المشبعة بالإعجاب إزاء إنجازات رُبنسن اللغوية الذاتية وانضباطه الفولاذي في عمليات فك رموز النصوص القديمة، وعبّر عن قناعته بأن من شأن اعتماد التقنيات المستخدمة في الترجمات عن الإغريقية نفسها، في دراسة الكتاب، أن تشكل تجربة بالغة الإثارة والأهمية بالنسبة إلى الأخير.

ومن نافل القول إن التجربة نجحت. فخلال ما لا يزيد عن عامين فقط كان رُبنسن قد أكمل إحاطته بقواعد اللغة العبرية القديمة إلى درجة أن ستيوارت لم يتردد لحظة واحدة في تقديم توصية بتعيينه أستاذاً في المعهد. وكان ستيوارت مقتنعاً بأنه اهتدى، حين تعرف على رُبنسن، إلى باحث محافظ ممتاز لدحض الانتقادات الكتابية التجديفية الصادرة عن الليبراليين في كمبردج.

وللأسف فإن موارد آندوفر لم تكن، برأي ستيوارت، كافية لإتمام تعليم تلميذه [مولاه] مما دفعه في عام (1826 م) إلى ترتيب ما يمكن

رُبنسن من متابعة دراساته اللاهوتية في أوروبا. ففي المراكز العلمية الكبرى بجامعات باريس، وغتنغن، وهَله، وبرلين، كان باحثون، من أمثال سلفستر دو ساسي[3] وفلهلم غزينيوس[4] يحققون تقدماً عظيماً في تحليل النَصوص القديمة، عن طريقَ تصنيف الأشكال القواعدية [النحوية ـ الصرفية] ودراسة اللسانيات المقارنة. وعلى الرغم من أن المواقف اللاهوتية للباحثين الكتابيين الأوروبيين، الذين كانوا يعتبرون الكتاب المقدس مجرد وثيقة قديمة مهمة لا أكثر، جعلت ليبرالية موحدي نيوإنغلاند تبدو محافظة خالصة، فإن ستيوارت كان مقتنعاً بقدرة رُبنسن على توظيف التقنيات الأوروبية الثورية لإثبات صحة الكتاب.

وفي أوروبا أمضى رُبنسن أربع سنوات، حاصلاً ليس تعليم أوروبي تقليدي، فحسب، بل وعلى ابنة أحد الأساتذة الألمان زوجاً ثانية له أيضاً. ومع حلول عام (1830 م) كانت فترة تدريبه قد اكتملت، فعاد إلى آندوفر ليشن حرباً لاهوتية. ومع حصوله على كرسي أستاذ الآداب المقدسة، أصبح القوة المحركة وراء مجلة أكاديمية محافظة تحمل اسم [**الخزان الكتابي الأمريكي**][5] وبوصفه رداً على العديد من الدوريات الليبرالية، فإن الخزان، اقتحم الساحة دونما خوف وبثقة تامة دفاعاً عن الدقة الحَرْفيّة للكتاب، بالإفادة من تقارير إيلي سمث وغيره من المستكشفين التبشيريين لإثبات تفاصيلها الجغرافية من جهةَ، ومن تحليلات رُبنسن النصية الخاصة ولإلقاء الضوء على العديد من الفقرات الغامضة التي تعرضت حتى الآن لأشكال من سوء الفهم، من جهة ثانية.

سرعان ماذاعت شهرة رُبنسن لتصل إلى غير المحافظين، إذ تم الاعتراف به في عام (1837 م) كواحد من المرجعيات الكتابية المرموقة في أمريكا، وعُرِض عليه الشرف العظيم المتمثل بتعيينه أول أستاذ للآداب الكتابية في [معهد الاتحاد اللاهوتي][6] الجديد بمدينة نيويورك. كان من شأن هذا التعيين أن يبدو، بنظر أكثر الباحثين، الإنجاز التتويجي لحياة علمية متميزة، ولكن رُبنسن نفسه ساوره القلق بشأن آفاقه المستقبلية الخاصة في ميدانه البحثي المفضل. فرغم سنواته الطويلة من التدريب والدراسة، ورغم عشرات المقالات والأبحاث التي كتبها عن الجغرافيا الكتابية، ظل يراوده

إحساس بالنقص لعدم قيامه، شخصياً، بزيارة فلسطين.

وفي عام (1832 م) أمضى رُبنسن بعض الوقت في آندوفر مع إيلي سمث الذي كان في إجازة من عمله في بعثة بيروت. وكان سْمث ألهب خيال رُبنسن بالآفاق العظيمة للاستكشاف الفلسطيني في ظلّ الاحتلال المصري الراهن. صحيح أن رُبنسن قَبلَ بالوظيفة في الكلية، مما أحدث قدراً كبيراً من الرضى لدى [معهد الاتحاد اللاهوتي]، ولكنه وضع عدداً من الشروط الخاصة، إذ طلب تأجيل مباشرته العمل مدة ثلاث أو أربع سنوات حتى يتمكن من تحقيق هدف من أهداف حياته العلمية، طالما راوغه إلى الآن، عن طريق قبول ما عرضه عليه إيلي سمث من تعاون ومساعدة والسّفَر إلى فلسطين ليرى بنفسه تلك الأرض المَقدسة القديمة.

ومع حلول عام (1837 م) كان قد مضى ستة أعوام على خضوع أقاليم فلسطين العثمانية السابقة لحكم الباشا المصري: محمد علي. وخلال تلك الفترة فرض الباشا وابنه إبراهيم على البلاد حكماً متشدداً. فالاحتكارات الرسمية التابعة للدولة كانت تتحكم بالتجارة كلها، كما جرى إصلاح الإدارة مما قاد للمرة الأولى في التاريخ، إلى نشر قدر كبير من الأمن العام على امتداد الدروب وطرق القوافل التي طالما ظلت مبتلية بآفة اللصوص وقطاع الطرق. وعلى الرغم من أن شعب فلسطين احتج على التغييرات؛ بل وانتفض عام (1834 م) في ثورة لم تدم طويلاً، فإن فيضاً من السياح الغربيين استغلوا الأوضاع المحسّنة لإضافة المزيد من المعرفة إلى الفهم الغربي لأرض الكتاب. وفي ثلاثينيات القرن التاسع عشر كان عدد من المستكشفين من كل من فرنسا، وألمانيا، وإنجلترا، وأمريكا، قد تجولوا بين المواقع القديمة في فلسطين، مدونين انطباعاتهم ونظرياتهم. ولكن أحداً منهم لم يكن يحظى بالخلفية التي تمتع بها إدوارد رُبنسن، مما كان سيؤدي إلى إبقاء إنجازات الجميع في الظل بالمقارنة مع إنجازاته.

سافر رُبنسن أولاً إلى أوروبا مُبْحراً من بوسطن، حيث ترك زوجه في برلين مع أهلها، وجدد، في الوقت نفسه، صداقاته الجامعية، معلناً باعتزاز

عن رحلته الوشيكة، ومستدرجاً الأسئلة ذات العلاقة بالجغرافيا الكتابية التي يمكن أن يسعى، بصورة مربحة، إلى إيجاد أجوبتها. ومن ألمانيا أبحر في الدانوب متجهاً إلى تريستا، ومن هناك، بعد توقف قصير في أثينا، سافر إلى القاهرة حيث كان قد رتب موعداً للقاء إيلي سمث.

كان مخطط رحلتهما بسيطاً: فمثلهما مثل بني إسرءيل، كانا سيغادران مصر القديمة للتوغل عبر البراري المقفرة لشبه جزيرة سيناء. وبعد زيارة موقع جبل سيناء، حيث تلقى موسى الوصايا العشر، كانا سيتوغلان في الأرض المقدسة، متوقفين لبعض الوقت في القدس، ومتقدمين شمالاً إلى سامريا والجليل، ليختتما رحلتهما، آخر الأمر، في مقر البعثة الأمريكية ببيروت.

لم تتح ظروف السفر الإسبارطية القائمة على التقشف والاقتصاد التي قررها رُبنسن وسمث الفرصة لأي مزيد من الأمتعة. فرُبنسن لم يجلب معه سوى ثلاث بوصلات، وميزان حرارة، وتلسكوبات، وبكرات قياس، وكتب مقدسة بالإنجليزية واللغات المحلية، وبضعة كتب لرحالة ومستكشفين سابقين في فلسطين، مع دليل سياحي صادر حديثاً بعنوان: [الرحالة الحديث].[7] ولاستحالة الحصول على إمدادات إضافية إلى أن يصلا إلى فلسطين نفسها، فقد قاما باستئجار جمال تحمل لهما مؤونتهما من الأرز والبسكويت والقهوة والشاي والسكر والزبدة والمشمش المجفف والتبغ وقناديل الشمع، والفحم. وكانت معدات معسكرهما تتألف من خيمة، وقماش شوادر للأرض، وبندقيتي مشاة قديمتين، ومسدسين. والأهم من ذلك كله كان فرمانهما الرسمي، أو وثيقة السفر، يليها في الأهمية أدلاّؤهما البدو وخدمهما المصريون. وبعد توضيب كل شيء بما يرضي إيلي سمث، انطلق الرجلان نحو السويس.

وبعد شيء من إعمال الفكر لتخمين المكان الدقيق لعبور بني إسرءيل البحر الأحمر، وتسجيل الموقع المحتمل بثقة، شق رُبنسن وسمث طريقهما إلى دير القديسة كاترين في قلب سيناء، حيث استضافهما الرهبان اليونانيون المقيمون. وقد أصرّ مطران الدير العائد للقرن الميلادي الخامس دوماً على القيام شخصياً بإرشاد الأمريكيين إلى مزارات الحجيج التقليدية

على جبل سيناء، ولكن الانحدار الشديد لسفح الجبل الصخري كان مخيباً لرُبنسن، الذي استاء من الجهل العام وعدم إمكانية الوثوق بوصف دليله.

ظل الحجاج المسيحيون القادمون إلى جبل سيناء لقرون من الزمن يوافرون للدير مصدر دخله الرئيسي، واستطاع رُبنسن أن يلاحظ أن حرْصَ المطران على تشجيع هبة سخية كان أكبر من اهتمامه بالتعرف على المواقع التاريخية بصورة صحيحة ونقدية. وبدلاً من الوقوف بجلال أمام قمة سيناء الذي طالما تخيله رُبنسن على الدوام، لم يكن هناك ما يشير إلى مكان إعطاء الشريعة إلا مزار وسخ تحول إلى عش للذباب، سرعان ما استنتج رُبنسن، بالاستناد إلى معرفته بالنص الكتابي، أنه من غير المحتمل أن يكون الموقع الصحيح.

ومن سيناء تقدم رُبنسن وسمث نحو العقبة أملاً في تعقب مسار بني إسرءيل شمالاً إلى قلب شرق الأردن، ولكن الوقائع الحديثة ما لبثت أن تدخلت مرة أخرى. فقائد الحامية المصرية في العقبة رفض السماح لهما بالتقدم محذراً من حروب بدوية جارية في المنطقة. ولكن رُبنسن فسر امتناع القائد عن السماح على أنه محاولة منه للحصول على مبلغ من المال مقابل توفير (الحماية) ورفَضَ بعناد أن يخضع لمثل هذا الابتزاز. وتم بالتالي تغيير المسار بما يجعل المسافرين يتوجهون شمالاً عبر صحراء النقب شبه المجهولة. حاول رُبنسن استغلال الوضع إلى الحد الأقصى، عاقداً الأمل على احتمال أن يتمكن من كتابة بعض التقارير عن أرض غير معروفة سابقاً، ولكن ذعر الأدلاء البدو أفسد الرحلة، وجعل وتيرتها أسرع مما أراده الأمريكيان.

ومع تقدمهما شمالاً نحو قلب فلسطين، أصبحت الأرياف التي مرّا بها شديدة القحط والقيظ حتى في ذلك الوقت من مطلع فصل الربيع. ولدى اختتام المرحلة الأولى من رحلتهما والوصل إلى مدينة بئر السبع الصغيرة، بدأ رُبنسن يتأمل أحداث التاريخ الكبرى التي جرت في ذلك المكان، حين كان يُعرف باسمه الكتابي: بير سبع، إذ كتب في مجلته يقول: «هنا إذن المكان الذي عاش فيه الآباء الأولين: إبراهيم، وإسحاق، ويعقوب، معظم الوقت، وهنا نصّب صموئيل أبناءه قضاة؛ ومن هنا انطلق إيليا للتجول في

الصحراء الجنوبية وجلس تحتها كل يوم وكل ليلة. هنا كانت حدود فلسطين الأصلية الممتدة من دان إلى بير سبع. وعلى هذه التلال المتورمة انتشرت قطعان البطاركة بالآلاف؛ حيث لا نجد الآن إلا بضعة جمال وحمير وماعز». وعند دخول المناطق الأكثر خصباً من يهوذا الجنوبية، قام رُبنسن وسمث بطرد أدلائهم البدو المزعجين، وتابعا طريقهما بسرعة على ظهور الخيل للوصول إلى ما كانا يأملان في أن يكون زيارة أكثر بهجة لمدينة القدس المقدسة.

ولكن الأرياف القاحلة المحيطة بالقدس لم تكن بالنسبة إلى رُبنسن أكثر جاذبية من الأراضي التي سبق له أن مر بها، غير أن قناعة واخزة ما لبثت أن اعترته لدى اقترابه من أسوار المدينة القديمة. فقد بدا له الأمر كما لو أن واقع فلسطين الحالية انقلب فجأة إلى شيء غير ذي شأن، إلى ما ليس أكثر من سراب؛ وجوهراً أكثر عمقاً ما لبث أن تصاعد، مقتحماً وجدانه ومالئاً قلبه.

كتب رُبنسن فيما بعد التالي: «من أيام الطفولة الأولى كنت قد قرأت عن مواقع هذه البقعة المقدسة ودرستها؛ أما الآن فقد رأيتها بأم عيني، وبدت مألوفة بالنسبة إلي، كما لو كانت تحققاً لحلم سابق. فقد بدا الأمر كأنه نوع من الرجوع ثانية إلى مشاهد الطفولة العزيزة على القلب، والتي لم تتم زيارتها منذ زمن طويل حقاً، ولكنها حية في الذاكرة بصورة مميزة». وطبيعة رحلته إلى فلسطين بالذات كانت ستنقلب انقلاباً كاملاً وبسرعة؛ وكانت ستصبح عملية استكشاف تاريخية، بدلاً من أن تبقى مجرد رحلة حج. فرُبنسن سَيُحْيي للعالم حلم الأرض المقدسة الجميل، ذلك الحلم الذي يتمتع بقدر كبير من الاحترام في مسقط رأسه نيوإنغلاند، منتزعاً إياه، إذا لزم الأمر، من وضعه الحالي الغارق في القذارة والذل والفقر.

وبعد دخول المدينة ولقاء مجموعة صغيرة من المبشرين الأمريكان، وعددٌ غير قليل منهم كانوا من طلابه السابقين في آندوفر، انطلق رُبنسن مباشرة إلى العمل وبيده بَكَرَةُ القياس والبوصلة، في سبيل إعادة اكتشاف

الأمجاد المنسية للآثار القديمة الكتابية في الأزقّة والباحات الخلفية للمدينة الحديثة. ومثل إدوارد دانييل كلارك قبل حوالي أربعين سنة، استنتج رُبنسن أن الموقع التقليدي لكنيسة القيامة لم يكن أكثر من "خرافة دينية". ولكنه، ورُبنسن، خلافاً لحال كلارك، كان مستنداً إلى أرضية واسعة من الأدبيات الكتابية وما بعد الكتابية، وأكثر قدرة على معاينة جميع آثار القدس بعين مراقب نقدي. وعبر استخدام أحدث تقنيات البحوث الكتابية المتركزة على الآثار المادية، سعى إلى فصل الواقع عن الوهم، والقديم عن الحديث، وإلى توضيب صورة شاملة للأسوار، والبوابات، وتمديدات المياه، وتضاريس القدس الكتابية. وببطء، بدأ الباحث النيوإنغلاندي الدؤوب بلَمّ أشلاء البهاء الحقيقي لمدينة صهيون القديمة، مثل حلم إلهي يتجلى أمام الصالحين.

ومن بين سائر نقاط علام القدس التي باتت مألوفة بالنسبة إلى العالم الغربي عن طريق كتب الرحلات واللوحات المائية لأوائل المستكشفين، فإن المنصة التذكارية المرفوعة المكللة بقبة الصخرة المذّهبة والمسجد الأقصى القريب ذا القبة الفضية، طالما ظلا يعتبران البؤرة المركزية لكنز أثري فريد وبالغ الأهمية. والاسم العربي لهذه الحوزة المقدسة (الحرم الشريف) لم يكن إلا صدى لتبجيل المسلمين لصخرتها المقدسة، فالمكان ليس هو الهيكل اليهودي القديم فقط، بل ومنطلق رحلة محمد الليلية الإعجازية (المعراج) إلى السماء أيضاً.

وقد أحاط بالحرم سور عملاق واقظل الحجاج اليهود على امتداد القرون يحتشدون للصلاة أمام واجهته الغَربية، نادبين حداداً على البقايا الأخيرة لهيكلهم القديم. وكما ربطت التقاليد المسيحية الحرم بموقع هيكل اليهود؛ أعاد الصليبيون تسمية قبة الصخرة وأطلقوا عليها اسم [هيكل الرب][8] كما أطلقوا على المسجد الأقصى اسم [هيكل سليمان][9] خلال احتلالهم القصير للمدينة، كما أسّس الفرسان الذين تمركزوا هناك [أخوية فرسان الهيكل].[10] غير أن الوقائع العلمية المؤيدة لمثل ذلك التشخيص كانت قليلة جداً، نظراً لأن أولئك من غير المسلمين القادرين على الدخول إلى فناء الحرم، منذ انتهاء الحملات الصليبية، كانوا غاية في القلة

وعلى الرغم من أن رُبنسن كان مضطراً لأن يحصر تحقيقاته بالملامح الخارجية للحرم، فقد استطاع أن يحقق اكتشافاً بالغ الأهمية. فمن الآثار القديمة المدهشة التي لاحظها وإن بقيت مغفلة إلى ذلك التاريخ، كانت ثمة أحجار ذات أشكال غريبة ناتئة نتوءاً سمجاً من الواجهة الجنوبية ـ الغربية لسور الحرم. كان أوائل المستكشفين قد اعتبروها دليلاً على زلزال قديم ما. ولكن اطلاع رُبنسن على كتابات المؤرخ اليهودي يُوسِفُوس فلافيوس الذي عاش في القرن الميلادي الأول مكّنه من التعرف على أنها بقايا قنطرة بوابة الهيكل التذكارية المهيبة التي بناها الملك هيرودس. ومع أن الأدلاء كانوا، في غضون بضع سنوات، سيشيرون، وبانتظام، إلى هذا الملمح قائلين للسياح الغربيين إنه (قنطرة رُبنسن) فقد كان في حقيقة الأمر أحد الاكتشافات التي أفضت إلى الاستنتاج الرُبنسني القائل بأن منصة الحرم الشريف لم تكن في الواقع إلا قاعدة الهيكل الهيرودوسي.



قنطرة ربنسن

ومع حلول مطلع أيار، كان رُبنسن مستعداً لتوسيع دائرة بحثه بما يشمل الضواحي المحيطة بيهوذا القديمة. وخبرة إيلي سمث ونصائحه كانت الآن قد باتت حاسمة بصورة خاصة، لأن الضواحي غير المعروفة جيداً كانت ستشكل تحدياً أكبر، على الرغم من أنه كان ناجحاً في استكشاف القدس المشبعة وصفاً في النصوص الكتابية. ففي أثناء عمله كمبشر كان إيلي سمث قد وضع قائمة للأسماء العربية لقرى فلسطين، وكان من شأن ذلك أنّ يساعد أستاذ العبرية رُبنسن على مقارنة أوجه الشبه اللغوية مع مختلف المواقع المذكورة في الكتاب. ومن خلال المطابقة بين الأماكن والأسماء، استطاع رُبنسن أن يتعرف على أشكال التناظر الدقيق بين أسماء المكان العبرية القديمة ونظيرتها العربية الحديثة، فيحدد عشرات المواقع القديمة: فقرية عناتا، لم تكن فيما يبدو، إلا <عنتوت>[11] الكتابية، مسقط رأس النبي إرميا؛ وجباع كانت هي <جبعه> إحدى مدن بنيامين؛ ومخماس بدت مناسبة تماماً لساحة معركة شاول في مخماس؛ وبتين كانت <بيت ءيل> محطة توقف إبراهيم وموقع حلم يعقوب الشهير؛ ومما لا شك فيه أن الجب كانت هي <جبعون> الكتابية حيث قام يوشع بتجميد الشمس في مكانها.

وكانت هذه الجولة التجريبية في يهوذا، حسب كلام رُبنسن فيما بعد: «قد قادتنا عبر مشاهد مرتبطة بالعديد من الأسماء والأحداث والأفعال التاريخية مثل إبراهيم ويعقوب، وسليمان وشاول، ويوناثان وداود، وصموئيل؛ فقد تمكّنا من تحديد الأماكن التي عاشوا ونشطوا فيها، واستطعنا أن نتعقب ما يمكن اعتباره خطواتهم ذاتها». وبالتالي فإن آمال رُبنسن كانت قد تحققت بما يفوق أكثر التوقعات جموحاً، إذ بات ممكناً، حسب قناعته، إنقاذ بهاء الماضي من قلب الحاضر الغارق في البؤس.

وخلال الشهرين التاليين طاف رُبنسن وسمث على معظم أرجاء فلسطين، دون المرور بالمكان نفسه مرة ثانية إلا فيما ندر. ولدى نزولهما إلى وادي الأردن قاما باستكشاف عين جدي ومسعدة، فحددا الموقعين المحتملين لمدينتي سَدوم وعمورة الملعونتين. وفي الأمسيات، على ضوء نار المخيم، حرص رُبنسن وسمث على تسجيل لُقى النهار بعناية

في دفاترهما، موردين براهين مستمرة على صحة الكتابات الوصفية الجغرافية الواردة في الكتاب.

أعاد الرجلان أثناء السفر شمالاً عبر المناطق الجبلية لأرياف سامريا، اكتشاف عشرات المواقع الكتابية الإضافية، محملين خريطة فلسطين، التي طالما ظلت خالية، مزيداً من النقاط ذات الأهمية. وفي الجليل، كما في غيرها من الأماكن، تجنب رُبنسن المزارات التقليدية، مفضلاً استكشاف القرى النائية، حيث كانت إمكانية العثور على ما يشير إلى آثار قديمة حقيقية متوافرة. وكما في الأماكن الأخرى من فلسطين، فقد استطاع رُبنسن استطاع أن يعيد تشكيل الصورة الجغرافية القديمة لتلك المنطقة، متعرفاً على بقايا العديد من الكنائس والكُنُس والمواقع الكتابية القديمة، ومدوناً ملاحظاته عنها.

وأخيراً وصل الرحالان إلى بيروت في السابع والعشرين من حزيران، سالكين الطريق الساحلي باتجاه الشمال، بعد المرور بكل من عكا وصور، حيث تمت استضافتهما في المقر المريح لمحطة البعثة التبشيرية الأمريكية. وهكذا فإن رحلة رُبنسن الأولى إلى الأرض المقدسة كانت قد استكملت. ولكن صحته كانت، للأسف، في تدهور مضطرد خلال الجزء الأخير من أسفاره، بل وأصابته في بيروت نوبة حمى شديدة أقعدته في الفراش عدداً من الأيام. إلا أن المرض لم يستطع بحد ذاته أن يحول دون قيامه بكتابة نتائج أبحاثه ونشرها. ومع حلول أوائل تموز كان قد استعاد ما يكفي من العافية والصحة ليستقل إحدى البواخر المبحرة إلى الإسكندرية، ومن هناك عاد إلى برلين حيث كان يأمل أن يمضي بعض الوقت، وهو يقوم بمراجعة الأكوام الهائلة من الملاحظات والتعليقات والمخططات إلخ.. التي كان قد وضّبَها في الأرض المقدسة.

وهنا ما لبث رُبنسن، برفقة إيلي سمث، أن أدرك، تدريجياً، مدى أهمية اكتشافاتهما. فبمعنى من المعاني كانا قد نجحا في فرض خريطة فلسطين القديمة على الخريطة الحالية لبعض أقاليم الإمبراطورية العثمانية المتخلفة، بما أفضى إلى كشف النقاب عن كنوز فلسطين المخبوءة، عن مئات المواقع الكتابية المبعثرة في سائر أرجاء المناطق الريفية البائسة

من البلاد. أما السكان الحاليون فكانوا أسرى وعبيداً، بلا أمل، إما للجهل أو للهمجية، بانتظار ما ستحققه البعثات التبشيرية الأمريكية والإنجليزية من تقدم. فالصناعة لم تكن موجودة عملياً، والجزء الأكبر من الأرض كان قاحلاً وغير قابل للزراعة. أما الكنز الحقيقي لفلسطين فقد كان كامناً، برأي إدوارد رُبنسن، في أعماق الماضي.

وفي السنة التالية لجولة رُبنسن وسمث عبر فلسطين، استأنف الباشا المصري والسلطان العثماني حرباً مكشوفة. وفي معركة نصيبين الحاسمة في هضاب آسيا الصغرى هُزم الجيش التركي هزيمة كاملة، مما أبقى أبواب القسطنطينية مفتوحة أمام التقدم المصري. ثم جاء الموت المفاجىء للسلطان محمود الثاني، فأحدث صدمة أخرى للإمبراطورية المتداعية، وأجلس على العرش صبياً طري العود في السادسة عشرة من العمر يدعى عبد المجيد. وتحت إلحاح وزرائه المهيمنين الشديد أقسم عبد المجيد على الانتقام للمهانة التي ألحقها به المصريون. ولكن السلطان كان سيضطر، حتى يتمكن من طرد الغزاة من آسيا الصغرى، ومن استعادة كل من سورية وفلسطين، إلى التماس المساعدة العسكرية من الأوروبيين، الذين كانت مطامعهم الإقليمية في المنطقة قد باتت معروفة جيداً.

احتشد في صيف عام (1841 م) احتشد أسطول مشترك كبير من البوارج الحربية البريطانية والنمساوية والتركية قبالة الشواطىء الصخرية لميناء عكا. وفي غضون ثلاثة أيام من القصف الذي لم يعرف معنى الرحمة تم احتلال القلعة وفرّتْ الحامية المصرية التي كانت فيها. وما لبثت حركة عصيان عامة للفلاحين الفلسطينيين ضد قوات الاحتلال المصرية أن اندلعت في المناطق الداخلية، مما مهد الطريق أمام غزو تركي قادم من الشمال. وتمكن السلطان الشاب بمساعدة حلفائه الأوروبيين من تحطيم قوة محمد علي واستعادة فلسطين مرة أخرى. صحيح أن فترة الاحتلال المصري المهين كانت قد انتهت، ولكن استئناف السيطرة التركية على الأرض المقدسة ما كان مقدراً لها، بالتأكيد، أن تعيد هذه الأراضي إلى عزلتها السابقة.

أصبحت بريطانيا في عام (1839 م) أولى القوى الغربية التي أقامت قنصلية دائمة في القدس، وفي الأعوام التي تلت مباشرةً إعادة الاحتلال

العثماني، حصلت كل من فرنسا وبروسيا وسردينيا والنمسا وإسبانيا، هي الأخرى، على حق التمثيل الرسمي هناك. وعلى امتداد قرون من الزمن لم يكن إلا قلة نادرة من الغربيين قد سُمح لها بالإقامة في المدينة المقدسة. أما الآن فقد بات الدبلوماسيون الأوروبيون ذوو القبعات العالية، تواقين إلى تعزيز نفوذ بلدانهم وحماية مصالحها في الأرض المقدسة، يتسكعون في شوارع القدس مع حراسهم الشخصيين المحليين، ممن عرفوا باسم القواصين.

وفي ظل شروط معاهدات (الامتيازات) القديمة بين السلطان ومختلف القوى الغربية، مُنحت هذه القنصليات مرتبة موازية لمرتبة باشا المدينة، مع حقوق الإشراف على الشؤون القانونية والإدارية لمواطنيها داخل الحدود الجغرافية لصلاحياتها. ولكن الدول البروتستانتية لم يكن لها أية ممتلكات ذات شأن عدا مؤسسة صغيرة لإيواء جملة الجمعيات التبشيرية المختلفة، على الرغم من أن القنصل الفرنسي كان يستطيع المطالبة بحق "حماية" الكنيسة الكاثوليكية المحلية وممتلكاتها، كما كان الروس يستطيعون أن يطالبوا بحقوق مماثلة فيما يخص ممتلكات الكنيسة الأرثوذكسية. وفي عام (1839 م) كان المصريون قد منحوا إذناً خاصاً يقضي ببناء كنيسة أنغليكانية [بروتستانتية - ز. م] على جبل صهيون، ولكن البريطانيين لم يستطيعوا تأسيس مطرانية بروتستانتية في القدس، بما يمكن المذهب البروتستانتي من التنافس المتكافئ مع الكنائس القديمة في الأرض المقدسة، إلا بالتعاون مع القوة العظمى البروتستانتية الأخرى: بروسيا. وفي هذه الأثناء كان الأمريكان قد تخلوا عن سائر جهودهم ومحاولاتهم في القدس من أجل التركيز على بيروت، حصراً، تاركين الأمر لكل من البريطانيين والبروسيين.

وفي عام (1841 م) الذي شهد عودة حكم العثمانيين إلى فلسطين، عاد إدوارد رُبنسن إلى الولايات المتحدة لمباشرة واجباته التعليمية في [معهد الاتحاد اللاهوتي]، ورجع إيلي سمث إلى مقر البعثة في بيروت لمتابعة عمليات إنقاذ الأرواح. ولكن صدورَ كتابهما: [**أبحاث كتابية في فلسطين، وجبل سيناء، وبلاد العرب الصخرية**][12] سرعان ما أدى، وعلى الفور، إلى

وضعهما في مركز اهتمام العالم المسيحي بأسره. فالانبهار الشديد الذي اجتاح أمريكا وأوروبا بإعادة اكتشاف رُبنسن وسمث جغرافية فلسطين الكتابية، بلغ حداً دفع أحد المعلقين البريطانيين إلى المراهنة على أن يد السماء ربما لعبت دوراً، إذ كتب يقول: «ربما كان تمجيد فضولهما الخاص هو الدافع الوحيد الذي كان حاضراً في ذهنيهما؛ لم يخطر لهما أنهما كانا ينفّذان مشيئة سماوية، وأن يهوه أراد أن يجعلهما شاهدين على حقيقته هو أمَام أجيال العالم اللاحقة».

صحيح أن أوائل المبشرين البروتستانيين حاولوا إنقاذ أرواح سكان الأرض المقدسة الأصليين، كما أن خلفاءهم الأكثر استقراراً كانوا سيتابعون الطريق ذاتها؛ ولكن رُبنسن وسمث كانا قد باشرا عملية إنقاذ الروح التاريخية لفلسطين بالذات.

أصبح إدوارد رُبنسن في عام (1842 م) الأمريكي الأولَ الذي يحصل على الوسام الذهبي المرموق من [الجمعية الجغرافية الملكية][13] بلندن. وتزاحم كثير من العلماء والجغرافيين، فضلاً عن العديد من الباحثين الكتابيين ورجال الدين، في التهليل لإنجازه. وإدوارد رُبنسن الذي كان قد أنهى عملية معينة بكل تأكيد، كان قد أطلق عملية أخرى. فقد كان من شأن عودة السيطرة العثمانية إلى أرض الكتاب أن تفضي وبسرعة إلى اختراق واسع لهذه البلاد من جانب حلفاء السلطان الأوروبيين، ومن شأن البحث المستمر عن المواقع والآثار الكتابية أن توفر هدفاً ملموساً لمثل ذلك الاختراق والتوغل.

من المؤكد أن العمل الطليعي لكل من رُبنسن وسمث كان قد تسامى كثيراً، وتجاوز الأهداف التبشيرية من جهة، والمعركة النيوإنغلاندية التي رَمَت إلى إثبات صحة الكتاب من جهة ثانية. ففي غوصهما العنيد في أعماق الماضي، كانا يقومان بإرساء الأساس المتين لفرع جديد تماماً من فروع البحث العلمي والديني والسياسي في الأرض المقدسة. لقد وُلد فن وعلم الآثار الكتابي بجهودهما الدائبة.



الجزء الثاني

النفوذ والهيبة



6) اقتحام الصحراء:

الملازم الأول لِنتش وبعثة الاستكشاف الأمريكية إلى حوض البحر الميت (1847-1848م)

في العقدين اللذين أعقبا نشر أبحاث إدوارد رُبنسن في الأرض المقدسة؛ شهدت فلسطين فيضاً لم يسبق له مثيل من الرحالة الغربيين العازمين على تتبع أثر خطوات البرفسور الأمريكي المتبحر، واستعادة بهاء الماضي الكتابي. ففي ثلاثينيات القرن التاسع عشر بدأت الرحلات البحرية المنتظمة للبواخر تصل إلى ميناء يافا، ومع انطلاقة صناعة سياحية راسخة في أربعينيات القرن نفسه، لم تعد أية رحلة إلى فلسطين منطوية على الصعوبات والمخاطر التي كانت شائعة في بدايات القرن.

لقد شكّل العثمانيين بإعادة احتلال فلسطين بداية حقبة جديدة في الشرق الأوسط كله. وفي أعقاب التدخل الأوروبي ضد محمد علي، راح التجار والمستكشفون الأوروبيون يطوفون أرجاء الإمبراطورية العثمانية المتجددة طولاً وغرضاً، واضعين الخرائط، محققين، وباحثين عن مواد خام وطرق تجارية جديدة لصالح العالم الصناعي. فعملية إنعاش إمبراطورية عبد المجيد المتداعية لم تصبح ممكنة إلا مقابل ثمن باهظ دفعه السلطان، إذ أن القوى الغربية الكبرى باتت الآن تطالب بما هو أكثر من مجرد حق العبور في أراضي السلطان، في حين بقيت إنجلترا وفرنسا مستمرتين في

تنافسهما التقليدي على السويس. فالشرق الأوسط كان خزاناً محتملاً لموارد غير مكتشفة وبؤرة مواقع استراتيجية متقدمة، وقاعات البيروقراطية العثمانية الغارقة في الصمت ذات يوم في الباب العالي بالقسطنطينية؛ باتت الآن زاخرة بأصداء أحاديث السفراء والوكلاء التجاريين الأوروبيين الساعين، بشغف، إلى الحصول على الامتيازات التجارية، عن طريق تمكين رجال الأعمال الأجانب المبادرين من عقد الصفقات التجارية، وتنفيذ مشاريع خطوط الهاتف والقنوات والسكك الحديدية بالموارد الضريبية العثمانية.

وعلى الرغم من الإنجازات الكبيرة لمستكشفين أفراد مثل إدوارد رُبنسن، فإن الولايات المتحدة كانت من أواخر القوى الغربية التي التحقت بركب التزاحم الدولي على تقاسم المغانم الاقتصادية في الشرق الأوسط. صحيح أن معاهدة الصداقة الأمريكية العثمانية كانت قد وُقعت من قبل الرئيس أندرو جاكسون والسلطان محمود الثاني في عام (1830م) ولكن النتائج الملموسة لذلك الاتفاق لم تكن أكثر من امتيازات تجارية عادية، وحقوق رسو في الموانىء شبيهة بتلك التي كانت تتمتع بها سائر القوى التجارية الأخرى في المتوسط، لأن مصالح الولايات المتحدة الرئيسية كانت ما تزال كامنة في العالم الجديد. ومع اندلاع الحرب المكسيكية في عام (1846 م) كان عدد من مزارعي القطن الأمريكيين الطموحين قد أقاموا مزارع تجريبية في ضواحي القسطنطينية وعلى امتداد النيل. ولكن حقائق الشرق الأوسط السياسية لم تكن لتوافر مجالاً رحباً للتوسع، على الرغم من أن القطن الأمريكي ازدهر فعلاً في تربة هذه المنطقة. فحتى تغدو الولايات المتحدة قادرة على التنافس مع القوى العظمى الأخرى، من أجل الحصول على حصتها من التجارة الرابحة مع كل من الإمبراطورية العثمانية والشرق الأقصى، كان لابد لطريق تجارية أمريكية حصراً أن تتطور عبر الشرق الأوسط. وفيما ظلت فرنسا دائبة على توسيع نفوذها في مصر، واستمر البريطانيون يعبّرون عن اهتمام متزايد بإمكانية النقل النهري عن طريق الفرات إلى الخليج الفارسي، فإن الأنظار الأمريكية تحولت نحو بديل مراوغ في سويداء قلب الهلال الخصيب بالذات.

وكما سبق لإدوارد رُبنسن مع آخرين من أوائل المستكشفين أن أشاروا في تقاريرهم، فإن الأرض المقدسة كانت مشطورة إلى نصفين من الشمال إلى الجنوب بواد متّصل يحتضن بحيرة طبرية، ونهر الأردن، والبحر الميت. وكطريق تجارية طبيعيّة ممتدة من أواسط سورية إلى خليج العقبة والبحر الأحمر في الجنوب، بدت هذه أفقاً مثالياً لشحن البضائع من شاطئ البحر الأبيض المتوسط إلى المحيط الهندي. ففي تاريخ مبكر يعود إلى عام (1816 م) كان عميل متنكر من عناصر شركة الهند الشرقية البريطانية، يدعى جيمس سلْك بكنغهام، قد جاء إلى الأرض المقدسة عازماً على استكشاف مثل هذه الإمكانية، ولكن عداء البدو ومناخ المنطقة القاسي حالا دون نجاحه.

وشكلت إحدى أكثر سمات فلسطين غرابة وبعثاً على الحيرة، تلك المتمثلة بالبحر الميت، العقبة الكبرى أمام ابتداع أية طريق تجارية. ففي ذلك الحوض الحار، والجاف، والمهجور، حيث كانت تشكيلات معدنية غريبة تطفو على الشاطىء الجنوبي لبحر محصور في اليابسة، لم يكن ثمة إلا القليل من منابع المياه العذبة. أما المياه الزيتية الزلقة والراكدة للبحر نفسه فلم تش بأي شيء يشير إلى الحياة، كما أن شواطئه المقفرة المغطاة بطبقة من المَلح لم تكن لتوافر أي مأوى يقي من الريح والشمس. ولنجاح مشروع الطريق التجارية كان لابد من التغلب على تلك الظروف المناخية الصعبة، كما كان ضرورياً، في المقام الأول، إثبات أن البحر الميت نفسه صالح للإبحار.

في عام (1835 م) حاول مغامر إيرلندي اسمه كرستفر كستيغن[1] أن يبحر برفقة بحار مالطي على سطح البحر الميت في منتصف فصل الصيف. لم يكن التوقيت حكيماً فسرعان ما استنفذ الرجلان مؤونتهما من المياه العذبة، وهما على ظهر قارب مكشوف، وأُصيبا بالوهن والنعاس تحت وطأة القيظ الذي لا يرحم. فكوستيغان نفسه غاب عن الوعي، ولكن رفيقه تمكن من إيصال القارب إلى الشاطىء والزحف بصعوبة باتجاه قرية أريحا. وبعد قدْر غير قليل من التأخير، وصلت النجدة أخيراً، وتم نقل كوستيغان إلى القدس، حيث توفي بعد يومين تحت تأثير ضربة

الشمس القاسية. وأضحت شاهدة قبر كوستيغان في المقبرة البروتستانتية الصغيرة في القدس، بمثابة تحذير صارم لجميع مرشحي المغامرة اللاحقين، ينبههم إلى عواقب الإقدام على المزيد من عمليات استكشاف البحر الميت.

ولكن الإنذار تم إغفاله. ففي عام (1847 م) صمم فريق من البحرية البريطانية، بقيادة (اللفتنانت) وليم مولينو،[2] على تحدي البحر الميت مرة أخرى. وموسعاً الهدف الأولي لبعثة كوستيغان وحاصلاً على الدعم المالي من [الجمعية الجغرافيا الملكية]، قام مولينو بنقل قوارب بُنيت خصيصاً براً من البحر الأبيض المتوسط إلى بحيرة طبرية. فمن تلك الكتلة المائية الهادئة كان يريد أن يبحر جنوباً على امتداد نهر الأردن كله، وأن يستكشف من مصبه قرب أريحا، سطح البحر الميت وشواطئه بصورة كاملة.

ومع أن مولينو وعناصره نجحوا في شق طريقهم عبر جل مجرى الأردن، فإنهم ما لبثوا، تدريجياً، أن راحوا ضحية العطش وضربة الشمس في النهاية، فضلاً عن أنهم غدوا هدفاً سهلاً لقطاع الطرق من عشيرة العدوان البدوية، التي كانت تعيش في المنطقة الواقعة إلى الشرق من النهر، إذ تمخضت سلسلة من الهجمات المباغتة عن مقتل بضعة بحارة بريطانيين. ومولينو نفسه لم يعش إلا عدداً قليلاً من الأشهر الإضافية قبل وفاته جراء حمى البرداء. وهكذا كان البحر المميت سيبقى، ولو مؤقتاً لغزاً.

أما صاحب فكرة إرسال بعثة بحرية أمريكية لاستقصاء مدى إمكانية إيجاد طريق تجارية جديدة عبر الأرض المقدسة، تمتد من البحر الأبيض المتوسط إلى البحر الأحمر، فقد كان ملازماً أول بحرياً في السادسة والأربعين من العمر من ولاية فيرجينيا، اسمه وليم فرنسس لنتش.[3] وكان قد شارك في المعارك البحرية على امتداد الشواطىء الصخرية ذات الانحدار الشديد عند موقع فيراكروز،[4] في أثناء الحرب المكسيكية، حيث كانت العمليات ناجحة مما شجعه على الحلم بنشر أمجاد أمته على شواطىء أبعد حتى من الشواطىء المكسيكية. وفي الجنوب الذي هو مسقط رأس لنتش، كان الكتاب يحظى باحترام عميق، وإن لم يتعرض

لما مر به في نيوإنغلاند من تمحيص وتدقيق. وبالتالي فإن الهياج الذي أثارته اكتشافات إدوارد رُبنسن ما لبث أن أفرز حماساً أمريكياً كبيراً لعملية القيام بالمزيد من الاستكشاف في الأرض المقدسة. أما إخفاق أوائل مستكشفي البحر الميت فلم يشكل تحذيراً محبطاً بقدر ما شكل تحدياً لا يقاوم بالنسبة إلى لنتش، الذي كان مقتنعاً بأنّ بحارة الولايات المتحدة قادرون على النجاحَ حيث أخفق مغامر إيرلندي طائش، وفريق صغير من البحارة البريطانيين سيئي التجهيز والتسليح.



(اللفتنانت) وليم لنتش

وزاعماً بشيء من التباهي «أن شيئاً لم يبق أمام البحرية لتفعله» بعد أن أصبحت مدينة فيراكروز وميناؤها بأيدي أمريكا، بادر لنتش في أيار من عام (1847 م) إلى مراجعة فيرجيني آخر هو وزير البحرية جون مسُن،[5] للحصول على إذن يمكنه من الاضطلاع بمهمة بعثة استكشافية أمريكية إلى الأرض المقدسة. وهدفه الظاهري كان الإبحار حول محيط البحر الميت واستكشافه بشكل كامل، مع تركيز الأنظار على افتتاح طريق أمريكية جديدة للتجارة. غير أن دافعاً آخر كان أيضاً يحرك المشروع. ففي ذلك

الوادي المقفر المملوء بالملح كان الرب قد أباد مدينتي سَدوم وعمورة الملعونتين. وهناك أيضاً تحولت زوج لوط إلى عمود من الملح. وما من مكان آخر في فلسطين كان يضم الجغرافيا المادية العاكسة، بمثل هذه الدقة، سائر الكتابات الوصفية السريالية الواردة في الكتاب. وقد اعتقد لنتش بأن البحارة الأمريكان الشجعان سيثبتون هناك مدى صدقهم وإخلاصهم؛ عن طريق البرهان بأنه من الممكن الإيمان بالكتاب واتباع تعاليمه، حتى في هذه الأيام المتأخرة الضنينة بشكل يثير الحزن.

وفي اليوم الحادي والثلاثين من تموز عام (1847 م) تلقى لنتش خبراً يقول بأن طلبه المتعلق بإيفاد بعثة استكشافية أمريكية إلى البحر الميت قد تمت الموافقة عليه بحماس من قبل وزارة الحربية في واشنطن، فسافر إلى قاعدة بروكلين البحرية ليتسلم قيادة سفينة سَبْلاي[6] الأمريكية الراسية (ومن قبل كانت السفينة تحمل الاسم المناسب: كروسيدر[7] [الصليبية (المترجم)]). والخطة المقترحة من قبل لنتش قامت على اتباع المسار الذي اتخذه مولينو في وقت سابق من العام نفسه: إذ كان سيتعين على المستكشفين نقل القوارب من ساحل المتوسط إلى بحيرة طبرية، ومن هناك يقومون بالتجذيف مع الأردن إلى البحر الميت.

ولحماية القوارب من المنحدرات الصخرية السريعة لنهر الأردن، ومن المواد الكيميائية الفعالة للبحر الميت، طلب لنتش أن تتم صناعة أحد القاربين: فَني مسَن،[8] من النحاس، والآخر: فَني سْكَينَر،[9] من الحديد المصفح (المزيَّق). ولتسهيل نقلهما براً كان لنتش قد أوعز ببناء عربات خاصة مجهزة بالأطقم اللازمة لربط جياد الجر التي ستقوم بسحبها. وكطاقم للقاربين وقع اختياره على «عشرة شباب أقوياء من أبناء أمريكا الأصليين، وحصلتُ من كل منهم على تعهد بالابتعاد عن سائر المشروبات المسكرة خلال فترة البعثة كلها». وكان أحد البحارة مسؤولاً عن الإشراف على تفكيك القاربين وتجميعهما، وقد علمه لنتش فنون استخدام أحدث أنواع المتفجرات «في حال بروز ضرورة إلى مثل هذه العملية لضمان نقل القاربين عبر جبال الجليل ويهوذا».

وما إن علمت صحيفة ذ **نيويورك هيرالد**[10] التي تصدر في نيويورك بالبعثة المقترحة، حتى رفعت صوتها شجباً لهذا التبديد الهائل لأموال دافعي الضرائب على (رحلة لهو). أما لنتش فقد كان مقتنعاً بأن من شأن جملة المخاطر والعقبات التي لا بد من التغلب عليها في المسار المراوغ والخطر لنهر الأردن أن تجعل الرحلة كل شيء عدا ذلك. فإضافة إلى المناخ والصعوبات المادية لنقل القوارب براً، كان لا بد من أخذ التهديد المحتمل للبدو دائمي الحضور بنظر الاعتبار أيضاً، وكان لنتش مقتنعاً بأن الرجال الخاضعين لقيادته قادرون على صد أي هجوم. ولهذا الغرض تم تزويد البعثة بمدفع قصير، وأربع عشرة بندقية قصيرة مجهزة بالحراب، وأربعة مسدسات (طاحونة) وعشرة مسدسات (عادية) مجهزة بسكاكين بوي[11] وأجندة ذخيرة، وسيف لكل من الضباط. وفي تشرين الثاني، وبعد اجتماع ختامي في [معهد الاتحاد اللاهوتي][12] مع الدكتور رُبنسن بالذات، أوعز لنتش إلى طاقم السابلاي برفع المرساة والانطلاق إلى عرض البحر.

وحسب أوامر لنتش الرسمية، كانت سابلاي ستصل أولاً إلى آسيا الصغرى للحصول على فرمان سلطاني للبعثة من السلطات العثمانية في القسطنطينية. والإجراء المألوف للحصول على مثل هذا التصريح كان يستدعي تقديم الطلب عبر القنوات الدبلوماسية وانتظار الرد بصبر، ولكن لنتش أبى أن يتبع هذا الأسلوب المألوف. فبعد وصوله إلى ميناء إزمير أواسط شباط عام (1848 م) ترك طاقمه على ظهر سابلاي وتابع طريقه، وحده، إلى القسطنطينية حيث وقف أمام مدخل القصر الإمبراطوري في زيه الرسمي الكامل، مصحوباً بترجمان من السفارة الأمريكية.

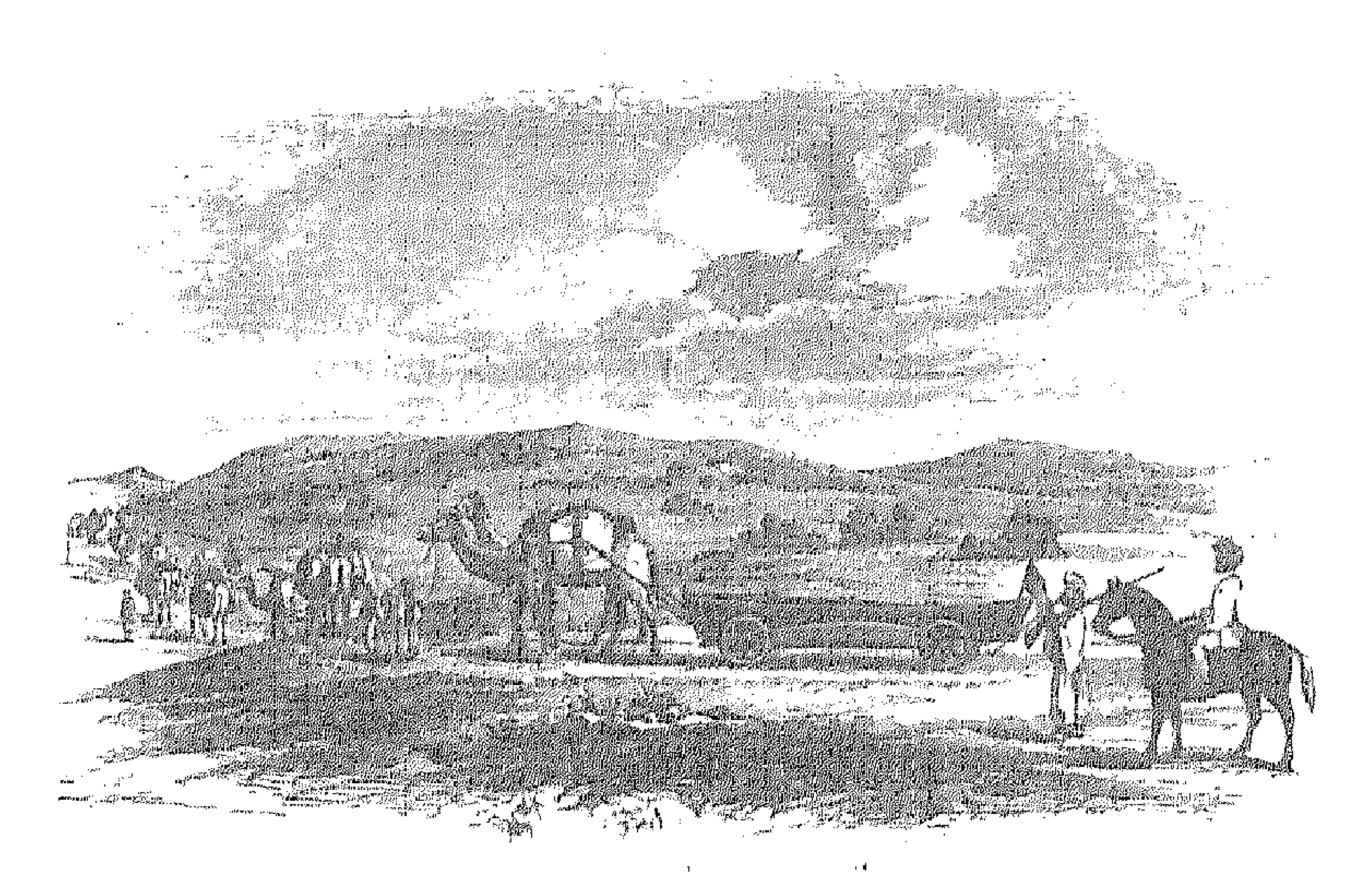
وهنا تم الترحيب به في قاعة استقبال فخمة، وجرى تقديم القهوة والتبغ له من قبل رقيق من السود في ملابس حريرية فضفاضة. وبعد انتظار لم يدم طويلاً جرت مرافقته على امتداد سرادق رخامي طويل إلى قاعة السلطان الخاصة، بعد أن تحدى (البروتوكول) بعناد إذ رفض التخلي عن سيفه العسكري.

كان صاحب الجلالة عبد المجيد جالساً خلف طاولة صغيرة في زي عسكري من أحدث الطرز الأوروبية. ولكن سيد القصر، رغم الفخامة والبهاء اللذين كانا يلفانه، لم يكن إلا صبياً معتل الصحة. ولدى تقدم لنتش لتقديم بعض الهدايا باسم الرئيس بَلك،[13] بما فيها مجموعة من اللوحات الحجرية المغلفة بغلاف ثمين تمثل حياة وعادات هنود أمريكا الشمالية، ظل عبد المجيد جالساً دون حركة أو تعبير. وبقدر غامض من غياب الاهتمام قام السلطان الفتى بتقليب الصفحات الثقيلة. ثم قال أخيراً: «إنها تبين مدى علو التقدم والعلوم في بلادكم». أما شكليات الزيارة فما لبثت أن استكملت بسرعة واستلم لنتش فرمانه، وسارع إلى مغادرة القصر للالتحاق برجاله في إزمير والإقلاع ثانية للتوجه إلى الأرض المقدسة.

أما في بيروت فقد تم الترحيب بالبعثة الأمريكية بقدر أكبر من الحماس. فقد أبدى إيلي سمث وأركان المحطة التبشيرية الأمريكية تَوْقَهم لإنجاح جهود بلدهم في أرض الكتاب إذ ساعدوا لنتش في الحصول على خدمات دليل محلي، وفي التعرف على تاجر محَلي قد يكون قادراً على ترتيب عملية شراء حيوانات النقل. صحيح أن التاجر استجاب لفكرة رحلة البحار الأمريكي بسرور، ولكن لنتش لم يكن يملك الوقت أو النزوع اللازمين للجدل، إذ عقد صفقة جياد سيتم تأمينها على الطريق. وبعد ذلك رفعت سابلاي مرساتها ثانية، وشقت طريقها عبر البحر نحو محطتها الأخيرة المتمثلة بقرية حيفا الصغيرة الهاجعة تحت جبل الكرمل الكتابي.

وما إن وصلوا إلى هناك حتى أمر لنتش رجاله بانزال القاربين المعدنيين والمؤن والمعدات ونقلها عبر الأمواج إلى مخيم صغير أنشأه بالقرب من الشاطىء. وقام الميكانيكي بالإشراف على تجميع القاربين المعدنيين والعربات، في حين تولى الحراس مهمة الوقوف عند أطراف المخيم لإبعاد المتفرجين الفضوليين.

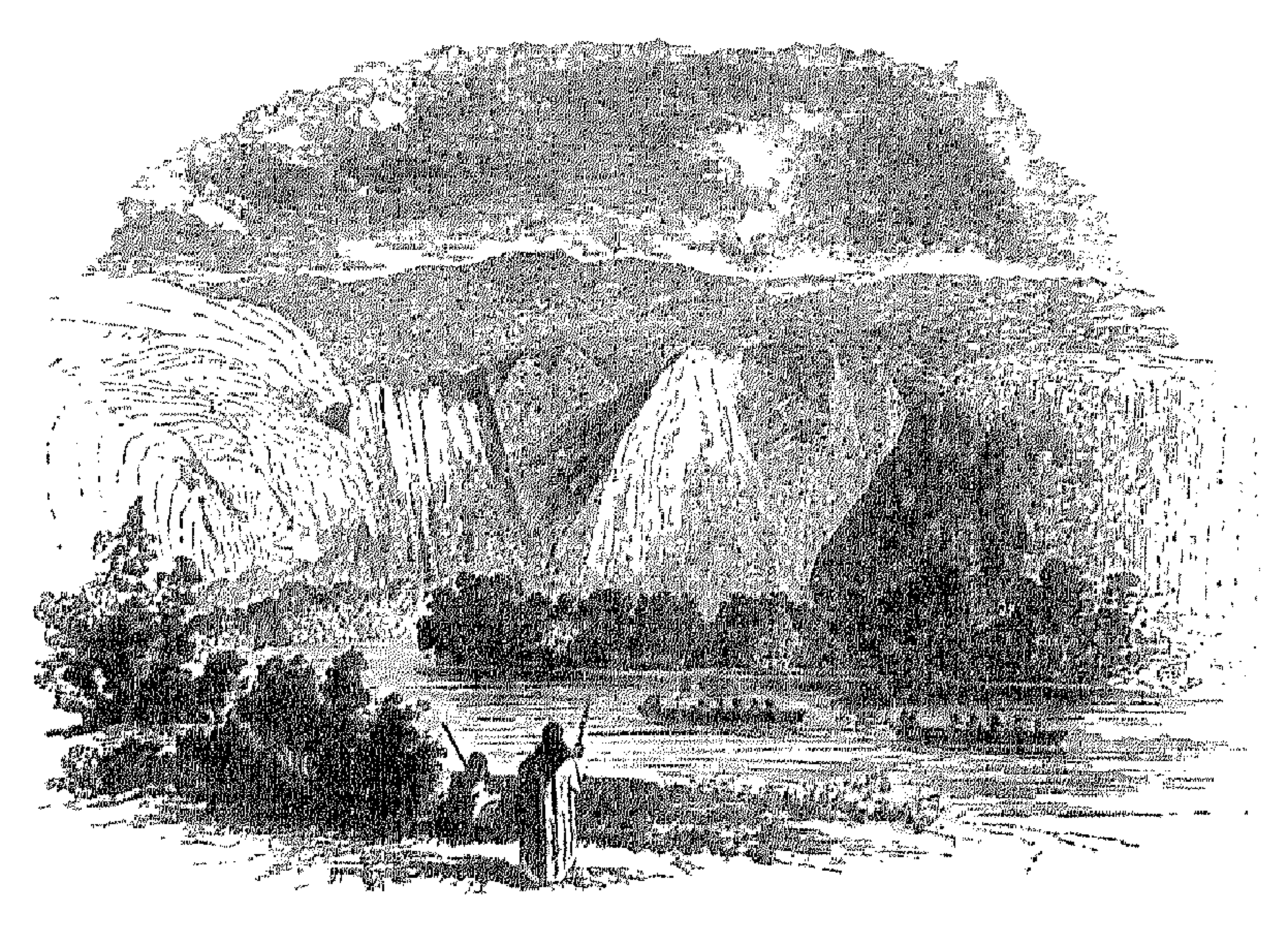
ولدى استعراضه للمخيم كتب لنتش يقول: «ربما، للمرة الأولى، يرتفع العلم الأمريكي في فلسطين. ليت هذا يكون بشير إنعاش لشعب بات



القوات البحرية الأمريكية في فلسطين براً (1848 م) . . . .

غارقاً في البؤس». فذات يوم، كما حلم لنتش، سوف تضج هذه القرية الصغيرة بصخب السفن التجارية والمرافق المرفئية الحديثة ونشاطها؛ عند بداية طريق تجارية جديدة سيكون هو رائدها الطليعي. فبوصفه رسول عقيدة العلم والتجارة العلمانية كان لنتش قد وصل إلى الأرض المقدسة لنشر ليس فقط نعَم الازدهار، بل وأنوار البعث القومي أيضاً. ولدى إبحار سابلاي مع طاقمه الصغير مزوداً بأوامر العودة إلى بيروت، لالتقاط لنتش ورجاله بعد إنجاز مهمات البعثة، بقي الفريق وحيداً يداعب أحلامه في أرض غريبة. وسرعان ما كانت ظروف تلك الأرض الغريبة ستترك الأمريكيين ما يعولون عليه سوى براعتهم الخاصة.

وفي منتصف الليلة الأولى أدى وصول جياد الجر من عكا إلى إيقاظ لنتش ورجاله من نومهم، ثم ما لبثت أضواء الصباح المتزايدة أن برهنت على أن الأمريكيين كانوا قد خدُعوا؛ فالسروج الثمينة المعدة في الولايات المتحدة بقدر كبير من العناية، راحت تتدلى بشكل فضفاض على الهياكل العظيمة الهزيلة للجياد. وبعد أن أمر لنتش بربط الحيوانات إلى العربات لم تقوِ سائر أشكال الضرب والصراخ على إقناع تلك الجياد بجر القوارب



.... وعبر نهر الأردن

المعدنية الثقيلة. وفي ظل مثل هذه الظروف فإن البعثة لن تقوى حتى على مغادرة الساحل. وفي نوبة غضب مفعمة بالإحباط، سارع لنتش إلى انتعال حذائه العسكري، وارتداء زيه الرسمي مع السيف وامتطاء جواده، ليتوجه إلى عكا من أجل مطالبة باشا المدينة الذي كان التاجر البيروتي قد رتب صفقة حيوانات الجر معه بالتعويض.

وفي عكا قابل الباشا سعيد بيك فورةً غضب الضابط الأمريكي ببرود، وراح يشرح، أن الوقت وقت حصاد، وأن الحيوانات هي الأفضل التي أمكن الحصول عليها. أضف إلى ذلك أن الباشا أبلغ لنتش بأنه تلقى أخباراً مشؤومة عن حملات بدوية في المنطقة المحيطة بالبحر الميت؛ ومن شأن أية محاولة من جانب الأمريكيين للسفر عبر تلك المنطقة أن تكون شديدة البعد عن العقل والحكمة. وكما لو أنه كان يسعى إلى إزالة أية شكوك إضافية، دعا الباشا لنتش إلى منزله لاحقاً في المساء لسماع شهادة زعيم بدوي محلي اسمهَ عقيل آغا ما لبث أن التزم بإعادة سرد قصة الهجمات الحديثة لقبيلة بني صخر التي كان يعرفها جيداً. أبلغ

الباشا لنتش بمودة أنه لا يستطيع أن يسمح للأخير بعبور تلك المنطقة مرتاح الضمير، إلا بصحبة حراسة مسلحة يوافرها فرسانه، أما ثمن مثل هذه الخدمة فسيكون ثمانمئة دولار أمريكي.

أثار مثل هذا الاقتراح حفيظة لنتش الذي حذر سعيد بيك من أن مسؤولية إخفاق بعثته ستقع عليه هوَ دون غيره. كما ذكّره بأن بعثته مزودة بفرمان سلطاني؛ وبالتالي فإن من واجب الباشا أن يقدم كل العون اللازم. وقال إن الأمريكيين مسلحون جيداً وقادرون على الدفاع عن أنفسهم؛ صحيح أنهم مستعدون للدفع مقابل توفير حيوانات الجر، ولكنهم لن يدفعوا قرشاً واحداً مقابل توفير "الحماية". عندها انتهى اللقاء. ولدى خروج الزعماء إلى باحة خارجية، قام عقيل آغا بتحذير لنتش عن طريق أحد المترجمين، من أن البدو القريبين من البحر الميتَ سوف يأكلون الأمريكان أحياء. فرد عليه لنتش ببرود قائلاً: «إذا كان الأمر كذلك، فإنهم سيجدون صعوبة كبيرة في هضمنا».

وحتى دون مساعدة الباشا كان لنتش مصمماً على الاهتداء إلى واسطة نقل ملائمة لنقل القوارب. وفي اليوم التالي علم بأنه يمكن استئجار جمال بكثرة من سكان الأرياف القريبة، فأوعز للبحارة باستبدال السروج باهظة الثمن، فيما انشغل هو بالمساومة لشراء الحيوانات المطلوبة. أبت الجمال المربوطة بالعربات المحملة بالقوارب المعدنية أول الأمر أن تتحرك، ولكنها ما لبثت أن انطلقت بعد التعرض للضرب المتكرر من قبل البحارة والسيّاس المحليين. وعلى الرغم من التكشيرات الساخرة على وجوه بعض مؤيدي الباشا، كان لنتش راضياً عن التجربة، فقد تمكن من حل مشكلة فرق النقل. أما مشكَلة حرب البدو الباعثة على القلق الشديد فكانت ما تزال قائمة.

خرج لنتش مغادراً عكا ومنطلقاً بسرعة على ظهر جواده متقدماً على قافلته الخَرقاء المتعثرة إلى القرية التي سمع بأن عقيل آغا يمكن أن يكون فيها. وانطلاقاً من حدسه الصائب بوجود نوع من التوتر في العلاقة بين الباشا العثماني والزعيم البدوي، عرض لنتش على الأخير مبلغاً لا يستهان به من المال مقابل مرافقة البعثة الأمريكية على امتداد وادي

الأردن، في تحد مباشر لتحذيرات الباشا. ومن الواضح أن عناد لنتش، ناهيك عن الأشياء الأخرى، أثار إعجاب عقيل مما أدّى وبسرعة إلى عقد صفقة. فعقيل ورجاله كانوا سيرافقون البعثة الأمريكية، وسيفاوضون العشائر البدوية المختلفة من أجل تأمين ممر آمن على امتداد الطريق المقترحة. ولدى خروج القافلة من عكا تولى كل من عقيل ولنتش قيادتها. وهكذا اكتسبت بعثة الولايات المتحدة إلى البحر الميت مَظهراً نبيلاً، وإن كان غريباً. فخلف عقيل ولنتش كانت الجمال تسير وعلى ظهورها البحارة الأمريكان، في حين كان عناصر عقيل من البدو يسيرون بجانبهم. أما في ذيل الموكب فكان القاربان المعدنيان اللامعان تجرهما أعداد أخرى من الجمال، وهل من أشياء أخرى؟ بلى كانت ثمة أعلام أمريكية صغيرة ترفرف فوق مؤخرات الجمال.

شقت القافلة طريقها شرقاً إلى المرتفعات الصخرية ذات الانحدار الشديد المحيطة ببحيرة طبرية ملتزمة بالخطة الأصلية. أنزل البحارة حمولات الجمال، وبصعوبة شديدة قاموا بانزال القاربين والمعدات الأخرى بالحبال إلى مستوى شاطىء البحيرة ثم قاموا بتأسيس مقر موقت في بلدة طبرية الساحلية. وفيما انهمك الرجال بإعداد آلات المسح وقياس الضغط الجوي وضبطها، تجول لنتش في المدينة مع عقيل وهو يتأمل التحديات المنتظرة. وانطلاقاً من مناقشات أجراها مع بحار محلي سبق له أن رافق بعثة مولينو الفاشلة قرر لنتش تقسيم بعثته إلى فريقين. فأحد الضابطين الصغيرين: الملازم الأول جون ديل،[14] كان سيتولى قيادة قافلة برية موازية لمجرى النهر، بما يعفي القاربين من ضرورة حمل المؤن الأكثر ثقلاً. وفي حال وقوع أي هجوم على القاربين، فإن رشقتين سريعتين من المدفع القصير المنصوب فوق حدبة (فني مسُن) كانتا ستدعوان القافلة البرية إلى الاقتراب فوراً من ضفة النهر مع البنادق الملقمة والجاهزة. وفي محاولة لتحقيق المزيد من تخفيف حمولة القاربين المعدنيين، قام لنتش بشراء قارب صيد عربي عتيق لنقل الفائض من الإمدادات. وما لبث البحارة أن عمّدُوا هذا القارب باطلاق اسم العم سام عليه.

وفي الأسبوع التالي انزلق لنتش ورجاله في المسار الضيق والمتعرج بصورة غير متوقعة لنهر الأردن على ظهر قاربي (فني مسٌن) و(فني سكينر) راسمين الخطوط العريضة للمشاهد، وآخذين العينات النباتية والجيولوجية، وواضعين خريطة دقيقة لمجرى النهر. أما القافلة البرية فكانت تتقدم بسرعة فوق الجروف الصخرية العالية المطلة على النهر. ومع اقتراب الأسطول الصغير والقافلة من المكان الذي تعرض فيه فريق مولينو للهجوم، صارت الأيدي كلها عُصابية، على الرغم من الوجود الحامي لعقيل ورجاله. وفي الليل، لدى قيام الأمريكيين بربط القاربين إلى ضفة النهر وبناء المخيم، فإن احتياطاتهم الأمنية كانت تتخذ طابع أحد المشاهد المأخوذة من الحدود الأمريكية. ومما قاله لنتش في وصف الحالة: «كان منظراً غريباً. وطلباً للأمن ضد أية مفاجأة كانت الجمال كلها نائخة مجتمعة بالقرب منا؛ وفي سائر الجهات كانت ثمة حراب مبعثرة ونيران متقدة، وأكوام ألبسة هجع تحت كل منها أعرابي متثائب بين النوم واليقظة مع بندقيته الطويلة بجانبه، ولكن في أماكن أقرب فأقرب».

لكن لم يحصل أي هجوم. وفي السابع والعشرين من نيسان كان قد وصل إلى واحة أريحا الخضراء حيث انتصبت خلفها إلى الجنوب، انتصبت الجبال الجرداء المحيطة بالبحر الميت. وهكذا فإن الجزء الأول من الرحلة الاستكشافية كان قد استكمل بنجاح. ففي غضون الأيام الثمانية السابقة كانت بعثة الولايات المتحدة قد قطعت جل الامتداد الاجمالي لنهر الأردن، ووضعت خريطة ذلك بشكل دقيق للمرة الأولى. ولن يعود النهر بعد الآن معروفاً تحديداً بوصفه أحد عناصر التراتيل الكنسية الدينية فقط؛ فكل المنعطفات وسائر الملامح الطبيعية تم قياسها وتسجيلها من قبل رجال لنتش.

ومما يدعو للأسف أن نتائج عملية وضع الخريطة تلك أشارت بوضوح إلى مدى سرابية مشروع الطريق التجارية على أرض الواقع. فمن أجل قطع مسافة لا تزيد عن ستين ميلاً كخط مباشر، تعين على الأمريكيين، أن يسافروا فعلياً أكثر من مئتي ميل؛ فضلاً عن أن المجرى الصعب للنهر الضحل جعل المرور، في العديد من المواقع أمراً بالغ الصعوبة، حتى بالنسبة

إلى قوارب المجاذيف. غير أن لنتش، وهو الضابط الملتزم على الدوام، ظل حريصاً على برنامج بعثته كَله. فبعد قيامه بتوضيب النتائج العلمية الأولية وإرسال تقرير إلى الوزير مسُن من أريحا، بادر إلى إيفاد عقيل ورجاله من أجل عقد صفقة مع قبيلةَ بني صخر البدوية حول توفير الممر الآمن، آمراً رجاله بتفكيك المخيم والإبحار إلى مصب النهر فالانطلاق على السطح الزيتي الزلق والناعم للبحر الميت.

وعلى ظهر (فَني مسُن) أبحر لنتش جنوباً على امتداد الشاطىء الغربي للبحر مستطلعاً خَط َالساحل بصَورة أولية. ولدى ملاحظة أَجَمات كثيفة من النباتات في نقاط مختلفة افترض لنتش، محقاً، أن تلك إنْ هي إلا دليل على وجود ينابيع المياه العذبة. وفَي نهاية اليوم الأول، أقام مخيماً عند نبع عين جدي مطلقاً عليه اسم (مخيم واشنطن) لاوياً عنق الحقيقة، ومعَبّراً عن عصبية مفرطة. وهذا المخيم كان سيشكل مقراً قيادياً لعملية استكشاف المنطقة كلها.

وعلى الرغم من أن مخطط الطريق التجارية بات بصورة واضحة مشروعاً غير عملي، فإن كمية كبيرة من المعلومات العلمية عن البحر الميت ومحيطه المباشر كانت البعثة تستطيع تجميعها. فالبحر نفسه لم يكن إلا بقعة بطول خمسة وأربعين ميلاً فقط وعرض يصل إلى عشرة أميال تقريباً في أعرض نقاطه، ولكن أية محاولة ناجحة لم تكن قد بُذلت من قبل لتحديد العمق، ولرسم خريطة خط الساحل، ولاكتشاف الأسباب الجيولوجية الكامنة وراء الملوحة غير العادية. وفي سبيل تحقيق هذه الأهداف العلمية الأساسية، على الأقل، شرع الملازم الأول ديل في (فَني سكينر) برَوْز نقاط العمق القريبة من الطرف الشمالي من البحر، فَي حين تابعَ لنتش والآخرون طريقهم إلى الجنوب على امتداد الشاطىء الغربي، للبَدء بعملية رسم الخريطة ذات الدقة البالغة.

كان كل شيء يسير وفق الخطة، لكن البحارة الأمريكيين راحوا، وقد هدتهم الرحلة الطويلة على امتداد الأردن مع درجات الحرارة المهلكة، يُظهرون، منذ البداية، أعراضاً مقلقة. فقد بدؤوا، وهم ممن لا عهد لهم بسُحُب الأبخرة الكبريتية المحلقة بشكل دائم فوق سطح الماء، يعانون

من الصداع والنعاس مما أصبح يعيق عملية التجذيف الشاقة. وكثيراً ما كانت حرارة ساعات النهار تصل إلى درجات عالية، حتى يصبح لمس الأزرار والبنادق المحماة متعذراً، فضلاً عن أن النعاس المستديم الهابط على الرجال كالكابوس بدا وكأنه عطّل ردود أفعالهم وخبّلهم، حتى باتوا كتلة سبات متحركة.

وفي أحد الأيام، بدأ رجال (فني مسُن) وهم في وسط البحر، وتحت أشعة شمس مطلع الصيف الحارقة، يغطون في النوم في الظل الحار للشراع القماشي. أما عَقْل لنتش فراح يجول في السديم المالح مراوداً جملة من الرؤى الخيالية الدافئة ذات العلاقة بالسبات والموت، إذ تصور نفسه تشرون[15] الأساطير اليونانية، مضطلعاً بمهمة نقل جثث الموتى عبر نهر ستَيكس[16] إلى موطنهم الجديد في العالم السفلي، حتى تملكه رعب متزايد في عمق هذياناته وهَلْوساته: خشي أن يكون موته، هو ومن معه، مؤكداً، ما لم يتمكن من استعادة سيطرته الكاملة على نفسه. وبادر لنتش إلى إيقاظ بحارته النائمين، مزيحاً كابوس النعاس الثقيل جانباً وَأمرهم بانزال الشراع والبدء بالتجذيف. فما من شيء غير الحركة المادية للمجاذيف كان قادراً، برأي لنتش،على إنقاذهم من المصير الذي أودى بحياة كوستيغان نفسه. وقد كتبَ يقول: «حفزتنا الحكمة على مواصلة التقدم، ولكن التوقف قبل حدوث كارثة معينة ما لبث أن أدركنا؛ غير أن ترك أي جزء من عملنا دون إنجاز كان مؤلماً جداً حتى قررت المثابرَة».

وبالفعل فقد ثابر لنتش على الإبحار لأن الحوض الجنوبي من البحر الميت كان ما يزال غيَر مرسوم. وخلال متابعته التقدم على امتداد الشاطىء الجنوبي، قام الأمريكيون المخبّلون باستكشاف الآثار التي اعتقدوا أنها مواقع مدينتي سدوم وعمورة القديمتين، وما لبثوا أن تمكنوا من الاتصال مع أحد رسل عقيل الذي قادهم عبر جبال مؤاب إلى بلدة الكرك التي كانت إحدى قلاع الصليبيين القديمة. وبعد توقف قصير هناك حيث حصل البحارة على فترة راحة مؤقتة من الدفع الملحاح لضابطهم المتشدد، عاد الفريق إلى القاربين وقاموا برسم خريطة شبه الجزيرة الغريب على الشاطىء الشرقي مطلقين على "رأسيه" البارزين اسمي سلفيهما سيئي

الحظ: كوستيغان ومولينو. كما تم إنجاز رحلة أخرى إلى قلعة المكْوَر <مَخرُس> الهيرودية مع عملية الإبحار حول محيط البحر المَيت. فبمساعدة عقيل آغا وعلى حساب قدر كبير من المعاناة من جانب البحارة الأمريكان، كانت بعثة الولايات المتحدة الاستكشافية قد جمعت كمية كبيرة من المعلومات العلمية الجيولوجية والمائية والحيوانية والآثارية، عن هذه المنطقة الصعبة على مختلف الأصعدة. وقد تبيّن لهم أن مناخها الكابوسي كان ناجماً، عن حقيقة كونها أكثر نقاط الكرة الأرضية انخفاضاً، لأن مستواها أقل من مستوى البحر الأبيض المتوسط بحوالي ألف وثلثمئة قدم. وكمن سبب الملوحة، غير القابلة للتصديق لمياه البحر الميت، في عدم وجود أي مصرف في الجنوب، وفي تأثيرات عملية التبخر الشديدة.

قام لنتش وفريقه بتفكيك القاربين غارزين سارية تحمل علماً أمريكياً في وسطَ البحر، وسافروا براً إلى القدس حيث استُقبلوا بحرارة من قبل القنصل البريطاني، وزاروا مختلف الأماكن الأثرية المقدسة في المدينة. وكل ما كان متبقياً لإنجازه هو تقصي منابع نهر الأردن، فبادر لنتش إلى إيفاد مساعده الموثوق به: الملازم الأول ديل، مع فريق مسح صغير، لاستكشاف تلك المنطقة المستنقعية الواقعة إلى الشمال من بحيرة طبرية.

أما لنتش وباقي الفريق فقد ذهبوا إلى الناَصرة حيث ودعوا عقيل في حفل بدوي بهيج. ولكن لنتش ما لبث، لدى التحاقه ثانية بفريقَ المسح، أن صُدم حين رأى أن مرض البرداء كان



حاكم الناصرة العثماني (1910 م)

قد انتشر بين الرجال وأقعدهم. فديل نفسه كان مريضاً، ولم يستطع الفريق أن يسافر إلى بيروت إلا بصعوبة كبيرة، حيث كان الأمل في توفير الرعاية الطبية المناسبة للبحارة المرضى معقوداً على إيلي سمث والمبشرين الأمريكان. ولكن حمى الملازم الأول ديل كانت قد تفاقمت كثيراً عند وصول الفريق إلى بيروت، حتى إن الطبيب الفرنسي الذي استدعاه إيلي سمث لم يستطع أن يفعل شيئاً. وأضفت وفاة الرجل بعد بضعة أيام مسحة مأساوية على الثمن الذي انطوى عليه فضول قائده العلمي.

رست (سابلاي) الأمريكية قبالة هامبتون رودز،[17] بفرجينيا؛ في كانون الأول من عام (1848 م) بعد مغادرتها الأصلية لنيويورك بثلاثة عشر شهراً. فبعثة الولايات المتحدة الاستكشافية إلى نهر الأردن والبحر الميت كانت قد أنجزت مهمتها بنجاح، وقام لنتش بتقديم تقريره النهائي إلى وزير البحرية. أما عن الاقتراح المتعلق بالطريق التجارية الأمريكية عبر الأرض المقدسة فلم يعد ذكره يرد إلا نادراً، على الرغم من أن لنتش نفسه ظل مؤيداً صريحاً للمشروع، متغافلاً، فيما يبدو، عن الظروف التي كان قد تحمل قسوتها؛ وفي عام (1860 م) نشر لنتش كراساً بعنوان: [التجارة والأرض المقدسة].[18] أما القضية التي رفع لواءها، قضية اتساع وازدهار اقتصاد الجنوب الأمريكي، فكانت هي نفسها القضية التي ناضل من أجلها آخر المطاف، قضية قيادة القوات البحرية الاتحادية في فكسبرغ[19] وعلى امتداد البوتوماك[20] لاحقاً.

تركت بعثة لنتش أثراً دائماً على الرغم من خيبة آمالها التجارية. فنشر رواية لنتش الشخصية قصة البعثة، وظهور كتاب بقلم عضو آخر من الفريق، أثارا اهتماماً شعبياً كثيفاً بمتابعة استكشاف فلسطين. والأحداث الدرامية لأشكال معاناة البحارة الأمريكان في أرض الكتاب تجسدت في الوعي الشعبي بحيوية بالغة، طاغيةً على الهموم الدينية للمبشرين أو الباحثين الكتابيين.

وسرعان ما أصبحت البيداء الكتابية ذات جاذبية كبيرة بالنسبة إلى العالم الغربي، مما جعل الاهتمام الشعبي بالأرض المقدسة، على ضفتي الأطلسي، يصل إل ذروة محمومة في الأعوام التالية. ففي عام (1851م) استجابت

غيوراما[21] في برودويه بمدينة نيويورك لطلب الجمهور، إذ عرضت "لوحة متحركة" للبانورامي الشهير جون بانفارد[22] بعنوان: [حج إلى القدس والأرض المقدسة][23] تابع فيها الجمهور الغارق في بحر من الدهشة والانبهار سلسلة مشاهد المواقع الكتابية مثل البحر الميت والبدو الشرسين، والمناظر الكئيبة، أمام أنظاره.

وفي عام (1852 م) بيعت عشرات الآلاف من نسخ الطبعة المصورة من كتاب [**الأرض والكتاب**][24] وهو دليل سياحي تفصيلي لفلسطين بقلم مبشر أمريكي في بيروت، في سائر أرجاء العالم الناطق بالإنجليزية. ومع حلول العقد التالي كان شخص خبير في الذوق الشعبي مثل بي. تي. بارنم[25] قد أوفد مدير المتحف الأمريكي في رحلة إلى الأرض المقدسة لجمع الآثار والغرائب الكتابية من أجل عرضها أمام الجمهور.

إن موجة جديدة من عملية استكشاف فلسطين كانت قد بدأت، ومن بين الرحالة المغامرين الذين انطلقوا باتجاه الأرض المقدسة في السنوات التي أعقبت بعثة لنتش؛ كان ثمة بعض أبرز الشخصيات في العالم البروتستانتي. فالدكتور رُبنسن عاد إلى فلسطين في عام (1852 م) للالتحاق ثانية بإيلي سمث لإنجاز المزيد من الأبحاث؛ وعميد كنيسة وستمنستر آبي، تجول فيَ أرجاء البلاد، وألف كتاباً شاملاً عن الجغرافيا الكتابية؛ والقس الدكتور وليم سمث، الذي حرص على الارتقاء إلى المستوى المطلوب لتوضيب مؤلفه العملاق: [قاموس الكتاب] أدخل العديد من أحدث المكتشفات بين ثنايا التعريفات والمقالات اللاهوتية الدائرة حول تاريخ الكنيسة.

كان إعادة اكتشاف مناطق فلسطين المنسية منذ أمد بعيد حيث تمت كتابة العديد من أشهر فصول التاريخ الكتابي، قد بدأت تكتسب أهمية دينية خاصة بها. فلنتش قد كان اهتدى إلى طريقة تمكن العالم البروتستانتي من المطالبة بحصة له في الأرض المقدسة؛ وأثبت أن اقتحام البيداء وكشف النقاب عن ماضيها الكتابي أمر ممكن.

7) في سبيل مجد فرنسا:

لوي فيليسيان دو سولسي[1] وقبور السلاطين

(1850ـ1863م)

على مسافة ثمانية أميال إلى الجنوب من القدس، تقع بلدة بيت لحم الصغيرة الشهيرة بعمل حرفييها البديع في عرق اللؤلؤ وخشب الزيتون، وبكنيسة المهد، تلك التي بناها، أساساً، الإمبراطور قسطنطين في القرن الميلادي الرابع، تخليداً وتكريساً للمكان الذي وُلد فيه يسوع. وعلى امتداد قرون الحج المسيحي إلى بيت لحم ما فكر أحد قط بمساءلة مدى صحة المكان، فضلاً عن أن التنافس بين الطوائف المسيحية المختلفة على امتلاك الاتجار الرابح بالأدوات والهدايا الدينية المرتبطة به أفضى إلى مخطط تقسيمي معقد فرضته الإدارة العثمانية.

وقد احتفظ رهبان الأرثوذكسية الشرقية أو الكنيسة اليونانية [الروم] بمفاتيح الكنيسة منذ عام (1672 م) أما الكاثوليك، أو "اللاتين" فقد مُنحوا حق بناء كنيسة ملاصقة خاصة بهم، مع التمتع بحقوق المرور عبر الباسيليقا العائدة للروم للوصول إلى المغارة المقدسة تحتها. فهناك، كما تقول الروايات العتيدة التي كرسها الزمن، كان يقع المزود؛ ولتحديد المكان بدقة، كانت نجمة فضية قد نُقشت في الصخر. وفي عام (1717 م) سُمح لملك فرنسا لويس الخامس عشر، بوصفه حامي الكنيسة الكاثوليكية في الأرض المقدسة، بتقديم النجمة هدية؛ ومما أثار أشد غضب الروم الشديد

وحماتهم الروس أن تلك النجمة الفضية كانت تحمل زهرة الزنبق[2] (شعار ملوك فرنسا السابقين).

ما لبثت الخصومة الطويلة بين الطرفين أن تفجرت، أخيراً، حرباً مكشوفة، عشية عيد الميلاد في عام (1847 م). ومن الواضح أن تراجع الاهتمام الديني في فرنسا، مع الأزمات الداخلية التي عاشتها الأيامُ الأخيرة لعهد الملك لويس ـ فيليب، كان قد أقنع الروم بأن الوقت المناسب لتوسيع مطالبهم حتى تصبح شاملة لحيازة المزار المقدس كله قد حان. وما إن انطلق الكاثوليك، في تلك الليلة، في موكبهم نصف الليلي السنوي من كنيستهم الملاصقة، إلى قلب الباسيليقا، حتى وجدوا أن الروم قد كانوا أقاموا جداراً سدّ طريقٍ وصولهم الوحيدة. بدأ الرهبان الكاثوليك بإزالة الحاجز المملط حديثاً، غير أن نظراءهم الروم ظهروا فجأة لوقفهم، فنشب على الفور، صراع دامٍ شمل (الباسيلقا) كلها.

وفي أثناء العراك الصاخب تمكن راهب كاثوليكي واحد من التسلل إلى المغارة المقدسة حيث اكتشف، وياللهول، أن النجمة الفضية كانت قد خُلعت من مكانها ونُقلتْ. وعلى الفور اعتُبرتْ هذه اللصوصية الإكليركية تحدياً خطيراً للكاثوليك في المزارات المقدسة، ليس في بيت لحم، فقط بل وفي الأرض المقدسة كلها. ومع حلول فجر صباح الميلاد، وصل القنصل الفرنسي في القدس إلى المكان ليدافع عن الحقوق الكاثوليكية. وهكذا تجدد الصراع على المواقع المقدسة.

كما شكلت هذه المشادة، التي جرت في كنيسة المهد، تحدياً صريحاً ليس فقط للمصالح الكاثوليكية الفرنسية، بل وللمصالح السياسية الفرنسية أيضاً. فهيبة فرنسا في فلسطين ظلت ولقرون طويلة معياراً لنفوذها في الشرق الأوسط كله، والاتفاقية المعقودة قبل أكثر من ألف سنة بين شارلمان وهارون الرشيد؛ كانت قد شكلت السابقة المناسبة لمطالبة الفرنسيين بحقوق حماية الأماكن المقدسة. وفي أعقاب الحملات الصليبية التي تركت تأثيراً مفهوماً لدى السكان المحليين، كان سائر الغربيين قد باتوا يُعتَبرون فرنجة. وبما أن فرنسا كانت الآن خارجة لتوها من ركام الهزائم النابليونية، لتطالب بحصة لها في الصراع على النفوذ

الاقتصادي في الشرق الأوسط، فقد تذكرتْ من جديد مدى أهمية حقوقها في المزارات المقدسة، فهي تستطيع ليس فقط التصدي للمطامع الإقليمية الروسية في الإمبراطورية العثمانية عن طريق إعادة تأكيد حقوقها، بل والمبادرة الحازمة إلى إقامة جُزُر نفوذ فرنسية في فلسطين أيضاً. وبالتالي فإن قضية النجمة المسروقة في بيت لحم سرعان ما تحولت إلى مسألة دبلوماسية دولية. وبعد تأسيس الجمهورية الثانية عام (1848 م) تلقى السفير الفرنسي في القسطنطينية، الجنرال جاك أوبيك، توجيهاً يقضي بالإلحاح على القضية عبر تقديم طلبات مباشرة مستمرة إلى السلطان.

صحيح أن النزاع المسيحي في الأماكن المقدسة لم يكن بحد ذاته جديداً في الأرض المقدسة، غير أن الفرنسيين تعين عليهم أن يتصدوا، إضافة إلى تنافسهم مع الروم، للتهديد الجديد الآتي من العالم البروتستانتي. فصعود علم الآثار الكتابي جلب معه موجة جديدة من التغلغل البريطاني والأمريكي في الأرض المقدسة، كما شكل خطراً على المزارات المقدسة نفسها. فمنذ البدايات الأولى لعمليات الاستكشاف البروتستانتي في فلسطين بدأت قناعة متزايدة تترسخ في أوساط الباحثين الأكاديميين ترى أن مواقع الحج المتمتعة بذلك القدْر الكبير من الحماية من جانب قوة فرنسا، لم تكن، بكل بساطة، سوى مواقع ومزارات زائفة ومضلِّلة.

لم يكن إدوارد رُبنسن قد أبدى ولو قَدْراً بسيطاً من الحرص على دخول كنيسة القيامة في القدس. فعلى أساس معرفته الخاصة بمضمون الكتابات الوصفية الكتابية، لم يكن ممكناً لأية كنيسة موجودة داخل أسوار المدينة، حيث تعذر تحديد مكان أي قبر يهودي، أن تكون ضريحاً حقيقياً للمسيح؛ والأناجيل تعلن صراحة أن القبر كان خارج أسوار المدينة. صحيح أن رُبنسن لم يقترح بديلاً للموقع التقليدي، ولكن نزعة الشك عنده أقنعت باحثين آخرين من البروتستانت بإمكانية الاهتداء إلى مثل ذلك البديل. لقد كان من شأن التحديد الحاسم للموقع الصحيح لقبر المسيح وغيره من الأماكن المقدسة المختلفة، أن يفضي إلى حرمان النزاع الشرس بين الروم واللاتين حول حيازة المواقع التقليدية من كل أهمية أو مغزى.

وفي أربعينيات القرن التاسع عشر كان العديد من الرحالة البريطانيين والأمريكان والألمان قد جاؤوا إلى فلسطين بحثاً عن المواقع الفعلية لأحداث الإنجيل، وتوصلوا، مع حلول نهاية العقد، إلى صياغة عدد من النظريات الساذجة فيما يخص تلك المواقع داخل القدس. وفي عام (1849 م) قام القنصل البريطاني في القدس، جيمس فين،[4] بتأسيس [جمعية القدس الأدبية][5] لجمع كل أولئك المهتمين بالدراسة العلمية للآثار الكتابية في اجتماعات منتظمة، ليناقشوا أحدث نظرياتهم واكتشافاتهم.

غير أن الفرنسيين باتوا، في أماكن أخرى من الشرق الأوسط، في طليعة الاكتشافات الآثارية، جالبين الأمجاد واللّقى الأثرية للجمهورية الفرنسية التي تمت إعادة إحيائها، وهي موشكة على أن تصبح إمبراطورية نابليون الثالث عما قريب. ففي أثينا كانت [المدرسة الفرنسية][6] التي تأسست في عام (1846 م) منهمكة في العمل الجاد لكشف النقاب عن الآثار (الكلاسيكية) القديمة. وفي مصر كان أوغست ماربييت،[7] بتكليف من اللوفر، موشكاً على الشروع بعمليات تنقيب واسعة في موقع سيرابيوم[8] بممفيس. وفي أربعينيات القرن التاسع عشر في بلاد ما بين النهرين، حيث كان ضغط العمل الدبلوماسي في الحدود الدنيا على ما يبدو، كان القنصل الفرنسي في الموصل، بول إميل بوتّا،[9] أول من كشف عن الآثار التاريخية الهامة للحضارة السريانية. وملأت اللقى الأثرية التي نقبها بوتا، بتمويل الحكومة الفرنسية، ملأت صالات عرض اللوفر بلقى مدهشة من موقع يعرف باسم خورس آباد، اعتقد جازماً، وخاطئاً، أنه موقع مدينة نينوى الكتابية.

وسواء عن قصد أم صدفة، فإن هذا الدبلوماسي والمستكشف السابق نُقل فجأة من الموصل إلى القدس في عام (1848 م) وجرى تحميله مسؤولية الدفاع عن حقوق الأمة (الدولة) الفرنسية والكنيسة الكاثوليكية في الأرض المقدسة. وكانت واجبات القنصل بوتا ستنطوي، في المقام الأول، على مصائر السكان الحديثين والمواقع التقليدية؛ ولكن تعيينه في القدس كان، في الوقت نفسه، مؤشراً واضحاً على الاهتمام الفرنسي المتنامي بعلم الآثار الكتابي. وقبل أن يمضي وقت طويل كان [بوتا]

سيحظى بشرف استقبال بعثة أثرية فرنسية رسمية إلى الأرض المقدسة، بقيادة شخص سيصفه بروسبر مَريمي، الذي كان موضع ثقة الإمبراطورة يوجيني بالقول: «إنّه خليط عجيب يجمع بين ضابط مدفعية من جهة وباحث أكاديمي من جهة ثانية».

وُلد لويس ـ فيليسيان كاينار دو سولسي[10] في أسرة فلمنكية نبيلة بمدينة ليل في عام (1807 م). ومثله مثل أبيه وجده من قبله، وقع اختياره على العَمل في الجيش. غير أن دو سولسي ما لبث، وهو ما يزال طالب ضابط شاب في سلاح المدفعية، أن انجذب إلى ميادين بعيدة نسبياً عن الحالات المتفجرة مثل علوم الآثار، والجيولوجيا، والنباتات والحشرات. وبعد نشره العديد من الأبحاث (الأكاديمية) في أوقات فراغه، تم، أخيراً، تعيينه أميناً لمتحف المدفعية[11] بباريس.

ترمّلَ دو سولسي بصورة مفاجئة في عام (1850 م) وهو في الثالثة والأربعين من العمر، وجعلته صَدْمةُ موت زوجه «تواقاً لأن يغيب عن باريس والمشاهد المألوفة». وخلال العقد السابق زار مختلف المواقع (الكلاسيكية) في كل من اليونان وإيطاليا وآسيا الصغرى، مما جعل رحلة أخرى إلى تلك البلدان تبدو احتمالاً مغرياً، في سبيل متابعة أبحاثه الأثرية القديمة وتبديد حُزْنه. وفيما بعد كتب دو سولسي يقول: «غير أنني، فيما كنت أتأمل طريقنا، فكرت بأن من شأن السير على الدروب المطروقة التي سبق لمئات السياح أن تعقبوها ذاتها، ألا ينطوي على أية فائدة بالنسبة إلى العلم». ومع ذلك كانت فلسطين، مسرح بعثة لنتش الحديثة، ما تزال بقعة لم يتم استكشافها إلا جزئياً، فوفّرتْ لدو سَولسي فرصة فريدة لإنجاز بعض الاكتشافات المهمة التي تخصه هو. وقد كتب دو سولسي يقول: «الغموض والخطر كانا كافيين لدفعي إلى اتخاذ القرار، فصممت على التوجه فوراً إلى القدس».

ولجمع التمويل الضروري لبعثته الاستكشافية وافق دو سولسي على أن يعمل وصيفاً لأبناء عدد من الأسر الفرنسية المرموقة المتمردين الذين كان يتم الإعداد لإرسالهم إلى رحلة في المشرق؛[12] أملاً في أن يساعد ذلك على إصلاح أشكال سلوكهم الطائشة القائمة على التبذير. غير أن

الرحلة الطويلة إلى فلسطين لم تتمخض، على ما يبدو، عن النتيجة المرجوة. والشباب الفرنسيون هؤلاء وصلوا إلى القدس في الثالث والعشرين من كانون الأول عام (1850 م) حيث استقبلهم القنصل بوتا بحرارة، ثم استقروا في أحد فنادق المدينة القليلة ذات الطراز الأوروبي. وفي هذه الأثناء نجح دو سولسي، وإدوارد دلسر،[13] ابن مدير الشرطة الفرنسية السابق وهو أحد "الودائع" في الحصول على كمية من الحشيش للاستهلاك الشخصي في احتفالات العيد في المدينة المقدسة. وعلى الأثر تلقى دو سولسي والشباب أمراً صارماً بمغادرة مأواهم المريح، والعمل على تدبر أمورهم بأنفسهم.

ولكن دو سولسي، بدلاً من البحث عن مأوى آخر في المدينة، أعلن أمام أتباعه المترنحين السكارى أنهم سينطلقون فوراً إلى البحر الميت للشروع بالعمل العلمي المهم للبعثة الاستكشافية. كانت المنطقة المحيطة بالبحر الميت ملائمة، حتى في الشتاء، لاختبار مدى قدرة أي مشروع مستكشف على التحمل؛ وسرعان ما بات شباب دو سولسي مفتقرين إلى الوقت اللازم للتمرد، والخلافات، والحشيش. وعلى امتداد واحد وعشرين يوماً قاد دو سولسي صحبه، دونما رحمة، حول الطرف الجنوبي للبحر الميت، مفنّداً العديد من استنتاجات بعثة لنتش، وخالعاً، باستخفاف، جملة العلامات الكتابية المميزة للعديد من الآثار المبعثرة التي صادفها في الطريق. وبعد أن أصبح واثقاً من أنه لن يواجه أية متاعب إضافية من رفاق دَرْبه الشباب، ومقتنعاً (قناعة غير صحيحة تماماً) بأنه كان قد حدّدَ المواقع الصحيحة لسدوم وعمورة، عاد دو سولسي إلى القدس للغوص في تقصي التفاصيل الدقيقة للآثار القديمة هناك.

وبعد معاينة نمط البناء الحجري للجدار الداعم للحرم الشريف، وإعلان أقسام معينة، دون الاستناد إلى معايير واضحة، على أنها سليمانية أكثر منها هيرودية، انجذب دو سولسي إلى خرابة خارج أسوار المدينة، معروفة تقليدياً على أنها: قبور السلاطين. وما لبث النحت القديم في الصخر، حيث كانت آثار إفريز منقوش ما تزال بادية، أن وفّرَ له فرصة مذهلة للتحقق من مدى جدارة نقاط العلام الدينية التقليدية بالثقة العلمية.

فإذا كانت (قبور السلاطين) متضمنة فعلاً بقايا ملوك العبرانيين، فإن ضربة موجعة يمكن إنزالها بالدكتور رُبنسن وصحبه من البروتستانت.

بعد أن أصدر أمراً لصحبه بإزاحة بعض الأنقاض من مدخل سرداب الدفن القديم، تسلل دو سولسي نفسه زاحفاً إلى قلب الظلام الموحل للحجرات الداخلية. وبوصفه رجلاً امتلك موهبة يُحْسَد عليها في الاهتداء بدقة إلى ما كان يبحث عنه، نجح في سحب الغطاء المكسور لتابوت من الحجر الكلسي أثار بهجته الشديدة إذ تعرف عليه على أنه تابوت الملك داود. وبعد تحميل الأثر الثمين، والآثار القديمة الأخرى، والأصناف النباتية التي كانوا قد جمعوها، على ظهور حيوانات النقل، غادر دو سولسي وفريقه من الجانحين الذين باتوا علماء آثار مدينة القدس، وتوجهوا شمالاً عبر سامريا نحو بيروت، حيث استقلوا باخرة لتعيدهم إلى فرنسا.

وحتى قبل وصول دو سولسي إلى باريس، كانت الأنباء عن نتائج رحلته قد انتشرت. ففي تقارير صادرة عن القدس ودمشق إلى وزير التعليم العام الفرنسي، كان الرجل قد تباهى باكتشافاته في القدس والبحر الميت. وفيما بعد كتب دو سولسي يقول: «حتى حين كنت أتعقب خطوات البحاثة المتبحر الدكتور رُبنسن، تمكنت من إدراك الكثير من المعلومات الجديدة والمهمة». فالرجل لم يكتف بإقرار (حسب قناعته هو) حقيقة أن المواقع التقليدية في الأرض المقدسة كانت قابلة للبرهنة العلمية، بل وكان قد جمع أعمالاً أثرية ملموسة كإثباتات وأدلة.

بدا دو سولسي وكأنه أحد تجار الآثار في الأزمان اللاحقة، حيث حمل الأواني الفخارية ونُتَف التوابيت من (قبور السلاطين) إلى أوروبا لجيل جديد من المُتَعيّدين السذّج المؤمنين. ولدى عودته في نيسان من عام (1851 م) عَبّر أمناء اللوفر عن الامتنان حين استلموا لقاه بوصفها نواة (جناح يهودي) سيجري افتتاحه في المتحف الفرنسي العظيم. صحيح أن مستكشفين فرنسيين آخرين تنقلوا عبر فلسطين قبل دو سولسي، لكن أحداً منهم لم يحظ بمثل هذا التهليل الجماهيري الكبير وبهذه السرعة. فعلم الآثار الكتابي النقدي لم يعد احتكاراً للبروتستانت. وثمة انعطاف مفاجيء لمجرى الأحداث في قلب الإمبراطورية العثمانية كان من شأنه أن يفضي إلى المزيد من الانبهار الأثري الفرنسي بفلسطين.

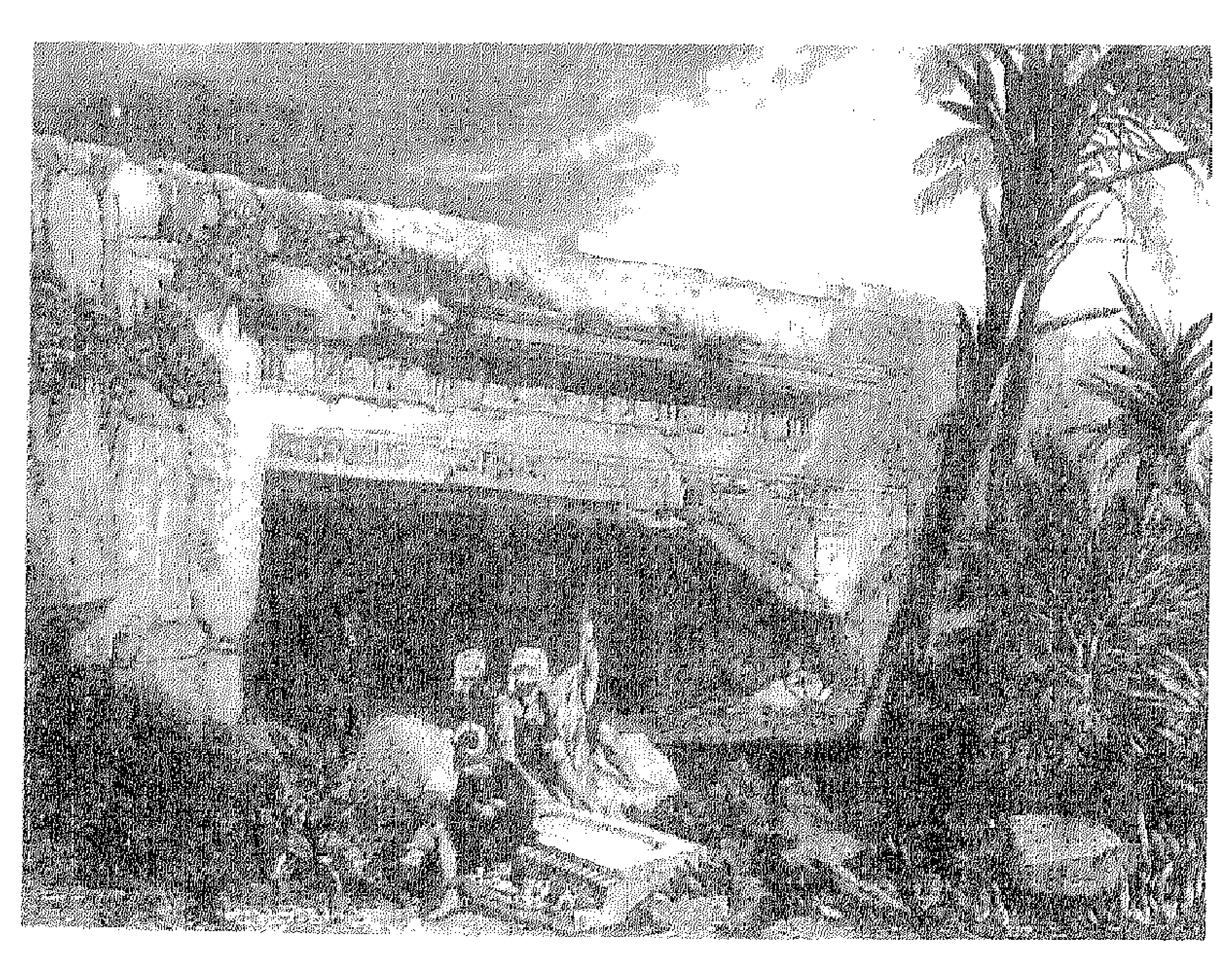
بلغت سلسلة الأحداث المبكية ـ المضحكة التي بدأت مع شجارات الرهبان عشية عيد ميلاد عام (1847 م) بكنيسة المهد في بيت لحم ذروتها في معارك حرب القرْم الدامية. فالحكومة الفرنسية، سعياً منها وراء تعزيز نفوذها في الأرضِ المقدسة على حساب الكنيسة الأرثوذكسية الخاضعة للرعاية الروسية، كانت قد طالبت السلطان، بغضب، بالسماح بحماية كاثوليكية حَصْرية للعديد من المزارات المقدسة المقسمة سابقاً. ومع أن رد فعل القيصر نيقولا ووزرائه اتسم بقدر مفهوم من الغضب، فإن غزوهم أقاليم الإمبراطورية العثمانية الدانوبية المجاورة كان أكبر من مجرد احتجاج ديني خالص.

بذل السفير البريطاني في القسطنطينية أقصى الجهود وهو يحاول التوسط من أجل تجنب حرب على نطاق واسع، ولكن بريطانيا نفسها سرعان ما انجرّت إلى النزاع في صف فرنسا. وما لبثت حالة التوتر حول (المسألة الشرقية) ما لبثت أن تطورت إلى حرب، حين قام اللواء الخفيف باقتحام وادي الموت، وراحت فلورنس نايتينغيل[14] ترعى المصابين وتضمد جراحهم. ومع اجتياح القلعة الروسية في سيفستبول عام (1855 م) تم ترسيخ توازن جديد للقوة في منطقة الشرق الأوسط. فمعاهدة باريس للسلام التي وُقعت في العام التالي، أجبرت روسيا على التخلي عن المناطق التي احتلتها من الأراضي العثمانية، والاعتراف بإنجلترا وفرنسا المنتصرتين بوصفهما الحاميتين الشرعيتين لوحدة أراضي إمبراطورية السلطان.

وفي فلسطين تحديداً، بلغ النفوذ الفرنسي ذرى جديدة بعد الحرب، كما أن اهتماماً جديداً بهذا البلد، تمثل بتنامي حجم مجموعة (الآثار الكتابية القديمة) في اللوفر، ما لبث أن حفز موجة جديدة من عمليات الاستكشاف الفرنسية. فحين بادر الإمبراطور نابليون الثالث إلى إرسال قوات عسكرية إلى لبنان في عام (1860 م) لإخماد نيران الحرب الأهلية بين الموَارنة الكاثوليك والدروز، تم وضع الخطط اللازمة لتمكين بعثة استكشاف أثرية رسمية من مرافقة قوة الغزو. وفيليسيان دو سولسي،

المتقاعد والمنسحب إلى حياة مريحة في باريس في ذلك الوقت، سرّته فكرة أعمال التنقيب الفرنسية على نطاقٍ واسع، وبادر بشغف إلى عرض استعداده الشخصي للمساعدة، منظّماً عملية قيام بعض المرشدين والخدم الذين رافقوه خلال أسفاره في البلاد بعرض خدماتهم على البعثة الفرنسية الرسمية.

قام المئات من الجنود الفرنسيين المسلحين بالمعاول والرفوش باقتحام مدن جبيل وصور وصيدا الفينيقية القديمة تحت إشراف لاهوتي مرموق يدعى إرنست رينان[15]. ما من بعثة أثرية إلى أرض الكتاب كانت قد أقدمت من قبل على الشروع بمثل هذه المشروعات الطموحة. وتمثلت النتيجة التي ترتبت على عمليات التنقيب الواسعة تلك بفيض من القطع الأثرية الجديدة والجديرة بالعرض في صالات اللوفر، وبمعلومات جديدة ومثيرة عن حضارة الفينيقيين، قدماء جيران المَلكَين داود وسليمان وحلفائهما.



مدخل (قبور السلاطين) (1855 م).

برهَنَت صلاتُ دو سولسي على أنها منطوية على فائدة كبيرة بالنسبة إلى رينان خلاَل عمله وزيارته اللاحقة للقدس، ولكن الأخير كان شديد العناد فلم يقاوم إغراء توجيه الانتقاد إلى سلفه. فالعديد من التقارير التي أرسلها إلى الإمبراطور في باريس وهو على الطريق، تضمنت سخرية لاذعة من بعض نظريات دو سولسي الأثرية الأكثر سذاجة. وفكرة أن الحرم الشريف غطى فعلاً أجزاء مهمة من بقايا هيكل سليمان، أو أن (قبور السلاطين) تضمنت فعلاً بقايا عواهل عبرانيين، بدت لرينان، صاحب العقل الطليق، فكرة شديدة الحَرْفية لا أمل منها.

ولدى وصول أنباء هذه الوخزات الساخرة أصيب دو سولسي بالرعب، إذ اعتبر مثل هذا النقد الصادر عن رينان نوعاً من نكران الجميل. ولعجزه عن تحمل الإهانة الصريحة، قرر أن يثبت أن نظرياته كانت صحيحة حقاً. فما بات مهدداً لم يكن مقتصراً على سمعة فيليسيان دو سولسي الأثرية، بل كان يتعداها إلى مرتبته الاجتماعية أيضاً.

في عام (1853 م) كان لوي فيليسيان دو سولسي قد أنهى حداده على زوجه الأولى حين أقبل على تقبيل يد زوجه الثانية. وزوجه الجديدة، ابنة الوزير الفرنسي [المفوض] في كوبنهاغن وصديقة الإمبراطورة يوجيني الشخصية الحميمة، وفرت له أسباب الوصول إلى أعلى مستويات المجتمع الفرنسي. فقد مُنح رتبة رائد في المدفعية في عام (1855 م) وبعد أربعة أعوام، بعد مرافقة الأمير جيروم نابليون، في رحلة "استكشاف" رسمية إلى غرينلاند وجزر الفايرو حصل على أعلى شرف في حياته إذ عُين عضواً في مجلس الشيوخ. وعلى الرغم من أن اهتمام دو سولسي بآلية عمل النظام السياسي الفرنسي كان في الحدود الدنيا، فإنه أبدى حرصاً على حضور الجلسات البرلمانية عربون وفاء، (مصوّتاً على الدوام) كما لاحظ أحد المراقبين المعاصرين (لصالح سائر التدابير المقترحة من قبل الحكومة).

ومع أن الإمبراطور كان واعياً، بألم، لانتقاد نظريات دو سولسي الأثرية، فلم يكن أمامه أي خيار سوى دعم بعثة استكشافية جديدة إلى الأرض المقدسة يضطلع بها "سيناتوره" الوفي. وما أسرع ما تم تأمين عشرين

ألفاً من الفرنكات، مع مباركة حكومية كاملة عن طريق وزير التعليم العام ووزير الحرب (الماريشال) لوي راندون[16] الذي سارع إلى الالتزام بتوفير خدمات ضابط (طبوغرافي) مخضرم من الأركان العامة. بل وحتى وزارة الخارجية تلقت توجيهات تقضي بأن تفعل، عبر السفارة الفرنسية في القسطنطينية، كل ما تستطيع لتمكين دو سولسي من التمتع بنعمة حماية السلطان الشخصية في أسفاره.

في التاسع من تشرين الأول، عام (1863 م) انطلق لوي ـ فيليسيان دو سولسي، وقد بلغ السادسة والخمسين من العمر، ثانية، إلى فلسطين. وبالاضافة إلى الضابط التضاريسي (الكابتن) جلي،[17] رافقه صديقه المخلص ورفيق أسفاره الأب جان ـ هيبوليت دو سان ميشون[18] الذي سبق له أن كان في البعثة الأولى، جنباً إلى جنب مع شابين من علماء الآثار الهواة. وفي أثناء الترحال شرقاً، استُقبلت البعثة، الممولة بسخاء، استقبالاً حافلاً في مصر من قبل أوغست مارييت، الذي أصبح رئيس إدارة الآثار المصرية، حيث رافق أعضاء البعثة، شخصياً، لإطلاعهم على عمليات التنقيب الواسعة في موقع معبد سقارة القديم. ولدى وصولهم إلى فلسطين في السابع والعشرين من تشرين الأول، جرى استقبال أعضاء البعثة من قبل موظفي القنصلية الفرنسية الذين سارعوا إلى ترتيب لقاء لهم مع باشا القدس. أما القنصل الفرنسي الجديد، بول بارييز[19] فقد عرض استعداده لتقديم كل مساعدة، حتى بدا لسولسي أن الظروف لم تكن أفضل مما هي عليه لهجومه المتجدد على جملة الأسرار المستعصية التي تزخر بها الأرض المقدسة.

كان الجزء الأول من مسار الرحلة عبارة عن جولة حول البحر الميت أراد دو سولسي من خلالها يثبت صحة توصيفاته السابقة لمواقع سدوم وعمورة. غير أن اندلاعاً متجدداً للاضطرابات بين قبائل بدوية متنافسة ما لبث، لسوء الحظ، أن فرض تعديلاً للمسار، فمُنع دو سولسي من الوصول إلى بعض أهم المواقع. ومن ثم جاءت أمطار الشتاء فبات السفر، ولو عبر مسار مختصر، أمراً بالغ الصعوبة. أضف إلى ذلك أن دو سولسي، الذي لم يعد ذلك الشاب الذي كانه في رحلته السابقة، ابتُلي بقُطان حاد.

كانت نتائج الجولة حول البحر الميت مرشحة لأن تكون أقل مما أراد لها دو سولسي، ولكن الرجل عاد إلى القدس بآمال عريضة. فقد سبق له أن شهد، شخصياً، فيض النتائج المثمرة لتنقيبات مارييت في مصر، وبات حينذاك مستعداً لتركيز اهتمامه على الموقع الإشكالي (القبور السلاطين) والشروع بعملية تنقيب أثرية شاملة، للمرة الأولى، في القدس.

وفي السابع عشر من تشرين الثاني عام (1863 م) أمر دو سولسي مساعدَيْه الشابين بالبدء بعملية ازالة منهجية للأنقاض الموجودة فوق بقايا الموقع القديم. فمنذ أيام الليدي هستر ستانهوب ما من مستكشف غربي قام بأعمال تنقيب واسعة في فلسطين، وما من أحد سبق له أن حاول أن يحفر في المدينة المقدسة نفسها. ولكن دو سولسي كان مقتنعاً بأنه سيتمكن، بفضل الحماية المضمرة للحاكم التركي، من القيام بعملية الحفر دون عرقلة. فمن أجل سمعته الشخصية وفي سبيل إعلاء مجد فرنسا كان سيتمكن أخيراً أن يحدد، عن طريق التنقيب العلمي، الهوية المقدسة للموقع. وفي اليوم الأول من العمل بالذات كوفئت توقعات دو سولسي الطموحة باكتشاف سُلّم أثري عريض ملاصق للفناء المجاور للأضرحة.

وبين القطَع والمزَق الأثرية التي استُخرجت من طبقة الأنقاض التي كانت تغطيَ السلم كانت ثمة كتلة كبيرة من الرخام الأملس المصقول. وفي توق شديد إلى العثور على رابط أثري ما بين لُقاه من جهة والكتابات الوصفية القديمة للأضرحة الملكية من جهة ثانية، ما لبث دو سولسي أن استنتج على الفور أن الكتلة الحجرية كانت جزءاً من التمثال الذي أقيم عند موقع ضريحي داود وسليمان من قبل الملك هيرودس في القرن الأول قبل الميلاد. وكان دو سولسي قد اكتسب شهرة في باريس بوصفه محاوراً بارعاً ومقنعاً، ولم يمض وقت طويل حتى انتشرت نقاشات حامية حول أعماله التنقيبية في أروقة الجالية الأوروبية بالقدس وغرف جلوسها.

ولكن تمجيد دو سولسي لشخصه كان وبالاً عليه. فلدى عودته، مع رجاله، إلى الموقع لاستئناف العمل، في الثامن عشر من تشرين الثاني، تم إيقافهم من قبل عدد من الأهالي المحليين الغاضبين، الذين ردموا

سائر خنادق التنقيب، كما حالوا دون الوصول إلى الضريح نفسه. وعلى الفور استشاط دو سولسي غضباً، وأرسل خبراً إلى القنصل الفرنسي الذي أبلغه ببرود بأنه ما إن بدأ نبأ اكتشافاته ينتشر في المدينة، حتى هب عشرات السكان المحليين زاعمين ملكيتهم لأجزاء من الموقع، ليقدموا عرائض احتجاج إلى الباشا مطالبين بتعويضات مالية. وأحد هؤلاء، وهو الذي ادعى ملكية البوابة، طلب ألفاً من القروش مقابل حق المرور. رفض دو سولسي ذلك بغضب وهدد الرجل بـ«مئة ضربة بعكازتي» بدلاً من القروش، ومن ثم استنفر ثقَلَه السياسي. فالبعثة كانت تملك السلطة الكاملة للحكومة الفرنسية، وعن طريق الدعم الذي وفره القنصل الفرنسي، استطاع دو سولسي أن يجبر الباشا على إخماد الاحتجاج الجماهيري والسماح باستئناف أعمال التنقيب.

غير أن دو سولسي كان يعلم أنْ ليس لديه أي وقت يضيعه. ومرة أخرى تسلل زاحفاً إلى داخل حجرات الأضرحة العفنة، واطمأن حين عثر على بعض البقايا التي كانت قد غابت عنه، على ما يبدو، في الزيارة السابقة. وفي هذه المرة نجح في العثور على تابوت حجري كامل، وعلى قطع ومزق توابيت أخرى، وعلى بعض المصابيح الفخارية القديمة، وعلى بعض القوارير الزجاجية المكسورة. وما إن تم إخراج التابوت إلى ضوء النهار حتى سارع دو سولسي، مغموراً بالبهجة، إلى الإشارة إلى بعض الأحرف القديمة المخدوشة على الطرف العلوي. صحيح أنه لم يكن دارساً مخضرماً للعبرية، ولكنه استطاع أن يتهجى كلمة "ملكة" في النقش، فأعلن أمام أركان بعثته، بثقة، عن أنهم قد اكتشفوا تابوت زوج الملك صدقيا.

كان تعرفه على هذا الأثر، مثله، في حقيقة الأمر، مثل تعرفه على الموقع كله، خاطئاً خطأً فادحاً، على الرغم من أن الضريح كان ملكياً حقاً. فعلماء آثار لاحقون أظهروا أنه كان، في الواقع، الضريح العائلي للملكة هيلين من أديابنا، وهي تدمرية اعتنقت الديانة اليهودية في القرن الميلادي الأول؛ بعد مضي ألف سنة فقط على حقبة أوائل الملوك العبرانيين. ولكن تم تجاهل أية شكوك حول قيمة اللّقى فيما كان دو سولسي دائباً على استكمال

استخراجها. وما إن كان هو ومساعداه قد أخذوا نسخاً من الجص عن الإفريز المزخرف فوق مدخل الضريح، حتى أمر رجاله بنقل العمليات إلى الموقع التقليدي لـ(أضرحة القضاة) حيث توخى القيام باكتشافات عظيمة إضافية. وعلى امتداد الجدار الداعم للحرم الشريف، كما في وادي جهنم <قدرون> تحته، جرى حفر خنادق أخرى. صحيح أن بضع لُقى صغيرة وغير ذات أهمية هي كل ما تم العثور عليه في هذه المواقع، ولكن دو سولسي كان واثقاً من أنها أكّدَت صحة نظرياته.

ومن المفارقات الساخرة أن النجاح الذي مكّن دو سولسي من إقناع الجمهور بأنه قد اكتشف المواقع الصحيحة للتاريخ الكتابي هو ما أثار حفيظة يهود القدس. فقبل دو سولسي لم يكن اليهود المحليون يكترثون بالجهود المبذولة من قبل علماء الآثار الكتابية الغربيين، ولكن النشاطات المحمومة للفرنسيين والشائعات الغريبة عن اكتشاف توابيت عبرانية قديمة، ما لبثت أن أقنعت حاخامات القدس بأن الأضرحة الحقيقية لملوكهم كانت قد دُنّسَتْ. فقد نشرت إحدى الصحف العبرية افتتاحية اتهام قالت فيها: «إن التلهف على دراسة الآثار القديمة بلغ هنا في الأيام الأخيرة حداً من الكثافة؛ حتى بات ممارسوها غير مستعدين حتى لتجنب المساس بالبقايا القديمة لأجدادنا». واجتاح الجالية اليهودية بقضها وقضيضها غضب عارم، كما بادر قادتها إلى إرسال الاحتجاجات الحانقة إلى القسطنطينية، مطالبين بوقف أعمال التنقيب فوراً.

ولدى وصول توجيهات الصدر الأعظم الجوابية عبر الخط البرقي الجديد، القاضية بوقف العمل، كان دو سولسي وصحبه قد تسللوا إلى خارج القدس مع لُقاهم. فالمسألة الآن لم تعد إلا مسألة مبدأ، ولكن القنصل بارييز دافع بثبات وعناد عن الحقوق الفرنسية في التنقيب، في حين تابع حاخامات القدس احتجاجاتهم، مستنفرين دعم الجاليات اليهودية في لندن وباريس. ولكن أنباء "تدنيس" دو سولسي ما لبثت أن بدأت تظهر في الصحافة البريطانية، حتى أن صحيفة التايمز اللندنية الرصينة التحقت بجوقة النقاش الصاخب شاجبة صنيع الفرنسي الذي تعامل مع الأضرحة القديمة بـ" تجديف مشين".

تلاشى الغضب الشديد إزاء تنقيب دو سولسي في القدس تدريجياً، ولكن التوتر بقي. ففيما سعت الحكومة الفرنسية إلى تعزيز مطالبتها بالمواقع التقليدية، بات باحثين أكاديميين بريطانيين أكثر تصميماً على إظهار أن تلك المواقع كانت زائفة. وسرعان ما أضحت عملية السعي إلى الآثار القديمة في فلسطين أداة اختبار القوة.



8) قضية كرامة وشرف:

دعاوى ودعاوى مضادة بشأن المدينة المقدسة

(1863ـ1864م)

في كانون الثاني من عام (1864 م) عرضت المكتبات اللندنية الأرقى والأفخم في واجهاتها جزأي كتاب استكشاف القدس الكبيرين، المُغَلّفين بجلد أزرق اللون تزيّنُه أحرفٌ ذهبية نافرة، وبسعر مرتفع ارتفاعاً غير عادي. وقد زُعم أن الكتاب المؤلف من جزء للنص وآخر للوحات، خلاصة وافية وشاملة لآثار القدس القديمة، صُممت لتضع، وإلى الأبد، حداً للنقاشات الحامية والنظريات المتضاربة حول مدى اتصاف الأماكن المقدسة بالمصداقية.

ومع أن إهداء الكتاب المشبوه لرعاية الإمبراطور نابليون الثالث لم يكن مزعجاً بما يكفي لاستثارة الحساسيات الإنجليزية العصبية، فإن عمليات الانتحال السبع عشرة الواضحة من مؤلفات مستكشفين بريطانيين سابقين كان من شأنها، بالتأكيد، أن تشكل الحُكْم الفَصْل على هذا الكتاب. والأدهى من ذلك أن المؤلف قام، كما بدا، بإبدال جملة المخططات والصور المنتحلة ليدعم إيمانه المطلق بأن مزارات القدس التقليدية كانت بالفعل المواقع الكتابية التي زعمت أنها تمثلها.

وكان مؤلف كتاب **استكشاف القدس**، إرميته بيروتّي[2] قد ظهر في القدس بصورة غامضة قبل عقد من الزمن، في السنوات التي سبقت حرب القرم مباشرة. وبيروتّي هذا، وهو إيطالي المولد، مدعياً أنه مهندس عسكري في

الجيش السرديني، سرعان ما اهتدى إلى مُتَنَفَّس لمواهبه المهنية في مشروعات البناء العديدة الممولة في المدينة المقدسة من قبل القوى المسيحية المتنافسة. شارك بيروتّي عبر عمله معمارياً أو مهندساً لصالح كل من يستخدمه بالأجرة، في إنشاء تكية الحجاج النمساويين بتكليف من الإمبراطور فرانز يوزف، وتجديد كنيسة القديسة آن الفرنسية، التي كان السلطان قد أهداها إلى نابليون الثالث، كما قام شخصياً بتصميم المجمع الهائل للمباني الشبيهة بالقلاع الذي موله القيصر ألكسندر الثاني لإيواء الأعداد المتزايدة من الحجاج الروس الذين كانوا يأتون سنوياً إلى القدس. والاستخدام الدائم لبيروتّي ما لبث أن لفت نظر سريّا باشا، محافظ المدينة العثماني، والذي عينه في منصب (مهندس معمار، مدني وعسكري) شبه الرسمي، وهو منصب كان هذا سيورده باعتزاز تحت اسمه على صفحة غلاف كتاب **استكشاف القدس**.

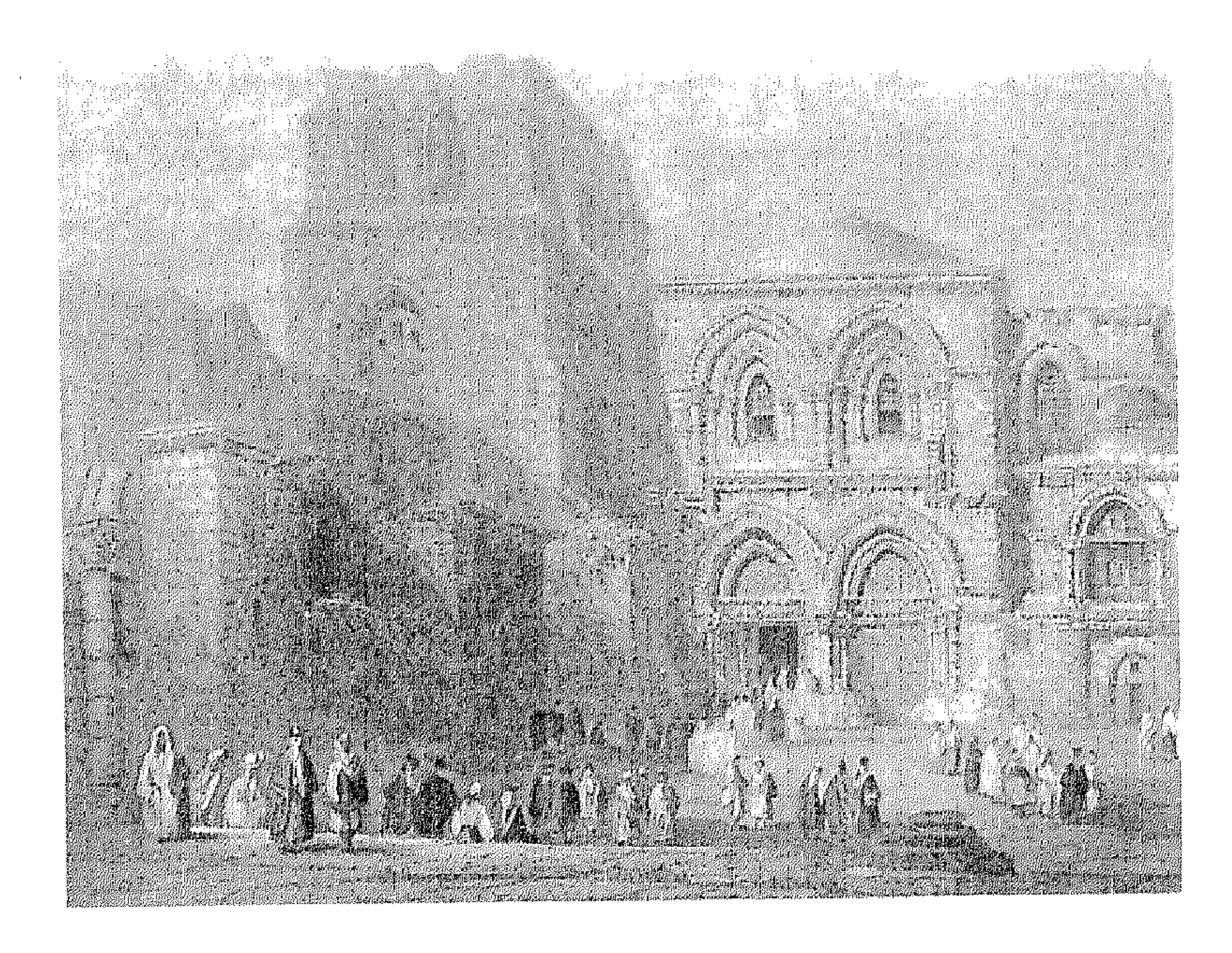
كان الانبهار الأوروبي بعلم الآثار الكتابية يزداد كثافة؛ سنة بعد أخرى وبوصفه موظفاً رسمياً لدى السلطات العثمانية في القدس، تمتع بيروتّي بامتيازات ممنوحة من الباشا، قلّ أن حصل عليها أي مستكشف غربي من قبل. ومكنته مهمة إصلاح شبكة المياه في الحرم الشريف من القيام بمعاينة شاملة لبقايا هذا المكان القديمة، بل وسمح له الباشا أن يصطحب مصوراً محلياً إلى داخل الحوزة المقدسة لأخذ أولى الصور التفصيلية لكل من قبة الصخرة والمسجد الأقصى.

تجلى مدى اتساع المعلومات الآثارية التي امتلكها بيروتّي وأهميتها للمرة الأولى حين عمل مترجماً ودليلاً لدى إرنست رينان خلال زيارة العالم الفرنسي القدس في عام (1860 م). فقد أكب، بشغف، على معاينة مجموعة خرائط وصور بيروتّي، وذُهل إزاء الكم الهائل من المعلومات المؤكدة التي كان قد جمعها في السنوات الست الماضية. وحتى النقيب جيلي، ذلك الضابط (الطبوغرافي) الفرنسي الذي رافق فيليسيان دو سولسي في عام (1863 م) انبهر كثيراً بمدى سعة عمل بيروتّي ودقته، حتى عمد إلى استنساخ بعض مخططاته وشجعه على نشرها بأقصى سرعة

ممكنة. بادر إيرميته بيروتّي مدفوعاً بمشاهد الاعتراف الدولي والأرباح الممكنة، إلى حزم أمتعته القليلة ومجموعته الكبيرة من الخرائط والمخططات، وغادر القدس إلى باريس آملاً في العثور على ناشر لأبحاثه الكتابية.

تعززت فُرَصُ نجاح بيروتّي في هذا المشروع بشكل ملحوظ جراء الجدل المتجدد الذي كان قد تعالى في إنجلترا حول الموقع الصحيح لكنيسة القيامة. أما بطلا هذا الجدل الرئيسان فكانا جيمس فرغسُن،[3] وهو (جنتلمان) باحث سبق له أن راكم ثروة كبيرة من الاتجار بالنيلة الكالكوتية، من جهة؛ والأب جورج وليامز، قسيس السفارة البريطانية في سان بطرسبرغ، من الجهة الأخرى. ففي عام (1847 م) كان فرغسُن قد نشر كتاباً بعنوان [مقالة عن التضاريس القديمة للقدس][4] أكد فيه بجرأة، استناداً إلى خبرته المعمارية الخاصة، أن قبة الصخرة، بعيداً عن أن تكون مزاراً إسلامياً، كانت بالفعل كنيسة القيامة الأصلية التي شادها الإمبراطور قسطنطين في القرن الميلادي الرابع. ومن مزاعم فرغسُن أن ذكرى الغرب عن الكنيسة الأصلية تبددت مع سقوط المملكة الصليبية وجرى، بالتالي نقلها إلى الموقع اللاحق غير الصحيح. وبدت نظرية فرغسُن الصريحة والساذجة، حجة قوية ضد التقليديين واكتسبت أتباعاً متنفذّين بعد تكريسها في **قاموس الكتاب** للدكتور سمث في عام (1858م).

غير أن القس جورج وليامز، وهو الذي طالما راوده حلم توحيد الكنيستين الأنغليكانية والأرثوذكسية، وميالاً، بطبيعة الحال، إلى تصديق أصالة المواقع التقليدية. بقي غير مقتنع. وبما أنه قد كان رافق حاشية المطران الأنغليكاني الأول إلى القدس في عام (1842 م) فقد توافرت لديه معلومات لا بأس بها عن المواقع التي لم يرها فرغسُن إلا عبر المطبوعات الحجرية والمخططات. وكان كتاب وليامز نفسه، وكان بعنوان: [المدينة المقدسة][5] كان قد عرض مشروعاً تفصيلياً لإعادة بناء المسارب القديمة لأسوار مدينة القدس، وتوصل إلى استنتاج يقول بأن موقع كنيسة القيامة كان، في الحقيقة، خارج المدينة في زمن يسوع. والتقديس التقليدي للمكان كان له، حسب رأيه، ما يسوغه كلياً.



كنيسة القيامة

سمع وليامز للمرة الأولى عن بيروتّي والمعلومات التي جمعها من سيدة إنجليزية ثرية هي الليدي سترانغفورد[6] التي كان الأخير دليلها في جولتها الفلسطينية في سنوات قليلة سابقة وبدأ وليامز مهووساً بإمكانية أن تساعده مخططات بيروتّي في إثبات صحة موقفه من موقع كنيسة القيامة، بسلسلة مراسلات ما لبثت أن تمخضت عن زيارة باريس من أجل معاينة المخططات بقدر أكبر من الإمعان، حيث أثار ما رآه حماسه فسارع إلى الترتيب لاستقدامه بيروتّي إلى كمبردج بهدف تعجيل نشر الكتاب.

كانت مخططات بيروتّي تُظهر أن أرضية الحرم الشريف، بمجملها، لم تكن إلا بنياناً واحداً، وتشي بأن قبة الصخرة، التي زعم فرغسُن أنها كانت كنيسة القيامة الأصلية، كانت مبنية، في الواقع، فوق بقايا مذبح أضاحي الهيكل اليهودي. أما المكان الذي قال فرغسُن إنه موقع الهيكل، الزاوية الجنوبية ـ الغربية للحرم، فقد كشف بيروتّي أنه لم يكن أكثر

من مجمع صهاريج قديمة. ومخططات بيروتّي المرسومة بعناية ودقة كان من شأنها، كما أمل وليامز، أن تُنزل الضربة الأخيرة المدمرة بمزاعم فرغسُن. وسرعان ما تم الاهتداء إلى ناشر، كما كُتب النص، بمساعدة ولَيامز؛ ثم راح المهندس السرديني والأسقف الأنغليكاني ينتظران بفارغ الصبر التهليل النقدي، الذي كان من المؤكد أن يرافق الترحيب بعملهما العظيم والحاسم.

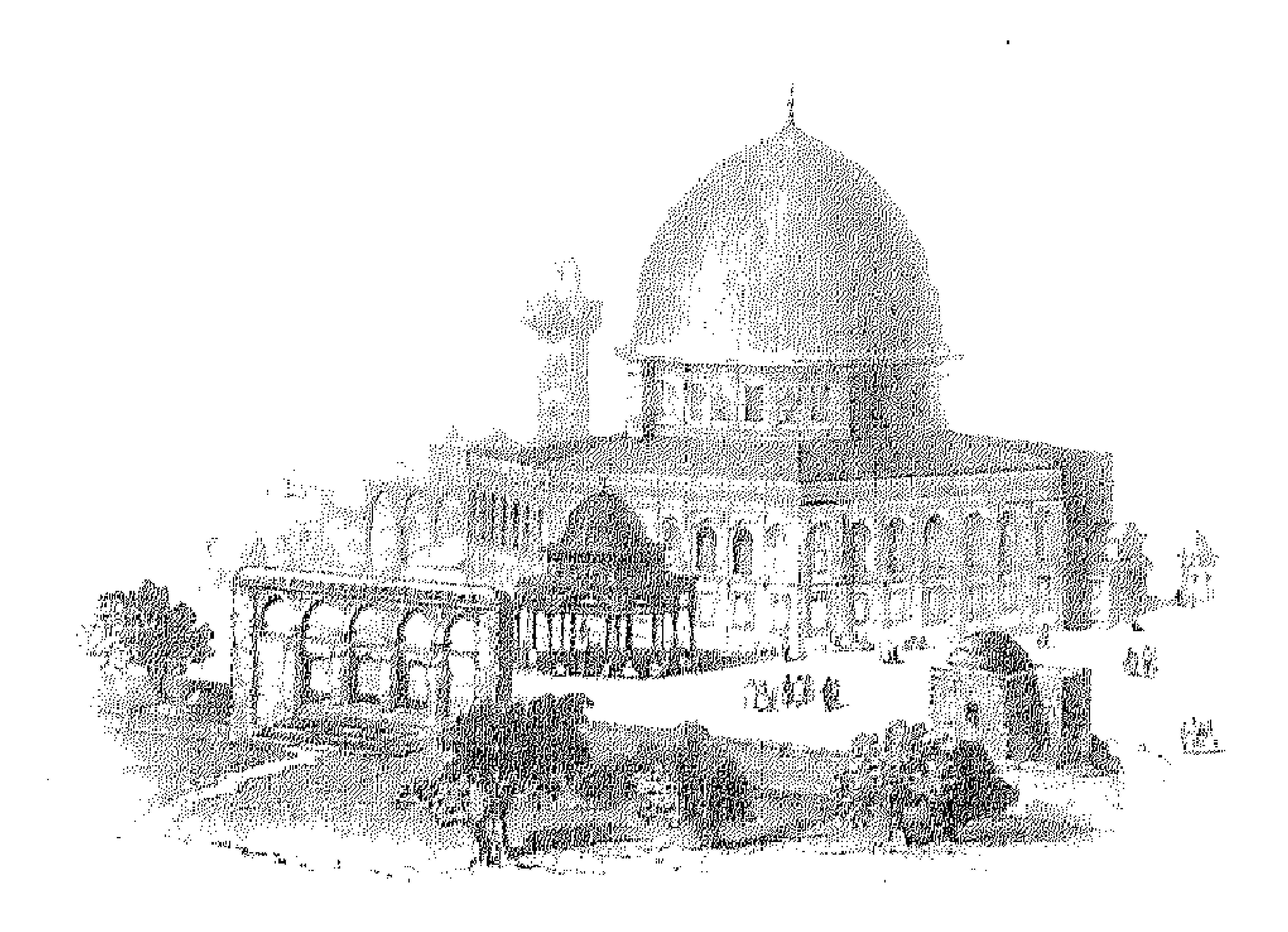
جاءت الصلْية الأولى من الرسائل الغاضبة التي انهمرت على جريدة التايمز اللندنية، بمناسبة نشر [استكشاف القدس] أوائل عام (1864 م) من جيمس فرغسُن نفسه. ففي الخامس عشر من شباط بادر الأخير، دون النزول إلى مستوى التعليق على جملة النقاط المحددة التي أثارها كتاب بيروتّي، إلى الإعلان، أمام الجمهور، عن أنه سيقيم عما قريب دعوى انتحاَل ضد ناشري الكتاب في شركة بِل آند دُلدي،[7] بسبب نشر غير المرخص لإحدى لوحات كتابه.

لم تستخف دار بل آند دُلدي بمثل هذا الاتهام. فبعد التشاور مع وليامز وبيروتّي حول اتهامات فرغسُن، أعلن الناشرون أنهم حصلوا على دفاتر بيروتّي الأصلية ورسوماته بالقلم الرصاص، التي تم أخذ الطبعات الحجرية كلها منها، ودعوا جيمس فرغسُن إلى معاينتها شخصياً. وبالفعل قام فرغسُن بفحصها في اجتماع متوتر عقد في مكاتب الناشرين بلندن، ولكنه غادر المكان دون اقتناع. وفي التاسع والعشرين من شباط كرر اتهاماته الأصلية في رسالة أخرى إلى صحيفة التايمز، قائلاً: إن دفاتر الإيطالي لم تكن أكثر من وثائق مزوّرة، ومتنبئاً، بكبرياء، بأنه ما إن يتم عرض القضية، أخيراً، على التحكيم أمام المحكمة «فلن يبق من غرابنا سوى كمية قليلة جداً من الريش الرائع الذي حاول أن يتباهى به أمام جمهور مشبع بالإعجاب».

لم تقتصر ثورة الغضب على نشر استكشاف القدس على فرغسُن. فأحد مؤيديه الأشد حماساً كان السكرتير الذي لا يعرف معنى التعب

لشركة كريستال بالاس جورج غروف. الذي كان مهتماً بالعديد من الميادين المختلفة للنشاط الإنساني. ففضلاً عن دعمه السلسلة اللامتناهية من العروض والغرائب والمعارض والحفلات الموسيقية في قاعة (كريستال بالاس) ناهيك، عن قيامه وحده بتوضيب **[قاموس الموسيقى والموسيقيين]** الشهير، لم يعجز أيضاً عن إيجاد الوقت اللازم لمتابعة الاهتمام الفعال بعلم الآثار الكتابية.

بدأ اهتمام غروف بالموضوع حين كان جيمس فرِغسُن مديراً لشركة كرستال بالاس (بين عامي (1851 ـ 1858 م) حيث تبنى بقناعة، نظريات الأخير حول عدم جدارة المواقع المقدسة التقليدية بالثقة. وقدمت قائمة غروف، الموضوعة بعناية شديدة لأسماء المكان العبرية الواردة في التوارة، مساعدة لا تقدر بثمن لعميد وستمينستر، آ. ب. ستانلي، في إعداد كتابه الشامل عن الأرض المقدسة: **[سيناء وفلسطين]**[8] في عام (1856 م). وبعد القيام برحلتين إلى فلسطين في عامي (1858 و1861 م) كرّس غروف جزءاً كبيراً من وقت فراغه للإسهام في مراجعة الطبعة الأخيرة لكتاب الدكتور



القدس في عام (1842 م)

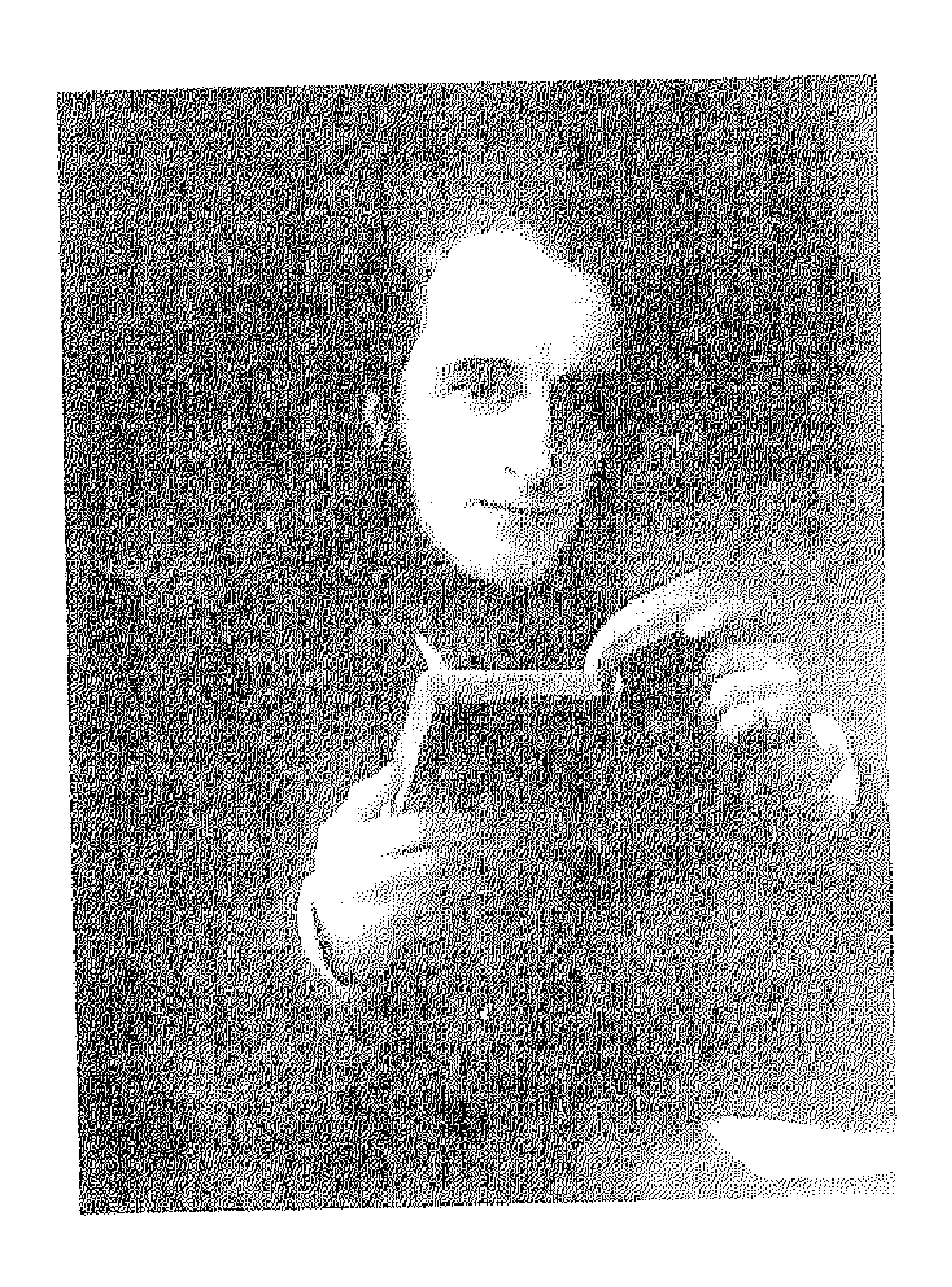
سمعة قاموس الكتاب الذي تضمن العديد من نظريات فرغسن.

ومع حلول عام (1864 م) كان جورج غروف قد حقق شهرة رائعة في أوساط حلقة صغيرة من باحثي إنجلترا وكهنتها المهتمين باستكشاف الأرض المقدسة. وتلك الشهرة هي التي جعلته، أكثر من أي شيء آخر، يندفع بحماس إلى اتخاذ موقع الدفاع حين وقف في صف جيمس فرغسُن في المعركة التي استهدفت تشويه سمعة كتاب: استكشاف القدس.

ما إن نشرت جريدة التايمز رسالة غروف الأولى حتى أطلق بيروتّي هجومه المعاكس. ولدحض أشكال القَدْح والتشهير بسلوكه وشخصيته، قدم شهادات موسعة من الليدي سترانغفورد وإليزابيث آن فين، زوج القنصل البريطاني السابق في القدس. أما تهم الانتحال فقد أنكرها من الأساس وبصورة مطلقة، حاصلاً على شهادة موثقة بالقَسَم من رسام ناشره، تؤكد أنه قدم المخططات الأصلية. بل وزعم أنه هو نفسه قد كان تعرض أكثر من مرة لعمليات الانتحال في ظل الأجواء المحمومة لقدس خمسينيات القرن التاسع عشر. فحين تدفقت أفواج الفنانين والمصورين الضوئيين والباحثين الأكاديميين على المدينة، باحثين بيأس عن معلومات جديدة عن القدس الكتابية، كان أعار مخططاته الخاصة إلى زوار غربيين في مناسبات كثيرة؛ من الوارد تماماً أن تكون المخططات المتضمنة في كتاب فرغسُن مستندة إلى النسخ الأصلية العائدة لبيروتّي. ورداً على تهديد فرغسُن برفع دعوى قضائية، أبلغ بيروتّي، ببرود، جميع الخصوم المحتملين، بأنه بات متمتعاً بخدمات محام مرموق يمكنهم، إذا وجدوا لديهم ما يكفي من الجرأة، أن يبحثوا الأمر معه.

من الواضح أن الهجوم المعاكس كان ناجحاً لأن فرغسُن بادر بسرعة إلى التراجع عن تهديداته الحقوقية، داعياً إلى مقاضاة بيروتّي أمام مجلس [المعهد البريطاني لمهندسي العمارة][9] بدلاً من ذلك. لكنه أدرك أنه لن يتمكن قط من الحصول على معاملة عادلة من قبل هيئة كان فرغسُن نفسه عضواً فيها، خلافاً لحاله هو، فاعتذر عن الدعوة باقتضاب، تاركاً النزاع في طريق مسدود. وربما كان بطلا القضية، قد اقتنعا بضرورة ترك

النقاش العام، الذي بات يثير قدراً متزايداً من الامتعاض، يتلاشى مع مرور الزمن، غير أن جورج غروف ظل مصمماً على الاستمرار في متابعته. فالقضايا التي كانت قد أُثيرت شكلت تحدياً مباشراً لآرائه حول القدس ومزاراتها المقدسة، فقام بإقناع فرِغسُن بمساعدته على تسوية النزاع بطريقة أخرى.



(جورج غروف)

كان غروف مصمماً على اكتشاف المزيد من المعلومات عن ذلك الإيطالي الغامض، والغوص عميقاً لمعرفة الدوافع الكامنة وراء أبحاثه. لماذا جاء إلى القدس في المقام الأول؟ أية علائق له بالإمبراطورية الفرنسية كانت قد أفضت إلى جعله يهدي كتابه إلى نابليون الثالث؟ سافر غروف مع فرغسُن إلى باريس حيث أخفق لقاء شخصي مع فيليسيان دوسولسي في التَمخض عن أي شيء، ما عدا الإعجاب الكريم بعمل المهندس الإيطالي؛ فمواصفات بيروتّي بدت، مهنياً على الأقل، فوق الشبهات.

لم يتم كشف النقاب عن الدليل الأثري الذي كان غروف وفرغسُن دائبين على البحث عنه، آخر الآمر، إلا حين بدأ الرجلان يدققان النظَر في

خلفية بيروتّي الشخصية. فقد كشفت وثيقة عمرها خمس عشرة سنة مدفونة في محفوظات جيش المملكة السردينية، التي كانت متحالفة مع إمبراطورية نابليون الثالث في ذلك الوقت، عن أن النقيب إيرميتي بيروتّي كان قد وُجد في (1849 م) مذنباً بجريمة اختلاس أموال عائدة لوحدته في الجيش السرديني، فجُرِّد من رتبته، ونُفي مدى الحياة من مسقط رأسه. ومن المفترض أن يكون ذلك الحكم المهين سبب وصوله الغامض إلى القدس بعد بضعة أعوام، وربما كان أيضاً سبب توسله النادم لكسب عطف نابليون الثالث من جديد. وفي ضوء خصومة غروف وفرغسُن ما كانت وثيقة المحكمة العسكرية لتبدو إلا إدانة كاملة لسلوك بيروتّي، فضلاً عن كونها سلاحاً يستطيعان استخدامه لتدميره.

وما إن عاد غروف وفرغسُن إلى لندن ومعهما الدليل الثمين الذي يدين بيروتّي، حتى راحا يمرران الوثيقة على سائر أندية المجتمع الإنجليزي الراقي، الذي كان قد بدأ يتوافد على لندن استعداداً لاستقبال الموسم الاجتماعي الوشيك وجمعياته. وفي لمح البصر فعلت الحملة الصامتة ضد المنبوذ السرديني فعلها. فنظرياته الآثارية التي كانت تناقش بالجدية كلها ذات يوم، باتت الآن لا تستثير إلا الضحكات الساخرة. وفي مواجهة السخرية اللئيمة من جانب المجتمع اللندني، لم يكن بيروتّي يملك أي شيء يدافع به عن نفسه، فغاب عن الأنظار بسرعة البرق. أما النسخ المتبقية من كتاب **استكشاف القدس** فسرعان ما انقلبت إلى غرائب مسلية، بدلاً من أن تغدو صعبة التسويق.

ومع أن غروف وفرغسُن كانا قد دمّرا الحياة المهنية للمهندس الإيطالي، وأذلاّ ولي نعمته الأنغليكاني، فإن القضية الآثارية لم تكن قد حُسمت بصورة نهائية. فطوال بقاء أي قدر من الشك حول الموقع الصحيح للأماكن المقدسة، كانت قوة الكنيستين الكاثوليكية والأرثوذكسية في فلسطين وهيبتهما ستظلان تتدعمان بتقديس كنيسة القيامة وغيرها من المزارات التقليدية، كما كانت المرجعية العلمية لعلم الآثار الكتابية ستبقى مفتقرة إلى البرهان.

وفي حي آخر من أحياء المجتمع اللندني الراقي، كان يتم رسم المخططات لإيفاد بعثة إلى القدس غير ذات علاقة كلياً بالصراع على الأماكن المقدسة، ولكن كلاً من جورج غروف وجيمس فرغسُن لم يضيعا وقتاً قبل تحويلها إلى مصلحتهما الخاصة.

9) بناء أورشليم الجديدة: المبشرون والمهندسون المَلَكيُّون

(1864-1865 م)

مع انحسار رياح الشتاء الباردة عن طرق المشي المشجرة في كنسنغتن وهايد بارك، كما هو الحال دوماً في شهر أيار، كان المجتمع اللندني يعود إلى الحياة ثانية. فأيار كان شهر (اللقاءات الاجتماعية) السنوية، والأرستقراطية ورجال الدين وقادة المجتمع المدني مع الصناعيين المزدهرين حديثاً الذين كانوا يعودون أفواجاً إلى منازلهم المدينية اللندنية الرشيقة من جميع أرجاء المملكة المتحدة لحضور الاجتماعات السنوية لمختلف الجمعيات الإنسانية والخيرية التي كانت شديدة الرواج في تلك الأيام.

الحماسة الدينية للإيفانغيليين متمتعة بقدر كبير من الاحترام؛ فعن طريق كل من [الجمعية الكتابية البريطانية والأجنبية][1] و[جمعية السيدات التبشيرية الوطنية][2] و[الجمعية المعمدانية التبشيرية][3] و[جمعية الكنيسة التبشيرية][4] أو [الجمعية اللندنية لنشر المسيحية بين اليهود][5] [التي عُرفت باسمها المختصر [الجمعية اللندنية لليهود] (ز. م)][6] كانت مهمةُ غَرْس البذور الربيعية للمذهب البروتستانتي المتنور والتقنية الصناعية في سائر أرجاء العالم، تُعتبر جزءاً بالغ الأهمية من المسؤولية المدنية الملقاة على عاتق العهد الفكتورياني.

ومنذ تأسيس الأبرشية البروتستانتية في القدس في عام (1842 م) كان المبشرون البريطانيون قد لعبوا دوراً أكبر من نظرائهم هناك. وبدعم من

القنصلية البريطانية التي وجدت في المدينة، قامت لَندَنْ جُوز سُسيتي [جمعية يهود لندن] وأنغليكان تشرتش ميشينَري سُسيتي [جمعية الكنيسة الأنغليكانية التبشيرية][7] ببناء المدارس وتأثيث المشافي، كما عملتا بقوة، بتوجيه القس صمويل غوبت ذو الإرادة القوية[8] على دفع سائر المرشحين لاعتناق المذهب البروتستانتي نحو إدراك الفوائد الملموسة للتقنية الغربية. وعلى الرغم من أن حالات التحول الدائم كانت قليلة، فإن أولياء نعمة الجمعيتين التبشيريتين الكبيرتين كانوا يستمدون الحماس من الإيمان بأن نبوءات الكتاب كانت تجعل نجاحهم، آخر المطاف، قدراً محتوماً. فالمجيء الثاني للمسيح ونزول أورشليم السماوية إلى الأرض، كانا ما يزالان شاغلين عقول الفكتوريانيين.

ولكن العقبة التي حالت دون تغيير شكل القدس كانت، هذه المرة، طبيعية أكثر منها روحية. فالتاريخ المبكر للبعثات التبشيرية البروتستانتية في فلسطين، الأمريكية منها والإنجليزية، تمرحل بالمرض والمعاناة، حيث كانت أمراض البرداء والزحار شائعة. كما أن موجات الحمى التيفية كثيراً ما كانت تجتاح المنطقة في أوقات الجوع والمحل. والأسوأ من ذلك كله هو أن أوبئة الكوليرا داخل المدينة المسورة كانت، حين تنتشر عبر أحيائها، مثل شبح الموت، تبقي المبشرين البروتستانت، مثل سائر الأهالي، غارقين في بحر من العجز والرعب، ومنهمكين في صلوات محمومة طالبين النجاة من السماء.

صحيح أن الكوليرا طالما كانت مشكلة في مدن إنجلترا، ولكنها بدأت مع حلول أواسط ستينيات القرن التاسع عشر تخضع للسيطرة. فالعلم الحديث كان قد أظهر أن الكوليرا تنتقل عبر المياه الملوثة بالفضلات البشرية، وأن عملية تمديد شبكات مياه عامة ناجحة وصحية في المدن البريطانية فعلت الشيء الكثير على صعيد الحيلولة دون انتشار المرض. وبرأي مهندس بريطاني مرموق يدعى جون إرفن وتي،[9] وضع دراسة منهجية لمائيات القدس، كان من شأن تمديد شبكة مياه جديدة أن يحول دون جوائح الكوليرا المتكررة. لامس هذا الرأي وتراً حساساً، فتم في أيار من عام (1864 م) وهو عام ذروة الاجتماعات السنوية للجمعية،

تشكيل لجنة من الأرستقراطيين ورجال الكنيسة البريطانيين البارزين لوضع الفكرة موضع التطبيق.

ما لبثت [جمعية القدس للإغاثة المائية][10] كما سميت المنظمة الجديدة، أن أدركت أن العقبة المركزية التي تعترض طريق تحسين شبكة مياه القدس كانت متمثلة بعقدتي التضاريس والتقاليد التّوْءمَين. فبوصفها مدينة جبلية، كانت القدس جاثمة على سلسلة قمم شديدة الانحدار من الأرض، واعتادت منذ العصور القديمة أن تستخرج الجزء الأكبر من مياهها من الصهاريج المَوجودة تحت الأرض التي كانت تختزن مياه الأمطار الشتوية. والمياه الجارية الوحيدة كانت في أعماق وادي القدرون، ووادي ستي مريم حيث (نبع جيحون) و(بئر أيوب) ولكن هذه المنابع كانت ملوثة بالمياه الآتية عبر المقابر الواسعة المنتشرة على سفوح جبل الزيتون.

ونظراً لافتقار القدس إلى الرقابة الصحية العامة، فإن الصهاريج الخاصة داخل المدينة نادراً ما كانت تُنظف، إذا نُظفت أصلاً، بل وكانت هي نفسها ملوثة جراء تسرب المياه المالحة تحت الأرض. وكان استخدام التقنيات المائية الحديثة ممكناً لجر وفرة من المياه العذبة من (برك سليمان) القريبة من بيت لحم عن طريق قساطل، بما يلغي الحاجة إلى الصهاريج غير الصحية، ويؤدي إلى التقليل من الإصابات بالكوليرا إلى حد كبير.

غير أنه وُجدت حاجة لخريطة تضريسية دقيقة للمدينة قبل الشروع بتمديد شبكة المياه الجديدة. صحيح أن العديد من الرحالة الغربيين القادمين إلى فلسطين في العقود السابقة وضعوا خرائط للقدس، ولكن استنتاجاتهم، وهي مستندة في الغالب إلى ملاحظة متعجلة أو غير دقيقة، كانت متناقضة في الكثير من الأحوال. وقبل توفر إمكانية جر القناة الجديدة، كان لا بد من مسح المدينة عبر استخدام أحدث المعدات وأكفأ المسّاحين.

ولهذا الغرض، بادر رئيس أساقفة وستمينستر، أي. بي. ستانلي، الذي كان عضواً نشيطاً ومتحمساً في [جمعية القدس للإغاثة المائية] إلى التماس الآنسة آنجيلا بردت ـ كوتس[11] وهي من أسرة مصرفية مرموقة، فضلاً عن كونها من مَحَبي الأعمال الخيرية الإنسانية المشهورين، للحصول على مساهمة أولية بمبلغ خمسمئة جنيه. ومن خلال الصلات

الرسمية وأشكال النفوذ، قام أعضاء اللجنة بعد ذلك بعرض مخططاتهم على الإيرل دو غري وريبون،[12] وزير الدولة لشؤون الحرب في حكومة بالمرستون، طالبين خدمات فريق من المهندسين الملكيين، يضطلع بمهمة إنجاز عملية المسح المقترحة. وهكذا فإن عملية تغيير شكل القدس التبشيرية كانت قد دخلت في إطار العمل الرسمي للحكومة البريطانية. ومع موافقة الإيرل دوغري وريبون، سرعان ما جرت إحالة المسألة إلى العقيد هنري جيمس في [فوج] المهندسين الملكي بتْشَتَم، أملاً في أن الأخير سيبادر فوراً إلى إرسال فريق للمسح إلى الأرض المقدسة.

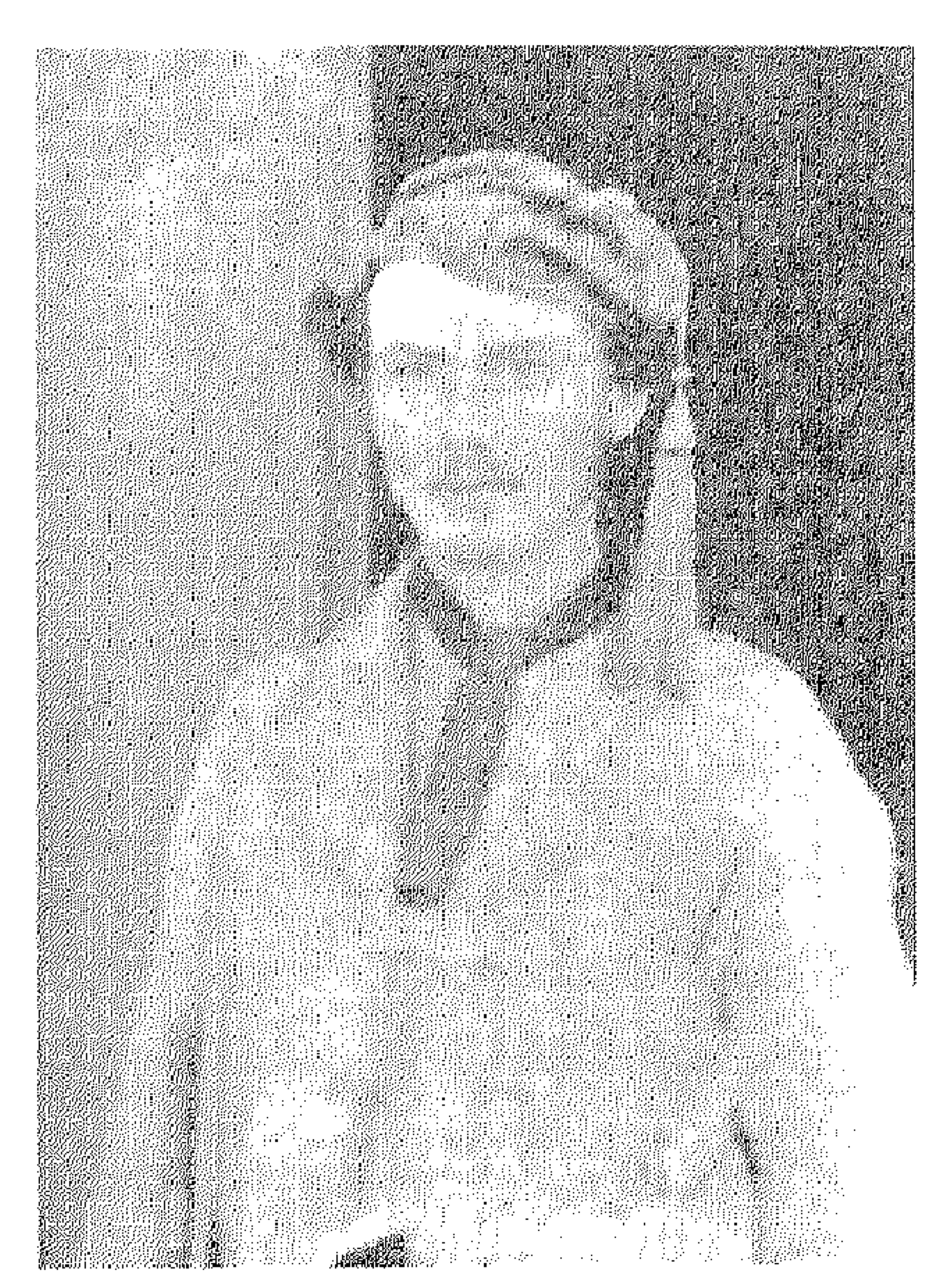
وفي عام (1864 م) كان فوج المهندسين الملكي قادراً على النظر إلى الوراء، ليرى تاريخه الطويل والمجيد في خدمة الملك والوطن. فمنذ أوقات مبكرة تعود إلى القرن الحادي عشر الميلادي، كان هؤلاء "الصنّاع المهرة العسكريون" المخلصون قد لعبوا دوراً حاسماً في تقدم الأمة البريطانية في سائر أرجاء الكرة الأرضية، إذ كانت فنون حرب الحصار والتحصين ذات التقنية العالية من اختصاصهم، كما أنهم حققوا المجد في العقود الأخيرة حين تميّزوا في معركة لَكْنُو،[13] وحرب القرم، والنزاع الأخير في الصين. وباتت خدمات المهندسين الملكيين في عصر التقنية الصناعية المتزايدة، ضرورية، ويتعذر الاستغناء عنها من قِبَل القوات الاستعمارية، حتى بعد الفوز بالنصر. فالطرق والجسور والسدود والاتصالات والتحسينات العامة، كانت ضرورية لإدامة إدارة بريطانية متحضّرة حتى في أقصى المناطق من العالم. وخرائط المهندسين الملكيين كانت تضع المعيار المطلوب للعصر. فمخططات المهندسين الملكيين المرسومة بعناية فائقة، سواء من خلال مصلحة المساحة في إنجلترا نفسها، أو عملية المسح العظيمة للهند التي بدأت في عام (1770 م) كانت تسجل كل بيت وشجرة وملمح طبيعي وطريق في الأراضي الممسوحة. وكفاءة هؤلاء المهندسين كانت أسطورية، كما كانت قدراتهم مؤكدة وغير قابلة للشك، مما دفع [جمعية القدس للإغاثة المائية] إلى التماس مساعدتهم في وضع الخريطة الشاملة الأولى للمدينة المقدسة.

غير أن الاتفاقية التي تم التوصل إليها أخيراً حول مشاركة المهندسين الملكيين بمسح القدس، بدت مفتقرة إلى الحدود القصوى من التصميم. فبما أن المشروع كان خاصاً وخيرياً، فقد أصرّ الإيرل دوغري على ضرورة تسديد تكاليف المعدات ورواتب العاملين من المبلغ الذي تبرعت به الليدي بوردت كوت. وبالمثل، لم تتوافر إمكانية تغطيةالمصاريف الشخصية للضابط المكلف بقيادة عملية المسح الأموال العامة، مما كان سيلزمه، رسمياً على الأقل، بالحصول على إجازة غياب عن السلاح خلال مدة عمله في فلسطين. وبالتالي أحيلت مهمة العثور على ضابط يكون مستعداً للاضطلاع بالمسؤولية على حسابه الخاص إلى العقيد هنري جيمس في تْشَتَم، وأثبتت أنها كانت صعبة.

ما لبثت هذه المسألة، أن أصبحت موضوعاً للسخرية في ثكنات المهندسين الملكيين بتْشَتَم ففكرة إرسال فريق من المساحين البريطانيين ذوي السترات الحمراء لينتشروا في أزقة القدس القذرة، وهم يحسبون بعناية ارتفاع وأبعاد جميعَ المباني المتداعية الموبوءة بالأمراض، كانت منطوية على ما يكفي من التنافر والتضارب ليجعلها مثيرة للسخرية. وفضلاً عن عزوفهم عن تقديم أموالهم الخاصة كرماً لعين أحلام يقظة بعض الأرستقراطيين ورجال الكنيسة، لم ير الضباط الشباب شيئاً ذا شأن يمكن كسبهُ من أية إجازة غياب في الأرض المقدسة. فحدود الإمبراطورية، حسب رأيهم، كانت في أماكن أخرى، في الهند، وفي إفريقية، وفي الصين، حيث كان الحصول على الأوسمة وتحقيق التقدم الواعد في الوظيفة من الأمور الممكنة. أما فلسطين، بروابطها المزدحمة في مدارس أيام الآحاد، فلم تكن للأبطال الملكيين، بل للباحثين والمبشرين الأفظاظ المشاكسين. وبالتالي اعتذر الضباط الذين قام العقيد جيمس بعرض الفكرة عليهم، عن قبول الوظيفة بأدب.

إلا أن رجلاً واحداً راوده إحساس مختلف. فالنقيب تشارلز ولسن[14] كان قد نُقل حديثاً إلى تشَتَم. ولفرط شعوره بالملل من واجباته الروتينية الرتيبة هناك، كان ولسن تواقاً لاقتناص أية فرصة من فرص الهروب. وقبل ستة أعوام كان قَد نُقل إلى سهوب أمريكا الشمالية، أمين سر لمفوضية

الحدود الأمريكية الشمالية، وأشرف على عمل فرق المساحة التي رسمت الحدود بين الولايات المتحدة وكولومبيا البريطانية. وقد دام ذلك المشروع أربع سنوات من الأعاصير والعزلة والعمل الشاق. وبرأي ولسن، فإن من استطاع عبور السهوب والغابات من بدجت ساوند[15] إلى جبال الروكي، لترسيم حدود رُسمت في لندن كان قادراً، بالتأكيد، على تجاوز سائر المخاطر والصعوبات في القدس الخاضعة للحكم العثماني، لوضع خريطة صحيحة ومضبوطة لهذه المدينة.



تشارلز ولسن

وافق العقيد جيمس على طلب ولسن على الفور، ومنح الأخير إجازة رسمية تخوله التغيب عن عمله النظامي في تْشَتَم. أما الدعم المادّي فما لبث أن جاء بسرعة من مصدر غير متوقع؛ فجورج غروف الذي كان ما يزال متقداً غضباً بشأن قضية بيروتّي، رتب لقاءً مع النقيب الشاب وأبلغه بأن الأموال اللازمة لتغطية مصروفاته الشخصية ستكون مضمونة إذا وافق على القيام ببعض التحقيقات الخاصة الرامية إلى تشويه سمعة الإيطالي. وقَبِلَ ولسن بالعرض، أما غروف فبادر إلى ترتيب عملية سفر فريق المسح كله على مراكب شركة بواخر بنينسولار وأورينت[16] بـ"أسعار

مخفضة جداً". ولدى قيامه بتمهيد الطريق أمام ترميم مدينة القدس الحديثة، كان النقيب تشارلز ولسن سيضطلع، في الوقت نفسه، بمهمة إنجاز تحقيق دقيق ونقدي حول اكتشافات إيرميته بيروتي المزعومة.

في الثلاثين من أيلول عام (1864 م) وبعد رحلة بحرية دامت أربعة وعشرين يوماً من ساوثهَمبتون، نزل ولسن وفريق المساحة المؤلف من رقيب واحد وأربعة عرفاء إلى يافا. ونظَراً للافتقار إلى الوفرة على صعيدي الوقت والموارد، لم ير ولسن سبباً وجيهاً في تأخير البدء بعمله ولو ليوم واحد، على الرغم من أن الزوار الغربيين الجدد كانوا عادة، يمضون ليلتهم الأولى في أحد الفنادق قبل متابعة السفر إلى القدس. وعلى الرغم من مخاطر قطاع الطرق والجهل بالطريق انطلق ولسن ورجاله عبر تلال يهوذا بعد حلول الظلام ليصلوا إلى المدينة المقدسة في الصباح الباكر من اليوم التالي.

وخلافاً لسائر المستكشفين الغربيين السابقين في الأرض المقدسة، لم يكن ولسن قد جاء لإشباع هاجس شخصي ذي علاقة بعلم الآثار الكتابية؛ فمهمته كانت محددة بوضوح، وبوصفه ضابطاً في سلاح الهندسة الملكية، كان يمثل حكومته. كان البند الأول في برنامج العمل اجتماعاً مع القنصل البريطاني الذي كان سيتولى مهمة توفير الصلة الرسمية مع عزت باشا، المحافظ العثماني للمدينة. إلا أن الإدارة التركية للمدينة كانت، على ما يبدو، جيدة الاطلاع على نبأ قدوم ولسن. فما إن وصل هذا إلى مقر إقامة الباشا في اليوم التالي، حتى تم الترحيب به باستعراض رسمي مهيب من جانب وحدات الحامية المحلية، كما جرى إغراقه بالوعود المؤكدة للمساعدة في الأيام المقبلة.

أما أهالي القدس فكانوا مرتابين أول الأمر من الإنجليز ذوي السترات الحمراء أول الأمر، ولكن الإعلان عن موافقة عزت باشا الرسمية، والأجور السخية التي دفعها ولسن للعمال المحليين الذين قاموا بنقل المعدات، كانت أكثر من كافية لتمكين الرجل وصحبه من العمل بسرعة ودون أي خوف من التدخل. وبالتالي فإن المهندسين حددوا خطاً أساسياً في الجهة

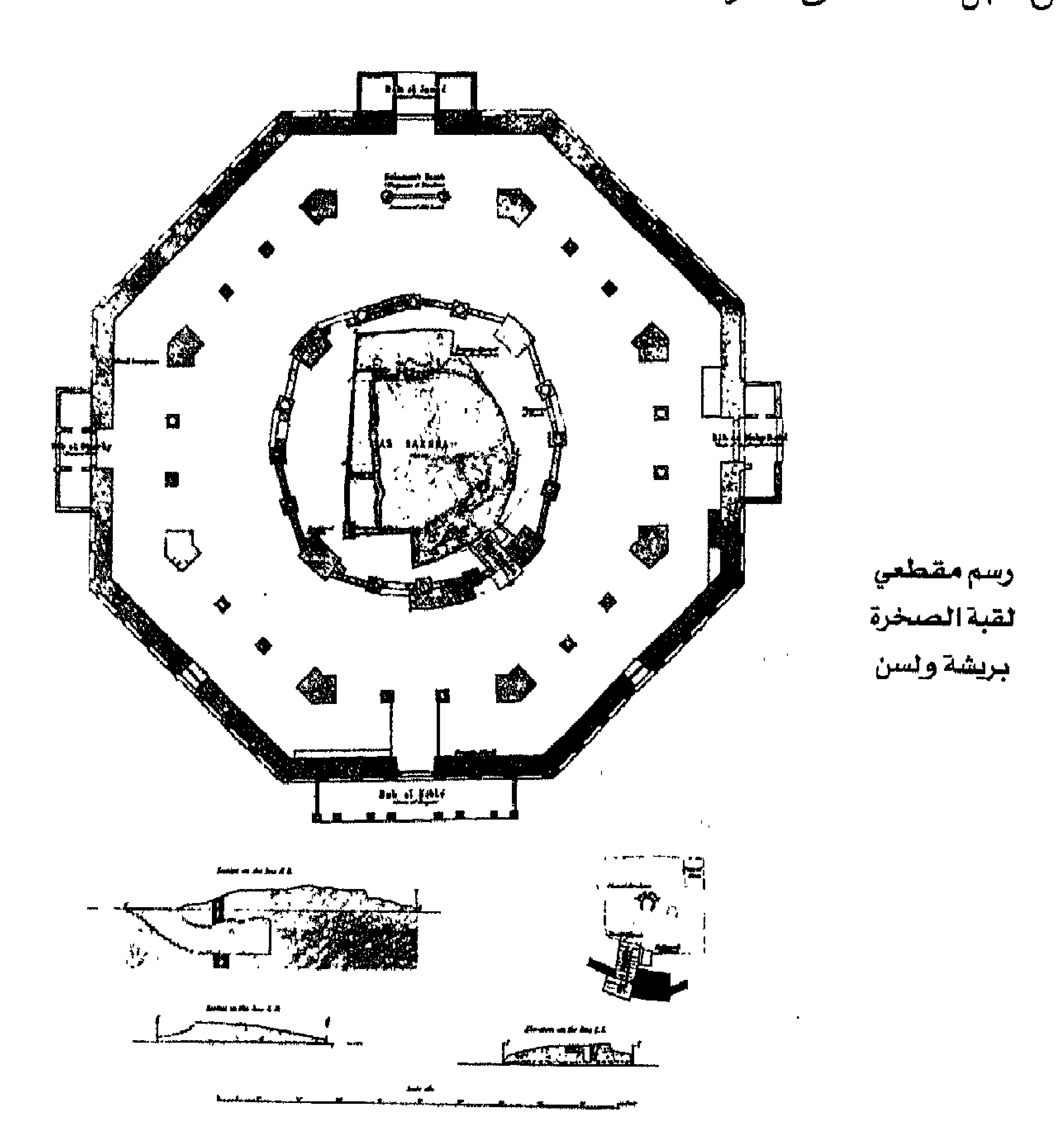
الجنوبية ـ الغربية من المدينة وراحوا، متبعين الإجراءات التضريسية النموذجية، ينشرون سلسلة من القياسات المثلثاتية لابتداع شبكة رئيسية. وبفضل استخدامهم البارع لأدوات قياس الزوايا النحاسية، تمكنوا من تحديد بقعة تخطيط تزيد مساحتها عن اثني عشر ميلاً مربعاً، سيتم في إطارها تسجيل جميع التفاصيل المادية ونقلها إلى الخريطة الأم للقدس.



القدس

وبما أن المهمة الرئيسية لتلك الخريطة كانت متمثلة بتمهيد الطريق أمام تمديد شبكة مياه جديدة في المدينة، فقد بدا واضحاً أنه كان لا بد من أخذ بقايا شبكات المياه القديمة أيضاً بنظر الاعتبار. وكان ولسن يعلم أن إيرميته بيروتّي لاحظ وجود مجمع هائل من الصهاريج تحت الأرض داخل الحرم الشريف. وللتأكد من دقة ملاحظات بيروتّي، حصل ولسن على تصريح من الباشا يمكنه من إجراء بعض الأعمال التنقيبية هناك. وعملية التقصي هذه كانت أشمل وأعمق من أية عملية تمت في السابق؛ فولسن ورجاله وضعوا بعناية مخططاً لجميع الملامح السطحية في المنصة الكبيرة، ونزلوا إلى سلسلة من الأقبية الموجودة تحت الأرض، مكتشفين، مصادفة، أن قياسات بيروتّي كانت، في العديد من الحالات، مستندة إلى الخيال أكثر من اعتمادها على الواقع.

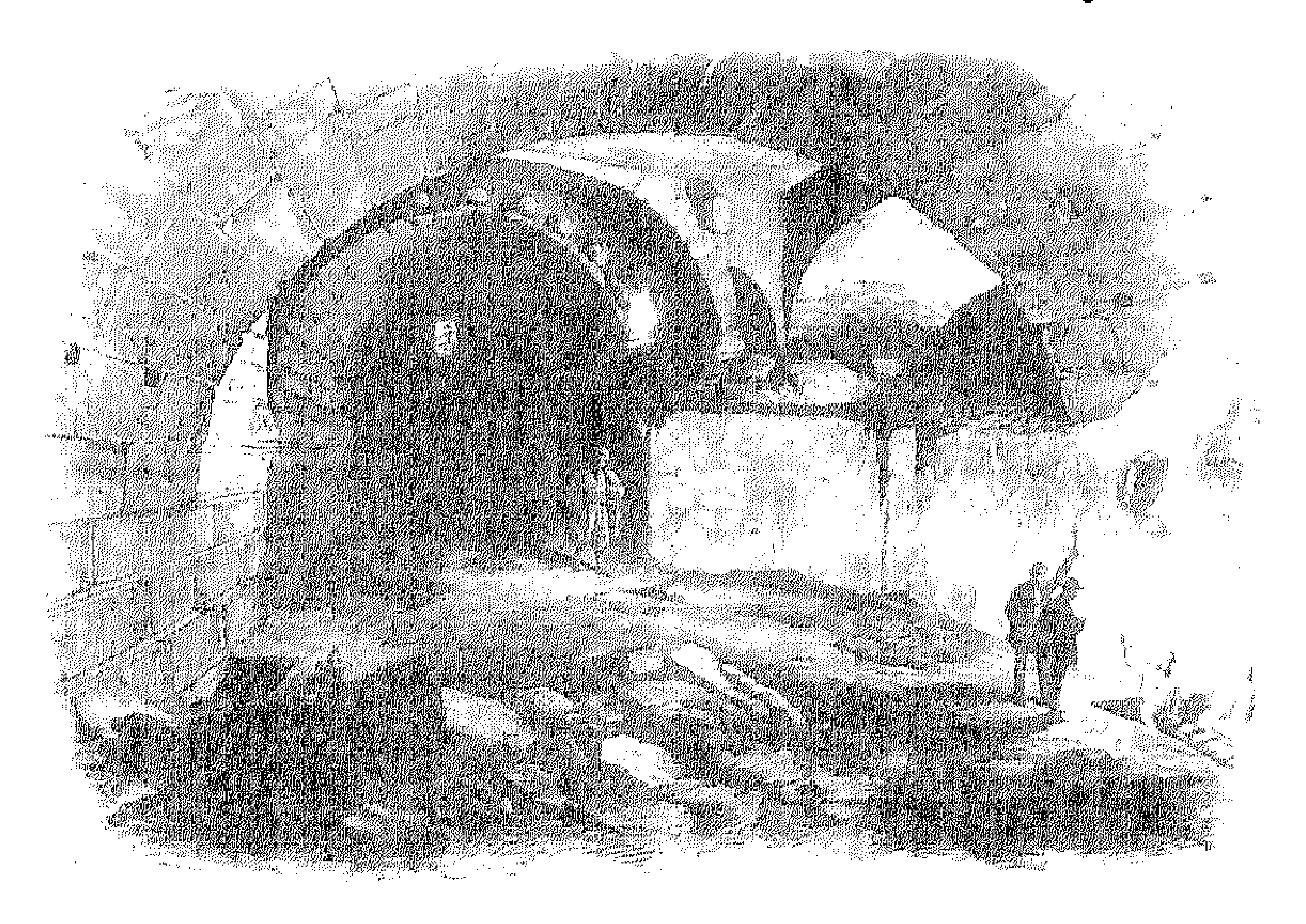
أما وجود الصهاريج الكبيرة فلم يكن قابلاً للدحض. وبدا موقع الهيكل القديم كما لو أنه النقطة المركزية لشبكة مياه واسعة، مما دفع ولسن إلى الإحساس بضرورة تعقب قنواته ومجاريه المائية عبر زحمةَ البيوت والمباني المحيطة بالأسوار الداعمة للحرم الشريف. وكان جميع مستكشفي القدس السابقين قد حصروا أعمالهم التنقيبية بالآثار المرئية فوق سطح الأرض. أما ولسن وصحبه فقد نزلوا إلى ما تحت الأرض؛ وهناك، زاحفين عبر المجَاري والبواليع ونازلين إلى قلب الصهاريج غير المستعملة، ما لبثوا أن تعثروا، بصورة غير متوقعة، بمؤشرات، غير معروفة من قبل، دالة على المرحلة الكتابية.



رسم مقطعي لقبة الصخرة بريشة ولسن

ففي حجرة تحت الأرض إلى الشمال مباشرة من (حائط مبكى) اليهود، تمكن الفريق من التعرف على مدى قنطرة أثرية ضخمة متصلة بالسور الخارجي للحرم محفوظة بشكل كامل. قنطرة ولسن، وهي شبيهة بقنطرة رُبنسن وموازية لها، كما باتت تعرف فيما بعد، تمثل مدخلاً إضافياً آخر من مداخل الهيكل الهيرودي. وهكذا فإن المؤشرات العظيمة الدالة على بهاء القدس القديمة كانت مدفونة هناك في شبكة بواليع المدينة الشرق ـ أوسطية الحديثة.

وبالنسبة إلى ولسن فقد بات واضحاً أن من شأن متابعة عمليات الاستكشاف تحت الأرض أن تنطوي على قدر كبير من المكاسب المتمثلة بالمعلومات الأثرية القيمة، بما دفعه إلى الأمر بحفر ممر رأسي في طبقة الركام والأنقاض الكائنة تحت المدينة الحالية. غير أن عملية الحفر الواسعة، على ضرورتها، ما لبثت أن أثبتت أنها خارج حدود إمكانيات فريق المسح الصغير؛ فعمق طبقة الرواسب المتوضعة التي جرى اختراقها بلغ أكثر من ثمانين قدماً. والمزيد من التنقيب كان سيتعين تركه لبعثات أفضل تجهيزاً لمثل هذه المهمة.



قوس ولسن

ومع مرور الأسابيع، قام ولسن بمد عمليات استكشافه إلى البحر الميت، حيث كان يأمل في الحصول على معلومات إضافية حول الموقع الجغرافي الدقيق لمدينة القدس، فضلاً عن مستوى ارتفاعها. ولأن دليله المحلي رفض أن يقوم بمثل تلك الرحلة عبر المناطق البدوية المعادية، فإن ولسن ذهب وحده. حيث أكسبه المظهر المميز لزيه الرسمي الأحمر ليس فقط حماية قبيلة التعامرة ذات السمعة السيئة، بل وصداقتها أيضاً. أما مسح القدس نفسها فكانت موشكة على الانتهاء، وبتكاليف بقيت في حدود الميزانية، وبدأ ولسن الفخور بنجاح بعثته التي كانت ذات يوم موضع ازدراء، يرسل تقارير تفصيلية عن اكتشافاته إلى العقيد جيمس في مقر قيادة المهندسيين الملكيين بمدينة تْشَثَم.

كان العقيد جيمس أيضاً قد تعامل مع مشروع مسح القدس باستخفاف ولامبالاة في البداية، ولكن تقارير ولسن المتألقة الواردة من الأرض المقدسة، ما لبثت أن حولته إلى أحد المؤيدين المتحمسين والصادقين لهذا المشروع. وفي رسالة بعث بها إلى جريدة التايمز اللندنية عشية رأس السنة في عام (1865 م) أعلن عن نجاح عملية مسح القدس، وقدّم معلومات تفصيلية عن اكتشافات ولسن غير المتوقعة تحت الأرض، وعبّر عن دعمه فكرة توسيع دراسات المهندسين الملكيين وتحقيقاتهم في فلسطين. ومما اقترحه جيمس أن على البعثة، بعدما أوشكت على استكمال مسحها لصالح جمعية [القدس للإغاثة المائية] أن تبادر الآن إلى تحديد ارتفاع المستوى المطلق للقدس عن مستوى البحر الأبيض المتوسط؛ ثم اختتم رسالته إلى صحيفة التايمز متمنياً توفير إمكانية جمع الأموال اللازمة لمثل هذا المشروع عن طريق الاستكتاب الشعبي.

ومن الطبيعي أن غمر الفرح جورج غروف لدى سماع أنباء اكتشافات ولسن الأخيرة في فلسطين. فولسن لم يقف عند حدود بيان أخطاء بيروتّي، بل وكان أيضاً قد أضاف جملةً جديدة من العناصر الهامة إلى المعلومات العلمية المتوافرة عن القدس وآثارها الكتابية. وقام غروف نفسه بتوجيه رسالة إلى التايمز اللندنية بعد رسالة رأس السنة مباشرة، هلل فيها بحرارة لإنجازات عملية المسح، وطرح بعض المشكلات الإضافية ذات العلاقة بالجغرافيا الكتابية التي يمكن تناولها قبل أن يغادر الفريق فلسطين. كما

وجه، أخيراً، نداءً حاراً داعياً إلى الدعم الشعبي المستمر لعملية استكشاف فلسطين. فخزينة [صندوق التنقيب الآشوري][17] الذي لم يعد الآن موجوداً، والذي كان قد جلب تلك العجائب العظيمة لكريستال بَلَس والمتحف البريطاني، يمكن استخدامها، برأيه، في دعم العمل على أساس مستمر.

أثارت الرسالتان المهذبتان إلى التايمز اللندنية، مثلهما مثل العديد من موضوعات النقاشات الفكتوريانية السجالية، قدراً كبيراً من اهتمام الجمهور. فـ[الجمعية الملكية] و[الجمعية الملكية الجغرافيا] بادرتا، بحماس، إلى التبرع من خزينتيهما الخاصتين بالجنيهات المئتين اللازمة لقياس المستويين النسبيين لكل من القدس والبحر الأبيض المتوسط. كما قامت وزارة الحرب بتجديد مهمة المهندسين لتمكينهم من إنجاز المهمة. أضف إلى ذلك أن السير موزسْ مونتفيوري، أحد أغنى رعايا الملكة اليهود وأكثرهم نفوذاً، وهو نفسه جَدَّ في أثناء رحلته في الأرض المقدسة، في البحث عن وِلسن وتوسط لصالحه لدى العديد من كبار حاخامات القدس لتمكينه من استكشاف الآثار الكامنة تحت الحي اليهودي في المدينة. وكان مونتفيوري ملتزماً بفكرة قيام اليهود بالعودة فلسطين، وساهم شخصياً بمئة جنيه دعماً لمسح وِلسن.

كان تجاوُب الجمهور مع الاستكشاف البريطاني الرسمي للقدس إيجابياً جداً، إلى حد أن جورج غروف رأى أن الوقت بات مناسباً لتنظيم جمعية دائمة تعنى بعملية استكشاف فلسطين. أما الخصومات المريرة المرتبطة بقضية بيروتِّي فما كان لها إلا أن تتلاشى وتتبدد في زحمة التهليل لإنجاز ولسن. وهكذا قام جورج غروف بدعوة بعض أبرز الباحثين الكتابيين والقادة الكنسيين في بريطانيا إلى اجتماع تنفيذي في كنيسة وستمنستر، وضعوا فيه خططاً لتقديمها إلى الجمهور في أيار؛ وما لبثت التبرعات أن بدأت على الفور بالتدفق على خزينة جمعية الاستكشاف حديثة التشكل. ثمة قضية مشتركة كانت بعد الآن ستوحد جهود الماضي الإفرادية؛ فالأجزاء قد بدأت تتجمع أخيراً في مكان واحد لإنجاز دعوى بريطانية تطالب بحق الاستكشاف الأثري للأرض المقدسة.

في الثاني من أيار عام (1865 م) عُقد خلال ذروة موسم المجتمع اللندني الصاخب، اجتماع عام وحاشد شكل أرضية التأسيس الرسمي لصندوق استكشاف فلسطين. وإلى جانب كل من رئيس أساقفة يورك، الذي سُمي رئيساً، وجورج غروف الذي عُين أمين سر شرف، جلس على المنصة بعض أبرز شخصيات المجتمع الفكتورياني. وما لبثت جهود منظمي الصندوق أن فازت بالدعم الرسمي من جانب دوق أرغيْل،[18] حامل أختام الملكة في حكومة بالمرستون، ووزير الخارجية الإيرل رسل الذي كان دون شك، سيمدّ يد المساعدة في عملية المفاوضات مع الحكومة العثمانية. ومن عالم المال جاء مورتون بيتو،[19] أحد عمالقة السكك الحديدية، ووالتر موريسون[20] أحد الصناعيين من أصحاب الملايين. أما من رجال العلم فكان كل من سير وُلتر سْكُت[21] رئيس [جمعية العمارة الملكية][22] والسير رودريك مورتشيسون[23] رئيس [الجمعية الجغرافيا الملكية].[24] ومن كنيسة إنجلترا جاء، إضافة إلى رئيس أساقفة يورك وعميد وستمنستر، أساقفة كل من أوكسفورد ولندن وإيلي، مع عميدي كاتدرائية سانت بول وكنيسة المسيح. وحتى جيمس فرغسُن وجورج وِلْيَمْز كانا قد نسيا خلافاتهما السابقة والتحقا بركب الآخرين في جمعية تركز هدفها على التقصي العلمي لـ(آثار فلسطين وجغرافيتها وجيولوجيتها وتاريخها الطبيعي).

وبعد صلاة افتتاحية ترأسها أسقف لندن، قام وليم طمسن[25] رئيس أساقفة يورك بصفته رئيس هذه الجمعية ليوجز أهداف الجمعية الجديدة بخطوطها العريضة، وكشف بوضوح عن التوجهات المستقبلية للعمل، إذ قال في الاجتماع الحاشد: «إن هذا البلد فلسطين عائد لكم ولي؛ إنه لنا أساساً. فقد مُنحت فلسطين إلى أبي إسرائيل بالعبارات التالية: «هيا امشِ في الأرض طولاً وعرضاً، لأنني سأعطيك إياها»! ونحن عازمون على المشي عبر فلسطين، بالطول والعرض، لأن تلك الأرض مُنحت لنا. إنها الأرض التي تأتي أنباء خلاصنا منها. إنها الأرض التي نتوجه إليها بوصفها منبعاً لجميع آمالنا؛ إنها الأرض التي نتطلع إليها بوطنية صادقة تضاهي حماسنا الوطني لدى النظر إلى إنجلترا القديمة العزيزة هذه».

في ختام تعليقاته الموسعة على الارتباط الخاص بين الإمبراطورية البريطانية العظيمة من جهة؛ وذلك الشريط الضيق من الأرض على الشاطىء الجنوبي ـ الشرقي للبحر الأبيض المتوسط من جهة ثانية، أعلن رئيس الأساقفة أن الملكة فكتوريا بالذات كانت قد تفضلت بالموافقة على أن تكون الراعية (ولية النعمة) الرسمية لصندوق استكشاف فلسطين. وشكل تبرعها لخزينة الجمعية بمبلغ مئة وخمسين جنيهاً، أكثر من أي تبرعٍ آخر، رمزاً لموافقة المجتمع البريطاني واهتمامه بما اعتُبر مشروعاً قومياً. أما مستكشف بلاد ما بين النهرين الشهير أُستن هنري لايارد[26] فلم يزاود بأية عبارات حول الأهمية السياسية لعمل صندوق استكشاف فلسطين. وعبر عن الأمل في أن يتمكن هذا الصندوق من مضاهاة البعثات الممولة بسخاء والتابعة لـ«الحكومة الفرنسية المستعدة دائماً، بصورة مفرطة، لإجراء مثل هذه النوعية من الأبحاث . . .».

وهكذا تم تثبيت الإطار الديني القومي. وكل ما تبقى الآن كان متمثلاً بجمع الأموال الضرورية لإرسال البعثة الأولى إلى الأرض المقدسة.

بعد مضي ما لا يزيد عن شهر على التأسيس الرسمي لصندوق استكشاف فلسطين، توجه تشارلز ولسن ومعه المهندسون الملكيون الذين عملوا تحت قيادته نحو الوطن. وفي غضون عشرة أشهر في فلسطين كان هؤلاء قد نجحوا في إنجاز مهمة مسح كان كثيرون قد ظنوا أنها مستحيلة، ولم يكونوا قد تجاوزوا ميزانيتهم إلا بثلاثة جنيهات جراء تأخير حصل في الإسكندرية. وفي شهر تشرين الأول تم نشر [مصلحة مسح القدس][27] الرسمية التي أرسلت للجمهور إشارة واضحة عن مدى كفاءة النقيب ولسن العالية. وكان المجلد الضخم للنص التفصيلي متضمناً مخططين مرسومين بوضوح للقدس، أحدهما بمقياس (1: 25.000) والثاني أكثر تفصيلاً من نظيره إذ كان بمقياس (1: 10.000). وإضافة إلى ذلك كانت ثمة مخططات معمارية دقيقة لكل من كنيسة القيامة، وقبة الصخرة، وغيرهما من المعالم الأثرية الهامة في أرجاء المدينة. وعن طريق

مخططاته وصوره الضوئية برهن ولسن على أن استكشاف فلسطين كان أمراً عملياً قابلاً للتنفيذ، وكذلك أن ضابطاً كفؤاً من المهندسين الملكيين متمتعاً بالدعم الرسمي من جانب حكومته ومواطنيه، كان أكثر من كافٍ للاضطلاع بمهمة متابعة وتطوير هذا المشروع.

وكمعلومة عرضية، لأنها قد باتت فعلاً معلومة عرضية، تم التخلي بصمت عن مخطط تمديد شبكة مياه جديدة للقدس. صحيح أن أعضاء مجلس مدينة القدس كانوا راغبين في السماح للإنجليز بقياس أبعاد بيوتهم وشوارعهم، ولكن فكرة تمكين هؤلاء من العبث بصهاريجهم كانت غير واردة على الإطلاق.

وبالطبع فإن المهتمين فعلاً بهذه المسألة من الإنجليز كانوا قلة؛ فاهتمام الجمهور البريطاني أضحى غارقاً بصورة كاملة في الماضي. وآفاق الاكتشافات غير المحدودة من عمق التربة المقدسة للأرض المقدسة، ما لبثت أن حفزت العديد من المساهمات في صندوق استكشاف فلسطين من جانب جامعتي أوكسفورد وكمبردج، و[المحفل الماسوني الأعظم][28] و[لجنة تحسين سورية][29] وعشرات المتبرعين الأفراد. ومثله مثل العديد من المشاريع الفكتوريانية الجديرة بالثناء، اعتبر مشروع استكشاف فلسطين قضية نبيلة، وراحت فروع محلية لصندوق استكشاف فلسطين تظهر إلى الوجود في سائر أرجاء المملكة المتحدة.

في تشرين الثاني، تم إرسال النقيب ولسن مع فريق آخر من المهندسين الملكيين إلى فلسطين للقيام بالمسح الكامل للبلاد، والعمل، وهذا هو الأكثر أهمية من أي شيء آخر، على «تحديد المواقع التي من شأنها أن تسوّغ المزيد من التقصي من قبل الصندوق». فالأرضية باتت ممهدة وكانت حملة صليبية جديدة توشك أن تبدأ.



10) تسالي إمبراطورية:

جورج غروف، تشارلز وَرَن، وأعمال التنقيب في القدس

(1867-1870م)

على الرغم من التصورات المستقبلية المتفائلة، فإن المسح الأولي للأرض المقدسة الذي قام به النقيب ولسُن، لم يكن إلا خيبة أمل مريرة. فأعمال رسم الخرائط والاستطلاع سارتَ أبطأ مما كان متوقعاً، جراء انتشار وباء الكوليرا في الجزء الشمالي من البلاد، فضلاً عن أنها كانت، أيضاً، تتجاوز الميزانية المرصودة بمقادير كبيرة. وظل جورج غروف، انطلاقاً من ضميره الحي، دائباً على إبلاغ صندوق استكشاف فلسطين عن تقدم ولسُن خلال شتاء (1865 ـ 1866 م) كله، غير أن قوائم النقيب الطويلة لَجملة الأسماء الجغرافيا والمشكلات التقنية لعملية المسح لم تقدم لأعضاء الصندوق أي عزاء.

مع تعثر عملية مسح ولسُن عبر فصل الربيع، ما لبث سيل التبرعات المتدفق على الصندوق أن بدأ يتراجع ويجف؛ فباتت بعثة الصندوق الأولى، نظراً للمصاريف الباهظة التي كانت تنطوي عليها شهرياً، تُعتبر مبالغة كثيراً في طموحاتها. فعملية استكشاف الأرض المقدسة ورسم خرائطها بصورة كاملة كانت، بوضوح، مهمة يتعذر إنجازها في غضون أشهر قليلة فقط. وبالتالي فإن جورج غروف أمر ولسُن ورجاله بالعودة إلى إنجلترا فوراً، بدلاً من الإجهاز على خزينة الصندوق. فما كان هذا

الصندوق بحاجة إليه الآن هو الاكتشافات الباهرة، وما من موقع آخر في فلسطين كان يمكن أن يضاهي القدس في توفير كنز بالغ الغنى والثراء من الآثار الكتابية. وثمة نتائج مثيرة كان علماء الآثار قد حققوها في كل من مصر وما بين النهرين، وكان جورج غروف مقتنعاً بأن من شأن عمليات حفر وتنقيب منظمة في القدس، يضطلع بها مهندسون ملكيون أكفاء، أن تجتذب اهتمام الجمهور وتستجر التبرعات الخاصة التي كان صندوق استكشاف فلسطين بأمس الحاجة إليها حتى يتمكن من البقاء والاستمرار.

وبالطبع فإن تحديد مكان المواقع المقدسة كان محور اهتمام غروف بالقدس. فنظرية جيمس فرغسُن، التي سبق له أن دافع عنها دفاعاً مستميتاً في أثناء قضية بيروتّي، كانت تضع موقع هيكل سليمان على الزاوية الجنوبية الغربية للحرم الشريف. كما أن روبنسن وباحثين آخرين كانوا قد اكتشفوا آثار هيكل هيرودس في أسوار الحرم الجنوبية والغربية، واعتقد فرِغسُن بأن بقايا هيكل سليمان موجودة تحت هذه الأسوار. وظلت نظرية فرَغسُن هذه مفتقرة إلى البرهنة النهائية، طالما بقيت الخرائب المدفونَة تحت الحرم الشريف غير مستكشفة. غير أن بعثة رسمية تابعة لصندوق استكشاف فلسطين كانت قادرة على حل هذه المسألة بالذات.

أدرك جورج غروف أن الحرم الشريف لم يكن ساحة تنقيب أثري عادية، بل أحد الأماكن الإسلامية المقدسة المحمية بحماس شديد. فحتى حرب القرم ما من غربي سبق أن سُمح له بدخول حوزة الحرم المقدسة. والعدد القليل من غير المسلمين الذين تمكنوا من دخولها خلسة قبل ذلك العهد، إنما فعلوا ما فعلوه معرضين حياتهم للخطر. وعلى الرغم من أن الحظر كان قد تم رفعه لاحقاً، فإن قيوداً صارمة بشأن مدى عمليات الاستكشاف داخل الحرم، كانت مفروضة حتى على بيروتّي وولسُن. وكان غروف يدرك أن التنقيب الفعلي هناك من شأنه أن يستثيرِ قدراً لا يستهان به من المعارضة الإسلامية، غير أنه كان واثقاً من أن السفير البريطاني في القسطنطينية كان متمتعاً لدى السلطان ووزرائه بقدر من النفوذ يكفي لتمكينه من استصدار الفرمان المناسب.

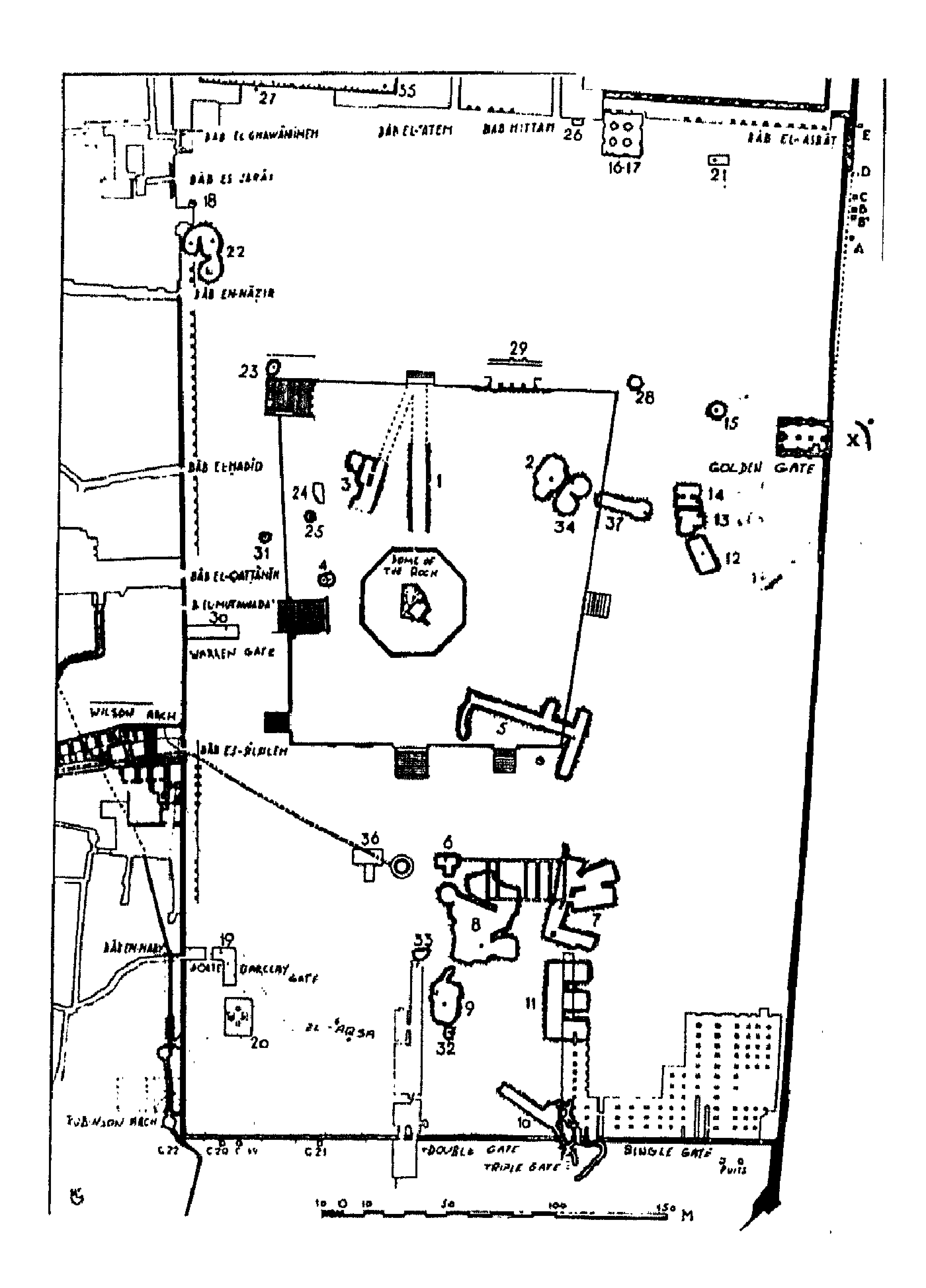
عرض جيمس فِرغسُن تقديم رأس المال الضروري للمشروع الذي كان سينفذ دراسات علميَة؛ ليس فقط داخل إطار الحرم، بل وفي العديد من المواقع الأخرى ذات الأهمية الحاسمة على صعيد فهم تاريخ القدس. وعريضة غروف المرفوعة إلى القسطنطينية تضمنت أيضاً طلباً يلتمس السماح بالتنقيب قرب كنيسة القيامة، بين زحمة الصهاريج والقناطر القابعة تحت الأرض والتي اكتشفها وِلسُن، كما في مواقع مختلفة من المدينة سبق أن نَقّب فيها كل من سولسي وبيروتّي. أما استكشاف باقي الأرض المقدسة فقد كان محكوماً عليه بأن ينتظر. وكان غروف يراهن على أن من شأن إثبات صحة نظرية فرغسُن أن يوفر حشد عناوين الصحف وفيض التبرعات المعبرة عن الامتنان، اللذين كان صندوق استكشاف فلسطين بأمس الحاجة إليهما حتى يكون قادراً على الاستمرار.



يهود شرقيون من القدس بعدسة تشارلز وِرن

تمثلت خطوة غروف الأولى في الحصول من وزارة الحرب على خدمات فريق آخر من المهندسين الملكيين. والضابط الذي وقع عليه الاختيار لقيادة الفريق ملازماً أول في السابعة والعشرين من العمر يدعى تشارلز وَرّن، سبق له أن بدأ حياته المهنية بعمليات رَوْز ومسح الوجه الصخري الخطر لجبل طارق مغامراً بحياته أشد المغامرة. كما كان ووَرَن بارعاً في فنون العمل المنجمي العسكري التي كادت في تلك الأيام أن تكون غير قابلة للتمييز عن التقنيات الآثارية الاعتيادية المألوفة؛ وبالتالي فقد بادر إلى توضيب كميات كبيرة من المعدات اللازمة لأعمال التنقيب في القدس بما فيها العتلات، والحبال، والروافع، والأمخال اليدوية، والقوالب، والبكرات؛ كما أمّنَ خدمات مصور ضوئي، ومساح، وصديق قديم يدعى العريف برتلز،[1] سبق له أن عمل معه في جبل طارق. أما غروف فأودع ثلاثمئة جنيه مع وَرَن كقسط أول لعملية تمويل منتظمة. وفي شباط من عام (1867 م) غادر الملازم الأول ورجاله ميناء سوثهَمبتون على ظهر إحدى مراكب شركة بواخر بنينسلولار آند أورينت، عازمين على تفكيك أسرار المدينة المقدسة وحل ألغازها.

غير أنه ما إن وصل وَرَن ورجاله إلى مرفأ يافا حتى ووجهوا بأولى العقبات الكثيرة التي لم يتوقعها بيروقراطيو صندوق استكشاف فلسطين هناك في لندن. فموظفو الجمارك العثمانيون بادروا، اعتراضاً منهم على المظهر "الحربي" لمعدات التنقيب، إلى احتجاز الفريق كله، إلى أن تدخل الوكيل القنصلي البريطاني. وبعد الوصول، أخيراً، إلى القدس، أُصيب وَرَن بالمزيد من الرعب لدى وقوفه على حقيقة أن الفرمان المطلوب لم يكن قد وصل بعد من القسطنطينية، فلاذ بالقنصل البريطاني في المدينة، نويل تمبل مور[2] ملتمساً تدخله. وقد كان ذلك نتيجة خطأ، إذ أن القنصل لم يكن، على ما يبدو، يعرف شيئاً لا عن الفرمان ولا عن بعثة وَرَن. ولدى اطلاعه على تفاصيل خطة القيام بأعمال الحفر في ثالث أقدس الأماكن في العالم الإسلامي، رفض بغضب تعريض المصالح البريطانية في القدس للخطر عن طريق دعم مثل هذا العمل الاستفزازي الصارخ.



رسم قبة الصخرة والمسجد الأقصى والحرم الشريف بريشة وزن

أما وَرَن فقد كان مصراً، مهما كانت العواقب، على تنفيذ مهمته، انطلاقاً من استحالة إلحاق العار بأحد أفراد سلاح المهندسين الملكيين جراء الاتصاف بالجبن، وطالب القنصل، بإلحاح، باصطحابه إلى اجتماع مع الباشا، وتمكن، بالتالي، من إقناع المسؤول التركي المطواع بشكل غريب، بأن أعماله التنقيبية لم تكن ترمي إلى إلحاق الضرر بالحرم الشريف بأي شكل من الأشكال. وبما أن الفرمان السلطاني الخاص بهذه الأعمال التنقيبية قد تعرض، كما هو واضح، للتأخير على الطريق من القسطنطينية، فإن استباق التوجيهات قليلاً لن ينطوي على أي ضرر. وعلى الرغم من أن عزت باشا لم يكن ميالاً إلى الموافقة على أعمال التنقيب داخل الحرم بالذات، فإن ما أدهش القنصل البريطاني كثيراً هو أن منح وَرَن إذناً يمكنه من الشروع بالحفر في أي مكان يختاره من المنطقة المحيطة مباشرة بالأسوار الضخمة الداعمة لهذا الحرم.

وبعد استئجار مجموعة صغيرة من العمال المحليين، قام وَرَن بتحديد دائرة تنقيب عند أسفل السور الجنوبي، وأمر رجاله بإزاحة قطاع من الكتلة الترابية الموجودة تحت بوابة قديمة، كان فيليسيان دو سولسي قد عاينها للمرة الأولى. وتحت هذه البوابة القديمة ما لبثوا أن اكتشفوا ممراً مسدوداً يفضي إلى ما تحت الحرم نفسه، ولكن ضربات مهداتهم راحت، مع شروعهم بعملية إزالة الأنقاض، تزعج الصلوات اليومية في المسجد الأقصى الكائن فوق المكان، حسب ما تكشف للمهندسين من وابل الحجارة التي أهالها عليهم المصلون الغاضبون. صحيح أن جنود الحامية المحلية وصلوا بسرعة لإخماد الاضطرابات، ولكن الباشا اضطر، جراء الهياج الديني الصاخب لسحب تصريحه، ولتعليق العمل رسمياً إلى حين وصول الفرمان من القسطنطينية.

وبالفعل فإن وَرَن استلم الوثيقة في غضون أسبوع واحد، ولكنها كانت مخيبة للآمال. فلغتها لم تقف عند حدود الخلط بين المسجد الكائن في الخليل والحرم الشريف في القدس فقط، بل وتضمنت أيضاً منعاً صريحاً لأي تنقيب في الأماكن القريبة من سائر المزارات الدينية. وبما أن القدس كانت تحصّل الجزء الأكبر من مواردها من آلاف الحجاج

المتدفقين عليها سنوياً، فإن كلاً من المباني ونقاط العلام والشوارع، دون استثناء، كاد أن يكون منطوياً على قدر معين من القداسة. وأدرَكَ وَرّن أن من شأن انتشار تفاصيل مضمون الفرمان أن يفضي إلى منع أي عمل تنقيبي تقريباً على أساس المساس بقدسية هذا الموقع أو ذاك؛ وبالتالي فقد قرر أن يُبقي مضمون الوثيقة سراً، مع الإعلان عن حقيقة وصولها، وأن يتابع أعمال التنقيب في أجزاء أخرى من المدينة.

ومرة أخرى تجاهل وَرّن تحذيرات القنصل البريطاني العصبية، الذي بات يرفض تقديم أية مساعدة إضافية. إلا أن الملازم الأول الشاب كان مصمماً على المتابعة، مقتنعاً بأن الموظفين الرسميين العثمانيين لن يجرؤوا على تحدي جبروت فرمان سلطاني، وإن لم تُتَح لهم حتى فرصة قراءته. وبعد غربلة قائمة أسماء مواقع التنقيب الطويلة التي كانت قد اقتُرحت عليه هناك في لندن، أوعز وَرّن لرجاله بإبعاد معدات التنقيب عن سور الحرم والشروع بغرز بعض المسابر في الحي المسيحي. وكان قادة صندوق استكشاف فلسطين يعتقدون بأن إمكانية حل مسألة الموقع الدقيق لضريح يسوع لن تتوافر إلا من خلال دراسة ميدانية؛ وبالتالي فقد بدأ يحفر قريباً من كنيسة القيامة، محاولاً تحديد ما إذا كان المكان وقع أيّام يسوع المسيح داخل أسوار المدينة أم خارجها.

ولكن هذه الأبحاث العلمية لم ترق لقائد الحامية العثمانية الذي سارع إلى إرسال الجنود لوقف أعمال التنقيب البريطانية. غير أن وَرّن بادر، فور قيام الجنود بوقف العمل في الحي المسيحي، إلى الشروع بعملية تنقيب جديدة على سفوح المدينة الجنوبية غير المأهولة، حيث الامتداد الجنوبي للقدس في العهود الكتابية، متوقعاً أن يتعامل مع مشكلة أخرى من مشكلات الجغرافيا الكتابية، وما لبثت مرونة وَرّن التكتيكية أن أضعفت المعارضة العثمانية، مما أتاح له فرصة المتابعة عن طريق تجنب الأماكن الحساسة.

وعلى الرغم من الموافقة الرسمية المضمرة، ظلت سلبية عواطف الجمهور الواضحة إزاء أعمال التنقيب البريطانية على حالها. فثمة شائعات غريبة، شَكَّ وَرّن في أنها صادرة عن قائد الحامية، كانت تقول: إن الإنجليز

كانوا يزرعون أكياساً صغيرة ملأى بالبارود تحت شوارع المدينة. وتلك الأكياس كانت، حسب مزاعم الزاعمين، ستتحول، في غضون بضع سنوات إلى براميل كبيرة، حيث سيعود الإنجليز لتفجيرها من أجل تدمير الحرم. ومرة بعد أخرى اضطر وَرَن إلى زيادة أجور عماله المحليين لمنعهم من الإذعان للتهديدات والشتائم التي كانت تنهال عليهم جراء تعاونهم مع الكفار. ومع ذلك فإن التعامل مع مختلف الشائعات والمحاولات الفظة لممارسة الضغط كان سهلاً نسبياً، وكان وَرَن واثقاً من أنه كان، آخر الأمر، سيحصل على الإذن اللازم للتنقيب في الحرم نفسه. ولكنه ما إن عاد من رحلة قصيرة إلى وادي الأردن والبحر الميت في مطلع شهر أيار، حتى وجد نفسه، فجأة، في مواجهة مشكلة جديدة كانت تهدد بوقف أعمال التنقيب بصورة كاملة.

جَسّد محافظ القدس الجديد ناصيف باشا موجة من ردود الفعل المحافظة؛ التي اجتاحت الإمبراطورية العثمانية منذ اعتلاء السلطان عبد العزيز العرش في عام (1861 م). والمحافظ السابق عزت باشا الذي أبدى قدراً كبيراً من التردد إزاء تحدي حق وَرَن في التنقيب، كان قد استُدعي إلى القسطنطينية ملفوفاً بسحابة من شكوك الفساد، وكان الباشا الجديد حريصاً على أن ينأى بنفسه عن نمط تفكير سلفه على جميع الأصعدة تقريباً. وكانت مكانة القدس تكتسب قدراً متزايداً من الأهمية بوصفها مسألة هيبة، والمحافظ الجديد، الذي كان هو نفسه مسلماً متشدداً، باشر وظائفه عازماً على لجم النفوذ الغربي في المدينة، وعلى إعادة تأكيد الأساس الإسلامي للحكم العثماني إذ وفّر دعماً كاملاً لموقف قائد الحامية العدائي، وأعلن أن وَرَن لن يُسمح له بالقيام بأي عمل تنقيبي آخر في الممتلكات العامة، كما أن أي عمل في الممتلكات الخاصة كان سيتعين عليه ألا يقترب مسافة أربعين قدماً من سور الحرم الشريف.

أحسّ ناصيف باشا بالثقة في أنه تخلص من الإنجليز المزعجين، غير أن التوجيهات الجديدة لم تكن بالنسبة إليه إلا تحدياً لمدى براعة وَرَن والتزامه. فبالإفادة من خبرته في مجال العمل العسكري في المناجم قام

باستئجار قطع أرض خاصة على الطرف الجنوبي من الحرم، على بعد يزيد بشكل واضح عن حد الأربعين قدماً. ومن تلك النقاط اقترح أن يتم فتح ثقوب رأسية تصل إلى القاعدة الصخرية، ومن هناك يجري حفر أروقة باتجاه أساس سور الحرم. ومع قيام رجاله بمتابعة العمل بعيدين عن الأعين في الأعماق، كان هو سيتولى مهمة تحديد أمكنة ورسم خرائط سائر الآثار القديمة التي يجدها في طريقه، آملاً في أن يؤدي نشر استنتاجاته واكتشافاته في لندن إلى إظهار إمكانية القيام بالعمل دون المساس بالمزارات المقدسة.

وخلف غطاء وفّرَتْه شجرة صبار عملاقة قام وَرَن بحفر السرداب الرأسي الأول، ولكنه ما لبث أن اطّلَعَ على صعوبة التنقيب تحت الأرض في القدس. ففيما كان ولسُن قد ضمن أن الأنقاض التي بُنيت القدس فوقها كانت قد تراكمت بعمق يصل إلى ثمانين قدماً تقريباً، فإن رجال وَرَن اكتشفوا فعلاً أن أنقاضاً مهلهلة، وصهاريج متداعية، وقنوات مائية مهملة بعمق مئة وثلاثين قدماً، كانت تفصل بينهم وبين القاعدة الصخرية. وكان القسم الأكبر من هذا الركام مؤلفاً من القطع الحجرية والحصى السائبة، وجيوب التربة القاسية الهشة، بما يجعل أخف أشكال المساس، مثل تحريك السلم على جدار السرداب أو رمي الرفش دون انتباه، قادراً في الكثير من الأحيان، على إحداث كهوف يتعذر التحكم بها، طامراً العمال حتى خواصرهم بالتراب، ومالئاً السرداب بضباب كثيف من الغبار الخانق.

وكان التنقيب المنجمي العسكري الذي كان وَرَن يحاول الآن تنفيذه؛ يتطلب عادة ألواحاً خشبية لتدعيم جدران السراديب على مسافات منتظمة، ولكنه اضطر للاكتفاء بعدد قليل من الألواح المستعملة التي لم تكن تُستخدم إلا في الأماكن ذات الحساسية البالغة نظراً لأن الخشب في القدس كان مادة نادرة وباهظة الثمن. وبفضل براعة العريف برتلز، ما لبثت أروقة وَرَن أن وصلت إلى أساس السور العظيم الداعم للحرم، عبر اتباع رصيف قديم ممتد مع القاعدة، على عمق يفوق المئة قدم تحت سطح الأرض.

وعلى الرغم من أن وَرَن ورجاله لم يعانوا إلا من بعض الجروح والكدمات الناجمة عن الأنقاض المتساقطة، فإن خطر العمل تحت الأرض دون قوالب تعدين كافية كان قد بدأ يفعل فعله السلبي في أعصاب الضباط والعمال. أما وَرَن فكان يخشى من أن من شأن وقوع أية حادثة خطيرة أن يوفر لناصيف باشا حجة مناسبة لوقف عمليات التنقيب بصورة دائمة. وفي حالة كادت تصل إلى اليأس، كتب وَرَن رسالة إلى جورج غروف طالباً منه بإلحاح مبالغ إضافية من المال لشراء المزيد من الخشب؛ وفي الوقت نفسه ظل هو والعريف برتلز يتابعان الدخول في السراديب الخطرة حفاظاً على معنويات العمال ومبادراتهم. وفيما بعد كتب وَرَنْ عن العريف برتلز يقول إنه كان يتحلى بقدر كبير من الشجاعة والتصميم على رفع وتيرة أعمال التنقيب إلى درجة أنه «كان يتصرف بما يؤهله كل أسبوع للحصول بصورة مؤكدة على [وسام (فكتوريا كرُس)] أو على وسام ألبرت في ظروف أخرى؛ أما هنا فلم يكن مثل هذا التصرف إلا جزءاً روتينياً من عملنا». أما التقدير الذي حصل عليه برتلز فعلاً مكافاة له على جهوده فقد كان أكثر تواضعاً من ذلك بكثير إذ تمت ترقيته إلى رتبة رقيب.

وبين شهري آذار وحزيران عامٍ (1867 م) بدأ وَرَن ورجاله بحفر أكثر من سبعة وعشرين سرداباً رأسياً في نقاط مختلفة إلى جهتي الجنوب والغرب من الحرم الشريف. وفضلاً عن ذلك، نجحوا في تحديد طرفي المدينة الجنوبي والشمالي، ودرسوا قناة مائية قديمة تحت الأرض على السفح الجنوبي، واستخرجوا عدداً من مقابض الأواني الفخارية المدموغة بكتابة عبرية قديمة تقول: «لملك» والتي كانت الصنع الأثري الكتابي الصحيح الأول الذي اكتشف بطريقة علمية في المدينة المقدسة.

وفي تموز، جرى مد الأروقة، أخيراً، إلى الزاوية الجنوبية الشرقية من سور الحرم. وقد تبين أن هذا السور المهيب المنتصب بارتفاع يصل إلى ثمانين قدماً عن مستوى سطح الأرض، ممتد مسافة مئة قدم أخرى تحت الأرض. وفي الزاوية عثر المنقبون على آثار أحرف قديمة مصبوغة باللون الأحمر على مجرى الأساس. وتلك الرموز الغريبة، التي اعتقد وَرَن أنها علامات وضعها النحاتون الفينيقيون، عززت إيمانه بأن قاعدة الحرم ذاتها

كانت أرضية معبد هيرودس. ومن خلال عمليات السبر القليلة التي قام بها داخل المدينة، بما فيها عملية زحف خطرة ومقيتة عبر إحدى البواليع الواقعة تحت مقر إقامة الباشا، كان وَرَن قد وجد تماثلاً مدهشاً في شكل حجارة أسوار الحرم الأربعة. فمثلها مثل الحجارة المربعة الكبيرة المرئية في السور الغربي، حيث يصلي اليهود، كانت قد صُقلت بحواف ناعمة إلى الجهات الأربع كلها. وقد لاحظ وَرَن وجود هذه الأحجار المميزة في الزاوية الجنوبية الشرقية أيضاً.

وبعد أخذ القياسات ونسخ الأحرف الحمراء بعناية، قام وَرَن بسد الحفر حتى آخر الصيف. وبعد ذلك سارع إلى تصنيف سائر المعلومات التي جمعها، واضعاً مخططات معقدة، وعينات عَرْضية، ودراسات معمارية هندسية، وأرسلها إلى لندن أملاً في أن يتمخض نشرها، أخيراً، عن إقناع السلطات العثمانية بالسماح له بتوسيع العمل. وواثقاً من أنه سيتمكن، على أية حال، من استئناف أعمال التنقيب تحت الأرض، في الخريف غادر المدينة للقيام بعملية استطلاع موسعة في الأجزاء الجنوبية والشرقية من البلاد.

يبدو من غير المحتمل أن يكون وَرَن، رغم اعتزازه الشديد بنتائج أبحاثه المبكرة، قد أدرك فعلاً مدى ما كانت تنطوي عليه تلك النتائج من مضامين جوهرية. فسائر النظريات المعاصرة عن القدس الكتابية كانت قائمة على افتراضات مجردة حول الملامح التضريسية الأصلية للمدينة؛ غير أن وَرَن ورجاله، كانوا، بعد أن توغلوا في الأنقاض المتراكمة واخترقوها، قد حسموا أخيراً أمر تلك الملامح، بدقة. ففي السراديب الرأسية التي كانوا قد حفروها حول الأسوار الجنوبية والغربية للحرم، كانوا قد تعقبوا مستويات الأرضية الصخرية وحددوا موقع (وادي تيروبويون)[3] وهو الوادي المعروف باسم: وادي صانعي الأجبان؛ الذي كان يقطع المدينة نصفين من الشمال إلى الجنوب في العهود الكتابية. وما لبث الفريق أن اكتشف أن هذه المسيل المنحدر قد كان ملئ بالقمامة والأنقاض خلال الفترات الكتابية المتأخرة وحين أقام هيرودس منصة معبده الضخم في القرن الأول قبل الميلاد، كان (وادي صانعي الأجبان) قد اختفى تقريباً.

وفي الحقيقة، فإن منصة معبد هيرودس شيدت فوق كومة القمامة المتراكمة ممتدة بكاملها عبر الوادي القديم. وقد بات واضحاً ما ينطوي عليه ذلك من معان؛ فتحديد جيمس فرغسُن لموقع هيكل سليمان الأقدم، عند الزاوية الجنوبية الغربية للحرم الشريف، كان من شأنه أن يضعه في قاع أعمق وديان المدينة، في تناقض صارخ مع كل من المنطق والنصوص الوصفية الكتابية. وفيما بعد كتب وَرَن يقول: «لو تمت البرهنة على صحة نظرية فرغسُن لكان مؤيدوه قد بادروا إلى التهليل لها بمهرجان زاخر بقرع الطَبول». أما وقد جاءت أعمال التنقيب لتفندها وتدحضها، على الرغم من أن فرغسُن، نفسه، كان قد تبرع بجزء كبير من ميزانية بعثة صندوق استكشاف فلسطين، فقد كان من شأن مسألة الأموال أن تصبح، عما قريب، وقريب جداً، قضية بالغة الإلحاح بالنسبة إلى الملازم الأول وَرَن في القدس.

ومن البدايات الأولى لعمليات الحفر تحت الأرض، كانت القوالب الخشبية القليلة قد أنقذت الضباط والعمال من الانهيارات الهائلة للأنقاض أكثر من مرة. والمزيد من الخشب كان ضرورياً، ولكن اللجنة التنفيذية بلندن لم تستجب لالتماسات وَرَن المتكررة، مما اضطره لأن يراسل مالطا والإسكندرية لابتياع كل الخشب الذي يستطيع الحصول عليه، مدركاً أنه كان يدفع أثماناً مضاعفة ويراكم ديوناً شخصية كبيرة. ومع استئناف أعمال التنقيب في الخريف، وحلول فصل الأمطار، فإن القوالب، التي ضحى وَرَن كثيراً في سبيل الحصول عليها، بدأت تنتخر، وكان لابد من الاستغناء عنها. وهكذا كاد الوضع أن يصبح مستحيلاً. وأخيراً نفذ صبر وَرَن مع جورج غروف الذي كان "في إجازة بسويسرا" ولم يكن قد رد على النداءات المشحونة بقدر متزايد من الاستغاثة والآتية من القدس، وكتب رسالة أخيرة إلى أمين سر الشرف. ومما قيل في الرسالة، إن وَرَن كان عازماً عزماً أكيداً على وقف أعمال التنقيب، والعودة مع رجاله إلى إنجلترا ما لم يبادر مسؤولو الصندوق إلى إرسال قوالب الحفر تحت الأرض التي كانت ضرورية بشكل مطلق بالنسبة إلى العمل المكلّف بإنجازه، مع أموال كافية لتسديد المبالغ التي سبق له أن أنفقها.

أما ما كان وَرَن يجهله في ذلك الوقت، كما قال فيما بعد، فهو أن (الصندوق كان قد أصبح ديناً). والجنيهات الثلاثمئة التي قدمها غروف لوَرَن عند المغادرة، كانت الوديعة الأخيرة في الخزينة التي أرهقتها عملية مسح ولسُن المكلفة إلى حد كبير. أما غروف فكان قد قامر بحياة وَرَن أملاً في أن تتمخض نتائج أعمال التنقيب المقدسية عن استجرار فيض من التبرعات. ولكن الأمر لم يقف عند حد عدم ورود التبرعات فقط، بل وتجاوزه إلى فقدانه دعم جيمس فرغسُن أيضاً. وفي مواجهة خطر تفكك جمعيته، ابتلع غروف كبرياءه وناشد الجمهور مباشرة مستجدياً التبرعات في سلسلة من الرسائل التي نشرها في جريدة التايمز اللندنية في تشرين الثاني من عام (1867 م). ونتيجة لذلك تمكن من إرسال حوالة مصرفية بمبلغ (850) جنيهاً إلى القدس، عَبّرت عن حسن النوايا وسمحت بمتابعة أعمال التنقيب، على الأقل، وإن لم تغط مصروفات وَرَن كلياً.

وفي تلك الأثناء كان وَرَن قد فقد الأمل في احتمال السماح له بالتنقيب داخل الحرم نفسه في أي وقت من الأوقات. فَنَشْرُ استنتاجاته الأولية في لندن لم يفض إلى جلب دعم الجمهور المالي الذي كانت الآمال قد عُقدت عليه، ولا إلى إقناع الحكومة العثمانية بمنح حقوق غير محدودة للوصول إلى المزارات المقدسة الإسلامية. أما السراديب فقد باتت معروفة لدى الجميع، فضلاً عن أن ناصيف كان قد بدأ سلسلة متقطعة من عمليات الإزعاج مرة أخرى. ولزيادة الطين بلة، كان وَرَن، مع بداية عام (1868 م) يتلقى مؤشرات واضحة وصريحة على مشكلات غروف المستمرة. فالمبالغ المرسلة شهرياً بدأت تتقلص مرة أخرى. أضف إلى ذلك أن برتلز كان قد أصيب بمرض خطير هدّه، وكان يتعين عليه أن يعود إلى إنجلترا للتعافي. وهكذا فإن العقبات كانت قد أصبحت أكبر من أن تسمح له بالاستمرار. وفي نيسان عام (1868 م) أوقف وَرَن أعمال التنقيب وعاد إلى إنجلترا ليقوم شخصياً بطرح قضيته مطالباً، في الحدود الدنيا، بتعزيزات من الرجال وبإمدادات ثابتة من المال.

أما النتيجة التي ترتبت على عودة وَرَن فلم تكن أقل من عملية إعادة تنظيم كاملة لصندوق استكشاف فلسطين. ففي اجتماع للجنة التنفيذية،

قدم وَرَن أول تقرير تفصيلي عن معركته المستمرة مع الباشا، كما كشف النقاب عن علاقته المتدهورة مع جورج غروف. ما لبثت أطروحات وَرَن العنيفة هذه أن تمخضت عن تغييرات كبيرة. فجورج غروف وافق على التخلي عن منصب أمين السر الفخري، تاركاً شؤون الصندوق اليومية بين يدي إداري متفرغ. أما وَرَن فقد عاد إلى العمل بعد حصوله على وعد أكيد بإرسال (350) جنيهاً كل شهر. وفي هذه المرة اصطحب معه زوجه وابنته إلى فلسطين، واستأجر بيت قنصل أمريكي سابق، وهو منزل جيد البناء خارج أسوار المدينة، بدلاً من الإقامة في معسكر مؤقت في العراء، أو التعويل على حسن ضيافة المبشرين الإنجيليين [البروتستانت ـ ز. م].

ولكن القادة الجدد هناك في لندن واجهوا صعوبة كبيرة في توفير التمويل الموعود، مهما كانت محاولاتهم، على الرغم من الالتزام الصادق بالدعم المالي الثابت. فمع حلول تشرين الثاني اضطروا لتقليص حصة وَرَن إلى (200) جنيه، وهو مبلغ أقل بكثير من مصروفاته الفعلية. وإذا كان صندوق استكشاف فلسطين سيستمر كمنظمة علمية حقاً، فإن من المتعذر عليه بعد الآن أن يعتمد على حب فعْل الخير لدى حفنة من الداعمين الأغنياء بنظريات أثيرة. فعملية استكشاف الأرض المقدسة كان لابد لها من أن تتحول إلى مشروع قومي حقاً. وهكذا فإن لحظة الانعطاف الكبير الأول في تاريخ صندوق استكشاف فلسطين كانت قد أزِفت.

منذ البدايات الأولى لأعماله التنقيبية، كان وَرَن قد تحلى، على الدوام، بقدر كبير من الصبر ورحابة الصدر في تعامله مع الأعداد المتزايدة من السياح الغربيين الذين كانوا يتوقفون عند أحد سراديبه، ومنهم من كان جاهلاً جهلاً مطبقاً بالآثار الكتابية، جنباً إلى جنب مع من كانوا مهووسين بها. وهكذا كان وَرَن قادراً على كسب تبرعات خاصة عندما كانت الأموال المرسلة من بريطانيا تتوقف في أوقات النزاع. فإحدى صور وَرَن التخطيطية من تلك الفترة عَرَضَت سيدة فكتورية حقيقية مدلاة بعناية في أحد السراديب الرأسية العميقة، مربوطة إلى كرسي عمودي.

وعاد سائر صنوف الرحالة والسياح من فلسطين ومعهم تقارير مشرقة عن مساعي وِرَن الجريئة، بحيث تم، مع مرور الزمن، نسج نوع من الأسطورة حوله في القدس أيضاً. حتى ناصيف تخلى، آخر الأمر، عن إزعاجه لوِرَن، الذي كان انتصاره المعنوي في هذه المسألة قد رفع مكانته في أعين العديد من السكان المحليين. وبالفعل فإن وِرَن كثيراً ما كان يجد نفسه محاصراً بأناس جاؤوا يلتمسون تدخله في هذه القضية الرسمية أو تلك، ظناً منهم أنه القنصل القوي لبلد بعيد اسمه: صندوق استكشاف فلسطين. أما يهود المدينة فقد أبدوا اهتماماً كبيراً باكتشافات وِرَن، ودُعي وفد مؤلف من كبار الحاخامات للنزول إلى السراديب لمعاينة (مدى ضخامة إنجازات أجدادهم).

ما لبثت تفاصيل مآثر وِرَن تحت الأرض الأشد إثارة أن وصلت إلى الصحافة البريطانية الشعبية، فأثارت اهتماماً كبيراً لدى قطاعات من الجمهور لم يكن قد سبق لها أن سمعت، ولو مجرد سماع، أي شيء عن صندوق استكشاف فلسطين. فالمغامر الشهير جون مكغرغر،[4] المعروف أكثر باسم (روب ـ روي)[5] زار وِرَن في القدس، وكتب تقريراً متملقاً نشرته صحيفة التايمز. والصحفي الإيرلندي وليم رَسل،[6] الذي ذاع صيته في حرب القرم كمراسل حربي ساهم بكتاباته الوصفية الخاصة حول أعمال التنقيب المقدسية، كما أضفى الفنان الشعبي وليم سمبسَن[7] على هذه الأعمال قَدْراً كبيراً من الحيوية في سلسلة من اللوحات والرسوم الدرامية المثيرة لصحيفة (إلّسترتِد لندن نيوز).[8]

وللإفادة من اهتمام الجمهور غير المتوقع افتتح قادة صندوق استكشاف فلسطين متحفاً فلسطينياً في غاليري كدلي[9] بلندن في حزيران عام (1869 م). وكانت معروضات المتحف تتألف من أواني فخارية قديمة مع آثار أخرى استخرجها وِرَن، جنباً إلى جنب مع هدايا تذكارية عن رحلة روب روي بالحسكة (الكانو ـ زورق طويل ضيق) في نهر الأردن، مع مخطط ونموذج لفلسطين قدّمها السير هنري جيمس من مصلحة المساحة. اجتذب هذا المعرض المتواضع ما لا يقل عن ستة آلاف زائر. فحتى جورج غروف المطرود، الذي ظل نشيطاً في دعمه لاستكشاف فلسطين، غمره شعور من

الرضى يفوق الوصف وهو يرى الزوار مقبلين بحماس على ابتياع استكتابات سنوية للاشتراك بنشرة: **بالستاين إكسبلوريشن فند كوارترلي ستيتمنت**[15] الجديدة [النشرة الفصلية لصندوق استكشاف فلسطين].

وفكرة بيع بدلات الاستكتاب، بدلاً من طلب التبرعات، أدت، على الفور، إلى وضع صندوق استكشاف فلسطين على مسار جديد. فالعديد من الفروع المحلية بدأت تظهر في سائر أرجاء البلاد، بما فيها الفرع الكائن في ذلك المكان القصي المعروف باسم (شيكاغو، بالولايات المتحدة الأمريكية) فضلاً عن أن المكتتبين الأفراد باتوا الآن قادرين على متابعة تقدم سير الأعمال في القدس بصورة منتظمة. وكما كان معلق جريدة التايمز قد اقترح في وقت سابق في الربيع، فإن علم الآثار الكتابي اكتسب طابع مشروع قومي. فإعادة اكتشاف آثار الأرض المقدسة القديمة لم تعد مرتبطة بالنظريات المحددة لحفنة من الأرستقراطيين المهتمين. وصندوق استكشاف فلسطين كان قد فرض هوية بريطانية على آثار فلسطين، كما كان الانبهار الشعبي بتنقيبات وَرَن قد رسّخت تلك الهوية بثبات في عمق الوعي البريطاني. ففي الاجتماع السنوي لصندوق استكشاف فلسطين صرح كبير أساقفة يورك قائلاً: «إن السبب الكامن وراء توجهنا نحو فلسطين هو أن فلسطين هذه هي بلادنا».

أما وَرَن نفسه الذي كان قد أنجز الجزء الأكبر من العمل فتابع الحفر. غير أن حدثاً غريباً آخر، حدثاً كان وَرَن سيلعب فيه دوراً صغيراً، كان سيجري في الوقت نفسه، ألا وهو المرتبط بقضية (الحجر المؤابي).

11) السباق على أثر بالغ الأهمية:

قضية (الحَجَر المؤابي) (1868-1870 م)

مع حلول عام (1868 م) كان القس فريدريك أوغسطوس كلاين[1] قد خدم باخلاص [الجمعية الكنسية الأنغليكانية التبشيرية][2] في القدس مدة سبعة عشر عاماً. وعلى الرغم من أن مسقط رأسه، ستراسبورغ، كانت، حقوقياً، داخل حدود فرنسا، فإن إحساسه بالانتماء إلى بلاده كان ضعيفاً. أما لغته الأم فكانت الألمانية، وقد تلقى تعليمه في سويسرا، كما عُمّد في الكنيسة الأنغليكانية، وكرّسَ حياته لنشر المذهب البروتستانتي بين السكان الناطقين باللغة العربية في فلسطين. وكانت مهماتُ كلاين كثيراً ما تنقله إلى المناطق ذات الكثافة السكانية المتدنية إلى الشرق من نهر الأردن والبحر الميت حيث كان يطوف على القرى المسيحية الصغيرة التي تأسست فيها مدارس تبشيرية، للاضطلاع بوظائف الإشراف والمشورة والهداية الروتينية. أما هواجس أوروبا السياسية فلم تكن تهمه كثيراً، وكان يمضي أسابيع كاملة دفعة واحدة في عزلة كاملة عن الحضارة، مستغرقاً كلياً في المعركة الكبرى الرامية إلى إنقاذ الأرواح.

وفي مساء اليوم التاسع عشر من شهر آب عام (1868 م) كان كلاين مشغولاً بمثل هذه الرسالة بالذات. وحين توقف للتعبير عن آيات احترامه لإحدى مخيمات بني حميدة البدوية بالقرب من مكان يدعى ذيبان، كان كلاين في الطريق من قرية السلط متوجهاً جنوباً نحو الكرك في جبال الأراضي الكتابية بمؤاب. وفي هذه الرحلة كان كلاين مصحوباً بالشيخ

زطّام بن فندي الفايز؛ الزعيم الأكبر لقبيلة بني صخر التي كانت قبيلة بني حميدة متحالفة معها. والقبيلتان، كلتاهما، كانتا في خصومات ونزاعات متقطعة منذ سنوات مع قبيلة العدوان إلى الشمال، وكانت الضغائن المتواترة بين الفريقين قد عرقلت تقدم عمليات الاستكشاف الغربية حول البحر الميت من جهة، واستجرت غضب العثمانيين الذين كانوا قد جردوا حملة عسكرية فظيعة ضدهما، خلال العام الفائت، من جهة ثانية. وكان كلاين شديد الحرص على عدم التورط في السياسة الداخلية للبدو؛ وبفضل حفاظه على علاقة ودية مع سائر قبائل المنطقة، كان السفر نظراً عبر الحدود الغامضة الفاصلة بينها متاحاً له.

نظراً لقدومه برفقة الشيخ زطّام (سطام؟) دُعي كلاين إلى الجلوس قريباً من موقد شيخ بني حميدة: أحمد بن طريف الذي عامله كضيف نبيل وموقر. وأراضي بني حميدة نادراً ما كان الغربيون يعبرونها، ولكن مضيفي كلاين البدو كانوا على اطلاع جيد باهتمام أولئك الغربيين بالآثار القديمة، كما كانوا تواقين لإبلاغ كلاين قصة غريبة عن حجر أسود عجيب «لم يسبق لأي إفرنجي أن رأى مثله من قبل». وعلى الرغم من أن الشمس كانت موشكة على الغروب، فإن هاجس احتمال العثور على شيء ثمين ما لبث أن تملك كلاين الذي رافق الشيخ أحمد إلى منطقة خرائب في ذيبان القريبة من مضرب الخيام. وهناك تم إطلاعه على الأثر الذي وُصف له، ممدداً على جانبه، مكشوفاً جزئياً فوق الأرض. صحيح أن ضوء النهار كان يتلاشى بسرعة، غير أن كلاين استطاع أن يأخذ بعض القياسات والملاحظات السريعة. فالحجر كان من البازلت الأسود المصقول، بطول خمس أقدام، وعرض ثلاث أقدام، وسماكة قدمين اثنتين، أعلاه على شكل قوس، وذو حافة ناتئة.

صحيح أن كلاين لم يكن عالم آثار بل مبشّراً، ولكنه ما إن قام بإزالة التراب الذي كان يغطي وجه الحجر، حتى تمكنَ من تمييز خطوط الكتابة الدقيقة المنقوشة على أحد الوجوه. ومفترضاً أن تكون أحرفاً قديمة، قام برسم صورة فجة لأشكال بعضها قبل أن يحول الظلام المتكائف دون المزيد من التدقيق. وفي اليوم التالي استأنف كلاين سفره إلى الكرك مع

الشيخ زطّام دون العودة لنسخ الكتابة المنقوشة كلها؛ ألم يكن العمل التبشيري أولى أولوياته آخر الأمر؟ غير أنه بادر، بعد عودته إلى القدس، بعد بضعة أسابيع، إلى ترتيب ملاحظاته المتعجلة، وراح يلتمس رأي محترف حول قيمة ما عثر عليه.

وفيما بعد، بعد أن باتت قضية (الحجر المؤابي) معروفة جيداً في العالم الغربي، ظهر منتقدون غاضبون اتهموا كلاين بخيانة «دعاوى البلد الذي أنجبه، ودعاوى البلد الذي أطعمه» إذ لم يكشف النقاب عن اكتشافه أمام القنصلية الفرنسية، ولا أمام المبشرين الإنجليز في القدس. أما الدكتور هاينريش بيترمان[3] فعبر عن شعوره بالقول: «إن قيام أي واعظ ألماني بوضع اكتشافه أمام قنصلية ألمانية» لم يكن إلا أمراً طبيعياً؛ والقنصل بيترمان هذا، ممثل الاتحاد الألماني الشمالي في القدس، هو الذي أمّنه كلاين على نبأ الحجر الأسود. وسرعان ما تعرف هذا اللغوي والباحث المخضرم على الأحرف القليلة التي رسمها كلاين على أنها أحرف فينيقية. وإذا كانت ملاحظات كلاين صحيحة، وكان وجه قطعة الحجر مغطى فعلاً بالكتابة نفسها، فدون أدنى شك كان من شأن ذلك أن يشكل أهم أثر تم العثور عليه في الأرض المقدسة حتى ذلك التاريخ. ما من أحد كان قد سبق له أن اكتشف أية نقوش مطولة عائدة إلى أزمنة الكتاب؛ وانطلاقاً من الابتهاج بأمل إنقاذ الحجر وتفكيك رموز كتابته، سارع بيترمان إلى إرسال كتاب إلى رؤسائه في وزارة الخارجية البروسية معبراً عن الرأي القائل بأن من شأن هذه اللقية أن تشكل إضافة لا تقدر بثمن إلى مجموعات المكتبة الملكية ببرلين.

وفي غضون أسبوعين تلقى بيترمان الجواب على كتابه حيث خُوّل رسمياً من قبل البرفسور ريتشارد لَبسْيوس،[4] أمين المكتبة الملكية، بشراء الأثر لصالح الحكومة البروسية مقابل أي مبلغ حتى مئة من النابليونات.[5] وبالإفادة من تلك المنحة السخية، استخدم أحد أتباعه المحليين وأرسله بسرعة إلى مؤاب، مع كمية كبيرة من قماش الشوادر للتغليف، ورسالة شخصية، كتبها كلاين، إلى والد الشيخ زطام، فندي الفايز زعيم قبيلة بني صخر، راجياً إياه أن يستخدم نفوذه للحصول على

الحجر. ولكن الزعيم البدوي لم يتحمس كثيراً للصفقة المقترحة، للأسف، بعد قراءة رسالة كلاين. فقبيلته كانت قد عانت كثيراً على أيدي كل من الأتراك ومنافسيهم من قبيلة العدوان في السنوات الأخيرة، ولم يكن يريد أن يستثير غيرة أو شكوك أي من الطرفين بقبوله المال من الفرنجة. أضف إلى ذلك أن الأثر لم يكن ملكه هو، إذ كان يعود، بالتحديد، إلى حلفائه، قبيلة بني حميدة. وبعد تأخير دام طويلاً، رد قائلاً إنه لم يكن ليستطيع أن يمد يد المساعدة في هذه المسألة. ومع ذلك ظل بيترمان وكلاين تواقين لإنقاذ الحجر، متفقين على ابقاء نبأ اكتشافه سراً لئلا يسبقهما إليه عملاء أية دولة أخرى.



الحجر المؤابي

مع حلول ربيع عام (1869 م) كان كلاين قد هيّأ استراتيجية جديدة. فبين معارفه كان رجل ذو علاقات وثيقة مع بني حميدة. وهذا الرجل، وهو معلم شاب يدعى سبع قعوار، أكد لكلاين أنه كان قادراً على نقل الحجر إلى القدس. كما منح القنصل بيترمان، متحلياً من جانبه بقدر مُبَرّر من الحذر، قعوار ثلاثة وخمسين نابليوناً ـ خمسين لشراء الحجر وثلاثة لتغطية نفقات السفر، مع إبقاء خمسين أخرى تُسدد له لدى إنجازه الناجح للمهمة.

مع مغادرة قعوار القدس متوجهاً إلى مؤاب، راح بيترمان ينتظر نافذ الصبر. وكان القنصل قد زود رسوله ببعض أوراق النسخ الشفافة، أملاً في الحصول، على الأقل، على نسخة من الكتابة المنقوشة كلها، في حال تعثر عملية الشراء لسبب أو لآخر. ولكن رحلة قعوار كانت مخيبة إلى أبعد الحدود. فبنو حميدة لم يكونوا قد اكتفوا بنقل الحجر من مكانه الأصلي فقط، بل طالبوا الآن بألف من النابليونات ثمناً له ورفضوا السماح بأي نسخ للكتابة، معبرين عن الاعتقاد بأن الحجر كان مسكوناً بجني ـ عفريت ـ كانت قوته ستتلاشى إذا سُمح لأي من الفرنجة بأخذ نسخة عنه.

في الصيف انتهت فترة خدمة بيترمان في القدس. أما مصير الحجر الأسود في مؤاب فبقي ملفوفاً بضباب كثيف من الشكوك، ومضت بضعة أشهر دون أن يظهر في الأفق أي بريق أمل في إنقاذ الأثر. وفي أوائل تشرين الأول جاء سبع قعوار، الذي كانت مهمته في ذيبان خلال الربيع الماضي استثنائية في إخفاقها، إلى القنصل الألماني الجديد، السيد كارل فون آلتن،[6] وعرض عليه اقتراحاً آخر؛ وأقنع فون آلتن بأنه كان قادراً على شراء الحجر بمبلغ (120) نابليوناً، زاعماً أنه قد كان اتصل بالشيخ أحمد بن طريف زعيم قبيلة بني حميدة مباشرة، وأن الزعيم البدوي بدا مستعداً لعقد صفقة. وبالفعل فإن الشيخ قد كان أبلغ قعوار بأن الحجر بحوزته، وكان راغباً في بيعه بالمبلغ المذكور. وبعد مثل هذه التأكيدات الحاسمة وافق فون آلتن على دفع مبلغ العشرين نابليون الإضافي من جيبه الخاص، غير أنه أراد من قعوار أن يتوصل إلى تفاهم واضح حول الشروط قبل أن يسلمه المبلغ. فإذا عاد مع الحجر بشكل سليم في غضون ثلاثين يوماً

كان قعوار سيحصل على مبلغ المئة والعشرين نابليوناً دون سؤاله عن كيفية حصوله عليه أو عن المبلغ الذي دفعه فعلاً ثمناً لذلك. أما في حال إخفاقه في جلب الحجر إلى القدس خلال تلك المدة، فإن الصفقة، كانت ستصبح لاغية. وهكذا انطلق سبع قعوار ثانية إلى مؤاب.

اتصل قعوار على الفور مع الشيخ أحمد بن طريف ووقع معه عقداً سليماً وأصولياً حول شرائه للحجر. وأخيراً بدت الطريق ممهدة لنقل الحجر، ولكن قبيلة العدوان الشمالية، التي ظلت حتى ذلك التاريخ، عازفة عن التدخل في الترتيبات، أرسلت خبراً لقعوار تقول فيه بأنه إذا حاول نقل الأثر عبر حدودها دون إذن منها، سيدفع ثمناً باهظاً. وعاد قعوار إلى القدس وبحوزته عقد شراء الحجر، لكن دون الحجر نفسه مما أدى أخيراً إلى نفاذ القطرة الأخيرة من صبر السيد فون آلتن على الحيل والأحابيل الشرق أوسطية. فالحكومة البروسية ما عادت مستعدة للتفاوض مع شيوخ الصحراء والوسطاء المحليين. ولابد الآن من استنفار كل قوة الحكومة العثمانية ونفوذها في سبيل تحصيل مكافأة بروسيا المستحقة.

شكل خريف عام (1869 م) وشهر تشرين الأول خصوصاً، شاهداً على بداية حقبة جديدة بالنسبة إلى الشرق الأوسط، كما بالنسبة إلى العالم ككل. فحلم فيرديناند دو ليسيبس المتمثل بالربط بين الشرق والغرب عن طريق قناة بمستوى سطح البحر عبر مضيق السويس كان، أخيراً، قد أصبح واقعاً. وما لبث سيل من رؤساء الدول، والنبلاء، والمشاهير، ونجوم المجتمع الأوروبيين أن تدفق باتجاه الشرق، موجة إثر موجة، لحضور الاحتفالات الخاصة بالافتتاح الرسمي لقناة السويس. وحدهم البريطانيون راودهم شيء من الخوف إزاء ما قد تنطوي عليه قناةٌ شقّتْها أيد فرنسية من معان استراتيجية، فكان ابتهاجهم بهذا الإنجاز العجيب للعصر أقل من كاملة. أما الإمبراطورية العثمانية فقد أرادت أن تظهر بأبهى صورها أمام الفيض المتوقع من الزوار الغربيين. وفي فلسطين كانت طريق العربات المناسبة الأولى الممتدة من يافا إلى القدس قد شُقت، كما تم، بحكمة، نقل ناصيف باشا إلى إقليم آخر، واستُبدل بموظف، أكبر سناً وأكثر دبلوماسية، تمتع بقدرة أكبر على استضافة الزوار المتميزين المنتظر

وصولهم إلى الأرض المقدسة. وحتى رشيد باشا، الحاكم العام لولاية سورية كلها كان سيأتي إلى يافا للترحيب شخصياً بكل من الإمبراطور النمساوي وولي العهد البروسي.

أما كارل فون آلتن فقد كان عازماً على استغلال هذه المناسبة الاحتفالية البهيجة لكسر الجمود المحيط بقضية حيازة الأثر القابع في مؤاب، ولكن لقاءه الأول مع رشيد باشا كان بلا جدوى. فالحاكم العام كان قد حقق سلاماً مهزوزاً في وادي الأردن بتسيير حملة عسكرية مرعبة إلى المنطقة خلال العام الماضي؛ ومن الواضح أن استفزاز أية قبائل محلية، مرة أخرى، لم يكن، في صالح الإدارة العثمانية. وببرود، قام رشيد باشا بإبلاغ فون آلتن أنه لن يفعل شيئاً فيما يخص المسألة، لأن من شأن تحريك الحجر أن يتمخض عن تمرُّد جديد. وجوابه كان واضحاً: ما من إجراء عثماني رسمي كان سيتم اتخاذه.

لكن وصول ولي العهد البروسي ما لبث، كما كان فون آلتين قد أملَ، أن أحدث تغييراً ملحوظاً في موقف رشيد باشا. ولدى دخوله مرفأ يَافا على ظهر يخته الملكي سارونا، في طريقه إلى احتفالات تدشين افتتاح قناة السويس، غَرَس ولي العهد فريدريك احتراماً جديداً لبلاده في عقول أعضاء الجهاز البيروقراطي العثماني. فهذه الزيارة بينت بوضوح أن بريطانيا وفرنسا لم تكونا القوتين الوحيدتين الجديرتين بالتعامل في زحمة الأوضاع الدولية القائمة على قدر متزايد من التنافس. وأصرَّ فون آلتن على عقد لقاء آخر مع رشيد باشا. وفيما كان اليخت الملكي راسياً، متهادياً بجلال، على مسافة بضع مئات من الياردات، نجح القنصل الألماني، أخيراً، في الحصول على أُذُن عادلة من الحاكم العام. فسائر اعتراضات رشيد باشا على التدخل باتتْ بلا أساس حين قام فون آلتن بإبراز العقد الموقّع أصولاً بين سبع قعوار وشيخ قبيلة بني حميدة. ولم يكن بيع الحجر من شأنه أن يستثير حركة تمرد، بل نقله عبر أراضي قبيلة العدوان. وإذا كان الحاكم العام عاجزاً عن توفير المرور الآمن للمتلكات الخاصة على طرق القوافل العامة في البلاد، فهل يمكن اعتبار حتى طريق العربات الممتدة بين يافا والقدس آمنة؟

وبدلاً من التعرض لمهانة رفض آخر، وافق رشيد باشا، مُكْرَهاً، على التدخل في القضية، وطلب من فون آلتن أن يرسل نسخة من العقد إلى دمشق. وفي حال عدم بروز أية مشكلات إضافية، فإن فرماناً كان سيصدر، مفوّضاً محمد سعيد، باشا نابلس، بالترتيب لعملية نقل الحجر. وأخيراً كان فون آلتن قد نجح حيث كان الدكتور بيترمان قد أخفق. وعلى الفور جرى استنفار المتحف الملكي في برلين، فيما كان سبع قعوار في القدس ينتظر بفارغ الصبر وصول التوجيه الرسمي كي ينطلق إلى مؤاب مرة أخرى.

وعلى الرغم من رغبة الدكتور بيترمان في إبقاء (الحجر المؤابي) سراً مكتوماً جيداً، فإن شائعات بروايات مختلفة ما لبثت، خلال فترة وجيزة من الوقت، أن انتشرت في سائر أنحاء القدس. ففي وقت مبكر يعود إلى خريف عام (1868 م) كان تشارلز وَرَن قد سمع عن الاكتشاف الغريب في ذيبان بمؤاب من أحد عماله المحليين. ولكن، حين حاول وَرَن اكتشاف المزيد عن طبيعة اللّقية، تلقى من الدكتور بيترمان معلومات غير مباشرة، ولكنها واضحة، تشي بأن الأمر كان خاصاً، وبأن من الأفضل له ألا يطرح المزيد من الأسئلة.

امتثل وَرَن للنصيحة، فقد كان عليه إنجاز عمل في ميدان التنقيب يفوق قدراته، الذي بات الآن عموماً بلا عقبات من جانب السلطات العثمانية. أضف إلى ذلك أنه لم يكن مخولاً من اللجنة التنفيذية لصندوق استكشاف فلسطين بشراء أية آثار أو أعمال غير ذات علاقة بتنقيباته. وكان قد أنفق ما يقرب من مئة جنيه من ماله الخاص على مجموعة من القطع النقدية والآثار القديمة خلال أشهره القليلة الأولى في فلسطين؛ غير أنه، بدلاً من مكافأته على مواظبته، أُبلغ، باختصار، بأن مسألة الآثار كانت تخصه هو، وبأن من غير الممكن جمع الأموال لشرائها.

وفي ربيع عام (1869 م) وبعد إخفاق جميع المحاولات البروسية التمهيدية الرامية إلى شراء الحجر من البدو، باتت القضية مطروحة ثانية عند قدمي وَرَن. فالدكتور جوزف باركلي،[7] رئيس بعثة [الجمعية اللندنية لليهود] قد كان سمع عن (الحجر المؤابي) من أحد مساعدي القس كلاين، وأحس بقلق عميق ازاء احتمال ضياع الأثر إلى الأبد. وما

من نسخة كاملة كانت قد أُخذت عن الكتابة الذيبانية المنقوشة طوال كل تلك الأشهر التي كان فيها البروسيون يفاوضون بشأنها. ونظراً للعداوة المستحكمة بين القبائل البدوية المختلفة، قام الدكتور باركلي بمناشدة وِرّن، أكثر علماء الآثار خبرة في المدينة، راجياً إياه أن يفعل شيئاً في سبيل الحصول على نسخة أو (طبعة) عن الكتابة المنقوشة في أسرع وقت ممكن.

لم يكن وِرّن مستعداً لأن يسمح لنفسه بالتدخل، أو بالظهور بمظهر المتدخل، في اكتشاف البروسيين، مما أفضى إلى إلغاء فكرة التحرك المستقل من البداية. وفيما يخص الأثر نفسه لم يكن وِرّن مهتماً بهوية المتحف الذي سيؤول إليه في النهاية، طالما أمكن الحفاظ عليه لفائدة العلم. فبقدر من الحرص واللباقة رتب لقاء مع القس كلاين، اقترح خلاله أن يقوم البروسيون بالحصول على طبعة جصية عن الحجر بأقصى سرعة ممكنة. بل وعرض توفير أفخر أنواع ورق الطباعة اللازم لأخذها.

وبامتعاض وسخط اعترض كلاين على تدخل وِرّن. فهو لم يكن بحاجة إلى مساعدة الملازم الأول، أو حتى إلى ورق طباعته. فالأمور كانت تدار سراً بما يمكّن الأمة الألمانية من تحقيق النجاح. فما كان من وِرّن إلا أن انحنى وانسحب من المسألة، تاركاً البروسيين وحدهم. على أنه ما لبث أن بدأ، مع انتشار الشائعات في أوساط القدس حول المفاوضات المخفقة والمطالب البدوية المفرطة، يحس بمخاوف جدية على سلامة الحجر. فقبل أن يغادر إلى لبنان لقضاء إجازة صيفية مع أسرته، سطّر رسالة مفصّلة وجهها إلى صندوق استكشاف فلسطين في لندن، ملخصاً كل ما عرفه عن الأثر الفينيقي القديم، واصفاً الاهتمام الألماني بالمسألة، ومقترحاً ضرورة دخول المتحف البريطاني في حلبة المنافسة، لدى إخفاق الألمان في شراء الأثر.

وفيما كان وِرّن عازفاً عن التدخل واستثارة غضب أو عدم ارتياح البروسيين، فإن موظفاً شاباً في القنصلية الفرنسية بالقدس لم يكن يعاني من مثل هذه الهواجس، مع أنه كان أيضاً قد سمع إشاعات موازية. واسم هذا الموظف الشاب كان شارل كليرمون ـ غانو،[8] وسبق له أن أمضى

أربع سنوات في فلسطين محققاً لنفسه شهرة رائعة كعالم آثار كتابي، على الرغم من أنه لم يكن قد تجاوز الثالثة والعشرين من العمر. ومن الواضح أن كليرمون ـ غانو هذا لم يكن مطلعاً على الترتيب الذي تم أخيراً بين رشيد باشا والسيد فون آلتن، فاعتبر أن الحجر كان ما يزال معروضاً للمزاد؛ فعرض على قبلان، شيخ قبيلة العدوان، مبلغ مئة وستين نابليوناً، زائداً أربعين على المبلغ الذي عرضه البروسيون على بني حميدة.

جاء الرد من مؤاب مبشّراً؛ فبعيداً عن المال تماماً، كان العدوان قد استُفزوا بالعقد الذي وقّعه البروسيون مع خصومهم. وهكذا فقد أصبح كليرمون ـ غانو مهيأ لأن يخطو خطوته الأولى؛ وبادر إلى إرسال بعض حلفائه من العدوان لأخذ طبعة عن الكتابة المنقوشة، مزوّداً إياهم بورق الطبع والجص حين شيعهم إلى ما وراء الأردن. والتفاصيل الدقيقة لهذه البعثة السرية تبقى غير مؤكدة. ففي النقاشات العنيفة اللاحقة حول المصير النهائي للحجر المؤابي، طُرحت روايات متضاربة عن الهوية الحقيقية لمبعوثي كليرمون ـ غانو، وعن كيفية اهتدائهم إلى مخبأ الحجر. ومهما يكن فإن عناصر كليرمون ـ غانو حددوا مكان الحجر، وما إن بدؤوا بوضع الطبع المغمس بالجص على وجه الكتابة المنقوشة، حتى حوصروا بعصبة غاضبة من بني صخر. وبعد تبادل العبارات الغاضبة جاءت الضربات التي أعقبتها طلقات الرصاص. وأحد مبعوثي كليرمون ـ غانو، وقد جُرح في الهجوم، فطن ببداهته السريعة إلى انتزاع ورق الطباع عن سطح الحجر في زحمة المعركة والهروب. وداساً الأشلاء الممزقة للطبعة في عيني خُرجه، انطلق مسرعاً على ظهر جواده باتجاه القدس لتقديم الكنز المحصل بصعوبة إلى رب عمله الفرنسي الشاب.

بالنسبة إلى بني حميدة كادت هذه العملية أن تكون القشة الأخيرة [القاصمة لظهر البعير]. فقد جلب تبجحاً بريئاً وساذجاً بكتلة حجر سوداء قديمة تحمل بعض الإشارات الغريبة على رؤوسهم وابلاً من البلايا والمصائب. فحين وصل الفرمان من باشا نابلس متضمناً أمراً يطالبهم بتسليمه الحجر فوراً، دون ذكر أي تعويض أو مكافأة لهم، تفجر بنو حميدة غضباً. فالاعتقاد بأن العثمانيين المكروهين كانوا يسلبونهم مبلغ

المئة والعشرين نابليوناً الذي وُعدوا به، ما لبث أن تمخض عن الغيظ وعن الدعوة إلى العمل. فساعة تحرير القبيلة من التأثير المدمّر للجني الكامن في الحجر الأسود كان قد أزف أخيراً.

لم يستطع بنو حميدة أن يفهموا الجاذبية غير القابلة للمقاومة التي انطوى عليها الحجر بالنسبة إلى الأوروبيين. فما من شيء ذي قيمة كان يمكن أن يُرى على سطحه، على الرغم من أنه ربما كان يخفي شيئاً أكثر قيمة في داخله. وبالتالي وضع البدو الحجر فوق نار متأججة؛ وحين أصبح أحمراً كالجمر أغرقوه في حوض ماء. تكررت هذه العملية مرات عديدة؛ وما لبثت الصدوع أن بدأت تتسع؛ وراح الحجر يكشف عن سر مكنوناته. غير أن بني حميدة لم يجدوا شيئاً حين تشظى الحجر إلى عشرات الأشلاء مع هسيس بخاري وغطسة أخيرة في ماء الحوض. والحجر الذي لم يعد أكثر من كومة من المزق والكسر السوداء المبللة بالماء، لم يكن محتوياً، كما بات واضحاً، على أي ذهب أو كنز. وبسرعة جرى توزيع القطع الكبيرة على أبناء القبيلة لإخفائها في أماكن مختلفة من مضرب خيامهم. وكل ما تم تركه مكشوفاً أمام ضوء النهار بعد رحيل البدو، لم يكن إلا رشة بريئة متناثرة من الحصى السوداء بين خرائب ذيبان.

بعد تغيبه المكتوم عن القدس خلال زيارة ولي العهد البروسي، عاد تشارلز وَرَن مع عائلته من لبنان في خريف عام (1869 م) لاستئناف أعماله التنقيبية. وفي طريقه من يافا إلى القدس اعترض سبيل فريقه بدوي من قبيلة العدوان كان قد عبر نهر الأردن جالباً معه قصة مذهلة ليرويها على مسامع الضابط الإنجليزي. وهذا البدوي حمل على كفه الممدودة بضع مزق سوداء صغيرة، وأبلغ وَرَن عن تحطيم الحجر من قبل بني حميدة وبعثرتهم اللاحقة لأشلائه الكثيرة. وبالنسبة إلى وَرَن، وهو المعروف بحرصه على تقدم الاكتشاف الأثري في الأرض المقدسة، كانت سعة الصدر القائمة على التحلي بالصبر مع المزاعم البروسية قد ولت. فالكتابة المنقوشة كلها قد تضيع، إلى الأبد، ما لم يتحرك بسرعة، مما جعله يرسل البدوي العدواني على نفقته الخاصة لأخذ طبعات جصية عن

سائر مزق الحجر التي يمكن الاهتداء إلى أماكنها، واضعاً حياديته الصارمة الخاصة جانباً.

وفي الوقت نفسه كان شارل كليرمون ـ غانو عاكفاً على العمل محاولاً أن يستخلص معنى ما من الطبعة الممزقة شر تمزيق التي كان عميلُه العدواني قد أخذها. فالورق المغموس بالجص، المنزوع عن الحجر وهو ما يزال مبللاً والمقحم في الخُرج أثناء الهرب، لم يكن فقط ممزقاً إلى سبع قطع، بل وشديد التجعيد أيضاً. والأحرف المطبوعة نادراً ما كانت قابلة للتمييز. مع ذلك أدرك الباحث الفرنسي الشاب على الفور مدى أهمية اللقية. فالأحرف "الفينيقية" المحفورة بنعومة أثبتت فعلاً أنها لغة مؤاب المندثرة منذ زمن طويل، لغة مملكة لم تكن معروفة فيما مضى إلا من خلال الإشارات الكتابية إلى آلهتها الوثنية وملوكها المتمردين. وكانت عاصمة تلك المملكة تُعرف باسم ديبون، والآن، ربما كان اكتشاف (الحجر المؤابي) في ذيبان، يعني أن صوت مؤاب القديمة قد نطق مرة أخرى.

كان النص الذي نجح كليرمون ـ غانو في فك رموزه من الطبعة المشوهة مكتوباً في القرن التاسع قبل الميلاد كتاريخ رسمي للملك ميشع، الذي كان منافساً سيء السمعة، وخطيراً أحياناً، للملوك العبرانيين المعاصرين له. فسفر الملوك الثاني يروي قصة الحملة غير الناجحة التي شنتها جيوش يهوذا وإسرءيل لإخضاع مؤاب، حيث ترد للمرة الأولى رواية مستقلة عن عواقب هزيمتها. وكليرمون ـ غانو استطاع، رغم العديد من الفجوات والمقاطع غير القابلة للقراءة، أن يرقّع وصفاً مؤابياً رسمياً لانتصار ميشع على الإسرءيليين، وللتوسيع اللاحق لمملكته، ولإعادة بناء مدنه، وللنعم الوفيرة التي منحها الإله المؤابي كموش لشعبه. وكان (الحجر المؤابي) بالفعل أهم أثر تم اكتشافه حتى ذلك التاريخ في الأرض المقدسة. فهو لم يقف عند حد تأكيد الأساس التاريخي لجزء من الكتاب بدقة مذهلة، بل وألقى ضوءاً درامياً جديداً على حضارة جاورت الممالك العبرانية.

مع ذلك، كانت نوعية الطبعة الوحيدة للكتابة المنقوشة متواضعة، وكان لابد من المبادرة فوراً إلى بذل المساعي في سبيل إنقاذ الأشلاء المتبقية من الحجر. وبعد كل ما جرى كان بنو حميدة مستعدين للتخلي عن آثارهم بدلاً من المخاطرة بضياع أي أمل في التعويض. وفي أواخر عام (1869 م) عقد كل من وَرَن وكليرمون ـ غانو، بوصفهما ممثلي العالم (الأكاديمي) البحثي، سلسلة من الاجتماعات المتكررة لمقارنة طبعات القطع والأشلاء المختلفة التي كانت تصل إليهما بوتائر بطيئة وتبادلها. أما البروسيون فيبدو أنهم أهملوا المسألة كلها لدى وصول أنباء تدمير الحجر، وبالتالي قام كل من وَرَن وكليرمون ـ غانو، مع حلول نهاية شهر كانون الأول، بجمع سائر المواد المتعلقة بالحجر، وإرسالها إلى لندن وباريس، لنشرها بصورة متزامنة. وقد كتب وَرَن يقول: «إن مسألة أن يصل الحجر إلى برلين أو لندن أو باريس تبدو لي قضية صغيرة بالمقارنة مع إنقاذ الكتابة المنقوشة من الضياع في بحر النسيان».

غير أن كليرمون ـ غانو كان قد استبق وَرَن قليلاً في الموافقة على النشر المتزامن؛ إذ قام، بهدوء، بتمرير ترجمته الخاصة ووصفه للحجر إلى السفير الفرنسي في القسطنطينية، الكونت يوجين ـ ميلشيور دو فوغوي،[9] الذي كان هو نفسه قد قاد عدداً من البعثات الأثرية في فلسطين. أصيب دو فوغوي بالذهول إزاء الاكتشاف إلى درجة أنه قام بالترتيب لعملية نشر أخباره مباشرة في **جورنال أوفيسييل**[10] [الجريدة الرسمية] الصادرة عن الحكومة الفرنسية. ففي السادس عشر من شهر كانون الثاني، عام (1870 م) جرى تقديم (الحجر المؤابي) إلى العالم الغربي، في مقال كتبه شارل كليرمون ـ غانو، تحت عنوان: [**نصب ميشع، ملك مؤاب** (عام 896 ق. م)].[11]

وفي اليوم التالي بالذات نشرت التايمز اللندنية مقالاً تضمن الأنباء الغريبة لترجمة كليرمون ـ غانو. وسرعان ما انتقل هذا الانبهار من الأوساط الأكاديمية إلى صفوف عامة الناس. وتعاقبت المقالات في العديد من الدوريات الشعبية. فالبرهان الدرامي المثير على الدقة التاريخية للكتاب سرعان ما أصبح موضوعاً شعبياً للنقاش في صالات الاستقبال، وفي حفلات

العشاء، واستقبالات الحدائق في إنجلترا كلها. وقد كتب أحد المعلقين المعاصرين: «عصفت بنا مثل ممثلة أو مغنية محظوظة».

صحيح أن قصة اكتشاف (الحجر المؤابي) المثيرة أسَرَت خيال الجمهور، ولكن عملية الإعلان جلبت معها بعض المضاعفات غير المتوقعة. فمسائل أولوية ذلك الاكتشاف، وهوية المكتشف الحقيقي، والدولة (الأمة) التي يعود إليها شرعاً فضلُ التوصل إليه، كانت ستؤدي سريعاً إلى إطلاق "تفاحة اختلاف" ـ حسب تعبير وَرَن، في جو العلاقات المتمدنة الذي كان في السابق سائداً بين أوساط علماء الآثار الأجانب العاملين في القدس.

شكّلت الإثارة الجماهيرية المفاجأة بـ (الحجر المؤابي) حافزاً جديداً لانخراط جورج غروف الدؤوب في شؤون علم الآثار الكتابية. وعلى الرغم من أن الرجل لم يكن مضطلعاً بأي دور رسمي في صندوق استكشاف فلسطين، وعمد شخصياً إلى تجاهل ببرود طلب وَرَن المُلحّ للتوجيهات حول الحجر قبل بضعة أشهر، فإنه سرعان ما برز على الساحة الإنجليزية بوصفه الناطق الرسمي باسم الاكتشاف والداعية له. وفيما كانت التقارير الأولية عن الحجر ما تزال مستندة إلى الترجمة الفرنسية، قام، في العاشر من شباط، بالرد على النشر، السابق لأوانه، لكيرمون ـ غانو، برسالة طويلة إلى صحيفة التايمز، تعزو فضل اكتشاف الحجر كله إلى وَرَن وحده، دون إيراد أي ذكر لا للمفاوضات البروسية السابقة ولا لمساهمة كليرمون ـ غانو. وفي الوقت نفسه أرسل غروف رسالة نزقة إلى وَرَن طالبه فيها بالحصول على طبعات أفضل حتى من الطبعات "الرهيبة" التي سبق له أن أرسلها. وفي تجاهل كامل لسياسة صندوق استكشاف فلسطين الثابتة القائمة على عدم تشجيع شراء أي آثار، طلب غروف من وَرَن ألا: «يترك وسيلة دون أن يجربها في سبيل حيازة كل ما قد يكون باقياً من هذا الأثر المؤابي الفريد».

أما وَرَن فكان ما يزال غارقاً في العمل الجاد في القدس غافلاً تماماً عن الغضب المتصاعد في إنجلترا حين بدأ يتلقى بعض الرسائل المقلقة جداً. ففيما كان بعضها يغمره بآيات المديح بوصفه المكتشف الشجاع

للحجر، كان مرسلو رسائل آخرون، أقل تحلياً باللطف، يتهمونه ويحملونه المسؤولية المباشرة عن تدمير الحجر، جراء إهماله. وحين استلم وَرَن أخيراً نسخة من عدد التايمز اللندنية المتضمن إعلان جورج غروف الأول، كاد يفقد السيطرة على أعصابه من فرط الإحساس بالذعر والمهانة. فخلال مدة وجوده في القدس كلها، كان وَرَن قد حاول أن يحافظ على سمعة "علمية" محايدة، كما كان قد تعاون مع الباحثين من جميع الأمم والدول، وتمكن، بفضل ذلك من التغلب على الكثير من العقبات التي اعترضت في طريقه، دون أن يحصل مقابل ذلك إطلاقاً على أي تعاون من الوطن.

أحس تشارلز وَرَن بأن لا خيار أمامه سوى قطع جميع الصلات مع صندوق استكشاف فلسطين. كان في الخريف الماضي قد جرى ترقيته إلى رتبة نقيب، كما كانت أعمال التنقيب في القدس شبه منتهية. وكانت لحظةُ رحيله عن القدس محتفظاً بالبقية الباقية من كرامته كانت قد أزفت. وبعد قيامه للمرة الأخيرة بإيقاف الأعمال، زار القنصل البروسي وقدم له اعتذاره الرسمي عن أي إزعاج يمكن أن يكون قد حصل. وبعد ذلك كتب رسالة طويلة إلى جريدة التايمز مبيناً فيها أن المكتشف الحقيقي للأثر كان هو القس كلاين، ومؤكداً الدور الذي كان كليرمون ـ غانو قد لعبه في القضية. وفي نيسان عام (1870 م) غادر وَرَن يافا مع عائلته بحراً. غير أنه قام، قبل المغادرة بعمل آخر كان سينطوي على قدر أكبر من العواقب فيما يخص قضية (الحجر المؤابي). وكتجسيد للاحتقار لمجمل المسألة المشينة، قام وَرَن بتسليم كليرمون ـ غانو ثماني عشرة قطعة من الحجر، وهي مجموع القطع التي كانت بحوزته.

أما رد فعل الحكومة البروسية فكان، حسب ما يمكن توقعه، سريعاً وغاضباً. ففي رسالة من برلين عبر الدكتور بيترمان عن استيائه المشروع قائلاً: «من المؤكد أن القواعد الاعتيادية للعقل كانت تستدعي ألا يتدخل أحد في الصفقة حتى تصل إلى غايتها بصورة نظامية أو يتم إلغاؤها». أما الاكتشاف فقد كان ملكاً شرعياً للأمة الألمانية، وأدت مسألة تدخل كليرمون ـ غانو في القضية إلى إثارة عاصفة من المشاعر القوية في أجواء التوتر العسكري والسياسي المتزايد بين فرنسا وألمانيا.

كان كليرمون ـ غانو نفسه حسن الاطلاع على الهياج الذي تسبب به الحجر، فبادر مباشرة ليس فقط إلى تهذيب ترجمته لنص الكتابة المنقوشة، بل وإلى تحصيل القطع المفقودة أيضاً. فأرسل في الربيع عدداً من البعثات إلى مؤاب، وبقدر غير قليل من الصعوبة، ومبلغ لا يستهان به من المال، استطاع الاهتداء إلى أمكنة أعداد أخرى إضافية من القطع. وعلى الرغم من أن ما يقرب من ثلث الكتابة المنقوشة ضاع إلى الأبد، فقد تمت عملية إعادة بناء الأجزاء الباقية، وظل كليرمون ـ غانو خلال الصيف يعمل دون كلل لإنجاز ترجمة منقحة ومصححة. فجأة كان الشاب الفرنسي قد أصبح شخصية قومية، وباتت المقالات التي كان ينشرها في ريفو أركيولوجيك[12] تُقرأ بشغف في سائر الأوساط البحثية في جميع أرجاء العالم الغربي.

لم تنته قضية (الحجر المؤابي) على أية حال. فقد تدفق سيل من المقالات البحثية، المتجادلة حول الخلافات في النص من جهة وبشأن الظروف التي أحاطت بالاكتشاف الأصلي للأثر من جهة ثانية، تدفق من إنجلترا وألمانيا وفرنسا. واتهم إيمانويل دويتش[13] من المتحف البريطاني كليرمون ـ غانو بـ(التحرك المتعجل المتهور) في سبيل الحصول على بقايا الحجر دون إبداء الاحترام اللازم إزاء مطالب البروسيين. وأكسبت التوترات التي رافقت الحرب الفرنسية ـ البروسية عام (1870 م) النقاش قدراً من المرارة بطبيعة الحال. ففي (19) تموز كان نابليون الثالث قد أعلن الحرب على بروسيا، ولكن الجيوش الفرنسية ما لبثت، مع حلول الثاني من أيلول، أن كانت قد انهارت انهياراً كاملاً، كما كان نابليون نفسه قد أُسر في سيدان. لقد سقطت الإمبراطورية الفرنسية الثانية، ومع حلول كانون الثاني من عام (1871 م) كانت باريس قد احتُلت. وبكبرياء قومية راسخة تم عرض (الحجر المؤابي) المعاد بناؤه في اللوفر عام (1873 م) رمزاً لانتصار صغير على العدو البروسي.

من المؤكد أن (الحجر المؤابي) كان قد أضفى عنصراً من عناصر السياسة الغربية على عملية البحث عن الآثار القديمة في فلسطين، كما

أن مضاعفات اكتشافه أطلقت جهوداً إضافية من جانب البريطانيين دفاعاً عن فخارهم القومي في القضية ومع عودة وَرّن إلى انحلترا، قام صندوق استكشاف فلسطين ببذل سلسلة من المحاولات المتكررة لتجريد حملة على مؤاب بغية الوقوف على مدى إمكانية إنقاذ المزيد من مُزّق الحجر، ولكن جميع هذه المحاولات باءت بالفشل. فاثنان من المستكشفين هما: تشارلز إفّ. تيرويت ـ دريك[14] وإدوارد بالمر[15] اللذين أرسلهما صندوق استكشاف فلسطين، قاما بزيارة المكان الأصلي لاكتشاف الحجر في ذيبان، ولكنهما لم يجدا إلا بعض البقايا من الحصى السوداء، وعبرا عن شكهما بإمكانية العثور على أية مزق أخرى.

لكن العبرة الهامة التي انطوت عليها قضية (الحجر المؤابي) لم تكن ذات علاقة وثيقة بشؤون أمم العالم الغربي ودوله وبأشكال ولعها المهووس بالأحجار القديمة فمما قاله الشيخ أحمد بن طريف، زعيم قبيلة بني حميدة، لكل من تريويت ـ دريك وبالمر حين قاما بزيارة مضرب الخيام، ما يلي: «أنتما أيها الإفرنجيّان، لو جئتما إلى هنا قبل اثني عشر شهراً وعرضتما علي جنيهاً أو اثنين، لحصلتما على ما شئتما من الحجارة، بما فيها حجر ذيبان؛ أما الآن فقد جعلتمونا نعرف قيمة الحجارة المكتوبة، وبات العرب أخيراً مدركين أهميتها».



12) التجسس على البلاد:

وضع الخرائط، والاستراتيجية، والتورط الإمبريالي في الشرق الأوسط (1871ـ1882م)

مع إرسال نابليون الثالث إلى المنفى وتدمير إمبراطوريته في الحرب الفرنسية ـ البروسية بقيت بريطانيا، فجأة، دون أي منافس رئيس على صعيد التحكم بقناة السويس. ومع تعرض خطر النفوذ الفرنسي للضغط الشديد، باتت الطريق المائية عَصَبَ حياة التجارة البريطانية مع الهند وغيرها أجزاء المشرق. ضغط الممثلون البريطانيون في لجنة قناة السويس للحصول على الامتيازات المتسعة باضطراد لبلدهم. ومع حلول نهاية العام الثاني من عمل القناة، كان ما يزيد عن ثلاثة أرباع البواخر العملاقة العابرة للممر الضيق بين البحار ترفع الراية البريطانية. أما الإمبراطورية العثمانية فقد كانت مستمرة في الانهيار، كما كان خديوي مصر يغوص أعمق فأعمق في مستنقع الديون. ومع أن المصير النهائي للشرق الأوسط بقي ملفوفاً بضباب كثيف من الشك، فإن البريطانيين كانوا راضين عن بقاء الأمر الواقع الدولي في السويس على حاله طالما بقيت حرية مرورهم مضمونة.

وعلى الرغم من أن مصر والقناة كانتا تحت السيطرة، فإن الروس لم يكونوا كذلك. فقد كانوا يصدرون من جديد إشارات تهديدية موجهة نحو القسطنطينية. ووافرت الاضطرابات المستمرة بين السكان المسيحيين

الأرثوذكس في البلقان للقيصر ألكسندر الثاني حجة نموذجية يتذرع بها لاطلاق طلقة الرحمة على الحكم العثماني هناك. وكان صراع محتوم يلوح في الأفق لأن التزاحم على الأراضي، وهو ما كان يبعث على الخوف منذ عهد نابليون، كان من شأنه، إذا بدأ الروس بتقطيع أوصال الإمبراطورية العثمانية، أن يؤدي، آخر المطاف، إلى وضع مصالح الروس في البلقان في مواجهة مصالح البريطانيين المقابلة في مصر. وما من أحد كان يستطيع أن يحدد المكان الذي يمكن لخط الفصل أن يمر به أخيراً.

كانت مثل هذه النذر المشؤومة تزرع الذعر بين أعضاء صندوق استكشاف فلسطين. فالوقت قد كان حان «للضغط في سبيل القيام باكتشافات متقدمة» كما لاحظ أحد الأعضاء في الاجتماع السنوي عام (1870 م). ففي ضوء الوضع السياسي المتدهور بسرعة، (لم يكن من المحتمل أن تبقى الأرض المقدسة بأيدي أصحابها الحاليين؛ وإذا ما سقطت القدس تحت سيطرة حكومة أخرى، فإن فريق الاستكشاف قد لا يحصل على التسهيلات الممنوحة له الآن). وثمة آفاق مظلمة أخرى كانت أيضاً تهدد مستقبل هذا الصندوق. فقد عاد وَرَن مشبعاً اشمئزازاً إزاء قضية (الحجر المؤابي) تاركاً معداته ومستودعاته أمانة لدى البعثة التبشيرية الإنجليزية. وكانت والبعثة المختصرة إلى مؤاب بحثاً عن المزيد من مزق (الحجر المؤابي) باءت بالفشل الكامل. من الواضح أن مبادرة جديدة كبرى كان لابد من إطلاقها، وما لبثت الطبيعة المحددة لمثل هذه المبادرة أن باتت، على الفور، موضوع نقاش حاد.

كان جورج غروف مصمماً على متابعة أعمال التنقيب في القدس، مستمراً في عقد الآمال، خلافاً للمنطق والتجربة، على إنقاذ نظرياته المهشمة شر تهشيم. وتحدث أعضاء آخرون لصالح بحث مستمر عن المزيد من (حجارة مؤاب). ولكن قطاعاً متنامياً من الأعضاء الأكثر شباباً، بقيادة تشارلز ولسن، كان يحمل آراء مختلفة كلياً. فلدى إيقاف مسح ولسن التمهيديِّ للبلاد في (1866 م) بقيت مساحات واسعة من الأرض المقدسة دونما استكشاف أو تخطيط. وإذا كانت حقبة الحكم العثماني في فلسطين موشكة على الانتهاء، فإن تحقيق أحد الأهداف الأكثر أساسية

للصندوق، ألا وهو المتمثل بوضع خريطة دقيقة وشاملة لفلسطين، كان أكثر أهمية، على الصعيدين الاستراتيجي والعلمي، بالمقارنة مع ما كان عليه الوضع من قبل.

ظلّ النقيب ولسن نشيطاً في شؤون صندوق استكشاف فلسطين، حتى بعد إلغاء مسحه. ففي عام (1868 م) كان قد قاد بعثة وضع خرائط خاصة إلى شبه جزيرة سيناء، بحثاً عن الموقع الصحيح لجبل سيناء ودرب الخروج. فشق قناة السويس جعل من شبه جزيرة سيناء موقعاً مهماً، على الصعيدين العسكري والديني، بالنسبة إلى البريطانيين، مما أدى إلى تقديم دعم ذي شأن من جانب وزارة الحرب لمشروع مسح ولسن، رغم أنه مشروع خاص. فمع حلول شهر كانون الثاني من عام (1869 م) أي قبل الافتتاح الرسمي للقناة بأحد عشر شهراً، أكمل ولسن عمله المتمثل بوضع خرائط مساحة تزيد عن أربعة آلاف ميلاً مربعاً من الأراضي غير المخططة سابقاً، وأكثر من ثمانمئة ميل من الدروب والمعابر الجبلية شبه المجهولة حول التخوم الجنوبية المطلة على السويس. صحيح أن العديد من مشكلات الجغرافيا الكتابية الدائمة ظلت دون حل، ولكن أحداً لم يكن قادراً على إنكار القيمة الاستراتيجية للعمل في حال نشوب أي نزاع حول قناة السويس.

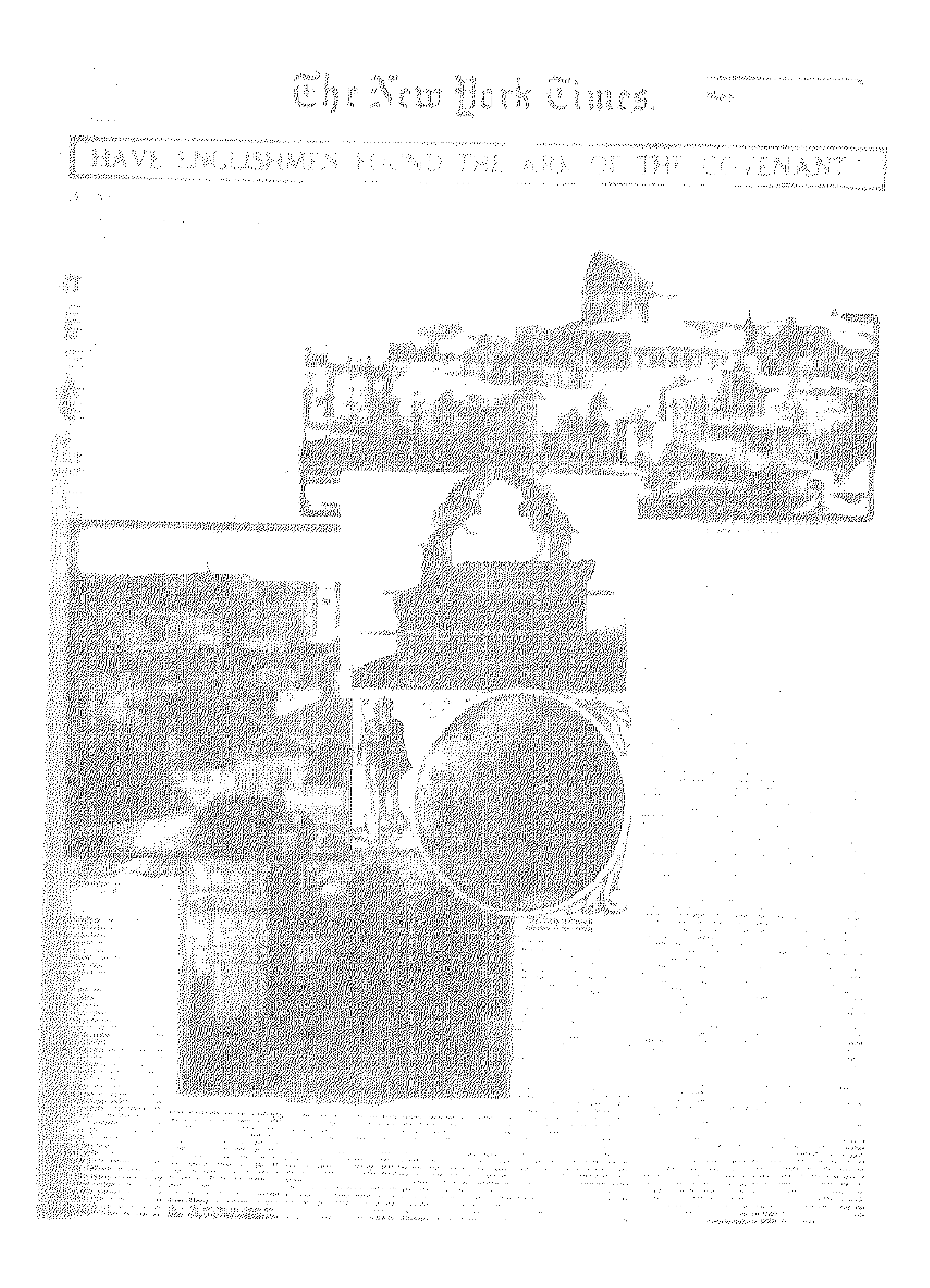
وافر وضع الخرط ذات النطاق الواسع لفلسطين المجاورة للبريطانيين تفوقاً استراتيجياً مماثلاً. وبوصفه ضابطاً تنفيذياً لمصلحة المساحة في القسم التضريسي، قام ولسن، شخصياً، بوضع خطة تفصيلية للعمل والتقانة، قدمها إلى اللجنة التنفيذية لصندوق استكشاف فلسطين. وكان فصيل من المهندسين الملكيين سيكلف برسم الخرط، الذي قُدر أنه سيستغرق أربع سنوات تقريباً. والمهندسون كانوا، أيضاً، سيضعون قائمة للأسماء والتقاليد المحلية، وسيقومون بأعمال تنقيب تجريبية عند الضرورة، وسيمارسون سلسلة من المراقبات الجوية المناخية، وسيدونون ملاحظات "جيولوجية" ونباتية وحيوانية، وسيحاولون متابعة العمل في القدس، وسيعاينون (بقايا أثرية هامة) ويضعون لها مخططات. وبالتالي فإن الهدف لم يكن أقل من عملية مسح شاملة لكل ملمح طبيعي وتاريخي من ملامح فلسطين.

لقد كان مشروعاً عملاقاً مفعماً بالتحدي، ولكنه سرعان ما توافر له الدعم. فرئيس أساقفة يورك سارع إلى تأييد خطة ولسن مشيراً إلى أنك: «إذا أردتَ أن تفهم الكتاب حقاً، الكتاب الذي نتداوله بالملايين سنوياً، فعليك أن تفهم أيضاً البلد الذي كتُب فيه الكتاب للمرة الأولى». وعملية المسح العظيمة لفلسطين كانت واجباً علمياً يقع على عاتق العالم الغربي، لأن من شأن استكمالها أن يفضي، بالتأكيد، إلى توافر (أكثر أشكال العون الممكن توفيره تحديداً ورسوخاً في سبيل إلقاء الضوء على أكثر ملامح الكتاب المادية شهرة). أما الأهمية الاستراتيجية لهذا العمل بالارتباط مع قناة السويس فلم تكن، رغم عدم الاتيان على ذكرها في ذلك الوقت، أقل شأناً. وهكذا ما لبث المسار المستقبلي لتحرك صندوق استكشاف فلسطين، أن أصبح فجأة جلياً. وبالتالي فقد تم بالإجماع اتخاذ قرار يقضي بالقيام بمسح كامل لفلسطين.

كان ثمة اهتمام جديد بوضع خريطة فلسطين يتنامى في الولايات المتحدة أيضاً. فمع انتهاء الحرب الأهلية هبت موجة جديدة من الازدهار الأمريكي وانطلقت، مرة أخرى، المشاركة الأمريكية في استكشاف الأرض المقدسة، التي كانت قد تعثرت منذ أيام روبنسن ولنتش. ففي وقت مبكر يعود إلى صيف عام (1869 م) كانت جماعة من الشَخصيات الشيكاغوية المرموقة قد أسست الفرع الأمريكي الأول لصندوق استكشاف فلسطين، ولكنها ما لبثت أن اكتشفت أنها لا تستطيع أن تكتفي بمجرد تقديم الدعم المالي لمنظمة بريطانية. ففي العام التالي تمت إقامة جمعية أمريكية مستقلة لاستكشاف فلسطين في نيويورك،[1] أعلن منظموها عن اعتزامهم التنافس، نداً لند، مع صندوق استكشاف فلسطين البريطاني. وبعد دعوة المكتتبين وإصدار نشرة دورية، قام الأمريكيون في تموز من عام (1871 م) بالإعلان عن خطتهم المتمثلة بإيفاد بعثة وضع خرائط خاصة بهم إلى فلسطين.

أثار اكتشاف (الحجر المؤابي) اهتماماً عظيماً في الصحافة الأمريكية، فبات منظمو الجمعية الأمريكية تواقين إلى استغلال الوضع. وعلى الرغم من أن صندوق استكشاف فلسطين قد كان توصل إلى استنتاج يقول بأن

أية عمليات استكشاف إضافية في المنطقة المحيطة بذيبان لن تكون مجدية، فإن الأمريكان لم يوافقوا على هذا الرأي - ربما نتيجة التجربة أو العناد الخالص. ودون إقامة أي وزن لاعتزام صندوق استكشاف فلسطين المعلن وضع خرائط للأرض المقدسة كلها، تقدمت الجمعية الأمريكية الوليدة لتعلن شرق الأردن مجالاً لعملها.



The New York Times.

HAVE ENGLISHMEN FOUND THE ARK OF THE COVENANT?

عناوين إثارية عن آثار فلسطين في صحيفة نيويورك تايمز

انطوى هذا الإعلان على خطر الصراع المباشر، ولكن حلاً توفيقياً ما لبث أن تم تحقيقه بسرعة. وأثبتت مشاركة الأمريكيين غير المتوقعة في وضع خريطة فلسطين أنها كانت، في الحقيقة، ذات فائدة كبيرة بالنسبة إلى صندوق استكشاف فلسطين. فباقتسام البلد مع الأمريكان على امتداد نهر الأردن، كان المهندسون الملكيون سيتمكنون من التفرغ لمساحة أكثر قابلية للادارة من أجل المسح، وقد كانت هي المساحة المتضمنة للمواقع الأكثر أهمية بما لا يقاس على الصعيدين الكتابي والاستراتيجي.

وكل ما كان باقياً هو تنظيم وإرسال فريقي المسح البريطاني والأمريكي. وكما يمكن توقعه، فإن البريطانيين، وهم أصحاب تجربة ذات شأن في مشروعات وضع الخرائط في سائر أرجاء العالم، كانوا في مواجهة مهمة أسهل بما لا يقاس. فتشارلز ولسن بادر بسرعة إلى تجنيد ضابط ومهندسين، مجهزين بالأدوات والمعدات الضرورية الأخرى من جانب أدميرالية مصلحة المساحة. ومع حلول خريف عام (1871 م) كان كل شيء جاهزاً وظهرت إعلانات مشحونة بالعواطف في الصحف البريطانية الرئيسية مهللة لنبأ مغادرة مساحي صندوق استكشاف فلسطين لمباشرة عملهم المهم في فلسطين الغربية.

أما الأمريكيون فقد احتاجوا إلى وقت أطول بكثير حتى وصلوا إلى ميدان العمل. وبالفعل، فإن جمع التبرعات الكافية لتسيير البعثة تطلب ما يقرب من السنة، وبعد جمع تلك التبرعات أخيراً، جرى تبديد عدد إضافي من الأشهر بحثاً عن ضابط كفؤ يضطلع بالمهمة. وأخيراً وقع الاختيار على الملازم الأول إدغار ز. ستيفر[2] وهو خريج حديث من وست بوينت [الأكاديمية العسكرية الأمريكية] حصل على تجربته المسْحية الوحيدة خلال خدمته الوجيزة في المنطقة الهندية في ولاية أُكلاهوما. وبعد الحصول على إجازة من وزارة الحرب في واشنطن أواخر عام (1872 م) غادر نيويورك برفقة البرفسور جون بين[3] من [الكلية التبشيرية الأمريكية][4] الموجودة في إحدى ضواحي القسطنطينية، الذي كان سيعمل عالم آثار لدى البعثة. أما المعدات والعناصر الإضافية فقد تقرر تأمينهما ميدانياً.

توجه بين إلى بيروت مباشرة لإنجاز الإعدادات الضرورية بمساعدة المبشرين الأمريكان هناك، في حين تخلّف ستيفر في لندن لعقد اجتماع مع مسؤولي صندوق استكشاف فلسطين. وهناك أدرك، للمرة الأولى، أن بعثته كانت شديدة الافتقار إلى الاستعداد المطلوب. فخطة العمل البريطانية، كما شرحها النقيب ولسن لستيفر، كانت قائمة على عملية مسح تضريسية بالغة الدقة؛ في حين لم يكن الأمريكيون قد خططوا لما هو أكثر من عملية استطلاع أولية للمنطقة الممنوحة لهم. وبالمبالغ المالية الموضوعة تحت تصرفه، لم يكن ستيفر قادراً على التطلع إلى مجاراة العمل البريطاني على الصعيدين النوعي والشمولي في أي من الأوقات. والنتيجة التي ترتبت على هذا اللقاء تمثلت بإرسال طلب عاجل إلى نيويورك للحصول على مبالغ إضافية.

ومما قاله ستيفر في رسالته محذراً: إن «من شأن سماح الشعب الأمريكي بإخفاق هذه البعثة أن يشكل عاراً أبدياً». ولسوء الحظ فإن جمعية استكشاف فلسطين الأمريكية كانت قد ساومت على أكثر مما تستطيع إنجازه بصورة معقولة. غير أن التراجع بات متعذراً.

كان المهندسون الملكيون منهمكين في العمل بفلسطين؛ وعلى الرغم من أن الضابط الأول المرسل لقيادتهم أصيب بنوبة برداء أعادته إلى إنجلترا، فإن برنامجهم المسْحي كان يتقدم بنجاح استثنائي. ومع اضطلاع ضباط الصف بمسؤولية أعمال المسح التقنية، كان عالم الآثار المدني الملحق بالبعثة، تشارلز تيرويت ـ دريك، مكلفاً بمعالجة الهموم الأكثر عملية. وجمع تشارلز فريق سَفَر مؤلف من ستة مواطنين محليين، حارس أرسله باشا القدس، وستة جياد، وسبعة بغال، وستة جمال لنقل حاويات معداتهم الثقيلة، وما لبثوا أن أقاموا محطات قاعدية في المواقع المتوسطة لكل من المناطق التي سيجري مسحها، وأجروا مباحثات مع الشيوخ أو المخاتير المحليين بغية الحصول على التعاون والحماية، وعلى العمال الموقتين.

تم نشر شبكة عملاقة فوق كل منطقة وفقاً لما حددته المثلثات؛ وبعد الانتهاء من العمل بأدوات قياس الزوايا، جرى تحميل التفاصيل التضريسية

الأصغر باليد، مع قيام أعضاء فريق المسح بالتقدم عبر التلال والوديان مزودين ببكرات القياس وأوراق الرسم. وأثبت المنهج أنه كان ناجحاً جداً؛ فمع حلول شهر تموز من عام (1872 م) كان تريويت ـ دريك مسروراً وهو يبلّغ مسؤولي صندوق استكشاف فلسطين بلندن إنجازه مسح وتخطيط ما يزيد عن (560) ميلاً مربعاً في المنطقة الواقعة إلى الشمال من القدس.





شعار حملة كلود كَندر

كلود كَندر في إريحا

في نهاية المطاف، تم تعيين الملازم الأول كلود كُندر،[٤] من المهندسين الملكيين، ليحل محل الضابط المعوق، وكان مقدراً لمهمته أن تكون أطول بكثير. وفي الحقيقة فإن كُندر كان سيقضي باقي حياته متفرغاً كلياً لعملية استكشاف الأرض المقدسة، مسطّراً عشرات المقالات الشعبية والبحثية حول تاريخ فلسطين، ومترجماً ألواح (تل العمارنة) من مصر، ومحاضراً في سائر أرجاء إنجلترا باسم صندوق استكشاف فلسطين، حول اكتشافاته وتجاربه في الشرق الأوسط. ومثله مثل ولسن ووَرَن قبله، كان كُندر ضابطاً طموحاً، موسوساً، شديد الاعتزاز بسمعة المهندسين الملكيين. ومع ذلك فإنه، عندما زار فرقة المسح في نابلس في تموز (1872 م) دُهش بدقه ومدى العمل الذي أُنجز حتى ذلك التاريخ بقيادة تريويت ـ دريك وضباط الصف.

ومع تولي كُندر القيادة تابعت البعثة عملها بقدر أكبر من الكفاءة ماسحة، ووضعه الخرائط، ومصنفة ما يزيد عن (1250) ميلاً مربعاً. ومع حلول صيف عام (1873 م) كان الفريق منشغلاً بالأقاليم الجنوبية من فلسطين، وكانت خرائطه، وأوراقه، ودفاتره تُملأ حتى بأسرع مما كانت اللجنة في لندن قد توقعته. ولدى حلول الخريف، وبعد استكمال عملية مسح فلسطيا، انتقل كُندر ورجاله شمالاً عبر وادي الأردن. ولكن ما لبث أن أصيب كل من كُندر وتريويت، بالبرداء في المنطقة المستنقعية الموبوءة بهذا المرض. صحيح أن مرض الرجلين أدى إلى التوقف عن العمل، ولكن المعلومات التي أرسلاها إلى إنجلترا بررت التوقف المؤقت على أية حال، مما أعطى الباحثين فرصة يغتنموها في غربلة تلال التقارير والمخططات والعينات والرسائل التي تدفقت من فلسطين خلال العامين السابقين.

في الوقت نفسه، كانت جمعية استكشاف فلسطين الأمريكية شديدة الافتقار إلى النتائج. فمع أن طلب الملازم الأول ستيفر العاجل المزيد من الأموال قد تمخض عن إرسال عشرة آلاف دولار إلى بيروت، فإن المال وحده لم يكن كافياً لرفع بعثة ستيفر إلى المستوى المطلوب. وحين كانت الأموال كلها قد أُنفقت، فإن المحصلة الوحيدة للمشروع

كانت مخططاً صغيراً للمنطقة التي سبق للحجر المؤابي أن وُجد فيه، تم نشره في مجلة الجمعية الأمريكية. ولكونها خريطة تخطيطية لا أكثر، بدت بعيدة كثيراً عن الارتقاء إلى مستوى معايير الخرائط البريطانية لفلسطين الغربية.

صحيح أن ستيفر عاد إلى الأقليم الهندي بعد اختتام مهمته، غير أن عمل جمعية استكشاف فلسطين الأمريكية ظلّ مستمراً. فقد تعهدت لصندوق استكشاف فلسطين بأنها كانت ستنجز مسح الأراضي الواقعة إلى الشرق من نهر الأردن كلها، مما جعلها، ترسل في عام (1875 م) بعثة أكثر تنظيماً بعض الشيء للاضطلاع بالمهمة. وهذه المرة كانت الفرقة الأمريكية تضم مساحاً كفؤاً، وعالم آثار، ومصوراً ضوئياً. أما قيادتها فلم تكن بيد ملازم ثان فقط، بل بين يدي جيمس ك. لين،[6] وقد كان مخطط سكك حديدية مشهوراً، ومستكشف تخوم، وأحد أبطال الحرب الأهلية.

لم يكن الاختيار موفقاً. فمن بدايات العمل الأولى تقريباً تباينت وجهة نظر لين حول الأسلوب الواجب اتباعه في إنجاز العمل الأمريكي مع وجهة النظر المتبناة في نيويورك بشكل كبير فقد كان يشعر بأن على الفريق أن يعتمد أساليب المسح التضريسي الناجحة جداً في عملية بناء الخطوط الحديدية العابرة للقارة في الغرب الأمريكي. وما إن وصل إلى بيروت حتى بدأ يقذف بمذكرات فوقية يهيلها على رؤوس أعضاء اللجنة في نيويورك مطالباً بالمزيد من الأموال. ولسوء حظ لين، كانت الجمعية الأمريكية قد ضغطت على نفسها مالياً لتتمكن من تسيير بعثة ثانية بما أبقاها دون أية موارد إضافية. وحين علم بالأمر، سارع لين بغضب إلى فك ارتباطه بالجمعية وعاد إلى الولايات المتحدة، تاركاً معداته ورجاله في بيروت.

لم يبق أمام الأمريكيين المحشورين في الزاوية أي خيار آخر غير المتابعة دون لين. فبتوجيه من عالم الآثار الركن، الذي كان أسقفاً طائفياً يدعى صلاح مريل، تقدم الفريق إلى شرق الأردن، حيث أجرى عمليات استكشاف متواصلة على امتداد العامين التاليين، ناشراً تقريراً غير كامل عن لُقاه في مجلة جمعية استكشاف فلسطين الأمريكية. ومريل نفسه كتب فيما بعد، رواية شعبية مشبعة بالرومنطيقية عن أسفاره، وفاز، آخر

المطاف، بمنصب قنصل الولايات المتحدة في القدس في ظل إدارة الرئيس تشستر أ. آرثر؛[7] ولكن الجمعية التي وافرت له تلك الفرصة العظيمة لم تكن بحالة جيدة.

ما لبث النقص المستمر على صعيدي التمويل والخبرة، ناهيك عن النتائج، أن أقنع الجمعية الأمريكية في نهاية المطاف، بالتخلي عن العمل كلياً. فما من (حجارة مؤابية) أخرى تم العثور عليها، وما من عناوين رئيسة جرى اكتنازها؛ وبما أن حكومة الولايات المتحدة لم تكن قد طورت بعد أية مصالح تجارية أو استراتيجية هامة في المنطقة، فإن الأمل في كسب أي دعم رسمي مستقبلاً كان ضعيفاً. من المحزن أن [جمعية استكشاف فلسطين الأمريكية] اختُزلت إلى ما ليس أكثر من ملاحظة هامشية على إحدى صفحات تاريخ الاستكشاف الكتابي. أما بريطانيا شديدة الاهتمام بتوازن القوة الاستراتيجي في الشرق الأوسط، فقد كان مقدراً لها أن تستكمل عملية وضع خريطة فلسطين وحدها.

وبعد بضعة أشهر من النقاهة في القدس، استأنف الملازم الأول كُندر، في شباط من عام (1874 م) أعمال المسح التابعة لصندوق استكشاف فلسطين، آمراً رجاله بالعودة إلى النقطة التي أوقفوا عملهم فيها، متابعين الصعود مع وادي الأردن إلى بحيرة طبرية. ولسوء الحظ، فإن عالم الآثار تيرويت ـ دريك، أصيب مرة أخرى بحمى البرداء التي لم يتعاف منها هذه المرة. غير أن مسح فلسطين الغربية كان قد أصبح مشروعاً أكثر أهمية من أن يستطيع أي شيء أن يوقفه حتى ولو كان موت مثل هذه الشخصية المفتاحية، أن يوقفه؛ وبديلاً عن تيرويت ـ دريك بادر الصندوق إلى إرسال ضابط من المهندسين الملكيين في الرابعة والعشرين من العمر رشحه كثيرون لهذا المنصب. والملازم الأول الشاب هذا كان هوراتسيو هيربرت كيتشنر.[8] وهذه المهمة في فلسطين لم تكن، بالنسبة إليه إلا الأولى في حياة طويلة من خدمة ملكته ووطنه في الشرق الأوسط.

ومع التحاق كيتشنر بفريق المسح، قام كُندر باستئناف العمل بقدر متزايد من السرعة والتصميم. ومع حلول شهر حزيران من عام (1875 م)

أتم الفريق مسح أكثر من (4400) ميل مربع من المناطق الريفية غير المخططة من قبل، وكان يأمل بأن خارطة فلسطين الغربية ستكون مستكملة أخيراً مع حلول نهاية العام. وسير الأحداث السياسية في الشرق الأوسط كان سبباً ضاغطاً لهذا الإلحاح الشديد على الاستعجال. فالخزينة العثمانية كانت شبه مفلسة، وكان التضخم المحموم والسوق السوداء، مع ما ترتب عليهما من الانتشار الواسع للرشوة والفساد في الأجهزة الحكومية، يؤدي إلى نسف الاستقرار في سائر أرجاء الإمبراطورية. والوضع في مصر لم يكن مختلفاً، لأن الخديوي اسماعيل كان هو نفسه غارقاً في بحر من ديون المستثمرين الأجانب، بما سيفضي في غضون أشهر قليلة إلى قيام الحكومة البريطانية، بتحريض من رئيس الوزراء بنغامين ديزرائيلي، بشراء أسهم مصر في [شركة] قناة السويس. أما آفاق مستقبل الشرق الأوسط فبدت حتى أكثر كآبة مما كانت لدى الشروع بعملية المسح؛ ولأن ما كان متبقياً من فلسطين دون مسح لم يكن يزيد عن ألف ميل مربع، فقد اندفع كُندر وكيتشنر إلى الحملة الأخيرة التي كان من شأنها أن تنهي العمل.

وفي العاشر من تموز عام (1875 م) أصدر كُندر أمراً إلى فريق المسح قضى بإقامة مخيم قاعدي مقابل بلدة صفد الجليلية ليكون مقر قيادة أعمال مسح وتخطيط المنطقة الشمالية ـ الشرقية من البلاد. وكما سبق لهم أن فعلوا مرات من قبل، قام الخدم بانزال حقائب المعدات عن ظهور الدواب ونشروا الخيم ونصبوها للضباط، وبدؤوا يعدون وجبة العشاء المسائية. أما الفرمان الرسمي الذي كان معهم فقد تم إرساله مع أحد المراسلين إلى حاكم البلدة العثماني للحصول على موافقته، في حين أوى الملازم الأول كندر إلى خيمته، كما كانت عادته، للاسترخاء في قميصه الداخلي وخفيه.

فجأة سُمعت خارج الخيمة أصوات غاضبة كَسَرتْ هدوء المساء. فقد جاء شيخ محلي بوجه يقطر حنقاً ودخل في جدال حاد مع خادم اتهمه بسرقة مسدس من إحدى حاويات المعدات. وعازماً على استعادة الهدوء، خرج كُندر من الخيمة. فخلال مدة المسح كلها كان الأهالي يعاملونه باحترام بوصفه الممثل الرسمي لدولة قوية. أما الآن فإنه ما إن اقترب من الشيخ حتى انقض عليه الأخير ممسكاً بخناقه بيديه، وهو يهزه كطفل.

صحيح أن سبب هذه الثورة لم يكن معروفاً لدى كُندر، ولكنه كان مضطراً للدفاع عن كرامته كضابط إنجليزي وكجنتلمان؛ فطرح الشيخ أرضاً، واتخذ وضعية الملاكمة، مستعداً لقبول تحدي الأعرابي الشخصي. غير أن الشيخ لم يكن، فيما يبدو، على علم لا بنبالة كوينزبري ولا بفن التلاكم. فبعد أن رأى الإنجليزي متوتراً ومستعداً للشجار، استل الشيخ خنجراً واندفع نحوه. ولحسن حظ كُندر، سارع خدم الفريق إلى الانقضاض على الشيخ وانتزعوا منه سلاحه؛ وما لبثوا أن جلبوا حبلاً قيدوا به الشيخ المرمي على الأرض وهو يركل ويصرخ.

في تلك الأثناء كان حشد كبير من الأهالي المحليين الذين جلبتهم أصوات الصراخ والفوضى من القرية قد تجمع. ومن الواضح أن رؤية أحدهم مربوطاً وتحت سيطرة الإنجليز آثار حفيظتهم. فانهل وابل من الحجارة على المخيم. سارع كوندور إلى الإيعاز لكيتشنر بتلقيم البنادق، وأمر، فيما كان منسحباً ليلوذ بأمان خيمته، بإطلاق سراح الشيخ وإبلاغ الحاكم مباشرة بما حصل.

ومع تزايد كثافة وابل الحجارة وزعيق الحشد الغاضب، وتحطيم الحاويات ونهب ما فيها، وهدم الخيام واضطرار كُندر وكيتشنر والضباط الآخرين للتجمع في دائرة الغوغاء التي ضاقت أكثر فأكثر، صوّب كيتشنر بندقيته نحو الحشد، ولوّح كُندر بسوطه، ووخز المصور الضوئي الجمهرة بالأطراف الحادة لحمالة آلة تصويره. وما إن انتشر نبأ الإهانة التي لحقت بالشيخ في القرية، حتى اندفع عدد كبير من الشباب منحدرين من التلة ومتوجهين نحو المخيم مسلحين بفأس حربية، وهراوات، وسيف معقوف، مصممين على الانتقام من "الفرنجة".

وفي المعركة التي أعقبت ذلك تعرض كُندر وكيتشنر كليهما للضرب المبرح. وجميع خدمهما جُرحوا بالحجارة، وتحول المخيم إلى خراب. ولكن كُندر، بدلاً من فتح النار على الحشد والمخاطرة بالمزيد من العنف الأشد خطورة، أمر رجاله بالانسحاب، متولياً القيادة بنفسه حافياً عبر الأشواك والدم يسيل على جبهته، هارباً بروحه وأرواح رجاله.

ومع حلول المساء عاد كل شيء هادئاً في صفد. فوحدات الحامية المحلية وصلت لتفريق الجمهور، وعاد كندر مع رجاله الجرحى والمضروبين، طالباً اجتماعاً عاجلاً مع كل من القاضي والحاكم والممثل القنصلي البريطاني. وفي الاجتماع تحدث كندر بالتفصيل عن الأذى الذي لحق برجاله والأضرار التي تعرضت لها معداتهم، وأعلن عن أن أعمال المسح ستتوقف إلى أن يتم اعتقال المذنبين ومحاكمتهم. فالترخيص الممنوح لصندوق استكشاف فلسطين حول تمكينه من إجراء مسح البلاد دون إزعاج تم انتهاكه، ولن يكون الاستمرار ممكناً إلى أن تقوم سلطات الحكومة العثمانية، بالانتقام لكرامة صندوق استكشاف فلسطين والمهندسين الملكيين وشرفهما المهدورين عن طريق فرض القصاص العادل.

وبعد ليلة من الخوف والأرق في المخيم القاعدي المخرب، لأن الشيخ كان قد هدد بأنه سيعود و"يحز رقاب" الإنجليز، أمر كُندر رجاله بحزم ما كان باقياً من أمتعتهم والشروع بالمسير نحو الساحل. أصيب عدد قليل من الرجال بنوبات حمى لدى وصولهم إلى حيفا لأن الضرب كان قد أوهن قواهم. ما من خيار آخر كان متاحاً لكندر سوى أن يأمرهم جميعاً بالعودة إلى إنجلترا. كما جرى إبلاغ القنصلان البريطانيان في القدس وبيروت أصولاً بالقضية وجرى توجيههما للإصرار على محاكمة المتهمين. صحيح أن الأمر لم يكن، بمعايير الإمبراطورية العثمانية، سوى حدث ثانوي نسبياً، ولكن بريطانيا الملوكية اعتبرته إهانة خطيرة. وفي الظروف الحالية على الأقل، كانت الكبرياء والكرامة أكثر أهمية بما لا يقاس من استكمال عملية مسح فلسطين الغربية.

طوال عام (1876 م) بقي كل من كُندر وكيتشنر مع أركانهما في لندن، عاكفين، بدأب على دراسة الكميات الكبيرة من المواد التي جمعوها في السنوات الأربع الأولى من عملية المسح، في مكتب استأجرته الحكومة لهم. وكان ثمة وقت أكثر من كاف لإعداد الخرائط الأولية، فضلاً عن أن قضية صفد اكتسبت أهمية رمزية كبيرة مما جعل حلها ضرورياً قبل حتى مجرد التفكير بأية عودة إلى فلسطين. في البداية كانت السلطات العثمانية معارضة لعملية إثارة الدعوى أمام القضاء، غير أن المشبوهين ورؤس

الفتنة ما لبثوا، نتيجة ضغوط القنصلين البريطانيين، أن أوقفوا وحوكموا في عكا. وحكم على علي آغا العلان، الشيخ الذي كان قد تسبب بالفوضى (وقد تبين أنه منفي جزائري أسكنه العثمانيون في صفد، وادعى أنه من أقرباء الثائر البربري الشهير الأمير عبد القادر الجزائري) بالسجن مدة تسعة أشهر. أما شباب البلدة الذين كانوا قد هاجموا فريق المسح فعلاً فقد حُكم على كل منهم ببضع سنوات من السجن مع الأشغال الشاقة. ولزيادة الطين بلة تم إلزام جميع أهالي صفد بدفع تعويض مقداره (270) جنيهاً لخزينة صندوق استكشاف فلسطين.

ومن مكان آمن في إنجلترا علق كُندر قائلاً: «في النهاية تبين أن القضية كانت درساً مفيداً، وأظهرت لأهالي فلسطين أن التعامل بوقاحة مع الرعايا الإنجليز يتعذر أن يمر دون عقاب». وبعد ذلك غادر الملازم الأول كيتشنر، كما لو كان راغباً في تسليط الضوء على العبرة شخصياً، إلى فلسطين في مطلع عام (1877 م) لإتمام العمل المتبقي والمتمثل بالمسح المتكامل للأرض المقدسة. وعلى الرغم من مشاغبات السكان المحليين المستمرة، فإن كيتشنر فرض انضباطاً كاملاً على مرؤوسيه من ضباط الصف من جهة، ومستخدميه من المحليين من جهة ثانية. كانت عودة فريق المسح إلى صفد ظافرة؛ فقد خرج سائر موظفي وأعيان القرية للترحيب بالإنجليز والتعبير عن آيات الإجلال لهم. وعلي آغا نفسه، الخارج من السجن حديثاً، توسل إلى كيتشنر طالباً العفو، وبحركة تلطف جليلة تنازل الملازم الأول الإنجليزي الشاب عن الجنيهات الستين الأخيرة من التعويض، نظراً للجفاف الأخير والمهانة الصريحة التي لحقت بأهالي صفد النادمين ندماً واضحاً.

ومع حلول تشرين الأول من عام (1877 م) كان الفريق قد أنجز مسح الأقسام الباقية من شمالي فلسطين، وكان كيتشنر قادراً على إبلاغ اللجنة التنفيذية في لندن بأنه تم تسجيل كل ملمح، وطريق، وخرابة، ومجرى ماء في فلسطين وتحديد مكانه بأمانة، وبالتالي ما عادت الأرض المقدسة الأكثر حياة على صفحات الكتاب منها في الواقع، أرضاً مجهولة وغير مستكشفة.

وهناك في لندن، أشرف كل من جورج غروف وتشارلز ولسن على نشر مذكرات فريق مسح فلسطين، وإصدارها في شهر أيلول عام (1878 م) محدثين قدراً كبيراً من الإثارة. وإضافة إلى الخريطة التفصيلية الشاملة لفلسطين والأجزاء الستة والعشرين من المذكرات، تضمن هذا الإصدار جملة التقارير الخاصة الصادرة عن تشارلز كليرمون ـ غانو حول القدس وعن البرفسور بالمر حول سيناء، ومجموعة كبيرة من الصور الضوئية المعمارية، وعدداً كبيراً من المخططات المرسومة بعناية للآثار القديمة. وفيما انقض الباحثون على الكنز الموجود في المادة العلمية بنهم، فإن نتائج المسح صدرت أيضاً للجمهور العام بأشكال أكثر شعبية: [**كتاب الملازم الأول كيتشنر للصور الكتابية**][9] بجنيه، والرواية الشخصية لقصة البعثة الناجحة جداً بقلم كُندر، تحت عنوان [**عمل ميداني في فلسطين: سجل اكتشاف ومغامرة**].[10] وسارع صندوق استكشاف فلسطين باعتزاز إلى ركوب الموجة الصاعدة للحماس والإعجاب الشعبيين. فالخطط المستقبلية، بما فيها بعثة واسعة النطاق إلى بحيرة طبرية، نوقشت وعُرضت بحماس، وكانت تهدف إلى الكشف عن العديد من المواقع المرتبطة بحياة يسوع.

غير أن إحدى النتائج الأبقى لمسح فلسطين الغربية كانت ما تزال غير معترف بها. والإمبراطورية العثمانية ظلت تعتبر الأرض المقدسة جزءاً عضوياً من إقليم سورية. وكان وقت صيرورتها دولة منفصلة يقترب، وما إن حدث ذلك حتى اتضح أن شكلها كان قد تحدد وترسخ. فالحد الشمالي كان متمثلاً، بدقة، بتلك الحدود الممتدة مع تلال الجليل الأعلى حيث كانت عملية وضع الخرط التابعة لصندوق استكشاف فلسطين قد توقفت، مثله مثل الخط الشرقي الممتد مع مجرى نهر الأردن. وهكذا فإن مسح فلسطين الغربية كان قد حدد المستقبل الجغرافي.

وخلال السنوات الأخيرة من عمل مسح فلسطين، صارت الحكومة البريطانية تنظر إلى (المسألة الشرقية) بقدر مضطرد التزايد من القلق. فالثورات المتجددة للسكان المسيحيين في البلقان، ردّت عليها السلطات العثمانية بحملة قمع وحشية. وما لبثت أنباء الفظائع التركية أن استثارت

موجة عارمة من العطف والغضب في سائر أرجاء العالم المسيحي. والروس التواقون، دوماً، لتوسيع حدودهم بذريعة الدفاع عن إخوتهم السلاف، غزوا البلقان في عام (1877 م) وألحقوا هزيمة كاملة بقوات السلطان، وحرروا رومانيا وبلغاريا من الحكم العثماني. وشكّل ضياع الأقاليم البلقانية الخطوة الأولى في عملية التفكيك النهائية للإمبراطورية العثمانية؛ وعلى الرغم من المشاعر المعادية للأتراك ذات الشأن بين صفوف البريطانيين، فإن الحكومة حاولت، يائسة، أن تحول دون وقوع ما هو محتم. ففي مؤتمر برلين، المنعقد في عام (1878 م) نسّقَت القوى الأوروبية فيما بينها ووضعت خطة معقدة لإعادة ترقيع الإمبراطورية العثمانية.

ومضطلعة بدور الوساطة بين الأتراك والروس، أكدت بريطانيا العظمى استقلال كل من رومانيا، وصربيا، والجبل الأسود (مونتينيغرو) غير أنها تعهدت مستقبلاً بحماية الوحدة الإقليمية للمناطق المتبقية من إمبراطورية السلطان. ولتحقيق ذلك، سُمح لبريطانيا باحتلال جزيرة قبرص بوصفها قاعدة استراتيجية لقوة بحرية في شرق المتوسط، وبوصفها، وهذا أكثر أهمية، قاعدة مناسبة لحراسة حرية المرور عبر قناة السويس.

ومثل هذا الحضور البريطاني المتنامي في الشرق الأوسط تطلب خدمات ضباط وإداريين من ذوي الخبرة. وأمكن العثور على أمثال هؤلاء الأفراد بين المستكشفين السابقين الذين عملوا لدى صندوق استكشاف فلسطين. وبعد تأجيل بعثة الصندوق المقترحة إلى بحيرة طبرية، تم تعيين كيتشنر، العائد لتوه من فلسطين، لمسح جزيرة قبرص التي جرى الاستحواذ عليها مؤخراً. أما تشارلز ولسن، أول مستكشفي الصندوق، فقد عُين في هيئة الحدود الصربية لرسم الحدود الأوروبية المعدلة للإمبراطورية العثمانية.

أنجز الرجلان مهمتيهما بما يثير الاعجاب وكوفئا بمناصب أكثر حساسية؛ فولسن أصبح القنصل العام البريطاني في آسيا الصغرى في العام التالي، وعُين كيتشنر نائب قنصل عسكري في قبرص. وعلى الرغم من فقدان الكوادر لصالح مطالب قومية أشد إلحاحاً، تابع صندوق

استكشاف فلسطين نشاطه في الأرض المقدسة، ولو على نطاق مختزل كثيراً. فقد تم إرسال كُندر إلى تلك المناطق الواقعة إلى الشرق من نهر الأردن والتي تخلى عنها الأمريكيون؛ وهناك ظل يعمل حتى عام (1882 م) حين أوقفته السلطات العثمانية التي باتت أكثر ريبة يوماً بعد يوم.

وأوائل ذلك العام نفسه، ما لبثت مخاوف بريطانية متجددة أن نشأت حول سلامة قناة السويس. ففي أعقاب انتفاضة وطنية لضباط من الجيش المصري، بدأ وزير الحرب، أحمد عرابي باشا، يحرك العواطف المعادية للأوروبيين تمهيداً لحركة عصيان مكشوفة ضد الخديوي الهزيل توفيق المدعوم من بريطانيا. وثورة كهذه اعتبرتها الحكومة البريطانية تهديداً خطيراً، فسارعت إلى وضع خطة لغزو مصر واحتلالها لضمان أمن القناة. صحيح أن الجيش المصري المتمرد لم يكن يشكل عقبة عسكرية ذات شأن، ولكن الشيء نفسه لم يكن ممكناً قوله عن بدو شبه جزيرة سيناء. وفي حال تحالف هؤلاء مع حركة عرابي التمردية، فإن هجمات دائمة على قوة الغزو البريطانية كان من الممكن توقّعها من الشرق. وبالتالي لا بد من إيجاد وسيلة ما لمعرفة نواياهم بدقة، ولهذا الغرض لاذت الحكومة البريطانية بخدمات أحد مستكشفي صندوق استكشاف فلسطين السابقين.

كان البرفسور إدوارد هنري بالمر قد قام باستكشاف سيناء مرتين ـ مع ولسن في عام (1868 م) ومع تيرويت ـ دريك في العام الذي بعده. وبوصفه باحثاً مرموقاً في ميدان الدراسات العربية وخبيراً ببنية أجهزة السلطة والمرجعية في شبه جزيرة سيناء، وبعادات قبائلها البدوية، تطوع للمهمة التي كان يحتمل أن تكون خطرة، وسافر إلى الشرق في صيف عام (1882 م) على أنه صحفي مدني. أما التوجيهات التي تلقاها فكانت تطالبه بالاتصال مع بدو سيناء، لإقناعهم، إن أمكن، بالبقاء على الحياد في الصراع المقبل.

وبعد انطلاقه من غزة، اجتمع بالمر بعدد من زعماء البدو المهمين، مجدداً صداقات قديمة ومكتشفاً أن التعاطف مع قضية الوطنيين المصريين لم يكن كبيراً. ولكن هذه المعلومات الاستخباراتية لم تشف غليل بالمر

الباحث الذي بات الآن يلعب دور الجاسوس. فبعد وصوله إلى السويس، أقنع الأدميرال قائد القوات البريطانية بأن التعاون الفعال مع البدو، لا ضمان حيادهم فقط، كان ممكناً، وبأن من شأن بعثة ثانية إلى سيناء أن تتمكن من إنجاز المهمة. وبصحبة اثنين من ضباط البحرية الملكية، انطلق بالمر ثانية إلى الصحراء مع حقيبة فيها ثلاثة آلاف ليرة ذهبية. وكانت التوجيهات تقضي بأن يؤمن أعداداً من الجمال لقوة الغزو البريطانية، بأن يقطع الخط التلغرافي الممتد من مصر عبر الصحراء، وبأن يقوم، وهذا أهم من كل شيء، بإقناع البدو بالوقوف في صف بريطانيا.

انطلق الرجل واختفى. والخط التلغرافي ظل يعمل، وقوة الغزو البريطانية لم تتلق ما يشير إلى مصير المهمة السرية. ومع مرور الأسابيع، فازت القوات البريطانية، دون مساعدة البدو، بالسيطرة الكاملة، والخالية من أي تحد، على مصر. غير أن بالمر زال من الوجود. فالبرفسور الشهير والضابطان اللذان كانا برفقته، اختفوا بشكل غامض في قلب الصحراء.

أما تشارلز وَرَن، رائد عملية استكشاف القدس الطليعية، فلم يكن قد عاد إلى الشرق الأوسط منذ استكمال أعماله التنقيبية في عام (1870 م). وكان سبق له أن خدم بامتياز في إفريقية الجنوبية، وكان أستاذاً أول لمادة المساحة في مدرسة الهندسة العسكرية بتشَتَم لدى اندلاع حركة التمرد في مصر. ووَرَن كان قد اقترح خطة تخصه هو على وزارة الحرب لتهدئة بدو سيناء، وإن رُفضت لصالح إيفاد (البرفسور) بالمر. أما الآن فقد بات مطالباً، بإلحاح، باكتشاف ما آل إليه مصير بالمر، وبإنقاذ بعثته، إن أمكن.

في الأول من أيلول، عام (1882 م) غادر وَرَن بتشَتَم متوجهاً إلى مصر. وبعد وصوله إلى السويس، قام بتجميع المعلومات عن مسار بالمر المحتمل، ثم انطلق إلى البادية مع عدد من ضباط الصف. كان الرجل راسخ القناعة بأن البدو أخذوا بالمر رهينة بغية الحصول على فدية. ولكنه ما لبث، آخر الأمر، وبعد بضعة أيام من السفر وبعد استجواب البدو الذين التقى بهم، أن اكتشف الحقيقة البشعة؛ من الواضح أن بالمر كان قد بالغ في تقويم معرفته بالبدو؛ فبعد أن قام دليل خائن

بإيقاعه في الفخ، اغتيل هو وجميع أفراد فريقه من أجل المال الذي كان بحوزتهم.

في الثاني والعشرين من تشرين الأول، اكتشف وَرَن وفريق البحث الذي معه بقايا بالمر في واد سحيق مهجور وسط سيناء. وما من شيء كان يمكن عمله سوى إقامة كومة تذكارية من الحجارة في المكان، وإطلاق بعض عبارات الصلاة، ولَمّ ما بقي من بالمر وضباطه بعناية تمهيداً للشحن إلى إنجلترا.

في هذه الأثناء، كانت القوات البريطانية تعزز من سيطرتها على مصر. وتم استدعاء تشارلز ولسن من منصبه في آسيا الصغرى ليعمل بوصفه المفوض البريطاني المَكلف بمحاكمة عرابي باشا، وبالإشراف، جنباً إلى جنب مع وَرَن، على ملاحقة الأطراف المسؤولة عن اغتيال البرفسور بالمر واعتقالهم. ومع مرور الأيام، استسلم الدليل المسؤول عن الكمين واعترف بالجريمة. وتم استعادة حقيبة واحدة فيها ألف ليرة. ومع حلول عيد الميلاد في عام (1882 م) كان جميع المشبوهين الآخرين قد تم توقيفهم، ومحاكمتهم، وإعدامهم بحضور شيوخ جميع القبائل البدوية في سيناء ـ وفقاً لإصرار البريطانيين. عَلّق الملازم الأول كيتشنر الذي زار البلاد بعيد ذلك، بارتياح، قائلاً: «إن فعل وَرَن النشيط والحيوي على صعيد إلقاء القبض على مرتكبي الجريمة وتقديمهم للعدالة، أحدث انطباعاً بالغ العمق . . . فشبه الجزيرة كله بات الآن آمناً بالنسبة إلى المسافرين الأجانب، كما كانَ فيما مضى، إن لم يكن أكثر أمناً».

في آذار عام (1883 م) حصل تشارلز وَرَن على لقب (نايت) [فارس] ووسام حَمْلة، بالاضافة إلى جملة آيات التكريم وألقاب الشرف التي كان قد أخذها من الحكومة العثمانية من جهة والحكومة المصرية الخاضعة للسيطرة البريطانية من جهة أخرى. وعاد إلى تشَتَم، حيث استأنف وظيفته بهدوء في مدرسة الهندسة العسكرية. وقد كان من شأن عمله المستمر في خدمة الإمبراطورية البريطانية أن يوصله، آخر المطاف، إلى مواقع ومحطات بعيدة مثل بتسوانالاند وسنغافورة، وإلى قيادة المهندسين

الملكيين في عام (1905 م). ومن الغريب أن أكبر فضائحه في أعوام لاحقة ارتبطت بمحاولة أخرى لتعقب أحد القتلة، بقدر أقل من النجاح هذه المرة. فورّن كان مفوضاً رئيسياً للسكوتلانديارد أيام اغتيالات (جاك ذ ربَر) تلك القضية التي أخفقت حتى خبرته الواسعة كمحقق في حلها.

وما لبث تشارلز ولسن أن أصبح متورطاً بصورة متزايدة في الأمور الاستخباراتية. فبعد إتمامه الخدمة في مصر شارك في محاولة بُذلت لفك الحصار عن الخرطوم وإنقاذ الجنرال غوردُن. أما هوراتسيو هيربرت كيتشنر فقد عاد إلى فلسطين لفترة قصيرة في عام (1883 م) للاضطلاع بعملية مسح إضافية لصالح صندوق استكشاف فلسطين، وكان مقدراً له، أكثر من أي مستكشف سابق لدى الصندوق، أن يلعب دوراً حاسماً في صياغة السياسة الاستراتيجية البريطانية في الشرق الأوسط. وبوصفه وزير دولة لشؤون الحرب في أثناء الحرب العالمية الأولى، كان سيقوم بوضع القاعدة الأساس لأنجح وسائل الدفاع عن قناة السويس وأكثرها دواماً؛ كان سيقوم باخضاع فلسطين.

ما لبثت السلسلة الطويلة من المستكشفين العسكريين التي كانت قد بدأت قبل ما يقرب من أربعين سنة مع الملازم الأول وليم فرنسس لنتش لبثت أن انتهت؛ وكانت عملية استكشاف فلسطين ستؤول بمعظمها إلى أيد مدنية. وقد كان كل من الجيش والعلم قد أفادا من التعاون؛ فالمخططات الجغرافية والأثرية العامة لفلسطين باتت مرسومة بوضوح، وخرائط مسح فلسطين، المطبوعة على نفقة الحكومة البريطانية، كانت ستنطوي على قيمة حاسمة بعد حوالي ثلاثين سنة، لدى تجريد الحملة البريطانية الأخيرة على الأرض المقدسة.



الجزء الثالث

وانتصر العلم


http://www.al-maktabeh.com

13) مليون جنيه إسترليني:
قصة صعود مُزس شابيرا وسقوطه
(1883-1885م)

فيما كان رجال صندوق استكشاف فلسطين الشجعان يذرعون المناطق الفلسطينية الموحشة والمنسية جيئة وذهاباً مفعمين تصميماً، تدفق سيل متواصل من السياح الغربيين الأغنياء مع امتداد الدروب المطروقة بشكل أفضل، طوال العقد الثامن من القرن التاسع عشر. فمع شق طريق العربات الأولى الممتدة من يافا إلى القدس، وتحسين المواصلات البحرية بالمراكب البخارية، وإدخال الأرض المقدسة في برامج الرحلات الجماعية لشركة توماس كوك وولده، أصبحت تجارة السياحة عنصراً مهماً في اقتصاد القدس. وخلافاً لحال الحجيج اليونانيين واللاتين الفقراء، كان بحوزة السياح القادمون من إنجلترا وأوروبا وأمريكا أموال يستطيعون الاستغناء عنها. وفي أعقاب قصة (الحجر المؤابي) والدعاية الواسعة التي حظيت بها تنقيبات وَرَن في القدس، حَلُم كثيرون بتحقيق اكتشافات شخصية تهز الأرض.

وسرعان ما أدرك أهالي فلسطين الإمكانيات المالية التي ينطوي عليها هذا الولع المهووس بالآثار القديمة. فالأواني الفخارية، والقطع النقدية، والتماثيل القديمة ما لبثت أن حلّتْ محل الهدايا التذكارية الأكثر تقليدية التي درج زُوّار الأرض المقدسة على جلبها. وحيثما ذهب السياح الغربيون

في البلاد، كانوا يُحاصَرون بالآثار. وسرعان ما أدت الأسعار المرتفعة التي كان هؤلاء مستعدين لدفعها مقابل الحصول على الآثار إلى ظهور العديد من المتاجر المتخصصة بتلبية رغباتهم في القدس. ووافرت تلك المتاجر ذات الطراز الأوروبي المتحلقة حول (بركة حزقيا) لزائر القدس الثري فرصة ابتياع صور المواقع المقدسة والهدايا التذكارية المنحوتة بإتقان من خشب الزيتون، فضلاً عن مجموعة كاملة من الأواني الفخارية والقطع النقدية القديمة التي جُمعت من فلاحي البلاد مقابل قروش قليلة للقطعة ليُعاد بيعها بربح ذي شأن.

كان أحد هذه المتاجر المصطفة على جانبي شارع النصارى، وقد وصفته طبعة عام (1876 م) لفلسطين وسوريا لدار النشر بدكَر،[1] عائداً لمُرس فيلهلم شابيرا، وهو يهودي اعتنق المذهب الأنغليكاَنَي، جاء إلى فلسطين من مسقط رأسه كييف عام (1856 م) وهو في السادسة والعشرين من العمر. وكان شابيرا يشعر بأنه من طينة أرقى من جبلة العديد من بائعي الهدايا التذكارية السياحية في المدينة المقدسة لأنه كان متزوجاً شمّاسةً لوثرية ألمانية، وأحد أبناء أبرشية الكنيسة الإنجليزية، وخادماً مخلصاً للزوار الغربيين الأغنياء المترددين على متجره المدُار بعناية. وعلى الرغم من أنّ يهود القدس الأرثوذكس كانوا يحتقرونه بوصفه متسلقاً اجتماعياً ومرتداً، فإن شابيرا كان فخوراً بالشهرة التي حققها لنفسه بين أوساط الجالية الأوروبية في القدس.

لكن شابيرا كان أكثر من مجرد تاجر. فمن خلال تعاملاته بالآثار القديمة بات يعتبر نفسه من أهل الخبرة في مجال الآثار. وعن طريق صلات زوجه مع الجالية الألمانية في القدس، كان واسع الاطلاع على النتيجة المشؤومة التي تمخضت عنها محاولة شراء (الحجر المؤابي) لصالح المتحف الملكي ببرلين. ولحرصه على اجتذاب كتلة جادة من الزبائن الأوروبيين إلى حانوته، أقام شبكة علاقات فلاحية واسعة في سائر أرجاء البلاد وكان قادراً على الحصول على مؤونة ثابتة من الآثار القديمة من أفضل النوعيات. وفي عام (1873 م) جلب أحد مزوّدي شابيرا المترددين عليه بين الحين والآخر، ويدعى سليم الغاري، إلى المتجر مجموعة أكثر أهمية من أي

شيء سبق لشابيرا أن رآه من قبل. ومجموعة سليم، التي قيل إن البدو عثروا عليها في المنطقة التي تم فيها الكشف عن (الحجر المؤابي) نفسها، اشتملت على عشرات الأواني الفخارية، وتماثيل الحيوانات، والتماثيل النصفية الحجرية السليمة. وخلافاً لحال الأواني الخزفية القديمة التي كانت تصل عادة إلى يد شابيرا، كان العديد من هذه القطع منقوشاً بأحرف قديمة تكاد أن تتطابق مع نظيرتها التي وُجدت على (الحجر المؤابي). ومجموعة هذا شأنها كانت أكثر أهمية من أن تُباع للسياح. وبالاعتماد على تأكيد سليم على إمكانية الحصول على المزيد من الأواني الخزفية والتماثيل بأسعار مناسبة من المصدر ذاته، طرح شابيرا على القنصل الألماني فكرة احتمال حصوله على هذه البضاعة لصالح المتحف الملكي.

وكما كان شابيرا قد أمل، فإن البروسيين انقضّوا بشغف على الفرصة المتاحة لغسل العار الذي لحق بهم في قضية (الحجر المؤابي). ما لبثت (أواني) شابيرا (الخزفية المؤابية) أن أحدثت، وبسرعة، ضجة في كل من القدس والعالم البحثي. فحاوية آثار مُوَضّبَة داخل القش بعناية بعد أخرى شُحنت إلى برلين، حيث عكف الباحثون الألمان على دراسة الكتابات المنقوشة، ونشروا النتائج التي توصلوا إليها في عشرات المقالات الأكاديمية. والتماثيل الغريبة، الخارقة غالباً، المثيرة جنسياً أحياناً، جرى التهليل لها على أنها صور قديمة شبيهة بآلهة المؤابيين، وبات كل من شابيرا والقنصل الألماني في القدس، غارقين في بحر اهتمام أوساط العلم والمعرفة.

خلال هذه الفترة، كان صندوق استكشاف فلسطين مبتلياً بفيض من المشكلات. فمسح فلسطين الغربية، وهو ما يزال في مراحله الأولى، أوقف مؤقتاً جراء البرداء. وفيما كان النقيب كُندر والرجال الآخرون يتعافون من المرض في القدس، سمعوا بالتقارير الدائرة حول الأواني الخزفية المؤابية. فقام كُندر وتيرويت ـ دريك، بزيارة متجر شابيرا لرؤية الآثار بنفسيهما. وبعد ذلك، قاما، بعد استئذان السلطات البروسية، بأخذ الرسوم ونسخ بعض الكتابات المنقوشة لإرسالها إلى صندوق استكشاف فلسطين

بلندن. وعلى الرغم من أن الألمان حصروا المجموعة بأيديهم بكثير من الحرص، مبعدين البريطانيين عملياً، فإن كُندر عبّر عن تأييده القوي لصحتها. غير أن تيرويت ـ دريك ظل متشككاً وأبلغ كُندر سراً، عن أنه كان قد سمع شائعات عن بعض التنقيبات المشبوهة الجارية في مؤاب، ملمحاً إلى أنها كانت مصدر آثار شابيرا.

أما شابيرا فقد اعتبر مثل هذا الانتقاد مدسوساً ونتاج الغيرة الخالصة من جانب البريطانيين. ولدحض تهمة التنقيبات الزائفة، قام شخصياً باصطحاب القنصل الألماني والقس فِزَر[2] من الإرسالية اللوثرية إلى شرق الأردن ليريا بنفسيهما موقع اللقَية. وفي هذه الأثناء، كان شابيرا نفسه يرعى التنقيبات هناك، وتوصل الألمانيان، بعد مشاهدة عدد من الأواني قيد الاستخراج، إلى استنتاج يقول بأن الأواني الخزفية المؤابية كانت أصيلة حقاً. ومثل هذا التأييد ما لبث أن استجر تدفقاً أغزر من الآثار القديمة من مؤاب على ذكان شابيرا في القدس، مع أعداد إضافية كثيرة حملت النقوش المؤابية ذات القيمة العالية بنظر الباحثين الألمان.

في كانون الأول من عام (1873 م) عاد شارل كليرمون- غانو إلى القدس للقيام بمسح خاص لآثار المدينة القديمة لصالح صندوق استكشاف فلسطين. وبوصفه الطرف الرئيس في مسرحية (الحجر المؤابي) الدرامية، اعتبر نفسه، بطبيعة الحال، خبيراً بالموضوع. ومنذ لحظة سماعه عن اكتشاف الأواني الفخارية المؤابية للمرة الأولى، أعارها ما هو أكثر من مجرد اهتمام عابر. وكانت أيات التوتر بين كليرمون- غانو والبروسيين ما تزال على حالها؛ وبالتالي لم تُتح للشاب الفرنسي حتى فرصة معاينة الأواني إلا عبر وساطة تيرويت ـ دريك. وهذه المعاينة الخاضعة للإشراف الدقيق تحت أعين شابيرا والبروسيين المتشككة لم تفعل شيئاً باتجاه دفع كليرمون ـ غانو نحو تغيير رأيه. لقد كان، من البداية، مقتنعاً بأنها مزورة. وعلى الرغم من أن أشياء كثيرة كان يتعين عملها في أبحاثه لصالح صندوق استكشاف فلسطين، فقد قضى كليرمون ـ غانو الأسابيع القليلة الأخيرة من عام (1873 م) عازماً على البرهنة، بل ومهووساً بتقديم البراهين، على أن الأواني الخزفية المؤابية لم تكن أكثر من خدعة.

وفي غضون أيام استطاع كليرمون ـ غانو أن يتوصل إلى معرفة المصدر الدقيق لمجموعة شابيرا. فبعد الحصول ـ عن طريق الملاطفة والتملق، على اعتراف صانع أحد الخزافين ممن شاركوا في تنفيذ الخطة، واجه القنصل البروسي بما يثبت أن الأواني كانت قد صُنعت في القدس تحت الإشراف الصارم لسليم الغاري بالذات. وقد تبين أن سليم كان قد اتصل بكليرمون ـ غانو قبل بضع سنوات عارضاً عليه تأمين (الحجر المؤابي). وكما لو كان يريد إقناع كليرمون ـ غانو بمدى جدارته بالثقة، قدم له نُسَخَه هو لبعض أحرف الحجر. ولكن كليرمون ـ غانو رفض عرض سليم، لأنه كان، حتى آنذاك، يعرفه فناناً محلياً مولعاً بابتداع أيقونات (قديمة) لبيعها إلى الحجاج. ولدى ملاحظته وجود وجه شبه مثير للشبهة بين الأحرف المنقوشة على (الأواني الخزفية المؤابية) ورسومات سليم المنسوخة، بادر سراً إلى تعقب تحركات سليم بطريقة تسلل رشيقة تليق بجهاز التحري الفكتوري.

من الطبيعي إن القنصل الألماني صُعق لدى سماع اتهامات كليرمون ـ غانو. وفي استجواب خاص دافع سليم دفاعاً شرساً عن شرفه وأمانته، وقام الصانع بسحب اعترافاته السابقة أمام كليرمون ـ غانو، زاعماً أنها فُرضت عليه عنوة. وبأمر من الباشا جرى تفتيش بيت سليم ـ ولكن أي أثر لتصنيع الأواني الخزفية، لم يُعثر عليه. ومع حلول شباط عام (1874 م) دخلت القضية في طريق مسدود. ومع بقاء مشكلة الشهادات المتناقضة دون حل، باتت قضية (مجموعة شابيرا) كلها مغلّفة بضباب كثيف من الشكوك. صحيح أن شابيرا دافع بقوة عن قدم الأواني الخزفية، مدعوماً من باحث كتابي ألماني مرموق هو البرفسور كونستانتين شلتّمن،[3] غير أن اتجاه الموج كان قد تغير. فقد ثارت في البرلمان البروسي نقاشات بالغة الحدة حول هوية ذلك الذي كان مسؤولاً عن تخصيص مبلغ سبعين ألف تالر[4] [واحدها طالر، نقد جرماني فضي توالى صدوره من القرن 15 إلى القرن 19] الذي كان قد جرى إنفاقه على (الأواني الخزفية المؤابية) وكان من الواضح أن بروسيا قد كانت تعرضت مرة أخرى للإهانة في سعيها من أجل الفوز بالشرف عبر ابتياع آثار كتابية.



رسم ساخر عن قصة شابيرا

على الرغم من أن كليرمون ـ غانو لم يورط شابيرا، فيما عدا اتهامه بالسذاجة، في عملية تزوير الأواني الخزفية، فإن الأخير أحس بأن شرفه كان قد تلطخ من قبل الفرنسي الطموح. صحيح أنه عاد إلى عمله الروتيني في متجره في حارة النصارى، غير أنه ظل يتطلع إلى اكتشاف آخر قد يمكنه من استعادة اسمه وسمعته في الأوساط البحثية الأوروبية العليا. فمكانته في الجالية الأنغليكانية المقدسية، المهزوزة دائماً جراء أصوله اليهودية والأوروبية الشرقية، تعرضت لقدر كبير من النسف والتدمير. وما من شيء كان يستطيع أن يمكنه من استعادة مكانته التي هو جدير بها في المجتمع، سوى تمكنه من الاهتداء إلى لُقية أثرية ذات أهمية عظيمة.

وفي صيف (1877 م) حين كانت قضية الأواني الخزفية المؤابية قد نُسيت إلى هذا الحد أو ذاك، عثر مُزس شابيرا، أخيراً، على ما كان يبحث

عنه. ففي تموز من ذلك العام، كما جاء في رواية شابيرا نفسه للقصة لاحقاً، زاره في متجره المقدسي عدد من شيوخ البدو ممن سبق له أن تعامل معهم في (تنقيباته) غير الموفقة في مؤاب. وحسب ما يتذكر شابيرا، فإن الشيوخ لم يأتوا إلا للمجاملة، ولكن الحديث ما لبث، تحت تأثير البضاعة المعروضة للبيع في الواجهات الزجاجية المحيطة بهم من كل جانب، دون شك، أن عرّج، بسرعة، على موضوع الآثار القديمة. ومما قاله أحد هؤلاء الشيوخ إن بيع الآثار القديمة للأوربيين إن هو إلا حماقة من جانب العرب، لا لعدم حصولهم على ما يكفي من المال، بل لأن الآثار القديمة انطوت على رُقى قوية جالبة للحظ لمن يملكها. وقد تذكر هذا الشيخ، في الحقيقة، أن أحد أفراد عشيرته بالذات كان، في أثناء الحملة العثمانية على بدو مؤاب في عام (1867 م) قد اكتشف بعض الآثار فيما كان مختبئاً في أحد الكهوف، وقد فتحت أمامه باب السعد واسعاً. وهذه اللقى لم تكن إلا قطعاً جلدية مسودّة من الرق عليها أحرف غير مقروءة ملفوفة بقطعة قماش من الكتان. وعلى الفور أحس شابيرا بأهمية هذه اللقية. وكانت المنطقة التي وصفها هي موقع (الحجر المؤابي) نفسه. أثار احتمال العثور على مخطوطات قديمة شابيرا، فسأله عما إذا كان يستطيع الاتصال بالرجل الذي ورد ذكره في القصة. ومقابل ترتيب لقاء بعد بضعة أيام وافق الشيخ على مبلغ صغير من المال.

أما الظروف التي أحاطت بلقاء شابيرا مع الرجل، الذي لم يُعْرَف عنه سوى أنه يدعى (سالم) فقد ظلت ملفوفة بالغموض. من المفترض أن اللقاء الأول تم تحت جنح الظلام في أطراف القدس. وفي تلك المرة استلم شابيرا قطعة صغيرة من الرق عليها أربعة أعمدة مكتوبة. وخلال الأسابيع التالية جرى تنظيم ثلاثة لقاءات أخرى؛ ومع حلول نهاية شهر آب كان شابيرا قد ابتاع خمسة عشر شريطاً من الرق من البدوي اللُّغْز. وفي هذه الأثناء تقريباً توفي الشيخ البدوي، صلة الوصل الأصلية، ففقد شابيرا إمكانية الاتصال بـ(سالم) كلياً. وعاجزاً عن الحصول على المزيد من قطع الرق. انسحب شابيرا إلى غرفة هادئة فوق متجره وعكف على فك رموز المخطوطات الغريبة التي باتت بحوزته.

كان شكل أحرف المخطوطة شبيه تماماً بنظيرتها على (الحجر المؤابي). غير أن شرائط الرق كانت للأسف، مغلفة بطبقة سوداء سميكة تفوح منها رائحة الإسفلت، وكان تمييز الأحرف المنفردة بالغ الصعوبة. ومع أن شابيرا لم يكن دارساً ذا خبرة للغة العبرية، فإنه ما لبث، بعد تحمله مشاق نسخ النص الموجود على الشرائط، ومقارنته بمختلف النصوص الكتابية، أن أصيب بقدر متزايد من الانبهار والدهشة إزاء ما عثر عليه. فهناك على الشرائط الخمس عشرة من قطع الرق المسودة التي تفوح منها روائح خاصة والتي كان قد اشتراها بما لا يزيد عن بضعة شلنات، كانت ترقد نسخة قديمة من سفر التثنية وكانت أشكال الأحرف شديدة الشبه بأشكال أحرف (الحجر المؤابي) التي كان شابيرا يعلم أنها عائدة إلى القرن التاسع قبل الميلاد، بما يرجح احتمال أن تكون هذه اللقية أقدم المخطوطات الكتابية التي تم العثور عليها حتى ذلك التاريخ. وإذا كان العلماء الكتابيون في أوروبا يبحثون عن برهان ملموس يؤكد قدم النصوص الكتابية الحديثة وأصالتها، فها هي ذي.

وبكثير من العناية قام شابيرا بنسخ حرفي لـ (سفر التثنية المؤابي) الموجود بحوزته، وأرسلها مع نسخ من الشرائط نفسها إلى البرفسور شلُتْمن في برلين. من الواضح أنه كان يأمل في أن يكون أقوى المدافعين عنه في قضية الأواني أشد تعاطفاً، هذه المرة، مع اكتشاف أعظم.

ولكن الوقاحة التي أبداها شابيرا حين اتصل به مرة أخرى بعد الإهانة التي كان قد سببها له، أثارت غضب شلُتْمن الذي ردّ قائلاً إن الرقائق القديمة كانت زائفة بصورة واضحة. فأوجه الاختلاف عن النص التقليدي كانت صارخة بما يجعل مزاعم شابيرا بشأنها مثيرة للسخرية، إن لم تكن تجديفية. وبروسيا ما كانت لتسمح لنفسها بأن تقع ضحية الخداع والتضليل مرة أخرى في فلسطين؛ وبالتالي أبرق شلُتْمن إلى القنصل الألماني بالقدس، البارون فون مُنشهاوزن[5] صاحب الاسم المنطوي على قدر من المفارقة، طالباً منه أن يمنع شابيرا من عرض رقائقه "القديمة" أو حتى الإعلان عنها أمام الملأ.

مؤقتاً على الأقل، بدا شابيرا مسلّماً بالاستنتاج الذي توصل إليه شلُتْمن، فسَطّر رسالة نادمة مررها إلى الدكتور تشارلز ريو،(6) مسؤول المخطوطات الشرقية في المتحف البريطاني، الذي سبق أن كان قد راسله، قائلاً إنه علم، للأسف، أن الوثائق كانت زائفة، وبالتالي كان يتعين على ريو أن يكف عن الاهتمام بالمسألة. غير أنه من الواضح أن شابيرا لم يتخل عن بعض الأمل في احتمال أن تكون الرقائق أصيلة بالفعل. وبانتظار الفرصة المناسبة قام شابيرا الذي عاد إلى عمله في إدارة متجره المزدهر في شارع المسيحيين، بإيداع لفائف الرق المسودة في قبو أحد البنوك المقدسية. ولها أن تنتظر هناك.

منذ قصة (الحجر المؤابي) المهينة، كان غياب شابيرا عن القدس ولأشهر كل مرة قد تكرر. فقد درج على التحرر من قيود المجتمع المتحضر الذي كان قد تبناه تاركاً متجره لمستخدميه تحت الإشراف المتشدد لزوجه البروسية، مسافراً بالمركب البخاري أولاً، وعلى الجمال والخيل بعد ذلك، إلى الأقاليم البعيدة من شبه الجزيرة العربية والبحر الأحمر. وفي خلال زياراته للجاليات اليهودية البدائية البعيدة في اليمن كان شابيرا يشتري رقائق كتابية مهملة ويجلبها معه إلى القدس. وفي بعض الأحيان كان يستطيع الحصول على مخطوطات تصل أعمارها إلى مئات السنين، وقد اهتدى إلى سوق جاهزة لتصريفها لدى متخصصي الدراسات العبرية القرون أوسطية في الجامعات الأوروبية. والطلب كان عالياً بشكل خاص في إنجلترا، لأن المتحف البريطاني كان قد اعترف حديثاً بمجموعة المخطوطات العبرية، وكان شابيرا قد باع العشرات من كتبه اليمنية لتلك المؤسسة الموقرة. وبالفعل فإن سرور شابيرا بارتباطه بلندن كان بالغاً حتى أنه علّقَ تحت لوحة دكانه لوحة صغيرة عليها عبارة (مراسل المتحف البريطاني).

مالبث الاتجار بالرقائق القديمة أن أتاح لشابيرا فرصة اكتساب الخبرة في فن تصنيع الرقائق، ولاسيما مع الأشكال المتغيرة للأحرف مع دوران القرون، والتغيير لم يبق مقتصراً على الأحرف بل تجاوزها إلى النص نفسه. وإذا كان باحثون ألمان معينون على صواب، فإن النص الحالي للكتاب لم يكن بالفعل سوى تجميع المؤلفات السابقة لعدد من المؤلفين

المختلفين الذين يمكن تمييز مساهماتهم بأسماء الرب المتباينة التي استخدموها. وكانت رقائق شابيرا، فيما عدا المقاطع الافتتاحية والختامية، تستخدم اسم إلوهيم حصراً. وبعد قراءته كتاب [مقدمة فريدريش بليك للعهد القديم][7] اقتنع شابيرا بأن رقائقه كانت من صنع طائفة (إيلوهية) مبكرة فعلاً، وربما كان ذلك مسؤولاً عن النص الغريب لـ(سفر التثنية المؤابي)ما لبث أن تذكر شابيرا أن أساس حكم البرفسور شلُتْمن على رقائقه بأنها زائفة كان أوجه اختلافها عن النص الكتابي الحديث؛ ولربما كان (سفر التثنية المؤابي) طبعة أكثر قدماً فعلاً لذلك الكتاب، وبالتالي أكثر قيمة مما سبق له أن تصور.

مع حلول ربيع عام (1883 م) كان مُرِس شابيرا قد أصبح مهووساً تماماً بمعاينة رقائقه القديمة وترجمتها. فبعد اخراجها من مأمن قبو البنك، أعد غرفة خاصة فوق متجره يمكنه الانسحاب إليها من جلبة الشارع والاستغراق بالدراسة الجادة المتأنية. وحسب كلامه فيما بعد، فإن شابيرا سرعان ما بدأ يرى الأخطاء في ترجمته السابقة للبرفسور شلُتْمن، وما لبث، شيئاً فشيئاً، أن شرع يضفي شيئاً من المعنى على الفقرات الأكثر غموضاً. وكان اتّجاره برقائق الكتاب اليمنية أكسبه قدراً كبيراً من الخبرة في النسخ، وباتت المشكلات التي كان قد واجهها في عام (1878 م) لدى ترجمته الأولى للرقائق المؤابية، الآن مرئية بوضوح.

ولكن وضع الشرائط الجلدية الخمسة عشر كان، للأسف، قد تدهور في الأعوام الفاصلة. وقد كانت مغطاة بطبقة رقيقة من الإسفلت حين رآها للمرة الأولى، والعديد منها كان قد زاد سواداً؛ حتى أن تحديد أشكال بعض الأحرف كان قد أصبح شبه مستحيل. وقد زعم شابيرا أن غَطْس الشرائط أو بلها بالماء أو الكحول كان يجعل الأحرف مرئية مؤقتاً، غير أن هذه العملية كان يتعين تكرارها مرة بعد أخرى في سبيل نسخ بعض أجزاء النص. والبلل المتكرر للجلد العتيق أدى إلى المزيد من السواد، ولكن نصه المعاد بناؤه ما لبث، شيئاً فشيئاً، أن أخذ يبدو متماسكاً.

ومع حلول عيد الفصح في عام (1883 م) كان شابيرا قد أنهى ترجمته الجديدة، وبات مقتنعاً أكثر من ذي قبل، بأن اللفافة كانت أصيلة. فجميع

المشكلات النصية في سفر التثنية التي سبق لها أن أقضّتْ مضاجع الباحثين كانت غائبة عن هذه الطبعة من الكتاب. والأماكن الجغرافية لم تكن ملتبسة، وخبر وفاة موسى لم تكن واردة، والنص كله كان مكتوباً بالأبجدية القديمة الأصلية. وإذا لم يكن مكتوباً من قبل موسى نفسه، فقد انطوى، حسب اعتقاد شابيرا، على مرجعية تأليف موسوي. لقد فَكّ موسى جديداً من القدس لغز رسالة موسى في سنوات التيه القديم.

في ربيع عام (1883 م) قام شابيرا بعرض لفائفه، جنباً إلى جنب مع ترجمته الجديدة، على البرفسور شرودر، القنصل الألماني ببيروت الذي تصادف أن كان في القدس. وهذا لم يكن إلا بالون اختبار لأن شابيرا لم يرد أن يواجه توبيخاً آخر مثل الذي كان قد تلقاه من شلْتمن قبل خمس سنوات. ومما غمر شابيرا بالسرور أن الأهمية الجلية للاكتشاف أثارت قدراً كبيراً من دهشة القنصل الذي اقتنع بأن الرقائق كانت أصلية تماماً. وبالتالي فإن الضوء الذي يمكنها أن تسلطه على تطور الكتاب كان لا يقدر بثمن. وعرض شرودر مبلغاً كبيراً لشراء الشرائط الخمسة عشر راغباً في أن يقدمها، شخصياً، إلى عالم الباحثين المتخصصين.

غير أن شابيرا رفض بلباقة عرض القنصل السخي. فقد كان قد أنفق كثيراً من وقته وضحى بقدر كبير من سمعته في سبيل الحصول على الشرائط وترجمتها مما جعل تخليه عنها بالبيع، كما لو كان تاجر آثار قديمة عادياً، أمراً متعذراً. فشابيرا كان قد بدأ يظن نفسه باحثاً متخصصاً بالدراسات العبرية من نوعية خاصة، وآن له أن يُثبت للعالم أن من حقه أن يعامَل كذلك. كان مصمماً على ألا يتعرض مرة أخرى للسخرية بوصفه يهودياً سابقاً مغفلاً راح ضحية خداع بدوي مؤاب جراء شرهه لبيع (الآثار الكتابية). فموسى شابيرا كان عازماً على ترك متجره في حارة النصارى واصطحاب الشرائط إلى أوروبا بنفسه، كطرف فاعل، لا كضحية، في المسعى الأوروبي العظيم الهادف إلى الكشف عن أسرار الكتاب.

وما إن تلقى شابيرا ما يؤكد صحة شرائطه، إبان ذلك الربيع الحافل بالأحداث لعام (1883 م) حتى بدأت آفاق عظيمة تنفتح أمام مستقبله. ففي أحاديثه النشوى معه حول قيمة النصوص، اقترح البرفسور شرودر

عرض القضية مباشرة على القيصر لضمان جمع الأموال الكافية لشراء النصوص لصالح المتحف الملكي. وراح شابيرا يعتبر نفسه شخصية كبيرة جداً، متوقعاً الثروة التي من شأن الشرائط أن تجلبها له. فبادر إلى شراء قصر حجري كبير محاط بالحدائق خارج أسوار المدينة لعائلته، ووظف مديراً للمتجر، وتحرر من هموم حياة من ليس أكثر من صاحب متجر.

وفي أثناء زيارة القنصل الألماني، فُتنَت السيدة شرودر بابنة شابيرا الكبرى إليزابيت واقترحت عليها، بتحفظ، الزواج من ابنها الموجود في برلين. وفكرة تزويج إليزابيت من أحد أفراد عائلة رائعة من العائلات البروسية المثقفة دغدغت مشاعر شابيرا بقوة، ولكن زوجه نبهت السيدة شرودر إلى أن العائلة لم تكن حالياً تملك، ببساطة، أي مهر ملائم لاتمام عملية خطبة ابنتها. ولكن زوج القنصل، كما قالت رواية لاحقة، طمأنت الشماسة اللوثرية الصارمة مؤكدة لها على أن ما سيتمخض عنه بيع مخطوطة سفر التثنية إلى الحكومة الألمانية لن يلبث أن يستأصل تلك المشكلة من جذورها.

وفي تموز، بعد إرسال إليزابيت إلى برلين بصحبة حميها المهيبة، استعد شابيرا نفسه للسفر إلى ألمانيا. فقد اعتزم أن يأخذ صوراً ضوئية مناسبة للشرائط، كما رتب، بمساعدة شرودر، لقاء لعرض الوثائق القديمة في جامعة لايبزيغ. وحين وصل إلى برلين قام شابيرا بتقديم الوثائق إلى لجنة خبراء برئاسة البرفسور ريتشارد لبْسْيُس،[8] مسؤول المكتبة الملكية، والشخص الذي يملك سلطة الموافقة على شراء سفر التثنية المؤابي. اجتمعت اللجنة خلف أبواب مغلقة بعد ظهر اليوم العاشر من شهر تموز، فيما بقي شابيرا نفسه منتظراً بصبر خارج الغرفة. وبعد ساعة ونصف الساعة من المناقشات والمداولات خرج الباحثون من الغرفة في رتل، صامتين بوجوه عابسة، وإن ألمحوا لشابيرا بأن المسألة كانت ما تزال قيد الدراسة الدقيقة.

أما شابيرا المالك لمثل هذه الثروة الطائلة فلم يكن لديه وقت يضيعه مع البروسيين المتعجرفين. فبانتظار رد رسمي من المكتبة الملكية، أخذ مخطوطاته إلى جامعة لايبزيغ حيث أثار اهتمام الباحث الشهير هِرمن غيته[9] بأهميتها.

وبالاستناد إلى دراسة لفافته سارع غيته إلى نشر كراس بعنوان: **فراغمنته آينر لدَرهاند شرفْت، إنْتهَلْتند موزيسز لتسته رده آن كيندر إسرءيل**[10] **[مقتطَفات مخطوطة جلديَة، تتضمن خَطبة مَوسى الأخيرة إلى بني إسرءيل]**. وأخيراً دخل اكتشاف شابيرا العظيم رسمياً عالم البحث الأكاديمي. كتب شابيرا عن الاستقبال الذي كان قد لقيه في ألمانيا رسائل نشوى أرسلها إلى القدس، وبقدْر مفرط من التفاؤل عبّر عن أمله في أن باحثي المكتبة الملكية لن يتأخروًا في التوصل إلى اتفاق معه.

ولكن أية أنباء أخرى لم تصل، للأسف، من برلين. فالأساتذة هناك، غير متأثرين، على مايبدو، بـ"الاكتشاف العظيم" لشابيرا، كانوا قد بدؤوا ينصرفون إلى قضاء عطلتهم الصيفية، تاركين القرار النهائي بشأن اللفائف إلى أجل لاحق. والبرفسور شرودر كان ما يزال أقوى مؤيدي شابيرا وقد ألح عليه أن يتحمل مثل هذه الحماقة، فشرودر كان ما يزال راسخ القناعة بأن من شأن الرقائق أن تجلب ثروة عظيمة، ونصح شابيرا بالبحث عن مكان آخر إذا كان الباحثون البروسيون ضيقي الأفق وعاجزين عن حيازة الآثار العظيمة تكريماً لشرف الأمة. أضف إلى ذلك أن حما المستقبل لابنه كان قادراً على الحصول على أي ثمن يريده لمخطوطاته.

ومع حلول منتصف تموز أحس شابيرا بأنه كان قد انتظر مدة كافية للحصول على جواب من برلين. وتحت تأثير الإلحاح القوي للبرفسور شرودر حزم شرائطه الخمسة عشر من الرقائق المسودة بعناية، وتوجه إلى إنجلترا، حيث بدا متأكداً من أنه كان سيحظى بالتكريم والمكافأة اللذين استحقهما.

ودونما إنذار أو حتى تقديم، ظهر مُرَس شابيرا في مكاتب صندوق ستكشاف فلسطين بلندن صباح العشرين من تموز عام (1883 م). ودُعي أمين السر والتر بزَنت[11] المستغرق، دون شك، في فبركة رواية رومنطيقية جديدة ما (كتب ونشر العشرات منها) إلى استقبال الزائر الغامض. وفي اللقاء أعلن شابيرا بهدوء «أنه كان قد جلب إلى إنجلترا مخطوطة، ستكون، في حال ثبوت أصالتها، ذات قيمة يتعذر تقديرها، بوصفها ما ليس أقل من

نص سفر التثنية، كُتب على جلد ضأن، بأحرف شديدة الشبه بنظيرتها الموجودة على (الحجر المؤابي) مع تنويعات كثيرة وبالغة الأهمية». ومع أن شابيرا رفض إطلاع بزنت على المخطوطات نفسها، فإنه رتب للقاء لاحق، حيث كان سيقوم بعرضها في حضور النقيب كُندر، القائد السابق لعملية مسح فلسطين الغربية.

كان كُندر أحد أقوى مؤيدي شابيرا في قضية الأواني الخزفية المؤابية الزائفة، ومن الواضح أن الأخير توقع أُذُناً متعاطفة. ولكن كُندر عبّر، لدى اطلاعه على اللفائف التي عاد بها شابيرا إلى مكاتب صندوق استكشاف فلسطين في الموعد المحدد بعد بضعة أيام، عن شكوك مرعبة حول صحة اكتشاف شابيرا المزعوم؛ فقد راوده الشك في إمكانية بقاء مثل هذه اللفائف القديمة على حالها (في مناخ رطب كمناخ فلسطين) فضلاً عن أنه لم يكن قط قد سمع أي كلام من البدو المحليين عن اكتشاف وثائق مكتوبة في سائر أسفاره إلى مؤاب. غير أن كُندر اعترف دون مواربة بأنه لم يكن باحثاً متخصصاً بالدراسات العبرية واقترح أن يقوم الدكتور كريستيان ديفيد غِنْسبرغ[12]من المتحف البريطاني بمعاينة الوثائق.

وبعد انتظار يومين مثقلين بالقلق عاد شابيرا في السادس والعشرين من تموز إلى مكاتب صندوق استكشاف فلسطين بعصبية مفهومة. وعلى الرغم من أنه كان قد أوصى كلاً من بزَنت وكُندر تحديداً بإبقاء نبأ لقاءاته معهما مكتوماً، فإنه ما إن وصلَ إلى العرض الرسمي لـ(سفر التثنية الموسوي) حتى صُعق إذ وجد أن الحضور لم يكن مقتصراً على بزَنت وكُندر وغِنْسبرغ فقط بل واشتمل على جميع موظفي قسم المخطوطات في المتحف البريطاني تقريباً.

لم يكن ثمة أي مجال للتراجع، فقام شابيرا بتسليم قطعه وانسحب إلى مكتب خارجي فيما عكف الباحثون الإنجليز على فحص الشرائط الخمسة عشر المسودة. ولابد أن الوضع بدا منذراً بالشؤم مثل نظيره الذي كان قد تجلى في المكتبة الملكية ببرلين، غير أن خاتمته كانت مختلفة كلياً. فالباحثون كانوا حقاً مندهشين إزاء لفائف شابيرا والترتيبات يجب اتخاذها بسرعة لشرائها لصالح المتحف البريطاني، كما قيل لشابيرا،

وبعد الحصول على إذنه كانوا سيعرضونها فوراً. فأحد الباحثين الحضور علق قائلاً: «هذا أحد الأشياء القليلة التي لا يمكن أن تكون مزورة أو زائفة».

وفي الثالث من آب أعلنت رسالة كريستيان ديفيد غنْسبرغ في جريدة التايمز اللندنية رسمياً عن الحيازة الوشيكة للّفافات وقدّمَت ترجمة موجزة لمحتوياتها. وسرعان ما لحقت الصحف الأخرى إلى التقاط القصة. وما لبث موضوع "أقدم كتاب مقدس في العالم" أن أصبح على ألسنة سائر فئات المجتمع اللندني. وفيما قامت صحيفة إلّسترتِد لَنْدَن نيوز [أخبار لندن المصورة][13] بنشر صورتين لاثنتين من اللفائَف، تدفقت الحشود على المتحف البريطاني لرؤية الوثائق القديمة بنفسها. فَعَمَل صندوق استكشاف فلسطين في الأرض المقدسة قد كان أثار اهتماماً كبيراً بالآثار القديمة ذات العلاقة بالكتاب. وفي غضون الأسابيع القليلة الأولى من شهر آب، عام (1883 م) وصل ذلك الاهتمام إلى ذروة محمومة. وراحت التقارير تتحدث عن أن شابيرا كان قد طلب مليوناً من الجنيهات ثمناً للفائف، وأن الملكة فكتوريا نفسها كانت قد وافقت على ضمان ذلك المبلغ الضخم. وجاء رئيس الوزراء غلادستون، شخصياً، إلى المتحف البريطاني ليلقي نظرة على المخطوطات، وأبدى في حديثه مع شابيرا، كما قالت التقارير، اهتماماً كبيراً بالآثار الكتابية كما أظهر أنه على معرفة بها.

صار مُزس فيلهلم شابيرا نجماً ساطعاً في لندن. ومع تسرب التقارير عن نجاحه العظيم في القدس، اتخذت عائلته وضعية العائلة ذائعة الشهرة، ولو دون احترام فعلي، بين أعضاء الجالية الأنغليكانية. والتشغيل اليومي للدكان الصغير في حارة النصارى ما لبث أن تضاءل من حيث الأهمية فيما يخص وجود العائلة. فزوج شابيرا راحت تنفق بطيش وتهور، وراح التجار يعرضون سُلَفاً غير محدودة على عائلة تاجر الآثار العظيم الذي لن يلبث أن يصبح وبسرعة صاحب مليون من الجنيهات الإسترلينية.

أما شارل كليرمون ـ غانو فقد كانت عنده خطط أخرى بالنسبة إلى شابيرا لشابيرا. ففي الخامس عشر من آب، وفي زحمة الاحتفال والابتهاج

بشراء المتحف البريطاني الوشيك لـ"الكتاب المقدس الأقدم في العالم" وصل بهدوء إلى لندن مزوداً بتوجيهات وزير التعليم العام الفرنسي، حيث كان مكلفاً بمعاينة المخطوطات معاينة دقيقة وإبلاغ باريس بما يتوصل إليه من استنتاجات. وكليرمون ـ غانو لم يعد ذلك الشاب المتهور الباحث عن الشهرة؛ ففي هذه المرة كان باحثاً متميزاً ذا باع طويل، وتوقع، واثقاً، أن مكانته في علم الآثار الكتابية العالمي، ستؤمن له كل المجاملة والاحترام في معاينته للفائف.

حتى قبل الوصول إلى لندن، راودت كليرمون ـ غانو شكوك جدية حول صحة مخطوطات شابيرا، ناتجة، دون شك، عن لقاءه السابق مع شابيرا في أثناء قضية الأواني الخزفية المؤابية. وهو لم يكن وحده في هذا الإحساس لأن باحثَين بريطانيين مرموقين، هما الأستاذ أدولف نُيوْبَاوَر[14] وآرتشيبالد هنري سايس،[15] قد كانا حكما، في وقت مبكر يعود إلى الثالث عشر من آب، بزيف اللفائف، في مجلة **أكاديمي**[16] الموقرة. ولكن الجمهور العريض المستثار بالكتابات الوصفية المستفيضة التي تناولت قيمة (سفر التثنية المؤابي) والمبتهج إزاء أن يصبح "الكتاب الأقدم في العالم" عما قريب، بحوزة الإمبراطورية البريطانية العظيمة، تغافل عن الغمغمات الغاضبة الصادرة عن الباحثين مسدودي الأفق. أما كليرمون ـ غانو فقد كان مقتنعاً بأنهما على صواب، وعازماً على إثبات ذلك.

توجه كليرمون ـ غانو، ودون أن يضيع أي وقت، إلى قسم المخطوطات في المتحف البريطاني. وهناك وجد كلاً من غنْسبرغ وشابيرا عاكفين على بضعة شرائط جلدية، غارقين في تأمل النص القَديم. ووصول الفرنسي ما لبث أن شحن الجو بالتوتر لأن شابيرا وغنْسبرغ، كانا قد تعرضا للإذلال على يديه: شابيرا في قضية الأواني الخزَفيةَ، وغنْسبرغ في مسألة (الحجر المؤابي). وفي البداية كان الأخير متردداً إزاء مجرد السماح لكليرمون ـ غانو بمعاينة القطع، ولكن الأخير أكد له أنه لم يكن، شخصياً، عازماً على نشر النص. وواعداً بأنه أراد فقط أن يعاين (الحالة الخارجية والمادية للقطع) تمكن من إلقاء نظرة على لفافتين أو ثلاث من الرقائق

قبل قيام غِنْسبِرغ بالإعلان عن أن كليرمون ـ غانو كان سيتعين عليه أن يعود في غَضون يومين لاستئناف معاينته، بعد التشاور مع شابيرا.

ولدى وصوله يوم الجمعة أُبلغ كليرمون ـ غانو، بجفاء واقتضاب، من قبل أحد صغار موظفي المتحف بأنه لن يُسمح له بمعاينة اللّفافات حسب الوعد. وكان هذا تنفيذاً لتوجيهات مباشرة من السيد شابيرا الذي كان ما يزال المالك القانوني. ولكن كليرمون- غانو أبى أن يبتلع هذه الإهانة التي لحقت بسمعته الأكاديمية. وشاقاً طريقه بصعوبة بين زحمة حشود نهاية الاسبوع المتدفقة على صالة العرض، أمضى كليرمون ـ غانو يومي الجمعة والسبت واقفاً أمام الصندوق الزجاجي الذي عُرض فيه بضعة شرائط، والدفتر بيده. وعصر يوم السبت عاد كليرمون ـ غانو إلى مسكنه ليقوم بتجميع استنتاجاته التي بادر، فوراً، إلى إرسالها إلى التايمز اللندنية على شكل رسالة مفتوحة.

ساداً الباب على أي تردد أو نقاش، كتب كليرمون ـ غانو يقول: «إن القطع هي من صنع مزوّر حديث». ففي الفترة الزمنية الوجيزة التي تمكن فيها من التعامل مع الأشرطة الجلدية، توصل إلى استنتاج يقول بأنها كانت مقصوصة من الهوامش السفلية للفائف جلدية أكبر، شبيهة تماماً باللفائف الكتابية التي كان شابيرا قد حصل عليها وباعها للمتحف البريطاني. وكبرهان حاسم على صحة ما أكده، قام كليرمون ـ غانو بوصف وجود أسطر رأسية منقوشة بالقرب من طرف كل عامود من أعمدة المخطوطة. وهذه الخطوط الرأسية الرائدة كانت اعتيادية في اللفائف الكتابية الكبيرة، لأنها حددت الهوامش الرأسية للكتابة. ولكن جامع (سفر التثنية المؤابي) أغفل هذه الخطوط بصورة كاملة، حيث الأحرف تجاوزتها على الطرفين. وبرأي كليرمون ـ غانو كان على سلطات المتحف البريطاني أن تبادر، بدلاً من الاندفاع بحماس نحو شراء الآثار، إلى وضعها إزاء الهوامش السفلية للفائف التي سبق لها أن ابتاعتها من شابيرا. وفي حال قيامها بذلك، «فإن الخدعة ستتكشف بوضوح أمام أعينها» كما أكد كليرمون ـ غانو لها.

وكصفعة أخيرة للباحثين البريطانيين على سذاجتهم وسرعة تصديقهم، تطوع كليرمون ـ غانو، بسخرية واضحة، لإنجاز الاختبار لصالح المتحف البريطاني، إذ كتب يقول: «أعطوني لفافة عائدة إلى أحد الكنس، يتراوح عمرها بين القرنين والثلاثة، مع السماح لي بتقطيعها، وأنا أتعهد بالحصول منها على شرائط تشبه الشرائط المؤابيّة من جميع النواحي، وبالكتابة عليها بأحرف قديمة نص سفر اللاويين ، مثلاً، أو سفر العدد. ومن شأن ذلك أن يشكل ذيلاً ملائماً لسفر تثنية اشتراع السيد شابيرا، ولكنه سيكون متميزاً عنه قليلاً جراء عدم انطوائه على تكلفة تصل إلى مليون من الجنيهات الإسترلينية».

وهكذا فإن رسالة كليرمون ـ غانو إلى التايمز اللندنية ما لبثت أن ثَقَبَتْ، بفظاظة، فقاعة التيه المحيطة بـ"الكتاب المقدس الأقدم في العالم". فالعديد من الباحثين الذين كانوا في البداية قد صدقوا بأن لفائف شابيرا كانت أصيلة سارعو الآن إلى إغراق فكرة (سفر التثنية الموسوي) في بحر من الاحتقار. فالنقيب كندر اندفع إلى نشر تصريح قال فيه إنه كان على الدوام يعتقد بأن المخطوطات إن هي إلا: «تزويرات متعمدة». وفي ظل الضجيج اللاحق جرى تعليق مفاوضات شراء الشرائط بهدوء. أما شابيرا فقد ظل في لندن غير فاقد الأمل في أن يؤدي قرار كريستيان غِنْسبرغ الأخير إلى إسكات جميع المنتقدين.

ولكن موجة السخرية كانت أكبر من قدرة غِنْسبرغ على المقاومة، فبادر إلى نقض تصريحاته السابقة، في بيانه الرسميّ الصادر في عدد (22) آب من صحيفة التايمزـ قائلاً: إن «مخطوطة سفر التثنية التي قدمها السيد شابيرا لنا من أجل المعاينة زائفة». وحاذياً حذو كليرمون- غانو في النقاش، زعم أن الأشرطة كانت مقصوصة من لفائف أكبر، ومتقدماً خطوة إضافية، لاحظ وجه شبه بين الرق وبين هوامش لفافة يمنية سبق لشابيرا أن باعها للمتحف البريطاني في عام (1878 م) وهو العام الذي كان شابيرا قد زعم أنه حصل فيه على مخطوطة سفر التثنية نفسه. وبعد إضافة بينة الخطوط الرأسية المنقوشة، والمعالجة الكيميائية الواضحة لسطح الرق لجعله يبدو أكثر قتامة، قام باستنفار الخيال الاستخباراتي لشيرلوك هولمز ليستنتج،

استناداً إلى الخط والأخطاء الإملائية المختلفة للنص العبري، «أن هناك ما لا يقل عن أربعة أو خمسة أشخاص تورطوا في إنجاز عملية التزوير» وأضاف، بقَدْر من الشؤم، «أن جامع النص كان يهودياً بولونياً، أو روسياً، أو ألمانياً، أو شخصاً تعلم العبرية في شمال أوروبا».

ارتدّتْ هذه الشتيمة المضمرة الأخيرة على من أطلقها، لأن كريستيان غنْسبرغ كان نفسه يهودياً اعتنق المذهب الأنغليكاني. والصحافة البريطانية قَامتَ عملياً، انطلاقاً من الإحساس بوجود نوع من المؤامرة، باستخدام رمز التاجر اليهودي الماكر الساعي إلى خداع جمهور بريطاني بريء لا يعرف معنى الشك والريبة. ففي لوحة كاريكاتورية نشرتها مجلة بَنْتْش[17] في الثامن من أيلول، جرى تصوير غنْسبرغ الباحث وهو يخنق شابيرا ذا الأنف المعقوف والعينين المراوغتَينِ الخداعتين أمام الواجهة المهيبة للمتحف البريطاني. والعبارة الواردة تحت اللوحة تقول فيما تقول: «. . . كيف قام التحري غنْسبرغ بسلخ جلد «'شارب ـ آي ـ را'»[18] [ذي العين الحادة]». وما إن أَسَرَتْ الوثائقُ خيالَ الجمهور حتى أصبح الرجلان موضع سخرية أوروبا مرة أخرى. كان شارل كليرمون ـ غانو قد انتصر في الصحافة الجماهيرية، وما من مرة كانت الرهانات على هذا المستوى من الارتفاع.

في اليوم التالي لإعلان غنْسبرغ الرسمي والاختفاء المفاجيء للشرائط الجلدية من صناديقها الزجّاجية في قسم المخطوطات، وصلت رسالة خرُبِشَتْ بعجالة إلى المتحف البريطاني، هذا نصها:

لندن في 1883/8/23م

الدكتور غنسبورغ العزيز

لقد خدعتني إذ نشرت وعرضت أشياء تعتقد بأنها زائفة. لا أظن أنني سأتمكن من الاستمرار في العيش بعد هذا العار، على الرغم من أنني لست مقتنعاً، بعدُ، بأن المخطوطة زائفة، ما لم يكن السيد غانو قد فعلها.

سأغادر لندن خلال يوم أو اثنين إلى برلين.

مع تمنياتي القلبية

م. ف. شابيرا[19]

ما من أحد كان قد جُرح جرحاً أعمق من شابيرا نفسه في القضية القذرة كلها. فاليزابيت ظلت تنتظر مهرها في ألمانيا، والعائلة غرقت في بحر من الديون هناك في القدس، وحُلم شابيرا الخاص بالمجد الأثري كان قد تحطم تحت وطأة وخزات الشعور بالذّنب. ومع ذلك فإن احتمال قيام شابيرا بمحاولة الترويج لشيء مزور وزائف فبركه بنفسه، يبدو، لدى النظر إلى الوراء، أمراً يكاد أن يكون تصوره متعذراً؛ فسمعته كانت قد تلطخت جراء اتهامات بالتزوير، والسعر الخيالي الذي طلبه ثمناً للأثر والاهتمام الجماهيري الذي شجع عليه، لم يكونا من صنع فنان مخادع وكاذب، ومن غير المحتمل أن يكون شابيرا ممتلكاً الخبرة اللازمة لـ"توضيب" وثيقة مقنعة ظاهرياً مثل لفافة سفر التثنية. انطلق شابيرا إلى أوروبا متمسكاً بقناعته بأن لفائفه كانت أصيلة، آملاً في بيعها لمن كان يعرض سعراً محترماً، أياً كان. ورحيله كان على عجل؛ فقد ترك في غرفته بالفندق جزءاً كبيراً من أمتعته فضلاً عن العلب الملفوفة بورق الهدايا المتضمنة هدايا ثمينة كان قد أعدها، على ما يبدو، ليأخذها معه إلى القدس.

ولكن الوضع كان ميئوساً منه. فالضجة الإعلامية الكبرى، في كل من إنجلترا وأوروبا على حد سواء، كانت جميع الشارين المحتملين حذرين. والباحثون في ألمانيا الذين سبق لهم أن حضروا جلسة التقويم في تموز باتوا الآن يعلنون للملأ أنهم كانوا قد امتنعوا عن إعلام شابيرا بتلك الحقيقة. ومن الطبيعي أن تم طرح السؤال: لماذا لم يقم الألمان بتنبيه البريطانيين إلى استنتاجاتهم فيما كانت اللفائف ما تزال قيد الدراسة من جانب المتحف البريطاني. ولكن هذه المماحكة ما لبثت أن ضاعت في زحمة أمواج الاتهامات والاتهامات المضادة التي ترددت أصداؤها في الصحافة العالمية.

مع انقضاء الشتاء الطويل البارد بتثاقل، هام شابيرا في أرجاء أوروبا على وجهه دونما هدف فيما كانت آماله وحالته الصحية تتدهوران بسرعة. أما عائلته فقد غرقت في بحر من الديون ولم يعد لها أي أمل في النجاة. وإليزابيت كانت قد أُعيدت من ألمانيا بعد إلغاء زواجها المحتمل في ضوء تعرض أبيها للمهانة. و(سفر التثنية المؤابي) غير القابل للبيع لم يعد يثير إلا السخرية والاحتقار. وفي ربيع عام (1884 م) وصل شابيرا

إلى روتردام. فمن ذلك الميناء الأوروبي العظيم كانت البواخر تبحر إلى جميع زوايا العالم. ولو بقيت عنده ذرة أمل أو احترام لنفسه لكان من المحتمل أن يبادر شابيرا إلى الانطلاق بحثاً عن أسواق جديدة لمخطوطاته؛ لو كان شابيرا ذلك المتآمر الماكر الموصوف في الصحافة، لربما كان قد عاد إلى القدس للشروع بالتخطيط مرة أخرى. غير أن المهانة كانت أثقل من أن تطاق. وفي التاسع من آذار، عام (1884 م) أقدم مُزس فلهلم شابيرا الوحيد في فندق متداع حقير، على الانتحار باطلاق النار على نفسه واضعاً بذلك حداً نهائياً لقضية (سفر التثنية المؤابي).

في عام (1885 م) بيعت لفائف شابيرا الجلدية بالمزاد في لندن بعشرة جنيهات. وبعد عامين عُرضت كنوادر طريفة في (معرض تاريخي إنجليزي - يهودي) في دار العرض الملكية المعروفة باسم رويال آلبرت هول، وبيعت لاحقاً مرة أخرى بخمسة وعشرين جنيهاً. ومع مرور السنين، تحول اهتمام الجمهور إلى مسائل ونوادر أخرى. أما مخطوطات شابيرا فما لبثت، آخر المطاف، أن غابت عن أنظار الجمهور واختفت.

وفي عام (1947 م) صُعقت الأوساط الأكاديمية البحثية وأصيبت بالذهول إزاء اكتشاف لفائف البحر الميت، في مكان يقع إلى الشرق مباشرة من البحر الميت حيث قيل إن (سفر التثنية المؤابي) كان موجوداً. وأصالة تلك اللفائف وقدَمُها ما لبثا أن دحضا الزعم الذي أطلقه كندر بقدر كبير من الاصرار والقائل باستحالة بقاء أية لفائف قديمة سليمة في فلسطين. وبين مجموعات الكتابات المتضمنة في لفائف البحر الميت كانت ثمة أنواع مألوفة من النصوص الكتابية، عدد من نسخ سفر التثنية، بما فيها بعض الوثائق المشتملة على أحرف عبرية قديمة. ولعل وجود خطوط رأسية منقوشة على أطراف اللفائف الأكبر حجماً كان الأكثر دلالة من كل شيء. فكل بينة استخدمها منتقدوا شابيرا للهجوم على صحة شرائطه الجلدية كانت قابلة للتطبيق على لفائف البحر الميت - ومع ذلك فإنها كانت حقيقية. غير أن أحداً لم يحاول أن يعيد طرح القضية بصورة رسمية. فشابيرا مات وشبع موتاً منذ زمن طويل، وكانت لفائفه الثمينة قد تلاشت بصورة غامضة وإلى الأبد.



14) بلوغ سن الرشد:
اتجاهات ومبادرات جديدة في علم الآثار الكتابي
(1886-1897م)

مع حلول منتصف العقد التاسع من القرن التاسع عشر، كانت التقنيات المتطورة لعلم الآثار الحديث قد حققت بعض النجاحات المثيرة في كل من اليونان ومصر وآسيا الصغرى. فبعد قيامه بأعمال التنقيب في المواقع القديمة لمدينتي طروادة ومقينيه،[1] كان هاينريش شْليمَن[2] قد أظهر أن البحث الأثري قادر فعلاً على إكمال النصوص والتَواريخ القديمة بدلاً من مجرد تأكيد صحتها أو دحضها. ولدى تنقيبه عن طروادة الهوميروسية عند تلة حصارليق[3] بآسيا الصغرى، كان شْليمَن قد كشف عن سبع طبقات سَكَن، لا واحدة، والآثار والمخططات المَعمارية التي استعادها من كل منها أضافت أشياء كثيرة إلى فهم العالم الحديث للحضارات التي سبقت زمن الملحمة الهوميروسية وأعقبته. والمعاني التي انطوت عليها هذه التقنية الجديدة لم تَفُتْ أعضاء صندوق استكشاف فلسطين حين عقدوا اجتماعهم السنوي الحادي والعشرين في عام (1886 م). وعلم الآثار الكتابية، الذي كان ما يزال يعاني من عواقب قضية شابيرا، كان بحاجة ماسة إلى مبادرة جريئة جديدة. والسير تشارلز ولْسُن الذي مُنح لقب فارس لتوه رأى «أن حَذْوَ بعض أثرياء إنجلترا حَذْوَ الدكتور شليمَن» وتطبيق أحدث مناهج التنقيب العلمي على موقع كتابي منتقى بشكل خاص، كان صحيحاً وحتمياً.

منذ البدايات الأولى لعملية استكشاف الأرض المقدسة، كان وجود التلال القديمة في سائر أرجاء البلاد ملحوظاً ولكن الأمر تم التغافل عنه إلى حد كبير. ولم يتضح أن التلال الفلسطينية كانت بالفعل بقايا وأطلال مدن قديمة رفعتها عمليات تدميرها وإعادة بنائها المتعاقبة إلى أشكالها المميزة النموذجية، إلا بفضل العمل الريادي الطليعي الذي قام به شْليمَن على تلة حصارليق. والعديد من التلال الفلسطينية حملت أسماء تَذكّر بالمواقع الكتابية؛ ولإمكانية العثور عليها في أماكن بعيدة نسبياً من البلاد، فقد استطاعت أن توافر لصندوق استكشاف فلسطين فرصة القيام بأعمال تنقيب موسعة دون الملابسات السياسية التي واجهها وَرَن في مدينة القدس المزدحمة. والأهم من ذلك هو أن التنقيب الدقيق لطبقات أية تلة فلسطينية كان من شأنه أن يقدم الدليل العلمي الأول على تطور الحضارة الكتابية.

كان المكان الذي وقع عليه الاختيار لاستئناف جهود صندوق استكشاف فلسطين في الأرض المقدسة مرتَفَعاً يعرف باسم خربة عجلان، يقع إلى الشرق من غزة، في منطقة مراع قليلة الكثافة السكانية. وبسبب موقعها العام وتسميتها الحديثة فإن خربة عجلان هذه اعتُبرت، تجريبياً، متماهية مع المدينة الكنعانية (عجلون) التي كان يشوع والقبائل العبرية قد أخضعوها وضموها لاحقاً إلى مملكة يهوذا. صحيح أن آفاق الاكتشافات المهمة هناك كانت مشرقة، ولكن صندوق استكشاف فلسطين اضطر، للبحث عن قائد بعثة خارج صفوفه، لأن تقنيات التنقيب الحديثة التي كان لابد من الإفادة منها لم يسبق لها قط أن جُربت في فلسطين.

وبعد قدر غير قليل من النقاش والتفاوض، استقر رأي اللجنة التنفيذية أخيراً على وليم ماتيوفليندرز بتري،[4] عالم الآثار البريطاني الذي كان يعمل في مصر منذ عام (1880 م) والبالغ السادسة والثلاثين من العمر. كان بتري بارعاً في إدارة وتوجيه طواقم كبيرة من عمال الحفر المجندين محلياً، غير أن ما ميزه حقاً في أعين أعضاء صندوق استكشاف فلسطين كان متمثلاً بشهرته كمجدد في ميدان البحوث الأثرية. ففي مصر كان بتري قد أدرك قيمة الأواني الخزفية على صعيد تحديد تواريخ البقايا

وابتدع تأريخاً تفصيلياً لتطور أعم أشكال الأواني الخزفية. كما حفزته آفاق احتمال الربط بين تأريخه المصري وبين نظيره في فلسطين الجنوبية المجاورة حَفَزَتْه بشكل واضح فوافق دون تردد على الاضطلاع بتجربة صندوق استكشاف فلسطين الأولى في مجال التنقيب العلمي. وبمساعدة كل من ماركيز سالزبوري ووزارة الخارجية البريطانية تمكن صندوق استكشاف فلسطين من استصدار فرمان رسمي يجيز ارسال بعثة إلى خربة عجلان، فانطلق بتري من مصر في ربيع عام (1890 م).

غير أن فليندرز بتري ما لبث، لدى وصوله إلى فلسطين، أن صُعق إزاء مدى قلة ما كان معروفاً فعلاً عن الآثار القديمة في البلاد. فتحديد تواريخ الآثار ظل أمراً عشوائياً بشكل كليٍّ والدليل التأريخي الرئيسي كان ما يزال متمثلاً بالكتاب [المقدس] نفسه، وما من أية محاولة منهجية كانت قد بُذلت لربط اللقى الفلسطينية بمواقع قديمة أخرى في الشرق الأوسط. أما البرهان على هذا الجهل المحزن فقد تمثل باختيار خربة عجلان بالذات موقعاً للتنقيب. فالأشكال المميزة لقطع الأواني الخزفية المبعثرة عبر القمة أنبأت بتري بأن الموقع لم يكن مأهولاً حتى قبل الفترة الرومانية، ناهيك عن عدم كونه مدينة عجلون الكتابية.

ولحسن الحظ فإن الفرمان المتضمن السماح بالتنقيب شمل مواقع قديمة أخرى قريبة، وبادر بتري، على الفور، إلى الانطلاق للبحث عن ساحات صيد أكثر وعداً. وصحيح أن جدارا [أم قيس] أثبتت أنها، هي الأخرى، متأخرة، غير أن بتري، ما إن وصل إلى مرتفع آخر قريب من أحد الوديان السحيقة يدعى تل حاسي، حتى أدرك أنه كان قد اهتدى إلى ما كان هو نفسه وصندوق استكشاف فلسطين يريدانه تماماً. وفي أسابيع التنقيب الستة التالية، قام بتوجيه عشرات العمال العرب من القرى المجاورة في عمليات إزاحة كميات كبيرة من الأتربة والرماد والأنقاض، حتى بات قادراً على التعرف على بقايا إحدى عشرة بلدة متعاقبة، شيدت كل منها فوق أطلال سلفها، تعود إلى قرون فيما قبل الخروج.

وفي تل حاسي تم تأسيس الإطار العلمي الأول لدراسة الحضارة الفلسطينية القديمة. فقد تمكن بتري من تحديد تسلسل زمني (تأريخ)

للنماذج الخزفية التي تم العثور عليها في كل من الطبقات، والتي كانت متناظرة مع أوان خزفية مماثلة سبق له أن نقبها في مصر. ولكنه لم يخيب آمال أعضاء صندوق استكشاف فلسطين في بحثهم عن آثار كتابية؛ ففضلاً عن التعرف على أوان خزفية "عمُّورية" في البداية، و"يهوذية" فيما بعد، خاطر وقال إن تل حاسي لم يكن إلا بلدة <لخيش> الكتابية، التي غزاها وأخضعها الآشوريون والبابليون. صحيح أن هذا التحديد لم يكن صحيحاً، كما ثبت فيما بعد، ولكن أهمية إنجازه الأثري كانت جلية وغير قابلة للدحض، إذ كان قد أخرج علم الآثار الفلسطيني من دائرة الدراسات الكتابية الخالصة وبدأ يوفق بين الآثار القديمة الفلسطينية والإطار الحضاري الشامل للشرق الأوسط القديم.

لم يكن فليندرز بتري يشبه أياً من مستكشفي صندوق استكشاف فلسطين السابقين. فانطلاقاً من اعتياده على الأجواء الاستعمارية الهادئة في مصر القابعة تحت الاحتلال، أصر على أن تُقَدّم له وجبات طعامه في خيمته عند موقع التنقيب على مائدة من خشب الماهوغاني الفاخر، وعلى أن يجري ملء مكان إقامته بالأواني المصنوعة من الفضة الخالصة. ومتحكماً بجلبة العمل النشيط، مراقباً وموجهاً للتلة كلها كان سيداً على العمال الخاضعين لأوامره. أما فيما وراء حدود معسكره التنقيبي في فلسطين، فقد كان مضطراً لمواجهة واقع مختلف جداً. فبعد اختتام الفصل الأول من أعمال التنقيب في الأول من حزيران، عام (1890 م) هاجمته عصابة لصوص قرب الخليل وسلبته ما كان معه من متاع. وعلى الرغم من أن الحدث لم يفض إلا إلى إلحاق أذى بالغ بكبريائه، فإنه ألح بغضب على نائب ـ القنصل البريطاني في القدس طالباً اعتقال أولئك الذين اعتدوا عليه وإيداعهم السجن. وبعد ذلك عاد إلى إنجلترا وقدّم استقالته إلى صندوق استكشاف فلسطين. وعلى الرغم من أنه كان شديد الرغبة في متابعة تقديم المشورة للصندوق حول مشروعاته، فقد أراد أن يعود إلى عمله الخاص في مصر. فتل حاسي، وفلسطين كلها بالفعل، بدت له مكاناً بغيضاً جداً للعمل. وفي الحقيقة كان لابد من مرور أكثر من ثلاثين سنة ومن حصول تغيير في الحكومة حتى يقتنع بتغيير وجهة نظره والعودة إلى تلال الأرض المقدسة.

غير أن قراره أدى، في الوقت نفسه، إلى وضع اللجنة التنفيذية لصندوق استكشاف فلسطين في موقف صعب. فمع بقاء ما يزيد عن سنة ونصف على انتهاء مفعول الفرمان، وأعمال التنقيب في تل حاسي في بدايتها، كان الصندوق بحاجة إلى خدمات عالم آثار ذي خبرة قادر على التكيف بسرعة مع ظروف العمل في فلسطين، ومتمتع بالمؤهلات الأكاديمية اللازمة لجعل ذلك العمل متناسباً مع المعايير العلمية الجديدة. ومع حلول كانون الأول اهتدت اللجنة التنفيذية للصندوق إلى الرجل المناسب الذي كان أمريكياً في الحادية والثلاثين من العمر يدعى فريدريك جونز بلس،[5] ابن رئيس الكلية التبشيرية الأمريكية ببيروت، والذي بدت خلفيته ملائمة تماماً للمهمة المطروحة. فبلس قد كان وُلد في المشرق، وكان يتكلم اللغة العربية بطلاقة، ويحمل شهادات من كلية أمهرست و[معهد اللاهوت الاتحادي].[6] كما سبق له أن أنجز عملية استكشاف مستقلة للأرض المقدسة بين عامي (1888 و1890 م) حيث نشر نتائج عمله في [نشرة صندوق استكشاف فلسطين الفصلية].[7]

وبعد تعيينه رسمياً (مستكشفاً للصندوق) تم إرسال بلس إلى مصر حيث أمضى شهر كانون الثاني من عام (1891 م) مع بتَري عند هرم مَدُوم، عاكفاً على تعلم فنون التنقيب من سلفه، وإن لم يتبن، كما هو واضح، أسلوبه الشخصي المتحذلق. وغارقاً في نزعته المحافظة المتجهمة والعلمية المستمدة، دون شك، من تربيته التبشيرية المتزمتة، بقي بلس عازباً طوال حياته. أما موقفه من أهالي البلاد، ومن عمله الأثري الخاص، فقد كان في الحقيقة شديد الاختلاف عن موقف بتري، واتسم استئناف أعمال التنقيب في تل حاسي تحت قيادته بالصبر والمواظبة والعمل الشاق أكثر من اتصافه بالتجديد والعبقرية.

وفي غضون العام التالي قام بلس بحفر أجزاء من المرتفع إلى عمق يزيد عن عشرين قدماً، محدّداً تخومَ عدد من المباني العامة والتحصينات، ومستخرجاً كميات كبيرة من الأواني الخزفية "العمورية" التي كان بتري قد تعرفها للمرة الأولى. وعمل بلس لم يكن، بأكثريته، سوى نوع من توسيع وتأكيد استنتاجات بتري الأوَلية، ولكنه ما لبث أن كوفىء باكتشاف مهم خاص به قبل اثني عشر يوماً من انتهاء مفعول فرمان السماح بالتنقيب.

فتحت طبقة من الرماد دالة على تدمير إحدى المدن الكنعانية المتأخرة، عثر أحد العمال العرب على لوح صغير منقوش وجده بلس فوراً شبيهاً بالألواح المسمارية التي كان قد تم اكتشافها مؤخراً في تل العمارنة بمصر والعائدة إلى القرن الرابع عشر قبل الميلاد. وهذه اللقية قدمت تاريخاً دقيقاً للطبقة التي اكتُشفت فيها، بما أدى إلى تهذيب تأريخ بتري الأولي للطبقات السابقة واللاحقة من التلة. غير أن القيمة الأكثر أهمية للوح تل حاسي كانت متمثلة بالضوء الذي ألقته على التاريخ الثقافي، الحضاري للموقع؛ كان اللوح رسالة رسمية موجهة إلى إداريي حامية مصرية في العصر البرونزي المتأخر، كان دليلاً واضحاً على هيمنة مصر السياسية على دول المدن الكنعانية.

ما لبث اكتشاف بلس أن أثار هياجاً فورياً في لندن. فللمرة الأولى ساهم تنقيب علمي في فلسطين في توسيع نطاق التاريخ، لا الكتابي فقط، بل العلماني. وعلى الرغم من التغيير غير المتوقع لقادة البعثة، بقي توجه صندوق استكشاف فلسطين الجديد على حاله، بل وازدهر. فالعلم، لا الإيمان الكتابي، بات الآن، على ما بدا، مفتاح كشف النقاب عن ماضي فلسطين.

وفي القدس كان النشاط الأثري لمختلف الجاليات الأجنبية ما يزال مطبوعاً بدمغة الهواجس الدينية والسياسية. فـ[الجمعية الأرثوذكسية الروسية في فلسطين][8] قامت بأعمال التنقيب في ممتلكاتها القريبة من كنيسة المهد. وثمة دراسات إضافية كانت تتم من قبل الدومينيكان الفرنسيين عند موقع كنيستهم الجديدة إلى الشمال من المدينة، على أيدي الأوغسطينيين بالقرب من ديرهم على جبل صهيون، ومن قبل القساوسة البيض[9] عند بوابة القديس اسطفان، وعلى يدي القس صلاح مريل، المستكشف السابق لصالح [جمعية استكشاف فلسطين الأمريكية][10] سيئة الحظ، الذي كان الآن قنصلاً للولايات المتحدة في القدس، في أي مكان يستطيع الوصول إليه. فالحماس لـ"الآثار الكتابية" كان ما يزال متدفقاً بغزارة. وعلى الرغم من التقدم العلمي الملحوظ الذي حققه صندوق استكشاف فلسطين في تل حاسي، فإن اهتمام الجمهور العام في إنجلترا وأوروبا وأمريكا ظل مشدوداً إلى أفق اكتشاف أوابد ذات مغزى ديني.

أما الدافع وراء الكثير من أعمال الحفر والتنقيب في القدس فكان كامناً في مسألة صحة المواقع المقدسة التقليدية المعلقة. والتنقيبات الروسية بالقرب من كنيسة القيامة، خصوصاً، كانت قد أعادت إثارة هذه المسألة الحساسة. فتحت إشراف مهندس سويسري المولد ومراسل غير متفرغ لنشرة صندوق استكشاف فلسطين الربعية يدعى كونراد شيك،[11] كشفت الحفريات عن قطع أعمدة رخامية كبيرة وسُلّم عملاق مرتبط، على ما يبدو، بالباسيليقا القسطنطينية الأصلية العائدة للقرن الرابع الميلادي في المكان. وما هو أهم من ذلك أن شيك اعتقد أنه كان قد ميز بقايا سور مدينة قديمة إلى الشرق، بما قد يشي بأن الموقع كان بالفعل خارج المدينة في عهد يسوع، وهي حقيقة اعترض عليها نقاد بروتستانت منذ أيام روبنسن.

وعَمَلُ شيك الأثري لصالح [الجمعية الأرثوذكسية الروسية بفلسطين] أكسبه وساماً من القيصر ألكسندر الثالث من جهة، ومعارضة متأججة، كما هو متوقع، من جانب بعض الباحثين البروتستانت من جهة ثانية. فالزيادة الدرامية المثيرة لأعداد الحجاج الروس إلى الأرض المقدسة، بتمويل الحكومة القيصرية في الغالب، اعتمدت جزئياً على إيمان راسخ لا يقبل النقاش بأصالة كنيسة القيامة. والتهمة الآن كانت متمثلة بإساءة استخدام علم الآثار والحفريات الأثرية لأغراض سياسية.

أما الخلل الرئيس في وجهة النظر البروتستانتية فقد كان متمثلاً بالإخفاق في طرح موقع بديل مقنع لكنيسة القيامة. صحيح أن كلود كُندر كان قد ساق عدداً من الاحتمالات الممكنة في عام (1873 م) حين كشف عن بضعة قبور إلى الشمال من أسوار المدينة، ولكن جميع المواقع المقترحة للقبر الحقيقي ليسوع بقيت مجرد افتراضات بحثية لا أكثر. هكذا كان الوضع عندما قام الجنرال تشارلز غوردن بزيارة القدس في عام (1883 م).

كان غوردن قد أضحى شخصية شهيرة في الإمبراطورية البريطانية نسجت الصحافة الشعبية كثيراً من قصص البطولة الخيالية حولها جراء نجاحاتها في إخماد حركة تايبينغ التمردية في الصين (مما أكسبها لقب غوردن

"الصيني") كما في القضاء على تجارة الرقيق في السودان. واهتمامات غوردن الخاصة تضمنت التأملات الصوفية والدراسات الكتابية. وفي أثناء زيارته للقدسّ اندفع إلى قلب المعركة الدائرة حول الأماكن المقدسة بحماس نموذجي. والشكل التضريسي للقدس كان، كما بات مقتنعاً، شكل جسد امرأة. وكـ"رأس" لهذا الجسد حدد تلة بارزة إلى الشمال مباشرة من بوابة دمشق. ولكن "رأس" القدس سرعان ما أصبح "جمجمتها" فيما كان غوردن الغارق هو نفسه في مسألة قبر يسوع، يحاول أن يشبّه التلة بموقع الجلجلة الفعلي، مكان الصلب الذي يكاد اسمه الآرامي أن يعني (مكان الجمجمة). وبالقرب من ذلك الموقع عثر غوردن على لحد منحوت في الصخر توافرت فيه جميع شروط وصف الكتاب المقدس لقبر يسوع: خارج المدينة، بالقرب من مرتفع على (شكل تلة) ومحاط بأضرحة أخرى. والأنباء عن قابلية نظرية الجنرال للتصديق ما لبثت أن انتشرت وكسبت العديد من المؤيدين الذين كان صلاح مريل، قنصل الولايات المتحدة في المدينة، من أكثرهم حماساً لها.

وإثر سقوط الخرطوم بعد عامين حيث ذُبح هو وحاميته كلها، جرى تكريس تشارلز غوردن بوصفه أحد شهداء القضية الإمبريالية البريطانية. وباتت نظرياته حول القدس غارقة في الحمى الدينية والوطنية التي أحاطت بذكراه. فالقبر الذي رأى احتمال كونه القبر الحقيقي ليسوع أصبح شيئاً أشبه بمزار بروتستانتي. ولاحظ شيك أن إحدى السيدات الإنجليزيات، قامت شخصياً بتنظيف القبر القديم وغسله وأمضت الليل داخله. ولم يتردد الإنجيلي الجذاب الشخصية دوايت مودي[12] حتى في إقامة قداديس البعث قربه. وحين عُرضت الأرض التي ضمت القبر للبيع من قبل مالكها المحلي تم في لندن تشكيل لجنة مهمتها شراء الموقع والحفاظ عليه، مهما بلغت التكاليف.

نشرت صحيفة التايمز اللندنية نداءات لجنة بستان قبر السيّد المسيح،[13] كما أصبحت تعرف، في رسائل خلال شهر أيلول، عام (1892 م) وقد أثار وظهور هذه النداءات انتقادات قوية من جانب مسؤولي صندوق استكشاف فلسطين وأعضائه. فموقف تشارلز وِلْسُن من اللجنة كان قائماً

على الازدراء والترفع؛ وهو شخصياً كان يعتقد بأن الموقع التقليدي لكنيسة القيامة ربما كان هو الصحيح، وسخر من سذاجة أولئك المسيحيين المتنورين المزعومين الذين كانوا يشعرون بالحاجة إلى إقامة مزارات متنافسة خاصة بهم في القدس. ومما قاله، على أية حال، إن المبلغ الذي تم جمعه لشراء قبر الحديقة (وهو أضعاف السعر الفعلي في السوق كما قيل) كان من الأفضل إنفاقه على دعم أعمال الحفر في تل حاسي.

ومع ذلك، وبصرف النظر عن انتقاد ولْسُن، فإن قَدْراً من الاهتمام بالتحديد الصارم لأماكن الأوابد الهامة ظَل مستمراً حتى لدى أعضاء صندوق استكشاف فلسطين. فمنذ سنوات عديدة كان نقاش حاد مستمراً في التأجج حول "مدينة داود" والقبور الملكية للملوك العبرانيين الأصلية. ورأى قس أنغليكاني من هواة الآثار القديمة يدعى جورج سانت كلير،(14) أن مدينة القدس الأقدم كانت قد شيدت على التلة الجنوبية الغربية، "جبل صهيون" التقليدي، وهناك تم دفن ملوك العبرانيين. لكن رئيس أساقفة مانتشستر وأمين سر فرع الصندوق هناك، و. ر. بيرتش،(15) عارض وجهة سانت كلير بشدة، باعتبارها شديدة الاختلاف عن وجهة نظره هو. فبيرتش هذا كان مؤمناً بأن مدينة الملك داود الأصلية كانت قد بنيت على السفح المنحدر إلى الجنوب من جبل الهيكل، وبأن الموقع التقليدي لقبر داود على جبل صهيون لم يكن، مثله مثل كنيسة القيامة، إلا ابتداعاً لاحقاً.

وعلى امتداد الأعوام الأولى من عقد تسعينيات القرن التاسع عشر خاض الرجلان معركة كلامية طويلة على صفحات [نشرة صندوق استكشاف فلسطين الربعية] وكل منهما يدحض آراء الآخر باقتباسات كتابية ونظريات تضريسية متزايدة النخبوية بصورة مضطردة. وما لبث هذا الجدل بينهما أن أعاد مرة أخرى إثارة المسألة العاطفية المتمثلة بمدى صحة المزارات التقليدية. ومع حلول شهر تموز من عام (1891 م) كان النزاع قد بلغ حداً من الشراسة، وكان دفاع سانت كلير عن وجهات نظره التقليدية قد بات صارخاً، حتى جرى استبعاده من منصب أحد المحاضرين الرسميين لدى الصندوق.

لكن القس بيرتش أصر، حتى بعد انتصاره المعنوي، على اختبار نظرياته. فقد بدا مقتنعاً بأن بقايا المدينة التي شادها الملك داود، بل وربما حتى القبور الملكية، يمكن العثور عليها على السفوح الجنوبية للمدينة شريطة تحديد امتداد السور الجنوبي القديم وتعقبه. وبما أن الموقع المقترح كان بعيداً عن المباني الدينية داخل المدينة، فقد بدا أن أية معارضة محلية لأعمال التنقيب ربما لن تظهر. ونظراً لأن فريدريك بلس كان، في الوقت نفسه، قد أبلغ اللجنة التنفيذية أن من غير المجدي القيام بمزيد من أعمال التنقيب في تل حاسي، فإن طريق العودة إلى القدس بدت ممهدة ومفتوحة. ما من ألواح مسمارية أخرى كانت قد اكتشفت في التل، والتلاوة الجافة لقصص مستويات التدمير وأشكال الأواني الخزفية المنطوية على قيمة كبيرة على صعيد تطور (الآثاريات) العلمية لم تعد بعد الآن قادرة على إثارة اهتمام الجمهور العام. أما الاهتمام المتجدد بالقدس، وبأصدائه المتعلقة بالكبرياء القومية والكرامة الطائفية، فلم يكن مرشحاً لأن يتلاشى ببساطة، في الجهة المقابلة.

مع قيامه بالإعلان رسمياً عن اختتام أعمال التنقيب في تل حاسي، في نيسان عام (1893 م) أبلغ صندوق استكشاف فلسطين أعضاءه أنه كان قد قدم طلباً إلى القسطنطينية للحصول على (فرمان يجيز التنقيب في مكان آخر). وبعد أقل من سنة كان أولئك الأعضاء أنفسهم قد ابتهجوا حين علموا أن فرماناً خاصاً بالقدس مدته سنتان تم استصداره عبر تدخل وزير الخارجية البريطاني اللورد كيمبرلي.[16] وفي لندن بدا الجميع واثقين، أخيراً، بأن من شأن استئناف أعمال التنقيب أن «يضع حداً لبعض المشكلات ذات العلاقة بالقدس القديمة».

أما القدس الحديثة التي كان صندوق استكشاف فلسطين يخطط الآن أن يتعامل معها فكانت مع حلول عام (1894 م) قد أصبحت مدينة شديدة الاختلاف عن تلك المعروفة لدى ولسُن، ووَرَن، وغيرهما من مستكشفي الصندوق الأوائل منذ حوالي ثلاثين سنة. فالنفوذ المتنامي للجاليات الدينية والدبلوماسية الأوروبية والعدد المتزايد للسياح الغربيين دعما الاقتصاد المحلي وأفرزا العديد من التحسينات والتجديدات التقنية.

فإضافة إلى الطرق المناسبة لمرور عربات السياح الأثرياء، كانت سكة حديدية قد مُدت من يافا إلى القدس، بما اختزل الرحلة الشاقة، الموصوفة بمرارة من قبل أوائل المسافرين، إلى ساعتين من الركوب الروتيني. وباتت فوانيس الكاز تضيء ساحات المدينة الرئيسية، كما كان الهاتف والمصباح الكهربائي على الطريق. وثمة صحف محلية باتت تُنْشر، وبعضها باللغة العبرية التي تم إحياؤها حديثاً، وفي ظل زخم الحركة الصهيونية المبكرة،بدأ يهود من المدينة القديمة المزدحمة يبنون ضواحي حديثة خارج الأسوار. ومنذ العصور القديمة ما كانت المدينة قد شهدت قط مثل هذا المستوى من الازدهار.

لم يمر هذا النشاط المحموم دون أن يلفت نظر القسطنطينية. فقبل بضع سنوات، وفي عام (1888 م) تحديداً، كانت القدس قد فُصلت إدارياً عن باشوية صيدا ووُضعت تحت حكم الباب العالي المباشر. صحيح أن السلطات العثمانية لم يَسبق لها قط أن أبدت اهتماماً كبيراً بالآثار القديمة، غير أن قوانين صارمة جديدة ما لبثت، منذ قيام ولع الجاليات الغربية بهذه الآثار بخلق سوق مزدهرة لها في القدس، أن صدرت للإشراف على بيع الآثار القديمة وترسيمها هناك. غير أن اهتمام العثمانيين لم يكن اقتصادياً خالصاً. فالحفاظ على اللقى الأثرية وعرضها كانا قد أصبحا رمزاً لتقويم الأمم الحديثة الثقافي والحضاري لتواريخها، وكان متحف سلطاني قد تم تأسيسه في القسطنطينية ووُضع تحت الإشراف النشيط لمديره حمدي بيك.

تلك هي الأجواء التي خاطر فريدريك جونز بلس باقتحامها لمباشرة أعمال التنقيب العلمية العائدة لصندوق استكشاف فلسطين. وحسب الاتفاق الذي تم التوصل إليه في القسطنطينية كانت جميع اللقى المهمة ستؤول إلى ملكية الإمبراطورية العثمانية وسيتم شحنها بحراً إلى المتحف السلطاني لدى اختتام أعمال الحفر. وكما كانت الحال بالنسبة إلى تل حاسي، فإن الفرمان كان ينص على ضرورة حضور (مفوض) سلطاني عمليات التنقيب للإشراف على سير العمل. لم يتردد صندوق استكشاف فلسطين في قبول هذه الشروط، لأنه لم يكن مستمراً في الاهتمام، بشكل خاص، بالآثار المنفردة؛ فهذه المرة كان قد جاء للبحث عن الحقيقة التاريخية.

في آيار عام (1894 م) وصل بلس إلى القدس مع معدات التنقيب ورئيس ورشة عربي رشحه أبوه فيَ بيروت؛ وعلى الفور أقام معسكر التنقيب على السفوح الجنوبية لجبل صهيون التقليدي. وبعد قيام المجلس المحلي للمدينة بالموافقة أخيراً على خطط أعمال النقب، بدأ بلس العمل على أرض [الجمعية الإرسالية الكنسية] حيث كان مقطع جدار قديم، أو منحدر صخري منحوت رأسياً، يلف المرتفع قد تم اكتشافه. والمهندس المدني البريطاني، أحد هواة جمع الآثار القديمة، هنري مودسلي،[17] الذي كان قد كشف النقاب عن المنحدر في عام (1873 م) اعتقد أن هذا كان أساس جدار جنوبي قديم للقدس. وكان بلس الآن عازماً على اتباع امتداد المقطع لتحديد مكان امتداد المدينة القديمة إلى الجنوب من أسوار المدينة الحديثة.

وبطاقم مؤلف من خمسة عشر عاملاً، مدعوم برئيس ورشة وطباخ، استطاع بلس أن يتعقب المنحدر شرقاً لبضع مئات من الأقدام. وعلى امتداد خطَ الحفر كشف النقاب عن بقايا برج قديم وبوابة مفضية إلى المدينة. وبعد ذلك كان الجدار يتجاوز حد الأرض التي تعود ملكيتها للإنجليز ويمتد باتجاه أرض يملكها الرهبان الأوغسطينيون الفرنسيون. ولأنهم كانوا قد أجروا بعض عمليات السبر التجريبية الخاصة بهم من قبل، فإن الرهبان سمحوا عن طيب خاطر لبلس بالعمل هناك، مشترطين عليه فقط أن يزودهم بالمخططات الكاملة لجميع أعمال الحفر. وعلى الطرف الآخر من أرض الأوغسطينيين كانت ثمة زحمة من مساكب الخُضراوات التي أثبتت أنها العقبة الجدية الأولى أمام بلس.

كان لابد من إجراء مفاوضات طويلة وشاقة مع كل مالك، والأسعار المطلوبة في النهاية ـ لأن المحاصيل سوف تُتلف أو لن تُزرع أساساً ـ أثبتت أنها فوق طاقة بلس بكثير. فأهالي القدس الحديثة لم يعودوا يعتبرون علماء الآثار الأَجانب تهديداً، بل باتوا ينظرون إليهم بوصفهم عوامل توفير فرصة اقتصادية. وبعد اعترافه بتلك الحقيقة، اضطر بلس إلى تغيير استراتيجيته. فبدلاً من تبديد الوقت والموارد على نقب كاَملَ للجدار، قرر تبني أساليب سلفه في القدس، تشارلز وَرَن؛ قرر تعقب مسار الجدار عن طريق الحفر تحت الأرض.

صحيح أن بلس لم يكن مهندس مناجم عسكرياً، ولكنه كان هو وعماله قد أكملوا تعقب امتداد الجدار حول جبل صهيون، لمسافة زادت عن ألف قدم، مع حلول فصل الخريف. وفي الحادي والثلاثين من كانون الأول، لحظة وصولهم إلى نقطة انعطاف حاسمة، كان بلس قد أجبر على وقف أعمال التنقيب بسبب الأمطار الغزيرة. وأمامه كانت مقبرة يهودية لم يكن ليُسمح له ولو بحفر نفق تحتها. والجميع أقروا أن سور المدينة كان قد انعطف في مكان ما داخل حدود هذه المقبرة. وسانت كلير أصر على أنه انعطف نحو الجهة الشمالية ـ الشرقية للاتصال بجبل الهيكل، في حين كان بيرتش مقتنعاً برسوخ مماثل، أن الجدار امتد نحو الجهة الجنوبية ـ الشرقية ليحيط بما اعتبره (مدينة داود). والمأزق الذي واجه بلس كان متمثلاً بتحديد المكان الذي يتابع منه أعمال التنقيب، وباختيار موقع البحث بين طرفي المقبرة الشمالي أو الجنوبي ـ الشرقي على التوالي. فموارده المحدودة لم تكن لتسمح له بأن يقع في أي خطأ.

وخلال موسم الحفر الأول كله، كانت السلطات العثمانية، في كل من القسطنطينية والقدس، قد أبدت اهتماماً كبيراً بحفريات بلس، كما أوردها المفوض السلطاني، إبراهيم أفندي في تقاريره المرفوعة إلى تلك السلطات. وبلس أثبت أنه منقب متعاون بل وخدوم أحياناً، ساهم كثيراً في لجم موجة عمليات تخريب الآثار في القدس. وحتى قبل انتهاء موسم الحفر الأول، بادرت السلطات المحلية إلى مطالبة بلس بالإشراف على الكشف عن بعض الآثار البيزنطية المكتشفة حديثاً على جبل الزيتون. وبعد رحلة قصيرة إلى مصر في كانون الثاني من عام (1895 م) أمضى خلالها بعض الوقت مع أستاذه القديم فليندرز بتري، كان بلس أمام مشروع أكثر طموحاً من سابقه، تمثل بمعاينة حالة آثار مؤاب القديمة لصالح المتحف العثماني السلطاني، قدمه إليه حمدي بيك.

كان بلس على الدوام حريصاً على الاحتفاظ بعلاقات جيدة مع السلطات العثمانية، وأحس بأنه يكاد لا يستطيع أن يرفض مثل هذه المهمة المنطوية على قدر غير قليل من الأهمية رغم إضاعة الوقت وتبديد الطاقة. وعلى أية حال فإن الحفر في القدس كان لا بد من إيقافه حتى تنتهي أمطار فصل

الشتاء. وبصحبة إبراهيم أفندي أمضى بلس شهر آذار متنقلاً بين أرجاء المنطقة الواقعة إلى الشرق من البحر الميت حيث كان (الحجر المؤابي) قد تم اكتشافه قبل ما يقرب من ثلاثين سنة. ما من عالم آثار أجنبي ممن عملوا في فلسطين، كان، من قبل، قد تعاون، بمثل هذه الرغبة الصادقة، مع الأتراك. ولكن الأزمان كانت تتغير؛ وكان علم الآثار موشكاً على بلوغ سن الرشد.

في نيسان عاد بلس إلى القدس لاستئناف حفرياته الأثرية. فأمامه كانت مسألة الاختيار بينَ النظريتين البديلتين حول امتداد الجدار ما تزال مطروحة، ومصير الجدل الدائر حول المزارات التقليدية كان متوقفاً على ذلك الاختيار. ومنطق (التضاريس) كان الآن أقوى بما لا يقاس من تقوى القرون، وعالم الآثار الحديث بلس قرر اتباع اقتراح القس بيرتش والحفر عند النقطة التي كان الجدار سينعَطف نحوها لو استمر في الإتجاه الجنوبي الشرقي - مبتعداً عن جبل صهيون التقليدي.

كان الافتراض صحيحاً؛ فالمدينة امتدت بالفعل بعيداً نحو الجهة الجنوبية - الشرقية. وكان بلس الآن ينعم بمساعدة مهندس معماري إنجليزي يدعى أرتشيبالد ديكي،[18] أرسله صندوق استكشاف فلسطين لوضع مخططات أعمال الحفر. ومباشرين العمل عند الطرف الشرقي للمقبرة اليهودية، استطاعا اتباع مسار الجدار نحو أسفل السفح الذي كان بيرتش قد تنبأ بأنه الموقع الأصلي لمدينة داود.

لكن المتاعب المستمرة المرافقة لأعمال الحفر والإرهاق الشديد الناجم عن السفر إلى مؤاب ما لبثا أن فعلا فعلهما السلبي في بنية بلس الضعيفة أساساً. ففي التاسع والعشرين من شهر أيار انهار عند موَقع الحفريات وتم نقله إلى (نيو غراند هوتيل) داخل المدينة. وكانت حالته خطيرة، وتنفيذاً لتوصية أحد أطباء [الجمعية الإرسالية الكنسية] تقرر أن عليه، فور استعادته لما يكفي من العافية للسفر، أن يعود إلى منزل والده ببيروت ليسترد صحته. هذه النكسة غير المتوقعة وضعت المهندس المعماري آرتشيبالد ديكي عملياً في موقع المسؤول عن المهمة، وخلال الصيف تابع تعقب مسار الجدار، مرسلاً تقارير تفصيلية عن سير العمل إلى لندن.

أخيراً استعاد بلس صحته واستأنف القيادة، ولكن ما وجده لدى عودته لم يكن المخطط البسيط لمدينة دوادية واحدة، بل متاهة متشابكة من المنشآت القديمة التي لم يكن تفكيك تواريخها ومواقعها النسبية سهلاً. صحيح أن تقارير ديكي المتسمة بروح المسؤولية العالية عن الحفريات كانت زاخرة بكنز من المعلومات الأثرية الثمينة، غير أن بلس استطاع أن يرى بوضوح أن الجدل الأصلي حول موقع مدينة داود لا يمكن حسمه بالاستناد إلى المنطلقات المقترحة في البداية. وبما أن نظام الأنفاق، خلافاً للأسلوب الطبقي الذي اتُّبع في تل حاسي، لم يستطع أن يقدم إلا القليل من التواريخ الجديدة بالثقة، فإن أنصار نظريات سانت كلير المقدسية يمكنهم أن يزعموا أن أجزاء من الجدار الجنوبي الذي تعقبه كل من بلس وديكي، كانت أحدث بكثير من عهد داود، وبالتالي غير ذات شأن فيما يخص القضية المطروحة.

كانت أعمال التنقيب اللاحقة في الموقع ستثبت أن مدينة القدس الأصلية تأسست بالفعل على السفح الجنوبي؛ ولكن مثل ذلك الحسم كان ما يزال على مسافة زمنية تزيد عن العقد. أما في الوقت الراهن على الأقل، فإن كل ما كان بوسع بلس وديكي أن يفعلاه هو متابعة تحقيقاتهما وأبحاثهما، مسلطين الضوء على الكثير من البيّنات الأثرية الجديدة والمهمة، دون أن يكونا، ببساطة، قادرين على تقديم الإجابات الحاسمة على جملة الأسئلة التي كان صندوق استكشاف فلسطين آملاً، بكثير من الثقة، في (وضعها على الرف).

ومع حلول صيف عام (1897 م) وبعد تمديد فترة صلاحية الفرمان الأصلي، كان بلس وديكي قد تعقبا الحدود الجنوبية للمدينة القديمة ونفذا عدداً من عمليات السبر التجريبية داخلها، كاشفين عن أسوار تحصين، وشوارع مرصوفة، وتمديدات مياه، بل وحتى أطلال كنيسة عائدة إلى القرن الخامس الميلادي. غير أن ما هو أهم من جميع اكتشافاتهما الإفرادية هو أنهما كانا قد سلطا الضوء، للمرة الأولى، على المدى الكامل لتعقيد كنوز القدس الأثرية. فالسفح الجنوبي للمدينة، رغم بقائه الآن

خارج الأسوار، كان جزءاً عضوياً من المدينة من العصر البرونزي إلى الحقبة البيزنطية، وأن الإشغال المستمر كان قد تمخض عن قدر جلي من الفوضى وتداخل المباني، والمقالع، وأكوام القمامة، ومخلفات الحت. وفكرة البحث هناك عن آبدة معينة مذكورة في الكتاب المقدس تبين بصورة واضحة أنها فكرة غير عملية. أما المهمة الأكثر أهمية بما لا يقاس فكانت متمثلة بالمبادرة، أولاً، إلى قراءة تفاصيل التطور التاريخي للمدينة، لاكتساب فهم أشمل لأحقابها المختلفة ولطابع ما خلفته من بقايا. فعمليات الاستكشاف في القدس كانت، من الآن فصاعداً، ستتطلب ليس فقط المال أو الحماس أو الفرمانات السلطانية، بل أجيالاً من العمل الآثاري المكثف والمتراكم باضطراد. وبذلك المعنى، فإن العلم كان قد انتصر. فعلم الآثار الكتابية كان قد بدأ يتقدم باتجاه مرحلة جديدة أكثر حداثة.

وفي العشرين من حزيران، عام (1897 م) تم إغلاق الحفريات المقدسية للمرة الأخيرة. فديكي سافر وحده إلى دمشق ليضع مخطط الجامع الأموي الكبير ويدرسه هناك، أما بلس فعاد إلى لندن لتجميع ونشر نتائج العمل وللحديث أمام الاجتماع السَنوي للصندوق في تموز. وذلك هو الاجتماع الذي اعترف فيه الرئيس جيمس غليشر[19] المسن، النشيط في الصندوق منذ ثلاثين عاماً، بالإحباط الذي أصابه إزاء إخفاق البعثة في حل أية من المسائل ذات البعد الديني حول تحديد أماكن المواقع الكتابية، قائلاً بكل صراحة: «أردت أن أعرف عن أشكال وحي القدس أكثر مما قد أتمكن من معرفته بعد هذا العمر الذي أنا فيه. . .».

شهد جيل غليشر هذا تغييراً عميقاً في موقف صندوق استكشاف فلسطين من الاستكشاف الكتابي. فعملية مطاردة الآثار الفلسطينية القديمة لن تعود من عمل باحثين هواة، ومغامرين جريئين، أو حملات عسكرية متطلعة إلى (أشرطة تزيين كتابية) ولابد الآن لعلماء الآثار المحترفين، للمهندسين المعماريين ولاختصاصيي دراسة الأواني الخزفية من أن يحلوا محلهم. وعمليات التنقيب في تل حاسي كانت قد دشنت حقبة جديدة في تاريخ علم الآثار الكتابية، وأعمال التنقيب في القدس كانت قد بينت أن الحقبة العلمية كانت قد جاءت لتبقى.

على امتداد ما يزيد من ثلاثة عقود من حياته كان صندوق استكشاف فلسطين قد ظل عنصراً أجنبياً أساساً في المجتمع المقدسي. ففيما امتلكت الكنيستان الكاثوليكية والأرثوذكسية، بل وحتى الجمعيات التبشيرية البروتستانتية مقرات دائمة في المدينة وتابعت نشاطاتها على أساس الاستمرار، اكتفى صندوق استكشاف فلسطين بحملات متقطعة ومقرات مؤقته. ومع ذلك فإن حفريات الصندوق الأثرية وأعماله المسحية كانت قد أثرت في تطور المدينة الحديثة، تماماً كما تركت نشاطاته تأثيراً بالغ العمق على الفهم الحديث للتاريخ الكتابي. لقرون من الزمن بقيت تجارة الحج عنصراً مهماً من العناصر المكونة لاقتصاد القدس، وظلت أجيال من الأدلاء المحليين تتطوع عن طيب خاطر لسرد رواياتها الوصفية الخيالية ويومياتها المكرورة دون أي تغيير، على مسامع زوار المدينة الأجانب. غير أن نشاطات صندوق استكشاف فلسطين ما لبثت أن جعلت تلك الأحاديث الوصفية والجولات السياسية التقليدية بالية بلا معنى. فالسائح الحديث بات الآن يأتي باحثاً عن الحقائق لا الأساطير.

لتلبية هذه الحاجة كانت (رابطة محلية) لصندوق استكشاف فلسطين قد تأسست في القدس نفسها عام (1892 م) بتوجيه أمين سرها الفخري القس تي. إي. دولينغ[20] من الجمعية الإرسالية الكنسية كان عملها الأول افتتاح متجر داخل بوابة يافا يستطيع السياح أن يبتاعوا منه مختلف منشورات الصندوق ويستمعوا إلى محاضرات يلقيها مستكشفوه المقيمون. وهذا المسعى كان بالغ النجاح حتى أن الرابطة المقدسية التابعة للصندوق ما لبثت أن شرعت تدرّب أدلاء سياحيين تابعين لها، والتجارة المزدهرة التي كانت تمارسها سرعان ما أقنعت مجلس بلدية القدس بضرورة رفع مستوى جميع الأدلاء السياحيين في المدينة. إن وعياً علمياً كان قد بدأ يحل محل الأساطير التاريخية العريقة والعتيدة عن المدينة، واعتباراً من عام (1895 م) بات جميع المرشحين لشغل وظيفة دليل سياحي مطالبين باجتياز امتحان في تاريخ القدس الذي كان مستنداً بمعظمه إلى الاستنتاجات التي أفرزتها حفريات الصندوق الأثرية.

لم يعد علم الآثار الكتابية هوساً أجنبياً أو حضوراً غريباً؛ فمع حلول العقد الأخير من القرن التاسع عشر بات الصندوق قادراً على أن يورد بين أعضائه أشخاصاً مقيمين في فلسطين نفسها بمن فيهم، وهذا ينطوي على معنى، أفراد من مستوطنة زيخرون ياكوف[21] اليهودية التي تأسست حديثاً وكانت إحدى أولى المستعمرات الزراعية الصهيونية. وأصبح النشاط الأثري في فلسطين جزءاً من المشهد الثقافي في البلاد، وكما أن زائر المدينة المقدسة في بداية القرن كان يراوغ المدخل المحظور الخاضع للحامية التركية، بات الآن يستطيع أن يرى ما يشير إلى ذلك التغيير الدائم. وإلى اليسار قليلاً من اللافتة الكبيرة التي حملت عبارة (بعثة لليهود) قبعت بناية حجرية حددتها لوحتها ذات الأحرف النافرة على أنها المقر الرئيسي المحلي لصندوق استكشاف فلسطين. لقد بلغ علم الآثار في الأرض المقدسة سن الرشد. ونفوذه المستمر كان سيبرهن، على مر الأيام، على أنه أقوى من مساعي أية من البعثات التبشيرية.

15) القيصر والسلطان:

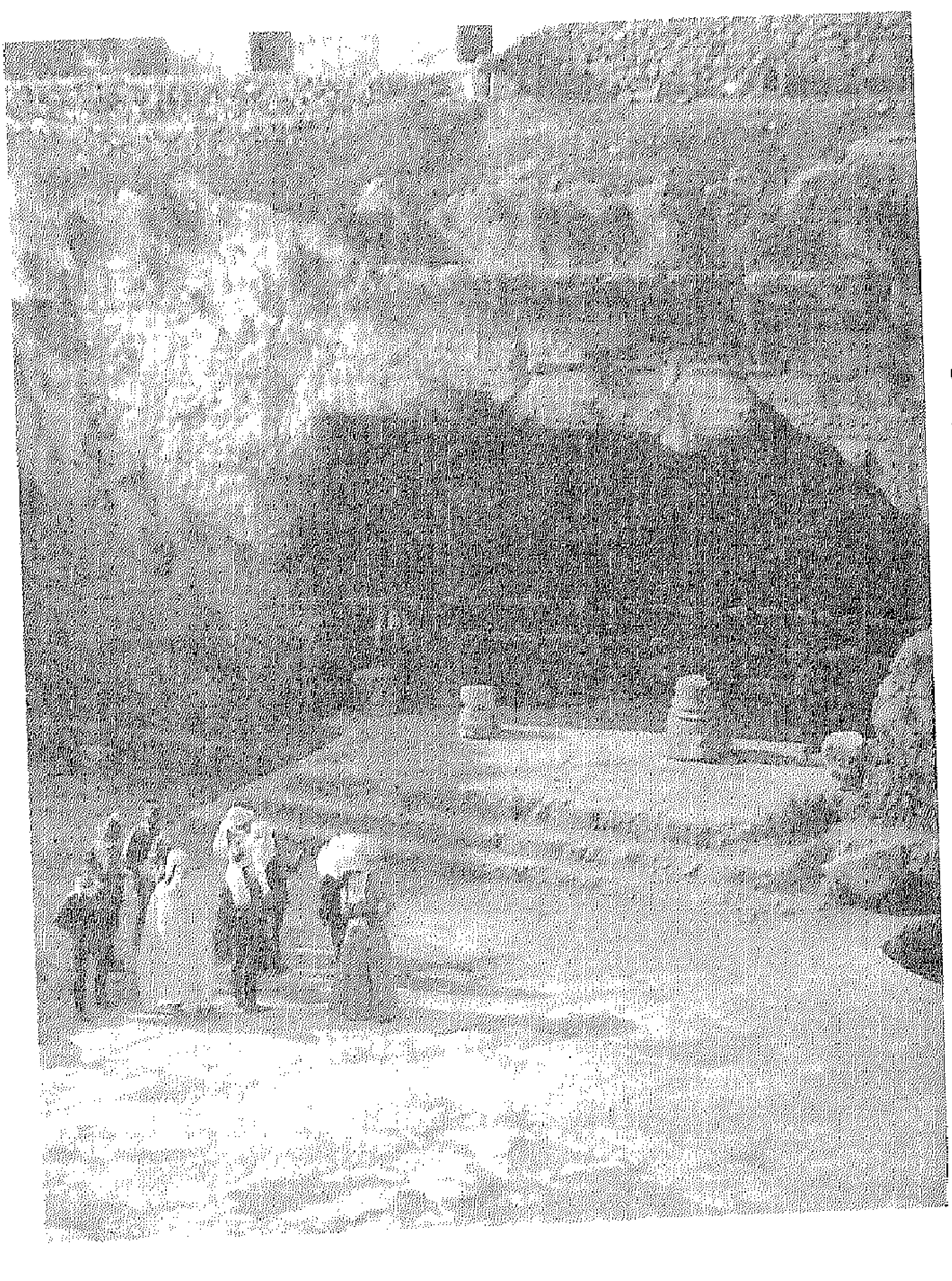
ألمانيا تدخل حلبة التسابق على الآثار القديمة

(1898-1909م)

في صيف عام (1898 م) القائظ بصورة غير عادية، وفي وقت كانت فيه الحياة في فلسطين مرشحة عادة لأن تكون متوقفة، هب فجأة نشاط محموم في سائر أرجاء البلاد. ففي مرفأ حيفا في الشمال كان مهندسون أتراك يتولون مهمة الإشراف على أعمال البناء المتعجلة لمرافق أرصفة وأحواض الرسو الحديثة. وعلى امتداد سواحل يافا، كما عبر التلال حتى القدس، كانت العشرات من فرق عمال السخرة تكدح ليل نهار لتسوية طرق عربات جديدة ورصفها. ومن القدس نزولاً إلى غور الأردن في أريحا، جرى مد خط برقي جديد؛ وفي القدس نفسها، بدأ العمال باقتلاع جزء من سور المدينة القديم لفتح الطريق أمام دخول العربات ذات الطراز الأوروبي. وبأوامر مباشرة من السلطان عبد الحميد في القسطنطينية، كان يتعين ترتيب وضع فلسطين وجعلها صالحة للتقديم، بصرف النظر عن التكلفة. فالقيصر غليوم الثاني حليف السلطان الجديد في عالم غربي متزايد العداء، كان قادماً لأداء زيارة حج رسمية إلى الأرض المقدسة.

كانت الهزيمة الكارثية التي ألحقها الروس عام (1877م) بالإمبراطورية العثمانية قد أفقدت السلطان البقية الباقية من احترامه لنفسه، ووافرت في الوقت نفسه فرصة ملائمة لتبادر الإمبراطورية الألمانية إلى وضع استراتيجياتها

الدولية موضع التطبيق. وفيما كانت إنجلترا، وفرنسا، وروسيا تتماحك فيما بينها حول خطط التقسيم اللاحق لإمبراطورية السلطان، بادرت ألمانيا وحدها إلى مد يد الصداقة إلى عبد الحميد. وبموافقة الإمبراطور النمساوي الضمنية، قام غليوم الثاني بارسال عدد من البعثات العسكرية والاقتصادية إلى القسطنطينية خلال ثمانينيات القرن التاسع عشر. وفي عام (1889 م) كان القيصر الشاب قد زار القسطنطينية لتكريس صداقته مع السلطان؛ وفي عام (1895 م) أحبط غليوم المخططات البريطانية والفرنسية الرامية إلى اقتسام الإمبراطورية العثمانية، بما زاد من تملقه للباب العالي. فغليوم الثاني كان قد ادعى لألمانيا حصة في الشرق الأوسط مطالباً لإمبراطوريته بـ(مكان تحت الشمس) بأعلى صوته.



القيصر الألماني فلهلم أمام (قبور السلاطين)

جاء الإعلان الرسمي عن زيارة القيصر الملكية إلى الأرض المقدسة كالصدمة بالنسبة إلى القوى الأوروبية الأخرى التي كانت قد حرصت على زيادة نفوذها في فلسطين على امتداد نصف القرن الماضي. فالجالية البريطانية طالما كانت متخوفة من توسع مصالح ألمانية مستقلة، فيما كان الفرنسيون، وهم ما يزالون متعطشين للثأر جراء الهزيمة الكارثية التي لحقت بهم في عام (1870 م) معادين بصورة مكشوفة. ولكن السلطات العثمانية لم يسبق لها قط أن بذلت مثل هذا المسعى على صعيد مغازلة أي حاكم أوربي؛ وإذا أُخذت الروابط المتنامية بين القيصر والسلطان بنظر الاعتبار، فقد كانت ثمة مخاوف من احتمال حصول الحاكم الألماني، فعلاً، على امتيازات غير مسبوقة، وصولاً إلى إقامة محمية ألمانية معترف بها في الأرض المقدسة.

ولابساً لبوس (صليبي جديد) أبحر غليوم الثاني وحاشيته الفضفاضة إلى القسطنطينية أولاً، حيث استقبلهم السلطان شخصياً وكوفئوا بالامتياز الذي طالما حلموا به إذ حصلوا على عطاء مد سكة حديدية من برلين إلى بغداد. وبعد ذلك تابع الموكب الملكي طريقه إلى فلسطين على ظهر يخت خاص. ولدى نزوله إلى رصيف حيفا الجديد على أنغام الموسيقى العسكرية للفرقة الموسيقية العسكرية التركية، كان في استقبال غليوم وفد من المستعمرين [المستوطنين] الألمان، برئاسة غُتليب شومَخَر[1] أحد قادة طائفة فرسان الهيكل بحيفا ومستكشف غير متفرغ لدى صندوق استكشاف فلسطين. ومن حيفا تحرك الموكب الملكي الضخم جنوباً باتجاه يافا متوقفاً لفترة وجيزة في مستعمرة سارونا العائدة لفرسان الهيكل، والتي كانت بيوتها وخطائرها المزدهرة مزينة بالبيارق والأعلام الألمانية. أما في القدس فكان (مضرب خيام ملكي) خاص بانتظار الضيوف الملكيين، محروس من جميع الجهات من قبل مئات الجنود الأتراك وخيامه مفروشة بالسجاجيد الشرقية والأسرَّة ، والطاولات، والكراسي المزخرفة بالعاج. وأعداد كبيرة من الأعلام والمصابيح كانت تتدلى في سائر أرجاء المدينة. أما المتسولون والكلاب السائبة فقد تم تجميعهم وإبعادهم عن الأنظار. وحتى قبة الصخرة جرى تنظيفها وتجديدها للمناسبة.

في التاسع والعشرين من تشرين الأول من عام (1898 م) دخل القيصر المدينة المقدسة كبطل منتصر، على ظهر جواد أبيض، وخوذته المقَلْنَسة تتلألأ في الشمس، مصحوباً بالعشرات من الفرسان البروسيين والأتراك. وغطت في تلك الليلة سحابة من الألعاب النارية سماء القدس. وخلال اليومين التاليين من زيارتهما قام القيصر غليوم وزوجته القيصرة أوغوسطا فكتوريا بزيارة المزارات المقدسة والأماكن الأثرية القديمة في المدينة، بتدشين ميتم في بيت لحم، وكنيسة بروتستانتية فخمة بالقرب من كنيسة القيامة، وبإهداء قطعة أرض على جبل صهيون إلى الكاثوليك الألمان ليشيدوا كنيسة جديدة لهم. ومما قاله القيصر: «من أورشليم أشرق نور على العالم، ألا وهو النور المبارك الذي في بهائه أصبح شعبنا الألماني عظيماً ومجيداً». إن الحضور الألماني في القدس لن يأتي قط في المرتبة الثانية بعد كائن من كان؛ بدا وكأن زيارة القيصر كانت قد جلبت عصراً جديداً إلى الأرض المقدسة.

بصرف النظر عما إذا كان عصراً جديداً أم لا، فإن البريطانيين لم يكنوا سوى عواطف الاحتقار لأحلام القيصر غليوم. والزيارة الملكية كانت قد نظمت، في الحقيقة، من قبل شركة سياحية بريطانية، هي شركة توماس كوك وولده، والجرائد اللندنية انقضّت بمرح على هذه المعلومة وراحت تسخر من غليوم بوصفه (صليبي كوك).[2] لم يكن صندوق استكشاف فلسطين هو الآخر أقل ثقة بالنفس. فبعد استكمال الحفريات الأثرية في القدس بما لا يزيد عن السنة، عاد فريدريك بلس إلى فلسطين مزوداً بفرمان جديد وفي جعبته مخططات جديدة. فقد قَرر الصندوق أن يتخلى عن الطابع اللاهوتي للاستكشاف في القدس، وأن يستأنف أعماله التنقيبية في التلال الفلسطينية. غير أن الهدف هذه المرة لم يكن مرتَفَعاً قديماً متفرداً، بل أربعة منها، متقاربة داخل بقعة واقعة إلى الجهة الجنوبية - الغربية من القدس. وأحد هذه المرتفعات، وهو تل الصافي، اعتُبر تجريبياً مدينة جت الفلسطية. أما المرتفعات الثلاثة الأخرى، وإن لم تتحدد إلا بقدر أقل من الوضوح، فقد بدت مرشحة لأن تقدم مزيداً من المعلومات الإضافية عن تطور الحضارة الكتابية وكنزاً، وهو الأكثر أهمية، من اللقى الجديدة.

ولدى وصوله أوائل خريف عام (1898 م) لاحظ بلس في أحد تقاريره أن «موضوع الاهتمام الرئيسي في الوقت الحاضر هو، بطبيعة الحال، الزيارة الوشيكة لإمبراطور ألمانيا». غير أن تصاريح التنقيب الرسمية كانت، على الرغم من الأجواء المشحونة بالانفعال، قد سُلّمت إلى بلس من قبل القنصل البريطاني، وأعمال التنقيب المجددة لصندوق استكشاف فلسطين بدأت بهدوء في الريف فيما كانت أنظار البلاد مشدودة كلياً إلى الزوار الملكيين.

كان زميل بلس الوفي والمخلص في القدس، آرتشيبالد ديكي، قد استقال من ارتباطه الرسمي بالصندوق، وكان لابد من العثور على بديل لمباشرة الحفريات الجديدة. رشّح عدد من أعضاء اللجنة التنفيذية رشحوا لهذا العمل شاباً في الحادية والعشرين من العمر، يدعى روبرت ألكسندر ستيوارت مكلستر،[3] وهو ابن البرفسور جون مكلستر من جامعة دبلن، والذي كان، عبر تقديم المساعدة في حفريات أبيه الأثرية، قد اكتسب خبرة ذات شأن في تقنيات علم الآثار الحديث. ومفتوناً بآفاق أعمال التنقيب في الأرض المقدسة وتواقاً إلى إضافة المزيد من المصداقية المهنية إلى حقل نشاطه العملي الوليد، قبل مكلستر بالوظيفة في فلسطين والتحق ببلس في القدس. ولكن شخصيتي الرجلين كانتا، للأسف، متناقضتين؛ ولزيادة الطين بلة، ما لبثت صعوبات غير متوقعة في العمل أن برزت أيضاً. فالمفوض العثماني المكلف بالإشراف على الحفريات طالب بزيادة كبيرة للدفعات، ولم يعد الموقف الودي من جانب السكان المحليين إزاء القائمين بالحفريات ممكناً ضمانه.

في غضون ما يقرب من عامين من التنقيب المتواصل، تمكنت بعثة بلس ـ مكلستر، على أية حال، من إنجاز كمية غير مسبوقة من العمل. فمن خلال تحويل طاقات المسعى من الهموم الشخصية والمالية إلى عملية الحفر، انتقل بلس ومكلستر بسرعة من تل إلى آخر داخل المنطقة المحددة بالفرمان، كاشفين النقاب، آخر المطاف، عن المخططات الأساسية لأربع مدن فلسطينية قديمة متمايزة. فعند تل زكريا كُشف عن بقايا حصن إسرءيلي كان يضطلع بحماية الطريق التجارية الحيوية من مصر في عهد

الملوك العبرانيين. أما الأشياء الصغيرة العديدة التي اكتُشفت تحت الحصن، مثل الخنافس السوداء، وحبّات الخرز، والأدوات المصنوعة من الصوان والبرونز والحديد، والأواني الخزفية، فقد أكدت للقائمين بالتنقيب (الارتباط الوثيق مع مصر قبل الغزو الإسرءيلي لفلسطين). ولدى انتقالهم إلى تل الصافي لم يستطع منقبو صندوق استكشاف فلسطين تمييز المخلفات الفلسطينية المتوقعة، ولكنهم تعرفوا على خط سور مدينة إسرءيلية، وكشفوا، عند قمة المرتفع، عن القلعة الصليبية المعروفة باسم (بلانش ـ غارد).[4] أما على تل الجُدَيْدة فقد تركز اهتمامهم على بقايا مدينة رومانية، في حين قام بلس ومكلستر في تل صنداحنة، آخر المواقع المحددة بالفرمان، بإكمالَ سياقهماَ التاريخي عن طريق إزالة الطبقة العليا من التل كلها، معرين، للمرة الأولى، المخطط الكامل لمدينة هلينستية في فلسطين.

ولدى انتهاء مفعول الفرمان في خريف عامٍ (1900 م) تعين على أعمال التنقيب في تل صنداحنة أن تتوقف مؤقتاً. فتم ملء الحفُرَ الرأسية والخنادق بالتراب، والأرض أعيدت إلى أصحابها. ومع ذلك، ما من بعثة إلى فلسطين كانت قد عملت مثل هذه المدة دون انقطاع أو كشفت عن مثل هذه الكمية الكبيرة من البيّنات الأثرية الأولية، من قبل. فأعمال الحفر في تل حاسي والقدس لم تكن، بالمقارنة، سوى اختبار للتقنيات، وخيبة أمل لاهوتية على التوالي. أما أعمال الحفر في مرتفعات يهوذا فقد أظهرت الآن بوضوح مكامن مستقبل استكشاف فلسطين. فصندوق استكشاف فلسطين نجح ليس فقط في الكشف عن سلسلة متصلة من المخلفات الأثرية التي غطت الألفية الممتدة من العصر البرونزي إلى أيام الصليبيين، بل وأسس لنفسه منطقة نفوذ جغرافية إذ كانت القدس والتلال الجنوبية قد أصبحت دائرته الأثرية الحصرية.

أما النقطة المظلمة الوحيدة المتبدية في الأفق المضيء دونها فكانت ما تزال متمثلة بالخلافات الشخصية المستعصية بين بلس ومكلستر. فاللجنة التنفيذية لصندوق استكشاف فلسطين كانت مستَاءةً من إخَفاق بلِس في القيادة ومن نزوعه الدائم للانحناء أمام ضغوط السلطات

العثمانية. وفي خريف عام (1900 م) عاد فريدريك بلس إلى مرتع طفولته في البعثة الأمريكية ببيروت، قاطعا صلته الرسمية بالصندوق (لأسباب مَرَضِيّة). وفي الوقت نفسه عاد مكلستر إلى لندن لإكمال تقارير أعمال التنقيب وإعدادها للنشر. فهو كان الذي سيتولى حمل راية علم الآثار لصالح البريطانيين في فلسطين؛ وكان سيفعل ذلك وحده.

في أعقاب زيارة القيصرة المظفرة إلى الأرض المقدسة، شهدت المكانة السياسية للقنصلية الألمانية بالقدس قَدْراً ملحوظاً من الارتفاع. فالقنصل الجديد الدكتور فريدريك رُوزَنْ،[5] ابن القنصل البروسي أيام ولسُن ووِرَن، تسلم منصبه هناك، وكان، جراء كونه باحثاً متخصصاً في العلوم الشرقية من جهة ومن أبناء البلاد عملياً من جهة ثانية، في وضع يؤهله لدفع عجلة النشاط الألماني على صعيد علم الآثار إلى الأمام. وأبدت الأوساط الأكاديمية الألمانية على الدوام قَدْراً من الحذر والريبة إزاء المشاركة في جهود صندوق استكشاف فلسطين البريطاني، وبادرت في عام (1877 م) إلى تأسيس جمعية خاصة بها، عُرفت عموماً باسم دوتيشر باليستينا فرآين[6] [رابطة فلسطين الألمانية]. أصدرت الرابطة الألمانية هذه أصدرَت العديد من المنشورات، ورَعَتْ سلسلة من الدراسات الجغرافية، واحتلت مكانة محترمة في ميدان علم الآثار الكتابي، غير أنها لم تقم بأية أعمال تنقيب إلى حين زيارة القيصر.

ومن العطوف الكثيرة التي أنعم السلطان عبد الحميد بها على القيصر كان السماح بالتنقيب عن الهياكل الرومانية المهيبة في بعلبك اللبنانية. وما لبث أن تم إرسال هيئة كبيرة من علماء الآثار الألمان التابعين لـ(الجمعية الإمبراطورية المشرقية) إلى الموقع حيث قامت بمعاينة المناطق المقدسة الواسعة، شاحنة أثمن قطع المنحوتات القديمة إلى متحف برلين. أما رد فعل نشرة [صندوق استكشاف فلسطين الربعية] على أعمال التنقيب الألمانية في بعلبك فقد كان احتجاجاً على ما وصفته بعملية سلب ونهب واسعة النطاق لموقع قديم؛ ولكن تجاوزات القيصر الأثرية لم تكن بعد، حتى اللحظة على الأقل، قد شارفت منطقة نفوذ صندوق استكشاف فلسطين إلى ما هو أقرب من لبنان.

غير أن ذلك المتنفس لم يكن ليدوم طويلاً. ففي كانون الثاني من عام (1901 م) تلقى صندوق استكشاف فلسطين تقارير تحدثت عن أن جمعية فلسطين الألمانية حصلت، عن طريق تدخل السفارة الألمانية في القسطنطينية، على فرمان يخولها حق مسح الأراضي الواقعة إلى الشرق من الأردن، حيث كان عمل النقيب كندر قد أوقف في عام (1882 م). وفكرة قيام الألمان باتمام الجزء الأكثر صعوبة من عملية وضع خريطة البلاد، كانت، بالضرورة، شديدة الإزعاج بالنسبة إلى صندوق استكشاف فلسطين. ولكن حقيقة أن المساهم القديم في الصندوق غوتليب شومَخَر الحيفاوي قد كان وافق على مطالب بلده بقبول تعيينه مديراً للمشروع، كانت أكثر إيلاماً. واللجنة التنفيذية لصندوق استكشاف فلسطين أعلنت تقول: «نهنىء الجمعية الألمانية على حظها السعيد، ونتمنى للدكتور شومَخَر كل النجاح في إنجاز عمله المهم». وخلافاً لحال الصندوق الذي كان لتوه قد عاش أسوأ سنوات حياته على الصعيد المالي، كانت جمعية فلسطين الألمانية تتباهى بخزينة مزدهرة. فالمشروع الألماني لمسح فلسطين الشرقية كان قد خُصص بمبلغ يوازي (1250) جنيهاً إسترلينياً، أي أكثر من ضعف مجمل ميزانيات صندوق استكشاف فلسطين خلال السنوات الثلاث السابقة.

ولكن التهديد الأخطر للسيادة البريطانية لعلم الآثار الكتابي كان سيأتي بعد عام من الزمن متجسداً بشخص البرفسور إرنست سلّين[7] الذي كان لاهوتياً نمساوياً مغموراً زار فلسطين للمرة الأولى في ربيع عام (1899 م). ففي العقد الثامن من القرن التاسع عشر كانت بعثة نمساوية إلى جزيرة ساموتراقيا[8] [جزيرة يونانية في شمالي شرقي بحر إيجه (المترجم)] اليونانية قد اضطلعت بدور طليعي في فن التنقيب العلمي، وأراد سلّين أن يجلب التقنيات النمساوية الحديثة إلى الأرض المقدسة أيضاً. وبعد زيارته العديد من التلال والمرتفعات في الجزء الشمالي من البلاد وهو يفكر باختيار أكثر الآثار والمخلفات انطواء على الآفاق الواعدة، وقع اختيار سلّين أخيراً على مرتفع تل تعنك البرجي الذي كان اسمه العربي الحديث محافظاً بوضوح على اسم المدينة الكنعانية: تعنك.

وفي ربيع عام (1902 م) عاد سِلِّين إلى فلسطين مزوّداً بفرمان سلطاني وبالدعم المالي من كل من أكاديمية فيينا للعلوم، ووزارة التعليم النمساوية، وعدد كبير من المتبرعين الأثرياء. وبصحبته كان عالم آثار تقليدي ومختص بفن النقوش، ولكن افتقارهم، جميعاً، إلى الخبرة على صعيد المشكلات الخاصة التي ينطوي عليها التنقيب في فلسطين، جعلهم يطلبون خدمات شُومَخَر الذي أنجز عمله المَسْحي في فلسطين الشرقية. ويداً بيد أقام النمساويون والألماني مخيماً للتنقيب على قمة التل واستأجروا ورشات عمل مؤلفة من حوالي (150) عاملاً عربياً من القرى المجاورة، وباشروا، رسمياً، أعمالهم التنقيبية الأولى في الأرض المقدسة.

وكبداية، كانت نتائج تلك الحفريات مثيرة. فسلّين وشُومَخَر تمكنا من تعقب مسار كتلة ضخمة من التحصينات القدَيمة، واكتشفا هيكلاً كنعانياً، وقبور أطفال، وأدوات عبادة؛ واستخرجا أيضاً كتلة محفوظات مؤلفة من أربعين لوحة مسمارية، ومجموعة تفوق حتى اللقية السائبة التي تم العثور عليها قبل ما يزيد من عشر سنوات في تل حاسي، من حيث الأهمية. ومع حلول منتصف تموز من عام (1902 م) كان الموسم الأول من أعمال التنقيب النمساوية قد انتهى، غير أن نتائجه كانت ستنطوي على تأثير دائم. فاهتمامات القيصر غليوم الشرق أوسطية كانت قد تحولت نحو التنقيب في المزيد من المواقع داخل الأرض المقدسة. و[جمعية فلسطين الألمانية] ما لبثت، بعد الحصول على وعود بتمويلات سخية من الحكومة الألمانية، أن أوفدت بعض ممثليها «للتجوال عبر البلاد وانتقاء أنسب المواقع لأعمال التنقيب». فالمجهود الأثري الألماني في فلسطين كان ينمو بسرعة.

لم تفت أهمية أعمال الحفر النمساوية واسعة النطاق عند تل تعنك اللجنة التنفيذية لصندوق استكشاف فلسطين؛ فالبعثة التالية للصندوق كانت أيضاً ستتركز على الدراسة التفصيلية لموقع واحد. وبعد إنهاء التقارير المتعلقة بعمله السابق، عاد مكلستر إلى الأرض المقدسة في عام (1902 م) وأقام مخيم ورشة على مرتفع أبو شوشة، في موقع يكاد يتوسط المسافة بين يافا والقدس على خط السكة الحديدية الجديد.

والتعرف على الموقع بوصفه موقع مدينة جازر القديمة، إحدى القلاع الملكية للملك سليمان، كان قد تأكد بصورة قاطعة مع قيام شارل كلير ـ غانو عام (1873 م) باكتشاف نقش حدودي ثنائي اللغة. بدت ظروف القيام بحفريات موسعة نموذجية؛ فمنطقة المرتفع كلها كانت واقعة في حدود الممتلكات الخاصة لأحد التجار المحليين الأغنياء، ولاعتبارات وجيهة، كان هذا أكثر من مستعد لأن يقدمها لصندوق استكشاف فلسطين ليستخدمها كما يشاء.

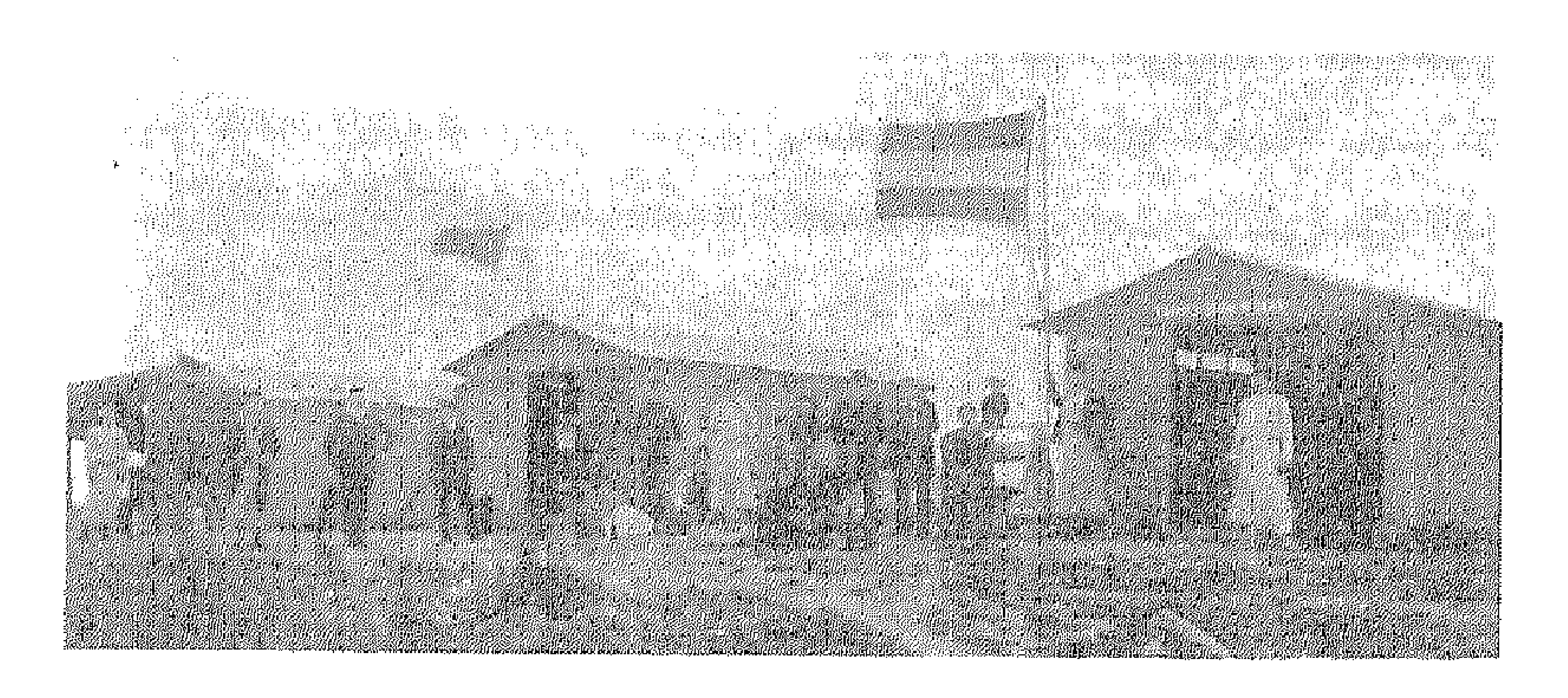
وفي الرابع عشر من حزيران من عام (1902 م) بدأ مكلستر رسمياً عملية التنقيب عن جازر. وعلى الرغم من أن ميزانيته المقيَدة لم تكن تسمح باستخدام أكثر من خمسة وعشرين عاملاً دفعة واحدة (نصف قوة العمل المستخدمة في تعنك فقط) فإن مكلستر تمكن من تعرية مساحات واسعة من التل في فترة زمنية قصيرة نسبياً. ومع إشرافه وحده على العمال العرب، وقيامه، بنفسه، بتخطيط الآثار ووضع خرائطها، استطاع مكلستر أن يتعرف على عمليات شغل متعاقبة للموقع، بما فيها كهوف قديمة للدفن، وهيكل كنعاني ومكان عال، ومحيط التحصينات القديمة.

كانت عملية نقب جازر قد خُطط لها أن تكون طويلة الأمد، فبقي مكلستر في الموقع خلال فصلي صيف وخريف عام (1902 م). والقيمة الأثرية للعديد من لقاه غير المؤرخة كانت ستصبح فيما بعد موضوع تساؤل جراء دراسات أثرية أكثر تقدماً في الموقع. غير أن أحداً لم يستطع أن ينكر قوة شخصيته. وفي عصر كان نجاح الحفريات أو إخفاقها فيه متوقفاً على قوة مديرها، فإن الجهود المستمرة لصندوق استكشاف فلسطين كانت، بوضوح، بأيد أمينة جداً.

ساهم القيصر غليوم خلال عام (1902 م) بما يزيد عما يساوي اثني عشر ألفاً من الجنيهات في أعمال التنقيب التي كانت جمعيته الشرقية تقوم بها في مصر وما بين النهرين. وبرهن نجاح الحفريات النمساوية في تل تعنك على أن الدراسات الألمانية كانت مؤهلة تأهيلاً جيداً بما يجعلها قادرة على التعامل مع الآثار الفلسطينية. غير أن الأهم من ذلك

أن سلّين كان أول من قام بالتنقيب في تل شمالي؛ ونظراً لأن صندوق استكَشاف فلسطين كان قد حصر علمياته بالقدس والجنوب، فإن الوقت كان قد حان ليبادر الألمان إلى إقرار منطقة نفوذهم الآثاري الخاصة. والممثلون الموفدون من قبل [رابطة فلسطين الألمانية] تأثروا إيجابياً بالإمكانيات الكامنة في تل المتسلم، (مرتفع الحاكم) الواقع إلى شمال - غرب تل تعنك. وكثيرون كانوا يعتقدون بأن هذا الموقع هو بقايا مدينة مجدُو التوراتية أو (هرمجدون) العهد الجديد حيث كانت المعركة الأخيرة، سيتِم خوضها في آخر الزمن[الموقع الذي ستجري فيه المعركة الفاصلة بين قوى الخير وقوى الشر (ز. م)]. ومثلها مثل جازر كانت المدينة إحدى قلاع سليمان الملكية، ومنطوية، دون شك، على العديد من الآثار القديمة ذات القيمة المضاهية.

ومع حلول مطلع عام (1903 م) كانت جمعية فلسطين الألمانية قد جمعت أربعين ألفاً من الماركات، أي ما يساوي ألفين من الجنيهات، للتنقيب عن مجدُو، وهو مبلغ لم يرد مثله في حوليات استكشاف فلسطين. بذلك المبلغ كأن القيصر قد ساهم بستة وعشرين ألفاً من الماركات من خزانة الحكومة. والاهتمام القومي من جانب الرايخ الثاني كان سيتعزز بالرعاية الرسمية للمشروع الطموح الواقع، مثله مثل تل تعنك، بالقرب من خط السكة الحديدية الذي كان المهندسون الألمان يمدونه لصالح الحكومة العثمانية.



معسكر تنقيب ألماني في تل المتسلم

أما قيادة الحملة فقد تولاها غُتليب شُومَخَر. فبعد مغادرته حفريات سلّين عاد إلى مستعمرة فرسان الهيكل بحيفا، حيث استلم، في أوائل شبَاط من عام (1903 م) الفرمان الرسمي الذي يجيز العمل في تل المتسلم. والوثيقة نفسها نقلها القنصل شرودر، الباقي في منصبه ببيروت رغم تورطه الخائب مع موسى شابيرا قبل عشرين سنة. سارع شومَخَر إلى تجنيد فريق صغير من المهندسين المعماريين الألمان من المستعمرة في حيفا وأقام مقراً على التل أواخر شهر آذار. وما لبثت أن أقيمت أعداد من المهاجع الخشبية لإيواء أعضاء الفريق والمستودعات لخزن اللقى، ووصل المفوض التركي إلى الموقع ليشرف على العمل، وبات العَلَم الألماني ذو الألوان الأحمر والأسود والذهبي يرفرف باعتزاز فوق تل المتسلم.

بعد مفاوضات مطولة مع أعيان القرية مالكي الأرض، بدأت عملية الحفر بسواعد العمال المحليين. وخنادق عريضة ما لبثت أن حُفرت على سطح التل، وتعين على شُومَخَر ابتكار نظام معقد لرفع الكفاءة إلى الحدود القصوى. فحوالي الثلث من العاملين الذين كان شومَخَر قد استخدمهم كانوا رجالاً؛ في حين كان الثلثان الباقيان من النساء والأطفال. والرجال جرى تقسيمهم إلى فرق تألفت كل منها من خمسة أشخاص. اثنان منهم كانا يقومان بالحفر الفعلي بالمعول والرفش، في حين كان الثلاثة يملؤون سلالاً من القش بالتربة المخلخلة. ومع كل من (فرق الحفر) هذه كانت مجموعة مؤلفة من حوالي خمس عشرة امرأة ينقلن السلال المملوءة على رؤوسهن إلى سفوح التل المنحدرة للردم. وعدد قليل من المراقبين المحليين كانوا يتجولون بين الفرق، ليضمنوا حسن سير العمل بالسرعة القصوى. وكانت تدفع مكافآت معينة للعمال الذين يجدون لقى مثيرة أو فريدة. وكان الأجرة تدفع مرة كل أسبوعين. أما المعدل الوسطي ليوم العمل فكان عشر ساعات. وفي ظل الألمان، كان علم الآثار الكتابي يتحول بسرعة إلى صناعة منظمة بدقة.

بعد توقف مؤقت خلال الصيف، بدأ الموسم الثاني من التنقيب في تل المتسلم في العشرين من شهر أيلول، تحت إدارة الدكتور إيمانويل بنتسِغر[9] من [رابطة فلسطين الألمانية] لأن غوتليب شُومَخَر استدُعي

للاضطلاع بمهمة خاصة. كانت طبيعة تلك المهمة كانت تعبيراً آخر عن تصميم القيصر على المطالبة بحصة ألمانيا من الآثار القديمة في الأرض المقدسة. فكما أشارت نشرة [صندوق استكشاف فلسطين الربعية] بفزع، كان نشاط غير اعتيادي من جانب الألمان قد لوحظ في الأشهر السابقة في خان ماشطة بشرق الأردن. فالآثار الأُمَويّة الوفيرة هناك كانت قد قُدّمت هدية من السلطان إلى القيصر، ووظيفة غوتليب شُومَخَر الجديدة تمثلت بالإشراف على عملية استخراج تمثال خان ماشطة الرخامي لشحنه إلى المتحف الإمبراطوري ببرلين. وقد ورد في أحد تقارير اللجنة التنفيذية لصندوق استكشاف فلسطين ما يلي: «من المفهوم أن الإمبراطور، حين أوعز بالتحطيم الفعلي لهذا التمثال الفريد والرائع، كان ينطلق من مشورة العديد من المستشرقين وعلماء الآثار الألمان المرموقين». وعملية النقل الإجمالي للآثار القديمة أقحمت عنصراً جديداً على الصراع في سبيل الآثار الكتابية، ولكن البريطانيين كانوا عاجزين عن فعل أي شيء أكثر من الاحتجاج في ضوء الروابط السياسية والاقتصادية المتطورة بين ألمانيا والإمبراطورية العثمانية.

في ربيع عام (1904 م) عاد شُومَخَر ليتولى قيادة أعمال التنقيب في مجدُو، والمسعى المتجدد الذي أطلقته الحكومة الألمانية هذه المرة جعَل سائر المساعي البريطانية السابقة في فلسطين تبدو متواضعة فجأة. فشُومَخَر رفع عدد عماله المياومين إلى حوالي المئتين، وخلال موسم دام من بداية نيسان إلى آخر أيار، كشف النقاب عن سور مديني عملاق، ومذبح كنعاني، وبقايا قربانية، سلطت أضواء جديدة على حضارة ما قبل الحقبة الإسرءيلية. وما هو أكثر أهمية حتى من ذلك هو اكتشاف خاتم منقوش بشكل جميل من اليشب حمل الكتابة العبرية القديمة التالية: «إلى شما، خادم يربعام». وهذا الخاتم الرسمي كان بيضوياً وعليه صورة أسد يزأر. واكتشافه شكل المرة الأولى التي يتم فيها العثور على اسم الملك يربعام، أحد عواهل مملكة إسرءيل الشمالية في القرن الثامن قبل الميلاد في أي مصدر آخر غير الكتاب نفسه.

أثار النجاح المضطرد للألمان في تل المتسلم قدْراً من العصبية لدى أعضاء صندوق استكشاف فلسطين، فبادروا في عام (1906 م) إلى تقديم طلب يلتمسون فيه تمديد مدة صلاحية الفرمان الخاص بجازر. أما مكلستر فقد تم الإيعاز له بالعودة إلى لندن للمساعدة في عملية جمع التبرعات اللازمة للحفريات الجديدة عن طريق إلقاء المحاضرات في الروابط المحلية التابعة لصندوق استكشاف فلسطين حول لُقاه في جازر وحول التهديد الخطير الذي يتعرض له التفوق البريطاني في ميدان علم الآثار الكتابي. ومما قاله في إحدى محاضراته إن «في الوقت الذي نرحب فيه بالجمعيات الشقيقة علينا ألا نتخلف عنها».

لسوء حظ صندوق استكشاف فلسطين فإن تجديد الفرمان المتعلق بالحفر في جازر لم يفعل شيئاً ذا بال على صعيد كبح موجة النشاط الأثري الألمانية في الأرض المقدسة. ففي عام (1905 م) فيما كانت الحفريات في تل المتسلم مستمرة بأقصى سرعتها، قامت جمعية القيصر الشرقية الخاصة بإيفاد عالمي الآثار هاينريش كول[10] وكارل فَتسنْغَر،[11] لإجراء أعمال تنقيبية في أطلال كُنُس الجليل القديمة. وحتى ذلك التاريخ لم يتم الكشف إلا القليل عن فترة العهد الجديد؛ وأعمال التنقيب الألمانية في تل حوم كشفت عما قيل بأنه بقايا كنيس كفر ناعوم، حيث كان يسوع قد وَعَظ. ومع حلول عام (1907 م) بدأ إرنست سلّين بأعمال الحفر برعاية (وتمويل) [أكاديمية فيينا للعلوم] عند موقع مَدَينة أريحا القديمة، المدينة الكنعانية الشهيرة التي دمرها يشوع والقبائل الإسرءيلية. وجاء شُومَخَر إلى أريحا لمساعدته. أما (مضرب الخيام الملكي) لزيارة القيصر إلى الأرض المقدسة في عام (1898 م) فكانت الحكومة الألمانية قد اشترتها، والمبنى الضخم الذي شيد في المكان ما لبث أن أصبح المقر الرئيسي لمعهد الآثار الألماني لاستكشاف فلسطين. وعلى صعيد النشاط المجرد، على الأقل، كان البريطانيون يتخلفون كثيراً عن الركب دون أدنى شك.

أما على الجبهة السياسية فقد كان تعاون القيصر مع السلطان مستمراً. فبإشراف مهندسين ألمان مزودين بأحدث المحركات (القاطرات) وناقلات

الجنود العسكرية الألمانية، بدأ العمل لمد خط حديدي جديد من دمشق إلى مكة. قام [المصرف الألماني الفلسطيني][12] بالإفادة من الأصول العملاقة للمؤسسة الأم في ألمانيا، بضخ كميات كبيرة من الرساميل الجاهزة في الاقتصاد الفلسطيني الموشك على الاستيقاظ والنهوض. فالصعود الألماني الجديد على صعيد علم الآثار الكتابي لم يكن إلا عَرَضاً من أعراض التوغل الألماني الشامل في الشرق الأوسط. غير أن تأثير ذلك الصعود كان من شأنه أن يغير ميزان القوة الأثري في الأرض المقدسة. فالبريطانيون كانوا قد أضاعوا تفوقهم؛ والآن باتت مستلزمات النجاح الأولية متمثلة بالمال والنفوذ السياسي.



16) المنهج الأمريكي: بدايات خاطئة ونجاحات في سامريا (1905-1910م)

أخيراً باتت أمريكا بداية القرن، بمدنها المتفجرة ازدحاماً، وبمصانعها الصاخبة ضجيجاً، وبجامعاتها المتنعمة بالتبرعات السخية، مهيأة لاستئناف احتلال مكانها في ميدان استكشاف فلسطين. فالعمل الطليعي الرائد لكل من روبنسن ولينتش لعب دوراً حاسماً في عملية التأسيس لعلم الآثار الكتابي؛ وعلى الرغم من أن مساهمة أمريكا تراجعت وتعثرت منذ زوال [جمعية استكشاف فلسطين النيويوركية][1] في سبعينيات القرن التاسع عشر، فإن الوقت والمال اللازمين للعودة من جديد باتا آخر الأمر متوافرين. ففي عام (1895 م) قامت [جمعية الأدب والتفسير الكتابيين][2] بجمع (شراكة) واسعة ضمت الجامعات الأمريكية في سبيل تأسيس مدرسة أمريكية دائمة للبحوث الشرقية في القدس. وبمساهمة سنوية بلغت مئة من الدولارات من كل مؤسسة عضو مع تبرعات خاصة كبيرة، تم شراء دارة حجرية واسعة في القدس، وفي عام (1900 م) سافر البرفسور تشارلز ك. توري[3] من جامعة ييل إلى فلسطين للإقامة هناك بوصفه البرفسور السنوي الأول للمدرسة الأمريكية.

ما لبثت المؤسسة الأمريكية الجديدة أن احتلت مكانها بين المؤسسات الأثرية الأجنبية الأخرى في المدينة؛ وفي غضون العقد الأول من القرن العشرين، توافرت لعدد غير قليل من الباحثين الأمريكيين فرصة قضاء

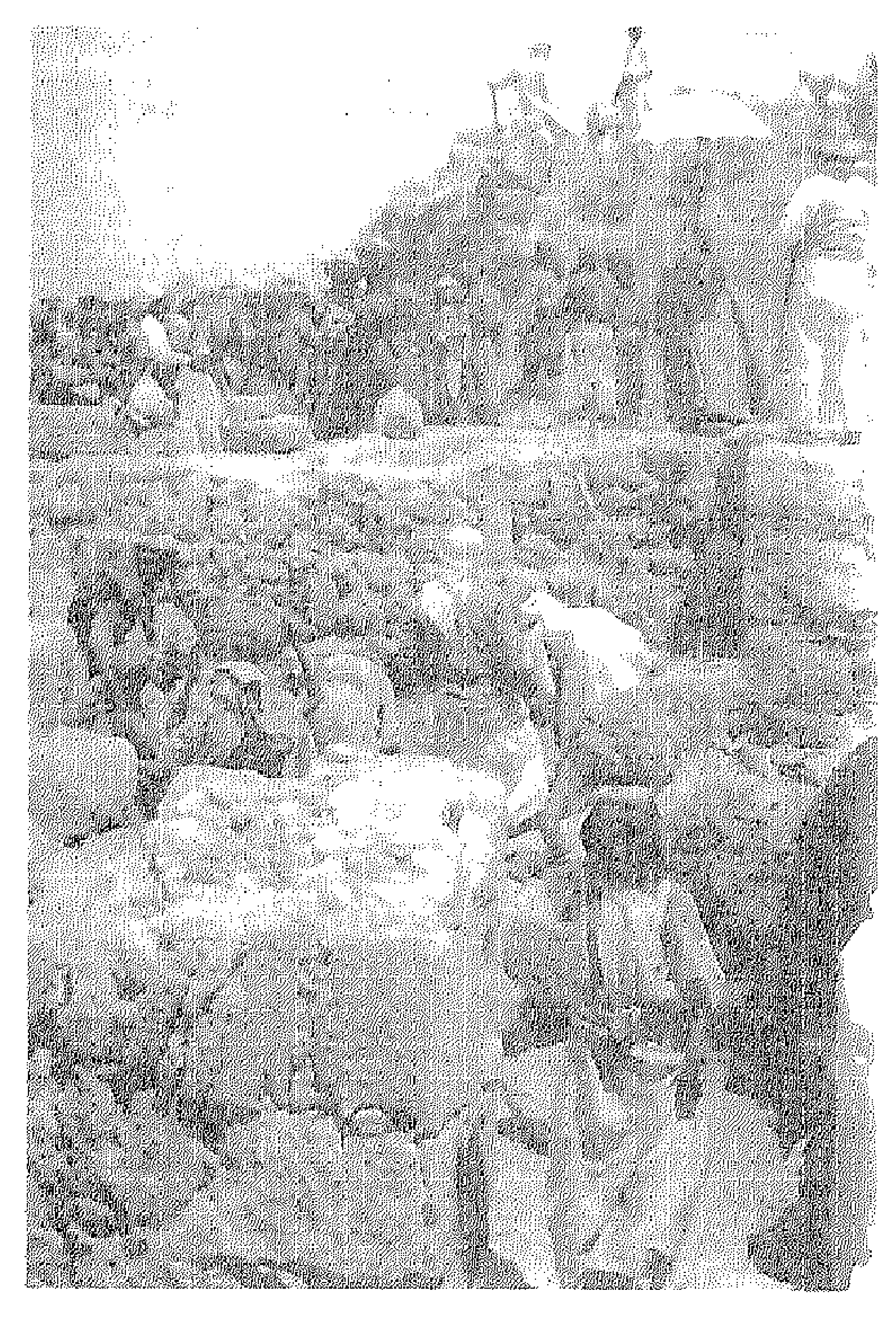
عام في فلسطين وتعميق فهمهم آثار البلاد وثقافتها عوناً لهم في إجراء بحوث كتابية جادة. غير أن تأسيس المدرسة الأمريكية لم يكن إلا بداية، لأن الحضور الأمريكي المتواضع والبعيد عن التباهي في فلسطين كان متناقضاً بشكل صارخ مع الفعاليات الأثرية المكثفة التي كان الأمريكيون يقومون بها في أجزاء أخرى من الشرق الأوسط.



موقع تنقيب أمريكي قرب نابلس

ففي وقت مبكر يعود إلى عام (1889 م) أوفدت جامعة بنسلفانيا بعثة إلى ما بين النهرين؛ وأثبتت نتائج عملها أنها كانت تضاهي نتائج الحفريات الجارية من قبل البريطانيين والألمان والفرنسيين. وحصيلة ذلك الاستطلاع الأول كانت فيضاً من التبرعات من أولياء نعمة الجامعة الأثرياء ومباشرة أعمال تنقيب أمريكية واسعة في موقع مدينة نيبور القديمة. أما في مصر، على الطرف المقابل من الهلال الخصيب، اقتحمت جامعة كاليفورنيا المؤسسة حديثاً الساحة بعملية تنقيب جيدة التجهيز خاصة بها في ظل الرعاية السخية والكريمة للسيدة فويبه أبرسون هرسْت.[4] وحفزت الغلة الوفيرة التي جنتها هذه الحفريات الأمريكية من الآثار المصرية جامعة هارفارد، بالتعاون مع [متحف بوسطن للفنون الجميلة][5] على رعاية وتمويل المزيد من أعمال التنقيب في مصر، بحثاً عن الكنوز الفنية من جهة والحقائق العلمية من جهة أخرى.

كان قائد الحفريات الأمريكية في مصر شخصاً يدعى جورج أندرو رايسنر،[6] يمثل، جنباً إلى جنب مع و. م. ف. بتري، إحدى القوى الأكثر فاعلية في عملية تطوير تقنيات علم الآثار. ورايسنر هذا كان يعمل بوتيرة أبطأ بكثير من البريطانيين والألمان الذين كانوا يستخدمون جيوشاً جرارة من العمال غير المدربين لإزاحة كميات كبيرة من الأنقاض القديمة. فالهدف بالنسبة إليه، كان التفصيل العلمي لا حجم العمل، وحاول انتزاع كل ذرة من البيّنات ذات العلاقة من المساحات المحدودة التي اختارها للنقب. وفيما كان علماء الآثار الآخرون يدفعون للعمال مكافآت على الآثار واللُقى، فإن رايسنر كان يرى أن مجرد حيازة الأشياء لم تكن كافية؛ فتحديد مواقعها في طبقة الطمي كان منطوياً، بنظره، على أهمية موازية. وبالتالي فإن رايسنر انتقى عماله بعناية، ودفع لهم أجوراً جيدة، ودربهم على إدراك حقيقة أن عملهم لم يكن مجرد حفر للخنادق. والهدف الذي كان يصبو إليه هو خلق (منظمة عاملة تتقيد، بصورة اعتيادية، بالمبادىء الموضوعية للعمل الكفؤ).



البروفسور ريسنر يشرف علو موقع جامعة هارفارد للتنقيب : الآثار قرب مدينة نابلس

ما لبث العديد من اللّقى التي كشف عنها رايسنر وطواقم العمل المنظمة جيداً عنده أن شقت طريقها إلى مجموعات [متحف هارفارد للساميات][7] الذي تأسس في عام (1889 م) كملحق لقسم الساميات[8] الجديد بالجامعة. وبين مؤسسي ذلك المتحف كان مصرفي نيويوركي ثري ومحب للأعمال الخيرية يدعى جاكوب هنري شف[9] الذي لم يكن دعمه للبحوث الأثرية الأمريكية إلا واحداً من مساعَيه الخيرية الكثيرة. وبوصفه أحد قادة حركة الإصلاح اليهودية الأمريكية أبدى شيف هذا اهتماماً خاصاً بالتنقيب عن المدن الكتابية الذي كان جارياً آنذاك في فلسطين. ومع حلول عام (1905 م) أحس بأن الوقت كان قد حان ليبادر متحف هارفارد السامي إلى اقتناء بعض الآثار الكتابية القديمة التي تخصه هو. وبقناعة شيف كان يتعين على أية حفريات أمريكية في فلسطين أن تتم بمستوى يوازي، على الأقل، مستوى حفريات البريطانيين والألمان. ولضمان مثل هذا المستوى العلمي الأعلى، تبرع بالمبلغ الضخم الذي وصل إلى خمسين ألفاً من الدولارات - وهو أكثر من خمسة أضعاف الميزانية الأولية للحفريات الألمانية واسعة النطاق في تل المتسلم. أما رئيس جامعة هارفارد تشارلز إليوت[10] فبادر إلى العمل بتقديم مساعدته السخية وبتشكيل (لجنة حول استكشاف الشرق) مؤلفة من أبرز الباحثين الكتابيين والمؤرخين وعلماء الآثار في الكلية.

ما لبث أعضاء اللجنة أن أجمعوا على اختيار تل سبسطية الواقع على بعد حوالي خمسة وثلاثين ميلاً إلى الشمال من القدس موقعاً للتنقيب. ومن الواضح أن هذا الاسم العربي الحديث كان مأخوذاً من الاسم الإغريقي (سبسطة)[11] الذي كان هيرودس الأكبر قد أطلقه على المدينة في القرن الأول قبل الميلاد. وقد شيدت مدينة هيرودس على أنقاض سامريا (سبسطية) عاصمة مملكة إسرءيل الشمالية القديمة؛ هذا الإغراء المزدوج جعل الموقع ذا جاذبية خاصة. فالإشارات الكتابية إلى سامريا كثيرة، لأنها كانت منافسة للقدس حتى دمرها الآشوريون عام (722 ق. م). وقصور سامريا الباذخة ومبانيها العامة الفاخرة التي شادها الملك عُمري وابنه أحاب كانت تُعدُّ ببعض أكثر الاكتشافات إثارة في فلسطين، وهو وعد كشفت عنه بوضَوح حقيقة أن كلاً من صندوق استكشاف فلسطين

و[جمعية الشرق الألمانية][12] بل وحتى القنصل الاسباني في القدس، كانوا قد عبروا، في أوقات مختلفة، عن الاهتمام بالعمل هناك.

ولكن الأمريكيين كانوا عازمين على قطع الطريق على أي ادعاءات منافسة. ففي صيف عام (1905 م) قدمت لجنة هارفارد عريضة رسمية تطالب بإذن تنقيب إلى حمدي بك في المتحف السلطاني بالقسطنطينية، وقامت باختيار مدير أثري. ولكن ذلك ما لبث أن تبين أنه أمر صعب بصورة غير متوقعة، لأن العدد القليل من الأمريكيين من ذوي الخبرة العملية في ميدان الآثار الفلسطينية، مع الاستثناء الملحوظ لفريدريك بلس، كانوا إما رجال دين أو هواة يسعون وراء تأكيدات تاريخية لصحة الكتاب. أما حفريات هارفارد في سامريا فكانت مصممة لا كمشاريع لاهوتية بل كأعمال علمية، وبالتالي فإن اللجنة لاذت أخيراً بأمريكي دون أية تجربة سابقة في الأرض المقدسة هو المتخصص المشهور بالدراسات المصرية جورج أندرو رايسنر.

كان رايسنر، مثله مثل بيتري قبله، تواقاً لمد أبحاثه المصرية إلى داخل فلسطين، مما جعله يقبل بالوظيفة. وفي تشرين الثاني سافر إلى القسطنطينية للاجتماع بحمدي بيك والحصول على الفرمان الضروري. كما أخذ معه مبلغ خمسة آلاف دولار إضافي قدمه شيف لتغطية النفقات المألوفة المصاحبة لأي تفاوض مع السلطات العثمانية. وتأكيداً منه لمدى الأهمية التي تعلقها أمريكا على العمل، حمل في جعبته أيضاً رسالة توصية شخصية من رئيس الجمهورية الأمريكي تيودور روزفلت.

وفي العاصمة العثمانية استُقبل رايسنر بحرارة، وهمس حمدي بيك في أذنه مؤكداً أن إذن التنقيب ستتم الموافقة عليه بسرعة. غير أن أسابيع الانتظار ما لبثت، مع مرور الوقت، أن تراكمت لتصبح شهوراً. فوافق رايسنر على عقد مدته ثلاث سنوات مع الحكومة البريطانية قضى بالإشراف على التنقيب عن بعض المقابر النوبية القديمة المتوقع غمرها بالسد الجديد في أسوان، وغادر القسطنطينية مشحوناً بالقرف والاشمئزاز. وهكذا انتهت قصة فرمان سامريا. فلا المال ولا النفوذ السياسي الأمريكيان كانا قادرين على جعل حلم جاكوب شف بالتنقيب الفلسطيني يتحقق.

ولدى وصول إذن التنقيب في سامريا بصورة غير متوقعة إلى هارفارد في تشرين الثاني من عام (1907 م) فوجىء جميع أولئك الذي كانوا على علاقة بالخطة الأصلية تماماً. فما من أحد كان قد أدرك أن صمت القسطنطينية الطويل ربما كان مجرد عَرَض من أعراض العطالة البيروقراطية بدلاً من كونه رفضاً صريحاً، غير أنَّهم سارعوا إلى التغلب على دهشة المفاجأة. فجاكوب شف عرض مبلغٍ الخمسين ألفاً من الدولارات ثانية، ورايسنر الذي تم الاتصال به برقياً في النوبة وافق على أخذ إجازة من عمله في مصر. غير أن التزاماته لم تكن لتسمح له بالبقاء في سامريا أكثر من فترة البداية الأولى لأعمال الحفر، مما استدعى وجود خلف كفؤ قادر على المتابعة. عرضت لجنة هارفارد الوظيفة على المنقب الفلسطيني الأوفر خبرة الذي تمكنوا من الاهتداء إليه، وقوبل العرض بالقبول؛ فالحفريات الأمريكية كانت ستتم بقيادة الدكتور غوتليب شومَخَر المراسل السابق لصندوق استكشاف فلسطين ومدير أعمال التنقيب الواسعة في تل المتسلم بالذات ولا أحد غيره.

ومع نهاية شهر نيسان من عام (1908 م) غادرِ جورج رايسنر عمله في النوبة ليسافر إلى فلسطين ويلتقي بغوتليب شومَخَر على تل سامريا. جسدياً كان الرجلان متشابهين، مهيبين، مصممين وواثقين؛ وكان كل منهما مدمناً على شغل منصب السلطة والمرجعية في مجال البحث عن الآثار القديمة. غير أن شُومَخَر لم يكن، بنظر رايسنر، إلا عميلاً تم استخدامه بالأجرة لتنفيذ مخططات مرسومة بالتحديد. بادر رايسنر إلى معاينة معالم الموقع بدقة وحدد ما اعتقده أكثر المناطق انطواء على الوعد لعملية التنقيب. كما أشرف بعناية على استئجار قوة العمل وأمر العمال بفتح خنادق على قمة التل حتى يصبح شومَخَر، مطلعًا تحت توجيهه، على التقنية الأثرية المرجوة. ومع حلول أوائل حزيران شَعر جورج رايسنر بالثقة بأن الإطار العلمي السليم لاستمرار أعمال التنقيب بات راسخاً. وظاهرياً عبر شُومَخَر عن موافقته. سارع البرفسور الهارفاردي إلى حزم حقائبه وغادر سامريا مطلقاً يد وكيله الألماني.

كان غوتليب شُومَخَر رجلاً عملياً قبل كل شيء، وكان قادراً على إدارة عملية التنقيب في تل المتسلم بفضل قوة شخصيته، إذ سجل اللّقى، ووضع مخططات سائر الآثار، وأعَدّ خرائطه الخاصة لأعمال التنقيب، بل وأشرف حتى على توزيع الأموال أيام الدفع. وكما كانت الحال مع مكلستر في جازر، فإن نجاح الحفريات الأثرية قيس، إلى حد بعيد، بمدى قوة مديرها؛ وكانت تلك القوة مستمدة، في المقام الأول، من التمويل الداعم للمدير، وتحت تصرف شُومَخَر مبالغ تزيد عما توفر لأي منقب سابق في فلسطين.

ما لبث العمال أن كشفوا عن دَرَجٍ رخامي عريض قرب قمة المرتفع، أمرهم شُومَخَر باظهاره كاملاً. وكانت ثمة بقايا بناء عملاق، هو، دون شك، هيكل أوغسطس الذي كان هيرودس العظيم قد بناه في الموقع. ومع أن شُومَخَر بحث عن هندسة معمارية أثرية في تل المتسلم، فإنه لم يعثر إلا على القليل منها. أما هنا فقد كوفىء في محاولته الأولى. وعلى الرغم من أوامر الدكتور رايسنر القاضية بحصر العمل في خنادق محددة بعناية، فإن شُومَخَر أمر بالكشف عن الهيكل كله. وفي الأسابيع التالية عثر العمال على أرضية فسيفسائية، ومذبح نذري من الحقبة الرومانية، ومستودع مُقَنْطَر، وتمثال ملكي ضخم. هذا الغنى الأثري لم يكن مسبوقاً ـ وشُومَخَر لم يكن قد بدأ حتى بسبر بقايا الحقبة الإسرائيلية الكامنة في العمق.

زاد شُومَخَر خلال شهر آب اللهّاب، من وتيرة العمل في الموقع عازماً على الكشف عن كامل قمة التل. فقد رفع عدد القوى العاملة إلى أكثر من أربعمئة، أي ضعف العدد الذي كان قد استخدمه في تل المتسلم، وأمر بإزاحة كميات كبيرة من الأتربة والأنقاض عن البقعة المحيطة بالهيكل. وفي الحادي والعشرين من آب اختتم موسم الحفر الأول وصرف العمال. أما شُومَخَر نفسه فأمضى عدداً من الأيام في الموقع وحده عاكفاً على استكمال أعمال التصوير الضوئي، والقياسات، وقوائم اللّقى، والحسابات؛ وأمر (بتغليف) التمثال الرخامي (بألواح سميكة) وتخزينه في الموقع.

قضى شُومَخَر، الفخور بكميات الآثار القديمة التي كان قد كشف النقاب عنها في الموسم الأول من الحفر، خريف عام (1908 م) منكباً

على إعداد تقريره. فبعد أن كشف تعنك، ومَجدّو، وسامريا الآن، كان ممكناً، دون أدنى شك، اعتباره أكثر علماء الآثار خبرة في فلسطين. غير أن هذه الخبرة لم تكن كافية لإرضاء أرباب عمله الأمريكيين. فبعد استعراض المواد التي كان شومَخَر قد أرسلها، أبلغ جورج رايسنر، ببرود، لجنة هارفارد بأن «النتيجة المرجوة لم تتحقق بصورة كاملة على ما يبدو» رغم كل الأموال والجهود التي كانت قد أُنفقت على أعمال التنقيب في سامريا. فشومَخَر النشوان جراء المبالغ الطائلة الموضوعة تحت تصرفه، قد كان قلب المسعى الأمريكي إلى ما ليس أكثر من ركضٍ وراء الثروة. وقد كتب رايسنر يقول: «من معاينة ملاحظات الدكتور شومَخَر وخطته والخنادق نفسها، لم أستطع أن استخلص أكثر من حقيقة أن هيكلاً كان موجوداً على القمة، وأن الأنقاض كانت تغوص في العمق باتجاه الجرف الغربي.. باختصار مشكلة تاريخ الموقع كلها بقيت بحاجة إلى حل».

بنظر الأمريكيين لم تكن الآثار المنفردة منطوية إلا على أهمية ثانوية. ومع ذلك فإن المحصلات الرئيسية لحفريات سامريا كانت فهرس لُقى دون تواريخ، وأساسات جدران متشابكة، وتمثالاً مُصَنْدَقاً. ومتفقة في الرأي مع مشورة رايسنر قررت لجنة هارفارد أن من غير الحكمة نشر التقرير، وبهدوء طالبت كاتبها بالاستقالة. ولكن شومَخَر سرعان ما شغل على الفور وظيفة جديدة في الحفريات النمساوية الجديدة الجارية في أريحا. أما الأمريكيون فقد يُترك موقعه نصف المحفور ومشكلة كيفية التعامل معه. وإنقاذاً للفترة المتبقية من الفرمان تمت الموافقة على وجوب اضطلاع رايسنر بكامل المسؤولية. فعقده مع الحكومة المصرية كان سينتهي في الربيع القادم، ويعود بالتالي، إلى جبل سامريا، ليبدأ من الصفر إذا اقتضى الأمر، من أجل القيام بدراسة متأنية ودقيقة لبقايا مدينة عمري وأحاب الملكية.

لدى وصوله إلى موقع العمل في أيار عام (1909 م) بدأ رايسنر عمله بتقليص قوة العمل كثيراً، معيداً استخدام (62) فقط من العمال الأربعمئة وخمسون لدى شومَخَر. أما الخنادق العشوائية المثلّمة على قمة التل في الأنقاض الثمينة مثل جروح مفتوحة، والردميات الكثيرة المراكمة إلى جانبها فقد ألقت بظلال الغموض على الامتدادات المحتملة للأسوار

القديمة. ولمعاينة النتائج التي حققها شُومَخَر كان لا بد من إزاحة الردميات، مما اضطر رايسنر أن يكرس الأسبوع الافتتاحي لعملية النقب على هذه المهمة غير السارة. وبعد تقسيم الموقع إلى قطاعات متساوية، أوعز للعمال بالحفر في قطاع بعينه في المرة الواحدة، وملء القطاعات المنقوبة بالردميات المأخوذة من نظيرتها التالية. ذلك هو النهج الذي كان قد اعتمده مكاليستر في جازر، وقد مكّن رايسنر من وضع خريطة الإطار الإجمالي الكُلي لمخطط المدينة القديمة، مع إعادة الأرض، في الوقت نفسه، إلى حالتها السابقة كما كان مطلوباً في الفرمان.

غير أن خطة رايسنر الأصلية، المتمثلة بحفر الطبقات القديمة المتعاقبة بصورة منفصلة، أثبتت أنها مستحيلة. ففكرة أن المدن الفلسطينية القديمة كانت مشادة الواحدة فوق الأخرى كانت صحيحة نظرياً، ولكن تلك الطبقات المتعاقبة كانت، في الواقع، متداخلة ويصعب تمييز بعضها من البعض الآخر. وبما أن البنّائين في كل مرحلة من مراحل تاريخ سامريا قد كانوا أعادوا استعمال حجارة مأخوذة من مبان عائدة إلى الطبقة السابقة، أو قاموا، كما في الحقبة الرومانية، بغرز أساساتهم موصلينها إلى الأرضية الصخرية في العمق، فإن بقايا المراحل المختلفة غالباً ما تم العثور عليها جنباً إلى جنب بدلاً من أن تكون متراصفة بعضها فوق البعض الآخر. وبسبب عدم فهم هذه الظاهرة فإن جميع الحفريات الأثرية في فلسطين كانت، حتى ذلك التاريخ، قد أخطأت خطأ فاحشاً في استنتاجاتها التاريخية. ولكن هذا كان لن يلبث أن يتغير قريباً لأن رايسنر تصدى لمشكلة تراصف طبقات الأرض بعبقريته النموذجية وتوصل إلى اكتشاف سر ما كان من شأنه أن يشكل المبدأ الإرشادي بالنسبة إلى سائر أعمال التنقيب المستقبلية في الأرض المقدسة، والمتمثل بأن طبقات الأنقاض في المواقع القديمة كانت تنطوي على أهمية موازية لأهمية الآثار التي كانت تغطيها.

استطاع رايسنر من خلال دراسة الجوانب المقطوعة بحدة لخنادق التنقيب بعين (الجيولوجي) النقدية المحللة، أن يميز نقاط العلام المميزة للفواصل في الإشغال، والتدمير، وإعادة البناء. فإنشاء كل جدار كبير كان

يتطلب حفر أساس في بقايا الطبقة السابقة. ومن خلال تعقب أثر مسار الخندق القديم بدقة، تمكن رايسنر من الاهتداء إلى الخط الفاصل بين المرحلتين. وعلى الرغم من أن دراسة الأواني الخزفية لم تكن قد تطورت إلا قليلاً منذ أيام بتري، فإن رايسنر استطاع أن يحدد بدقة التواريخ النسبية للأواني الخزفية المكتشفة في كل من الطبقات المحددة.

ما من موقع فلسطيني كان قد تعرض، من قبل، لمثل هذه المعاينة الدقيقة، والمناهج الجديدة التي تم استحداثها في سامريا تطلبت قدراً أكبر بكثير من المهارة من جانب العمال المحليين. فالمسؤول عن عملية التنقيب ما عاد قادراً على الجلوس المريح في ظل خيمته الظليلة ليراقب منها قيام فرق العمل بالإنقضاض على الأرض تمزيقاً. فقد قال رايسنر «يجب أن نتذكر أن العمال ليسوا إلا أيدي المُنَقِّب، وكلما كان الارتباط بين الحافرين الفعليين من جهة والذكاء الموجِّه من الجهة المقابلة أوثق، كانت النتيجة أكثر بعثاً على الرضى». ومن أجل تحسين هذا الارتباط، عمد رايسنر إلى اصطحاب فريق صغير من رؤساء الوُرَش المصريين المدربين تدريباً عالياً ممن عملوا معه في [بعثات هيرست وهارفارد][13] واكتسبوا خبرة كبيرة في ميدان الإشراف على أعمال التنقيب. وقد أثبت المصريون، ذوو الأثواب البيضاء الواقفون فوق أكوام الأنقاض المحفورة حديثاً، أنهم معلمون يتمتعون بالكفاءة.

وللتحكم بوتيرة العمل ونوعيته، وضع رايسنر قائمة طويلة من التعليمات التي تعين على العمال أن يراعوها؛ فقد كان على جميع العمال أن يأتوا يومياً دون انقطاع؛ وكان عليهم إطاعة أوامر المصريين كافة؛ ويجب أن يبقى العمل مستمراً، ويتعين على جميع السلال أن تكون مملوءة تماماً. أما الشجار والعراك فكانا محظورين حظراً باتاً، مثلهما مثل الكلام والأغاني. غير أن رايسنر قال: «لكن أهازيج العمل العادية كانت تلقى التشجيع، لأنها كانت تساهم في إزالة الضجر الناجم عن رتابة عمل النهار». ونظراً للشروط الصارمة والأجور العالية التي كان عمال رايسنر يحصلون عليها، فإن أسراً كاملة كانت غالباً تتقاسم أجرة واحدة في سبيل تجزئة عبء العمل الكبير الذي كان يمثله بالنسبة إلى أي عامل فرد.

ومثله مثل مدير مزهو لمصنع أمريكي مزدهر، كان البر وفسور الهارفاردي قد أنجز ما ليس أقل من ثورة تقنية في علم الآثار الكتابي. وقد جاء في أحد تقاريره المفعمة بالاعتزاز والمرفوعة إلى رؤسائه هناك في الولايات المتحدة :

«قبل انتهاء العام الأول بوقت طويل أصبح لدينا جهاز من ذوي الانضباط الجيد، ممن اكتسبوا مهارة وجَلَداً مع كل يوم يجري استخدامهم فيه».

وفي تناقض صارخ مع جل علماء الآثار الذين عملوا في فلسطين من قبل، أدرك رايسنر أن فعل التنقيب كان، في الحقيقة، فعل تدمير وتخريب، وأن ما من شيء سوى السجلات الكاملة المتضمنة لسائر أجزاء العمل كان من شأنه أن ينقذه لأجيال المستقبل. فإضافة إلى يومياته العامة عن العمل والخطط والخرط الاعتيادية التي كان جميع المنقبين معتادين على رسمها، أصر رايسنر على وضع القطوع الرأسية الكاملة والتصوير الضوئي المستمر، مع جلب المسودات إليه ليراقبها كل صباح. وكل لُقية تم استخراجها في أثناء العمل كان يجري تسجيلها في بطاقة مرقمة تحمل المعلومات الكاملة عن المكان الذي تم العثور عليها فيه، جنباً إلى جنب مع صورة ضوئية. وكل بطاقة كانت تكتب على عدد من النسخ حتى يتم ترتيبها إما حسب النمط أو حسب الموقع. وحتى المزق والشظايا المهملة كانت تُسجل وفقاً لهذا النظام. وكان رايسنر واثقاً من أن الطبيعة الكاملة للأنقاض كانت ستكون قد سُجلت بدقة لدى انتهاء أعمال التنقيب. وعلماء الآثار في المستقبل قد يتمكنون من مناقشة استنتاجاته، غير أن ما كان قد عثر عليه، أو المكان الذي عثر فيه عليه لن يكون موضوعاً لأي تساؤل.

وبعد ستة أشهر تقريباً من الحفر المتواصل انتهى في أوائل تشرين الثاني الموسم الأول من حفريات هارفارد في سامريا تحت إشراف جورج رايسنر الذي أمضى أشهر الشتاء الماطر في مناخ مصر الجاف نسبياً، وعاد إلى سامريا أول حزيران التالي لاستئناف العمل. وفي الموسم الثاني للحفر تم اتباع المناهج نفسها، وكان رايسنر مسروراً إذ رأى أن تعطيلا للعمل لمدة سبعة أشهر لم يكن قد أثر سلباً على انضباط عماله، فقد علق باعتزاز قائلاً: «كل أخذ مكانه في الرتل، وبدأ العمل دون أي تعثر، كما لو كنا قد تركنا بالأمس».

ومرة أخرى تواصل العمل خلال الصيف وحتى الخريف. وإضافة إلى إعادة تحديد تراصف طبقات المعبد الروماني وتعقب حدود مدينة هيرودس، قام رايسنر وعامليه بالكشف عن بقايا كثيرة من العاصمة الإسراءيلية القابعة تحتها. وبعد التحليل بالغ الدقة للمتوضع من الأنقاض، تمكن رايسنر من تمييز سلسلة من أسوار التحصين الإسرائيلية ومن الشروع بعملية إعادة بناء علمية لتطور المدينة في العهود الكتابية. وعلى الرغم من أن كثيراً من لُقاه كان سيعاد النظر بها في أثناء حفريات لاحقة في ثلاثينيات القرن العشرين، فإن قيمة المعلومات التاريخية والأثرية التي راكمها بقيت موضع احترام.

ومما لا شك فيه أن لُقى حفريات سامريا الأكثر إثارة كانت مجموعة تضم أكثر من ستين قطعة أوستراكا[14] [قطع أواني خزفية منقوشة (المترجم)] تم اكتشافها على أرضية أحد المباني الإسرءيلية. و(الأوستراكا) السامرية المكتوبة بخط يد عبري موصول يعود إلى القرن الثامن قبل الميلاد سلّطت ضوءاً درامياً جديداً على الحياة اليومية في الفترات الكتابية اللاحقة. فالكتابات المنقوشة عليها كانت سجلاً لدفعات الضرائب والرسوم على الخمر والزيت المنتج في المناطق القريبة من العاصمة الإسرءيلية، كما أن العديد من الأسماء الشخصية المذكورة بدت شديدة الشبه بالأسماء الدارجة المستخدمة في الكتاب.

ولأن الفريق الأمريكي قام بالتنقيب بهذا القَدْر من الكمال والجدية، فإن مستوى جديداً كان قد ترسخ لمجمل أعمال التنقيب الأثرية المستقبلية في فلسطين. وما لبث علم الآثار الكتابي أن بدأ يتحرر بسرعة من روابطه القدسية جراء ظاهرتي التخصص والمنهجة المتزايدتين. فبدلاً من هذا الأثر الغريب هنا، واسم المكان الآخر الذي تم التعرف عليه هناك، ثمة الآن إعصار من التقارير ذات المستوى الفني الرفيع والاستنتاجات المخترقة للثقافات. أما الأهداف التقية للمستكشفين الرواد فقد كانت قد باتت غير ذات شأن بالنسبة إلى العلماء المختصين في بدايات القرن العشرين. فعملية الحفر نفسها غدت الفن الحديث.

17) أسرار جبل الهيكل:
طموح وجشع، وجري وراء الثروة في القدس
(1909-1911م)

تبقى الجذور الشخصية لفالتر هـ جوفيليُوس[1] ملفوفة بالغموض. فيبدو أن هذا الفنلندي، الثري ثراء واضحاً، كان مهووساً بموضوعي النزعة الروحانية والآثار الكتابية وقد سُمع عنه للمرة الأولى في عام (1906 م) حين ألقى محاضرة أمام جمهور إحدى الجامعات السويدية حول موضوع تدمير هيكل سليمان من قبل الملك البابلي نبوخذنصر في عام (586 ق. م). وعلى الرغم من أن نظرياته اللاتقليدية لم تلفت أنظار الأوساط (الأكاديمية) فقد ظل رابط الجأش، إذ بقي مؤمناً بأنه كان قد اكتشف مغزى صوفياً ورمزياً عظيماً لتدمير هيكل سليمان. وفي عام (1908 م) فيما كان يسعى إلى تطوير بحثه حول الموضوع بالإفادة من المكتبات القديمة في القسطنطينية، تعثر، صدفة، بمخطوطة غير قابلة للتصديق حقاً.

صحيح أن جوفيليوس لم يتحدث قط عن ظروف اكتشافه أو عن مكان هذا الاكتشاف، غير أنه كشف النقاب، بين أكوام من الكتب واللفافات والصحائف المغطاة بالغبار في مكتبة لم يحدد اسمها، مقطعاً "مشفراً" في نص قديم من نبوءة حزقيال، يبيّن مخبأ خزنة الهيكل بالقدس. فالكنز الأسطوري الذي يفترض أن الرهبان العبرانيين دفنوه في أثناء غزو

نبوخذنصر، قيل إنه موجود في كهف قابع تحت جبل الهيكل كان متصلاً بالمدينة عبر ممر سري تحت الأرض.

بقي المحتوى الدقيق لهذه الدفينة القديمة سر جوفيليوس المكتوم بحرص. غير أنه كان، حسب كل التقديرات، ذو قيمة مبهرة، تفوق قيمة أي اكتشاف أثري سبق له أن تم في فلسطين - وربما في أي مكان آخر. وحسب بعض التقارير اللاحقة المستندة، في جوانب كثيرة منها، إلى الأقاويل والشائعات القائمة على المبالغة، فإن كنز جوفيليوس كان «تابوت العهد المغلف بالذهب الذي أخرجه بنو إسرائيل من مصر». وفي روايات أخرى كان «خزنة الملوك اليهود، ولوحات قديمة مؤهلة لحسم جميع الشكوك المتعلقة بقيامة المسيح». ومهما كانت طبيعة الكنز، فإن جوفيليوس كان مقتنعاً بأن هيكل سليمان كان حقيقياً وبأنه كان قاب قوسين أو أدنى من الوسيلة التي تمكنه من استخراجه لنفسه.

ما لبثت الدراسة المتأنية لتقارير حفريات صندوق استكشاف فلسطين في القدس أن قدمت لجوفيليوس تأكيداً مثيراً للتفاصيل الجغرافية المتعلقة بنصه "المُشَفّر" الغامض. فتشارلز وَرَن كان قد استكشف شبكة معقدة من الأنفاق والسراديب التحت أرضية إلى الجنوب من الحرم الشريف، على جرف شديد الانحدار من الأرض يعرف باسم أوفل. كما أن بلِس وديكي اكتشفا في البقعة نفسها تقريباً أنفاقاً إضافية تحت الأرض. مما جعل جوفيليوس يشعر بالثقة من أن الممر السري المذكور في وثيقته القديمة كان بين هذه الأنفاق والممرات، ولو استطاعت بعثة أثرية جديدة إلى القدس أن تحدد مكان الممر الصحيح وتفتحه، لأمكن العثور على الكنز الخيالي.

ولتنظيم بعثة كهذه، طاف جوفيليوس على مراكز الثروة والنفوذ في أوروبا آملاً في اجتذاب داعمين ماليين مقابل وعود بحصص من مبلغ المئتي مليون من الدولارات الذي كانت الآثار المستعادة ستباع به في الأسواق. إلا أن الباحث الفنلندي، المفتقر إلى الصلات والروابط المناسبة، لم يتمكن من إيجاد أي مستثمرين. أما العدد القليل من أولئك الذين

أخذوه مأخذ الجد إلى حد يكفي لمناقشة الخطة، فقد كرروا تحذيرهم من أن من شأن الملابسات السياسية أن تكون بالغة الخطورة، ومن أن الهدف بعيد الاحتمال، وكمية رأس المال اللازمة أكبر من أن تسوّغ المخاطرة باحتمال الإخفاق. ومع أبى فإن جوفيليوس أن يتخلى عن مشروعه. فكل ما كان بحاجة إليه، حسب اعتقاده الراسخ، لم يكن إلا شخصاً يتوفر على الصلات الاجتماعية التي كان هو نفسه يفتقر إليها، شخصاً متمتعاً بما يكفي من النفوذ في الأوساط الأرستقراطية يقوم بجمع التبرعات الضرورية؛ وما لبث أن اهتدى أخيراً إلى مثل هذا الشخص.

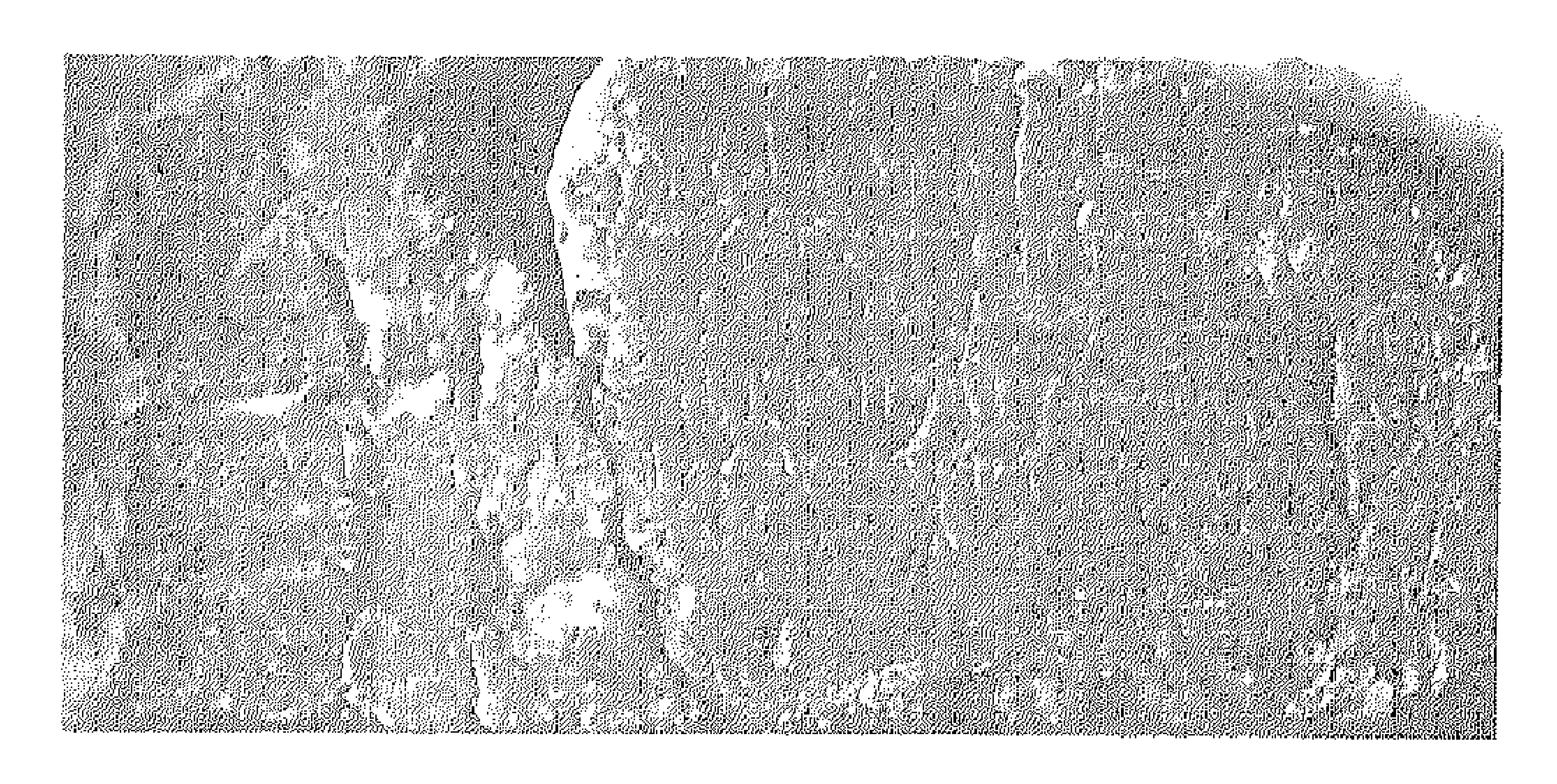
لم يكن مونتاغيو براونسلو باركر[2] ابن إيرل مورلي[3] البالغ الثلاثين من العمر قد أحس قط بالرضى الكامل عن الحياة الهادئة للأرستقراطية الإنجليزية. ففيما كان معظم أقرانه لائذين بأجنحة أكسفورد وكامبردج الآمنة، بادر في سن مبكرة إلى الانخراط في الجيش، وخدم بامتياز في حرب البوير ورُفِّع إلى رتبة نقيب في سلاح رماة القنابل اليدوية.[4] ولدى عودته إلى لندن بعد الحرب، ترك الجيش وانغمس في دوامة الحياة الاجتماعية للعاصمة، غير أن رغبته في العودة إلى حياة المغامرة ظلت تلازمه على الدوام. وعلى الرغم من أن ظروف لقائه بجوفيليوس غامضة، فإنه انقض على فرصة الالتحاق بركب المشروع فور قيام الفنلندي بالكشف عن غرض حفرياته المقترحة، وبإلقاء الضوء على حاجته الماسة إلى شخص يقوم بجمع التبرعات الضرورية.



مونتاغيو باركر

وحيث أخفق جوفيليوس نجح باركر. ففي غضون بضعة أشهر جمع ما يزيد عن مئة وخمسة وعشرين ألفاً من الدولارات من مصادر مختلفة مثل دوقة مارلبورو[5] وعائلة آرمور[6] المختصة بتعليب اللحوم في شيكاغو. غير أن باركر ما لبث، حين أصبحت الأموال بين يديه، أن أقلع عن الحرص على مشاركة جوفيليوس. ففيما كان الفنلندي مشغولاً بمشاورات محمومة مع مستبصر إيرلندي حول مكان الممر السري، سافر النقيب (كما بات يفضل أن يُلَقّب) باركر إلى القسطنطينية للحصول، شخصياً على تعاون السلطات العثمانية.

كانت العاصمة العثمانية لدى وصول باركر إليها زاخرة بالإشاعات والشكوك في أعقاب اضطرابات أهلية وسياسية حادة خلال فصلي الصيف والخريف السابقين. ففي نيسان كانت مجموعة من الضباط الشباب، مدعومة بقطاعات واسعة من الجيش وكتلة أهالي متمردة، قد أجبرت السلطان عبد الحميد على التنازل عن العرش لأخيه الضعيف وغير الفعال محمد الخامس، وبدا مؤكداً أن نفوذ السلطان الذي دام قروناً من الزمن قد تحطم أخيراً. وما من أحد كان يعرف ما كان المستقبل يخبئه للإمبراطورية العثمانية، غير أن الإجراءات الاعتيادية على الصعيدين القانوني والإداري كانت قد باتت مجمدة. فرسمياً، على الأقل، بقيت سياسة السلطان القديمة الخاصة بالآثار القديمة نافذة. وبالتالي فإن أعمال التنقيب الأثرية البريطانية والأمريكية والألمانية في فلسطين كانت لا تزال مطالبة باصطحاب مفوض عثماني يشرف على عملها، وجميع اللّقى المستخرجة كانت لا تزال تعتبر ملكاً للدولة. ولكن باركر تمكن، حتى في أجواء القسطنطينية الثورية المشحونة بعدم اليقين، من الانغماس في نموذجه الخاص من السياسة الشخصية والالتفاف على القانون. فعبر الاتصال، سراً، باثنين من أعضاء حكومة تركيا الفتاة، قام باركر بعرض خمسين بالمئة من أي كنز قد يعثر عليه في القدس، مقابل ثقتهما ودعمهما الرسميين. وقابليْن بالعرض وموافقَيْن على المجيء إلى القدس، بشخصيهما، كمفوضين (رسميين) سارع المسؤولان التركيان إلى إيفاد مبعوث إلى حاكم القدس مع توجيهات تقضي بشراء جميع الأراضي الواقعة على السفوح الجنوبية لجبل الهيكل.



نقش سلوان

عاد باركر إلى لندن بعد أن شعر برضى واضح عن الترتيبات التي كان قد أنجزها. وخلال فصل الربيع شكل (جهازاً للحفر) تألف من أصدقائه المخلصين كليرنس ولسون،[7] ور. غ. دَف،[8] و(ميجور) يدعى فولي[9] كان شارك في اقتحام جيمسون[10] للترانسفال قبل حرب البوير. والمهمة في القدس ما كانت لتكون عملية أقل خطورة وتطلباً للجرأة. ومن المبالغ الكبيرة التي كان باركر قد جمعها، اشترى معدات حفر ثمينة وجَهّز يخت كليرنس ولسون للإبحار إلى فلسطين. لقد كان باركر عازماً على قيادة البعثة بنفسه. أما جوفيليوس الذي تم تجاوزه فقد كان سيبقى في أوروبا عاكفاً بإخلاص على إرسال توجيهات المستبصر الإيرلندي التخاطرية إلى القدس برقياً.

في شهر آب عام (1909 م) رست بعثة باركر في يافا وسافرت براً إلى القدس. وخلال أشهر الصيف السابقة كانت البلاد قد ابتُليت بالاضطرابات وحوادث العنف المتقطعة كرد فعل على الأحداث الجارية في القسطنطينية. فالحفريات البريطانية في جازر، ونظيرتها النمساوية ـ الألمانية في أريحا كانت قد غُلقت جميعاً، وكثيرون من الأجانب المقيمين في فلسطين كانوا يخشون ألا تكون الاضطرابات الراهنة سوى التمهيد لانتفاضات سياسية أكبر بكثير في المستقبل القريب. غير أن مونتاغيو باركر لم يكن يعاني من مثل هذه المخاوف. ومطمئناً إلى الاتفاق الذي توصل إلى عقده في القسطنطينية، كان مصمماً على جعل إقامته في القدس ممتعة قدر الإمكان.

ومنتقلاً إلى تكية أوغسطا فكتوريا الرحبة على جبل الزيتون، أنفق باركر بسخاء على شراء الخيم، والبنادق، وأثاث المخيمات، والمؤن المستوردة. وفي الوقت نفسه استأجر جيشاً صغيراً من الطباخين، والأدلاء، والحراس الشخصيين، والخادمات، والعمال. ومن الواضح أن مساعيه الرامية إلى خلق صورة محترمة لبعثته ما لبثت أن كوفئت، لأن حاكم المدينة عزمي بيك باشا بادر باعتزاز إلى تقديمه للأعيان المحليين واستضاف جهاز البعثة كله بسخاء وكرم في وليمة أقامها في المقر الرسمي.

وحين وصل "المفوضان" من القسطنطينية للإشراف على عملية البحث عن الكنز، قام باركر رسمياً باطلاق أعمال التنقيب على سفح أوفل. ومتبعاً توجيهات المستبصر الإيرلندي بدقة، أمر باركر العمال بإعادة فتح أحد السراديب الرأسية المحفورة من قبل تشارلز وَرَن في عام (1867 م). وحول مدخل السرداب كانت فرق كبيرة من الحراس الشخصيين والجنود تتولى إبعاد المتفرجين المتطفلين، ولكن هذه التدابير الأمنية، المكشوفة إلى حد كبير، لم تفعل شيئاً، كما يمكن توقعه، سوى زيادة حدة فضول السكان المحليين.

في الوقت نفسه كان الباحثون المولعون بالاستئثار من مختلف المؤسسات الأثرية الأمريكية والأوروبية قد باتوا شديدي الارتياب والشك. ومع أن الحفريات في موقع بالغ الأهمية مثل أوفل كان يتطلب منقبين على مستوى رفيع من المهارة، فإن الشاب الإنجليزي المحاط بالحراس العثمانيين بدا مفتقراً بشكل مطلق لأي تدريب تقني. فجهاز باركر لم يمسك أي سجلات لعمليات الحفر كما لم يقم بتصنيف اللّقى؛ وبقي هدف البعثة في حقيقة الأمر سراً يبعث على الحيرة. سارع علماء الآثار المستاؤون إلى إرسال رسائل الاحتجاج إلى الزملاء في لندن ونيويورك، وبعثوا استفهامات محمومة إلى القسطنطينية سعياً منهم لمعرفة المزيد عن نوايا النقيب باركر. وما من أحد بدا عارفاً شيئاً عنه وعن هدفه، غير أن علماء الآثار الأجانب بادروا، لدى انتشار الشائعات عن (كنز مخبوء) و(إرشاد تخاطري) إلى التعبير الصارخ عن الغضب من باشا المدينة.

وعلى الرغم من أن باركر لم يكن، وباعترافه، عالم آثار، فإنه كان أكثر حساسية من الأكثرية إزاء قوة الرأي العام، وحاول أن يلمّع صورة بعثته عن طريق دعوة الأب هيوز فَنسان[11] من الإيكول بيبليك من [المدرسة الكتابية] للاضطلاع بوظيفة (مستشار آثاري). وباعتراف الجميع كان فنسان، المقيم في القدس منذ زمن طويل أحد أبرز المراجع حول آثار المدينة القديمة. ورغم شكه بباركر قَبل فنسان دعوة المشاركة بالعمل انطلاقاً من إدراكه حقيقة أن حفريات الرجل وفرت فرصة فريدة لكسب المزيد من المعلومات عن شبكة المياه القديمة وعن التطور المبكر للمدينة.

ولدى صدور اعتراضات جديدة عن يهود المدينة، كانت انتقادات الأوساط الأثرية قد بدأت تتلاشى في ظل قيام الأب فنسان بالإشراف على سير أعمال الحفر. فقد طلبوا تدخل الحاكم لوقف العمل متهمين المنقبين بتدنيس الأرض المقدسة. غير أن باركر المتمتع بحماية أولياء نعمته الأتراك، كان قادراً على التصدي واستمر الحفر مع قيام العمال بإزاحة التراب والغوص في نفق تحت أرضي يعرف باسم سرداب وَرّن، بحثاً عن الممر السري.

بعد ذلك عاكسهم الطقس. فأمطار شتاء عام (1909 ـ 1910 م) جاءت مبكرة، محوّلة سُحُبَ الغبار إلى محيطات من الوحل السميك. وباركر كان قد توقع أن يهتدي إلى الممر الموصل إلى الكنز بسرعة؛ وما إن انتبه حتى وجد أن ثلاثة أشهر غير مثمرة كانت قد مضت. وفي تشرين الثاني أعلن وقفاً مؤقتاً للعمل وعاد مع رجاله إلى إنجلترا لانتظار الصيف التالي.

وهناك في إنجلترا، حيث كان جزء كبير من أموال البعثة تحت تصرفه، أعاد باركر تنظيم إجراءاته كلياً، مستخدماً عدداً من المهندسين المدنيين الذين كانوا قد عملوا في نفق (مترو) لندن المنجز حديثاً. وتنفيذاً لمقترحات هؤلاء قام باركر بشراء (آليات باهظة الثمن ومكملة) استعداداً لموسم حفر الأنفاق القادم. أما النكسات فلم تكن، حسب اعتقاده الراسخ، إلا مؤقتة؛ فقوة التقنية، مدعمة بمَلَكات مستبصره الروحانية، كانت ستمكنه من استرجاع الكنز آخر المطاف.

في شهر آب من عام (1910 م) عاد باركر مع جهازه المعزّز من مهندسي الأنفاق إلى القدس، ولكنه ما لبث أن اكتشف بوضوح أن علاقته الحميمة مع الأتراك كانت قد انتهت: فالمفوضان كانا قد عادا إلى القسطنطينية في استنكار واضح لإخفاق الإنجليز في العثور على أي شيء يشبه الكنز الذي وعدوا به. والاحتجاج اليهودي كان فعالاً كحاله على الدوام، وقد وجد لنفسه ولي نعمة قوي في شخص البارون إدموند دو روتشيلد.

كان روتشيلد، سليل الفرع الفرنسي من العائلة المصرفية الدولية مؤيداً فعالاً لفكرة الإحياء اليهودي الخيالية إلى فلسطين. فعلى امتداد العقود الثلاثة الماضية اشترى أراض زراعية ووفر إرشاداً مهنياً للعديد من المستوطنات الصهيونية المبكرة. ولدى سماعه بنشاط مشبوه حول أحد أقدس المواقع وأكثرها تاريخية في القدس، عبر روتشيلد عن تصميمه على وقف مثل هذا النشاط إذا استطاع، ورتب شراء قطعة أرض متصلة بأرض باركر، وتقدم بطلب يلتمس فيه السماح بالقيام بالتنقيب الأثري الخاص به هناك.

كان نفوذ روتشيلد السياسي في القسطنطينية ذا شأن، والسلطات العثمانية بادرت بالتالي إلى إبلاغ باركر عن المطالبة المنافسة وأعلنت أن عليه أن يستكمل عمله في القدس مع نهاية صيف عام (1911 م) في غضون أحد عشر شهراً فقط. صحيح أن الزمن لم يكن قط عاملاً ينطوي على أهمية كبيرة بالنسبة إلى باركر، ولكنه أدرك الآن أن الوقت كان ينفذ. وتاركاً مسكنه المريح على جبل الزيتون ومستأجراً بيتاً قريباً من موقع الحفر، أجبر فرق التنقيب على العمل ليل نهار، مزيحة الأتربة عن مجمل امتداد أنفاق وَرَن مستعينة بالمصابيح في اندفاع يائس للعثور على المدخل المفضي إلى الممر السري الذي كان من شأنه أن يقوده إلى جبل الهيكل، وبالتالي إلى الكنز.

وخلال أشهر العمل المرهق التالية، وفيما عكف باركر ورجاله على البحث عن ممرهم السري، حرص الأب فنسان على تسجيل وتحليل البنى والأشياء الكثيرة المكتشفة. فقد لاحظ، فيما عكف باركر ورجاله على البحث عن ممرهم السري، وجود كهوف دفن عائدة إلى العصر

البرونزي منحوتة في العمق الصخري وواضعاً خرائط بالغة الدقة لشبكة المياه التحت أرضية الواسعة ولآثار تحصينات قديمة، تمكن فنسان من لَمّ البينات، التي كان كل من بلس وديكي قد أغفلاها إلى بعضها، مستنتجاً، بما يقرب من اليقين، أن المَدينة ما قبل الداوودية كانت واقعة على مرتفع أوفل.

مرة أخرى جاءت الأمطار مبكرة في عام (1910 م) ولكن باركر لم يكن أمامه أي خيار آخر سوى الاستمرار. وبالتالي فإن رجاله عملوا بصورة متواصلة خلال فصل الشتاء كله عميقاً تحت سطح الأرض المبتلة الآن، متعرضين حتى لقَدْر أكبر من الخطر في السراديب الرأسية الضيقة الغائصة

وما لبث الربيع أن حل، ولكن الممر السري لم يكن قد ظهر بعد. وحتى ذلك التاريخ ظل باركر على اتصال وثيق مع مؤيديه في الولايات المتحدة وإنجلترا، مزوداً إياهم، باخلاص، بتقارير متفائلة عن تقدمه. أما الآن فقد شعر باركر نفسه بالإخفاق المحتمل؛ فإذْنُ التنقيب لم يبق على انتهاء مفعوله سوى أربعة أشهر، وكان باركر يعرف بأن رجاله لم يكونوا ليستطيعوا، حتى لو تمكنوا من الاهتداء إلى الممر السري في الوقت المناسب، أن يكشفوا عنه ويفتحوه وصولاً إلى جبل الهيكل.

وفجأة توقف اتصاله بالعالم الخارجي، وصار اليأس هو الذي يقود تصرفاته. ومنذ رحيل المفوضَيْن كان باركر قد طور صلات وثيقة مع موظفين رسميين محليين وكسب ثقتهم. وأقرب هؤلاء منه كان الحاكم عزمي بيك باشا الذي كان ينزل إلى موقع التنقيب كل يوم. وباركر اعتقد بأنه كان قد فهم شخصية عزمي بشكل صحيح؛ وبالتالي فقد عرض عليه رشوة بمبلغ خمسة وعشرين ألفاً من الدولارات مقابل تمكين البعثة من التنقيب داخل الحرم الشريف بالذات ـ وهي فرصة تم رفض إعطائها لجميع المستكشفين الغربيين السابقين. وقَبل عزمي بيك الرشوة ورتب لإشراك الشيخ خليل، القيّم الوراثي على قبة الصخرة، بالخطة السرية عن طريق رشوته، هو الآخر، بسخاء.

وخلال الأسبوع التالي، سُمح لباركر ومجموعة صغيرة من المنقبين المتنكرين بزي عربي بالوصول سراً إلى جبل الهيكل تحت جنح الظلام، ونقبوا خلسة كل ليلة لفترة تزيد على الأسبوع في الزاوية الجنوبية الشرقية من أرضية الحرم، حيث كان مستبصر جوفيليوس قد أكد لهم وجود الكنز. غير أنهم لم يكونوا، بعد سبع ليال من الحفر، قد اهتدوا بَعْدُ إلى أي كنز.

كان ذلك الموسم من السنة ينطوي على خطورة استثنائية في حال المخاطرة بالمساس بالحساسيات الدينية. ففي نيسان عام (1911 م) تزامنت أعياد الفصح اليهودي، والفصح المسيحي، والنبي موسى جميعاً، وكانت المدينة مزدحمة بالحجاج من سائر أرجاء العالم. وفي أوقاتٍ الاحتفالات هذه كانت القدس على الدوام مكاناً متفجراً، غير أن ذلك لم يشكل أي مصدر قلق بالنسبة إلى باركر. فبحثه اليائس كان أكثر إلحاحا بما لا يقاس لأن الوقت كان يمر بسرعة.

في ليلة 18/17 من نيسان، عام (1911 م) دخل باركر ورجاله حرم قبة الصخرة. وبعد استشارته مرة أخرى، كان مستبصر جوفيليوس قد وجههم الآن نحو تركيز الجهود على كهف طبيعي تحت سطح الصخرة المقدسة. والأسطورة الإسلامية ربطت هذا الكهف بمعبر يفضي إلى باطن الأرض مليء بالأشباح والشياطين ويقود إلى كنز خيالي مذهل. وبالتالي فإن أعضاء الفريق تدلوا بالحبال إلى قلب الكهف وراحوا ينقبون، محطمين الرصيف لفتح سرداب رأسي قديم تحته. لقد بات الكنز قريباً آخر الأمر، على ما بدا.

قرر أحد خدم الجامع، لازدحام بيته بضيوف من خارج المدينة جاؤوا إلى القدس لحضور موسم الاحتفالات، أن ينام في تلك الليلة بالذات على جبل الهيكل. ولسوء حظ باركر لم يكن ذلك الخادم ممن تلقوا الرشوة. ولدى وصوله إلى المكان بعد منتصف الليل سمع الرجل أصواتاً غريبة منبعثة من داخل قبة الصخرة وفوجىء بشخص إنجليزي في ملابس غريبة كان منقضاً بمعزقته على المزار المقدس. مصعوقاً ومرعوباً إزاء

رؤية هذا المدنّس، انطلق من المسجد وركض وهو يزعق إلى قلب شوارع المدينة المظلمة. أما باركر ورجاله المصابون بنوبة رعب شديدة فسارعوا إلى لم أدواتهم ولاذوا بالفرار غير أنهم أدركوا أنهم كانوا قد لعبوا ورقتهم الأخيرة وخسروا.

لدى وصولهم إلى ميناء يافا، كانت الرسائل البرقية الأولى قد وصلت من القدس. فالمدينة المقدسة كانت في بحر من الهياج والصخب. ومما قيل إن عزمي بيك كان قد أمر بالإغلاق الفوري للحرم الشريف، ولكن جمهوراً غاضباً من العامة قد أجهز على الشيخ خليل، قبل أن يتمكن الجنود من اتخاذ مواقعهم هناك، وقيل أيضاً إن عزمي بيك نفسه ووجه بحشد غاضب بصق عليه ونعته بخنزير لتواطئه المشبوه في عملية التدنيس. وما لبثت الاضطرابات أن أصبحت أكثر عنفاً مع انتشار الشائعات الهوجاء حول أن الإنجليز كانوا قد اكتشفوا تاج سليمان وخاتمه، وتابوت العهد، وسيف محمد وسرقوها.

بادرت السلطات الجمركية في يافا، مستنفرة جراء هذه التقارير المسعورة، على الفور إلى حجز الأمتعة الشخصية لكل من باركر ورجاله لتفتيشها قطعة قطعة. صحيح أن موظفي الجمارك لم يجدوا شيئاً، ولكنهم قرروا، مع ذلك، توقيف باركر ورجاله إلى حين وصول توجيهات جديدة من القسطنطينية. غير أن باركر كان يدرك أن عليه أن يهرب فوراً. وناكراً سائر الاتهامات بهدوء، دعا موظفي الجمارك إلى مناقشة المسألة في أجواء يخت كليرنس ولسون الراسي في المرفأ، المريحة أكثر، مؤكداً لهم بأن الأمور ستنجلي بسرعة، فضلاً عن أنه لم يكن لديه شيء يخفيه.

وافقت السلطات على مضض على الترتيب. وسُمح لباركر ورجاله أن يجذفوا إلى عرض المرفأ لإضاءة اليخت والإعداد لاستقبال ضيوفهم الرسميين. غير أن اليخت انطلق متوجهاً بسرعة البخار نحو عرض البحر، قبل أن تتوافر للضيوف فرصة الوصول بزمن طويل، وبعد أشهر الكدح تلك كلها لم يستطع باركر والآخرون أن يشيروا إلا إلى نجاح واحد ألا وهو أنهم كانوا قد نجوا بأرواحهم.

تواصلت حوادث الشغب والاضطرابات في القدس دون انقطاع عدداً من الأيام، ولم يمض وقت طويل قبل أن تصبح الجرائد والمجلات في سائر أرجاء العالم ملأى بقصة بعثة باركر الغريبة وعواقبها. والدعاية كانت الشيء الأخير الذي كان باكر بحاجة إليه في هذه المرة، لأن افتضاح أسماء بعض مؤيديه وداعميه والاستهزاء العلني بمشروعه وضعاه في وضع محرج جداً. أما جلّ رساميل مستثمريه فكان قد تم إنفاقه في السنوات الثلاث الماضية، وكانت ثمة ضغوط تلح بتعويض ولو جزء من تلك الرساميل على الأقل.

بعد عودته الآمنة إلى لندن رفض باركر أن يدلي بأي تعليق على أحداث الأسابيع السابقة، بل أعلن، بدلاً من ذلك، عن أنه سيعود إلى القدس في الصيف التالي. وفي محاولة منه لنشر الإنجازات الأثرية الملموسة لبعثته، وافر للأب فنسان فرصة إصدار نتائج الموسمين الأولين في مجلد بعنوان [قدس التحت أرضية].[12] ولكن، حتى اللّقى ذات الأهمية من الأواني الخزفية العائدة للعصر البرونزي الأول والحل النهائي لمسألة تضاريس القدس القديمة لم يفعلا شيئاً ذا بال على صعيد استعادة الثقة بأهداف بعثة باركر أو دوافعها.

أصدرت لجنة التحقيق العثمانية أوامرها التي قضت بتعيين شيخ جديد لقبة الصخرة، بإعادة استدعاء عزمي بيك باشا، وتوجيه التوبيخ الرسمي إلى (المفوضَيْن) اللذين كانا قد تعاملا مع باركر. والقضية بمجملها أفرزت توترات سياسية مزعجة بين بريطانيا العظمى والإمبراطورية العثمانية، وتعرض وضعُ جميع علماء الآثار الأجانب في فلسطين إلى قَدْر كبير من الخطر. أما صندوق استكشاف فلسطين فبات مختزلاً إلى أشكال عنيدة من إنكار أية معرفة بنشاطات باركر ورجاله، في حين قام السير تشارلز وَرَن، رائد استكشاف القدس المسن، بإصدار إدانة بالغة القسوة لعملية الجري وراء الكنوز.

أما مستثمرو مونتاغيو باركر الأغنياء فظلوا يبحثون عما يرضيهم. غير أن باركر، غير النادم، نفسه، صرح في أيلول لأحد مراسلي جريدة التايمز اللندنية عن أنه كان موشكاً على العودة إلى فلسطين، لمتابعة العمل

العلمي المهم الذي كان قد تركه قبل الإنجاز. وفي الثلاثين من أيلول اعتلى ثانية ظهر يخت كليرنس ولسون، ليصل إلى ميناء يافا في السادس والعشرين من شهر تشرين الأول. ولكن «بعض الأصدقاء قالوا للمستكشفين بأن من شأن النزول إلى اليابسة ألا يكون حكيماً» كما جاء في التايمز اللندنية. وبالتالي أبحر اليخت على الفور باتجاه ميناء بور سعيد.

ما لبث النقيب مونتاغيو براونسلو باركر أن أبدى حكمة التخلي عن المزيد من الأحلام بكنوز قديمة، في حين اختفى فالتر جوفيليوس، محرض الخطة النازح، في سحب الظلام والإهمال، كما أن أحداً لم يسمع قط ثانية عن المستبصر الإيرلندي، في حين تلاشت كلياً أموال المستثمرين التي بلغت مئة وخمسة وعشرين ألفاً من الدولارات. والآن، إن لم يكن من قبْلُ، بات واضحاً أن الدراسات والبحوث الأثرية الخاصة الممولة بسخاء قد انتهت. فالتوترات الدولية في فلسطين كانت تتصاعد بسرعة نحو نقطة الاشتعال. والمعركة الحقيقية من أجل الأراضي المقدسة كانت موشكة على أن تبدأ.



18) آخر الحملات الصليبية:

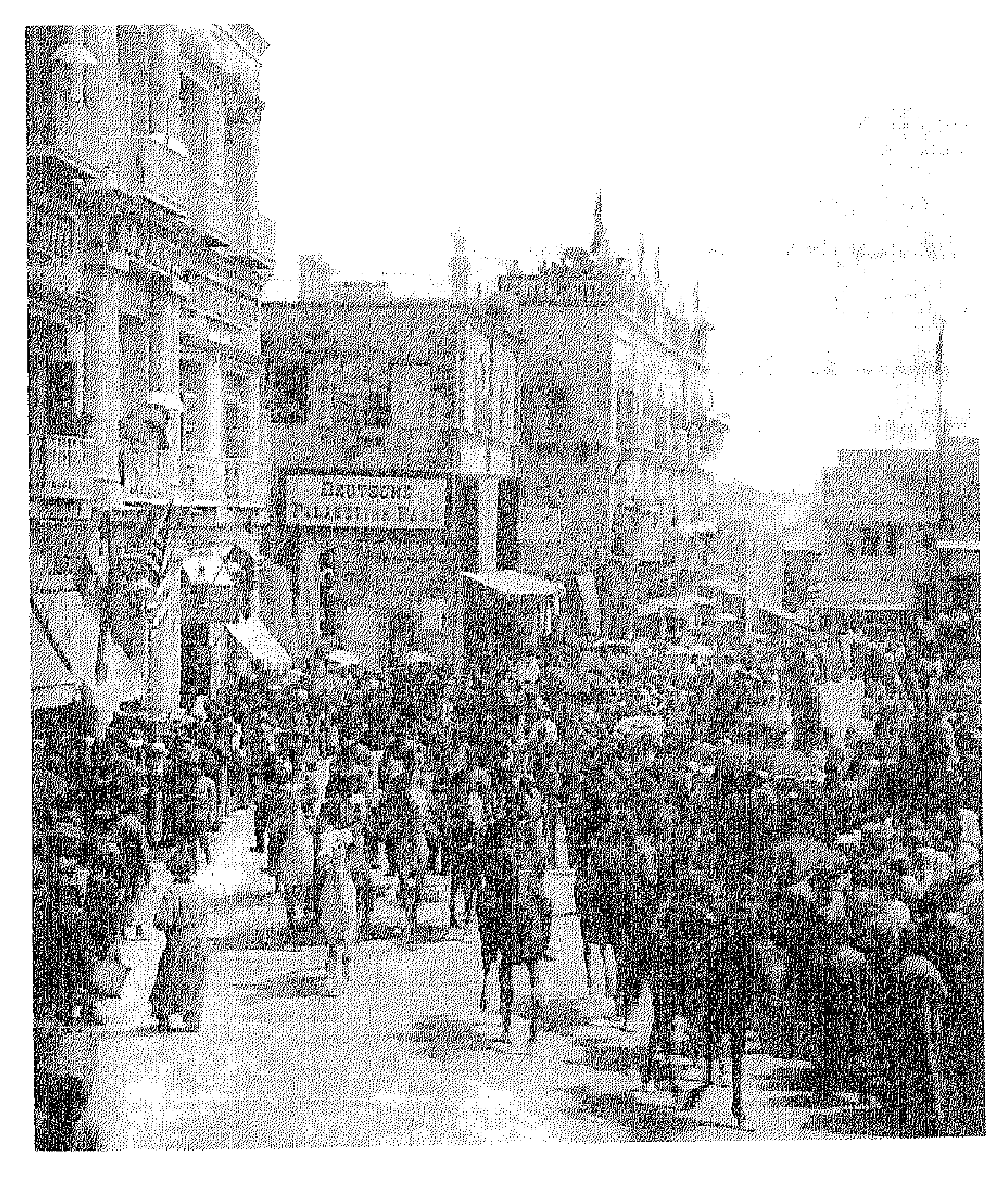
صندوق استكشاف فلسطين والغزو البريطاني لفلسطين

(1913-1917م)

مع انتهاء عام (1913 م) كان العالم يستعد للحرب. فالأزمات المستديمة في البلقان والتوترات المتواصلة في أوروبا ما لبثت أن أفرزت سباق تسلح غير معروف في تاريخ العالم. وتهيأت كتلتان قوة شديدتا العداء هما بريطانيا، وفرنسا، وروسيا من جهة، وألمانيا والنمسا من الجهة الأخرى، للمجابهة القادمة وجرّتا جزءاً كبيراً من العالم إلى معسكريهما. وفي القسطنطينية كانت تركيا الفتاة راسخة في السلطة، وسعياً منها إلى إعداد قواتها المسلحة للإندلاع الممكن للقتال في الشرق الأوسط، وافقت على قبول مساعدة الخبراء العسكريين الألمان. كانت مضاعفات ذلك التحالف الضمني بعيدة المدى. فالحرب المقبلة كان من شأنها أن تفضي، بوضوح، إلى حسم "المسألة الشرقية" مرة وإلى الأبد.

في فلسطين كانت آثار الحشد العسكري التركي جليّة بصورة مرعبة. فجمال باشا، أحد أعضاء ثلاثي تركيا الفتاة الحاكمة، أوجد مركز قيادة عسكرية في القدس، راح ينفذ برنامج تجنيد عام، وأمر بالاعتقال والنفي الفوريّيْن للوطنيين اليهود والعرب ممن يمكنهم أن يشكلوا خطراً. كما بادرت القوات العثمانية المتمركزة في فلسطين إلى مصادرة كميات وأعداد متزايدة من المواد الغذائية وحيوانات النقل، ومع شروع التوترات العالمية بالتأثير على الحياة اليومية تملّك الأهالي جوٌ كئيب من القلق والارتياب.

أما بالنسبة إلى علماء الآثار الأجانب في فلسطين، فإن التطورات السياسية والعسكرية أدت إلى وقف أعمال التنقيب بصورة شبه كاملة. ومع إتمام حفريات صندوق استكشاف فلسطين الأحدث في عام (1912 م) لم يتابع الحفر النشيط عدا الألمان. ففي ضوء التحالف بين الأتراك والألمان باتت خطط المستقبل بالنسبة إلى الاستكشاف البريطاني في فلسطين محاطة بقدر متزايد من الغموض والشك، فضلاً عن أن اللجنة التنفيذية لصندوق استكشاف فلسطين قررت إيفاد بعثة واحدة أخيرة قبل أن تؤدي الأحداث العالمية إلى وقف كل شيء.



موكب دبلوماسي أوروبي في القدس

بقيت منطقة واحدة فقط من أرض الكتاب دون تخطيط من قبل فرقة المسح الكبير لغرب فلسطين، وكان من شأن التخطيط الناجح لتلك المنطقة أن يزود صندوق استكشاف فلسطين بتتويج ملائم لعملية الاستكشاف التي بدأها كل من كلارك، سيتزن، وبوركهاردت قبل ما يزيد عن مئة عام. وكانت هذه المنطقة تُعرف لدى الباحثين الكتابيين باسم بادية صين، أو النقب بصورة أعم، وتمتد جنوباً من بئر السبع إلى خليج العقبة. كما كانت هذه المنطقة المدْروزة بالوديان الضيقة، والجبال الوعرة، وبالهضاب المقفرة، كانت تحرس المدخل إلى فلسطين من سيناء والجنوب.

صحيح أن قلة من المستكشفين الغربيين انتبهت إلى أهميةتضاريس النقب وآثارها القديمة، غير أن ذلك لم يكن لافتقارها إلى الروابط الكتابية. فبنو إسرءيل كانوا قد عبروا بادية صين في طريقهم إلى الأرض الموعودة، وفي عهود كتابية لاحقة، شاد الملوك العبرانيون سلسلة من الحصون هناك لحراسة طرق القوافل الهامة الممتدة من مصر إلى يهوذا. وتلك الطرق والحصون بقيت ضائعة. وفي ضوء خطر الحرب المتزايد، فإن فرصة مناسبة لتحديد أماكنها قد لا تتاح ثانية لسنوات عديدة.

وفي الثالث عشر من شهر كانون الأول من عام (1913 م) انطلق عالما آثار بريطانيان شابان من موقع حفرياتهما في كركامش بسوريا للسفر جنوباً إلى فلسطين والمشاركة في المسح الوشيك لبادية صين. ولدى وصولهما إلى غزة استقبلهما نائب القنصل البريطاني ورئيس محطة جمعية الكنيسة التبشيرية اللذان زوداهما بالتعليمات التفصيلية الأولى. وكان على عالما الآثار الاتصال بعدد من فرق المهندسين الملكيين التي كانت تتقدم باتجاه بئر السبع عبر سيناء؛ ومع مرافقتهما للمساحين كان عليهما دراسة (طبيعة) البلاد، وتعقب طرق القوافل القديمة في المنطقة، وإيلاء اهتمام خاص لواحة عين قادس، التي كان كثير من الباحثين الكتابيين يعتقدون بأنها موقع نبع قادش برنيع، الذي موسى منه جواسيسه إلى أرض كنعان.

كان عالما الآثار الشابان اللذان استخدمهما صندوق استكشاف فلسطين لهذه المهمة، يملكان وثائق مثيرة تدعو للثقة وينتظرهما مستقبل مشرق. فأحدهما، ليونارد وُلي،[1] كان سيحقق، في حياته المهنية اللاحقة، شهرة عالمية بوصفه منقب مدينة أور في بلاد ما بين النهرين. أما زميله، الذي كان اسمه تي. إي. لورنس،[2] فكان سيجد الشهرة في مجالات أقل تحلياً بالصفة (الأكاديمية) البحثية.

كان لورنس قد طاف عبر فلسطين من قبل. ففي عام (1909 م) كان قد أمضى، وهو في الحادي والعشرين من عمره، صيفاً، مستكشفاً حصوناً صليبية خَربة ومواقع استراتيجية متقدمة في شمال البلاد، وكانت أطروحته بجامعة أكسفورد التي حملت عنوان **[تأثير الحملات الصليبية على هندسة العمارة العسكرية الأوروبية]**[3] نتاج ولعه بالآثار وانبهاره بالاستراتيجية العسكرية. وكان يأمل سراً في أن يوفر له مَسْح بادية صين فرصة إضافية للجمع بين تينك الهوايتين، لأن المنطقة المرشحة للمسح باتت ذات أهمية عسكرية متزايدة في السنوات الأخيرة.

ولدى قيام إدوارد روبنسن بزيارة بئر السبع في عام (1838 م) لم تكن "المدينة" أكثر من مجموعة من الآبار على تخوم الصحراء. غير أن الأتراك كانوا، مع حلول الأعوام الأولى من القرن العشرين، قد شادوا هناك مركزاً إدارياً إقليمياً لتولي حكم منطقة النقب المستحدثة. ومع قيام البريطانيين بإحكام سيطرتهم على مصر وسيناء، بادر الأتراك، بالمثل، إلى إقامة المواقع الدفاعية في فلسطين الجنوبية، منشئين خطاً من الثكنات والتحصينات العسكرية عبر المنطقة. ونظراً لأهمية هذه المنطقة الواضحة في حال نشوب أي قتال بين بريطانيا والإمبراطورية العثمانية، توجّس لورنس منذ البداية، بأن تعيينه لم يكن إلا لتوفير غطاء أثري لعملية استطلاع عسكرية. ومع ذلك فإن آفاق المشاركة في مهمة سرية أثارته بوضوح.

سافر لورنس ووُلي من غزة إلى بئر السبع، حيث اتصلا بالنقيب ستيوارت نيوكومب، من المهندسين الملكيين، وقاما بزيارة مجاملة واحترام للحاكم التركي. وبعد تأمين عدد من الجمال والحصول على وعد بالحماية من عدد من شيوخ البدو في المنطقة، تحرك لورنس ووُلي جنوباً بحثاً

عن الآثار، في حين اضطلع نيوكومب بمهمة إدارة عمل فرق المسح. وعلى الرغم من أن المنطقة لم يكن فيها إلا عدد قليل من التلال، فإن لورنس ووُلي أمعنا في استكشاف الأطلال المهيبة لعدد من مدن القوافل القديمة التي شادها النبطيون خلال الحقبة الرومانية. وبعناية قاما بتصوير تلك الأطلال ضوئياً ورسم أشكالها، ملاحظين آثار شبكات المياه، وحقول الزراعة، والمباني العامة، والكنائس الأثرية الضخمة، وكلها بينات دالة على الحضارة الغنية التي كانت قد ازدهرت يوماً في تلك الصحراء شبه المهجورة الآن.

وعلى قمة الموقع المرتفع لمدينة نيتسانا[4] النبطية، التي كان الأتراك قد بنوا تحتها حصناً وثكنة عسكرية، توافرت للورنس أيضاً فرصة معاينة خط الصحراء الدفاعي العثماني عن كثب. ومن ملاحظاته استنتج أن استعدادت الأتراك كانت بلا فائدة أساساً. فامتداد وتعقيد الممرات والدروب الصحراوية الممسوحة للمرة الأولى من قبل المهندسين الملكيين أقنعا لورنس بأن «الحصون لا تنطوي على أية فائدة ذات شأن في التصدي لعدو متحرك في بلاد صحراوية حيث تفضي الطرق إلى الجهات كلها..». والإحاطة بفن خَوْض حرب عصابات في الصحراء ضد تحصينات تركية قوية وراسخة كانت فيما بعد ستُكسِب تي إي لورنس خلوداً على رأس الثورة العربية.

وفيما بعد ما لبث لورنس ونيوكومب أن انفصلا عن الآخرين لدى إتمام مسح المدن النبطية وتضاريس المنطقة، وارتحلا جنوباً لدراسة المنطقة المحيطة بالعقبة وإطلالتها على البحر الأحمر. واستكشاف هذه البقعة لم يكن مشمولاً في التصريح الممنوح لصندوق استكشاف فلسطين، مما أثار شبهات قائد الحامية التركية في العقبة، فمنع كلاً من لورنس ونيوكومب من إجراء أي استطلاع في المنطقة الخاضعة لسلطته. تظاهر لورنس بالإذعان لمطالب القائد، ولكنه نفذ، رغم ذلك، استكشافاً ليلياً خطراً بالقرب من قلعة إيل دو غري[5] الصليبية الخربة، على مسافة بضعة أميال إلى الجنوب من العقبة. وهذه كانت محاولته الوحيدة من هذا القبيل. فمخطط تحديد أماكن أودية غير معروفة من قبل تفضي إلى

خليج العقبة كان لابد من إلغائه نظراً لـ (أن أوضاع البلاد لم تكن مناسبة للاستكشاف) كما جاء في تقويم لورنس الهادىء.

صحيح أن العناصر الآثارية والاستراتيجية لمسح صندوق استكشاف فلسطين باتت مطموسة بصورة متزايدة، غير أن نجاحه العام كان جليا ً. فمع حلول شهر حزيران عام (1914 م) سَرّ كلاً من وزارة الحرب وصندوق استكشاف فلسطين أن يسمعا من النقيب نيوكومب أن «جميع الطرق قد عُلّمت على خريطة جديدة، ومعلومات هامة معينة جرى الحصول عليها». لقد تمت عملية مسح فلسطين الغربية. فامتداد فلسطين كله من الجليل الأعلى في الشمال إلى مشارف العقبة في الجنوب كان قد جرى رسم خرائطه بعناية من قبل مساحي ومستكشفي صندوق استكشاف فلسطين. ومع البعثة الأخيرة كانت القطعة الأخيرة قد دُست أخيراً في مكانها المحدد من المتاهة.

بعد الإعلان عن إتمام مسح بادية صين بأقل من شهر، انزلق العالم في الحرب التي طالما كانت قد هددت بالاندلاع على امتداد عقود من الزمن. ففي غضون خمسة أسابيع بعد اغتيال ولي العهد النمساوي فرانز فرديناند في سراييفو، أعلنت النمسا الحرب على صربيا، وغزت الجيوش الألمانية بلجيكا، وتورطت أوروبا بأسرها في النزاع.

مفترضة أن الحرب كان من شأنها أن تمتد بسرعة إلى الشرق الأوسط بدأت الإمبراطورية العثمانية تعبئة سرّية لجيوشها وعقدت اتفاقية غير معلنة مع حليفتها العتيدة ألمانيا. لقد كان الاختيار واضحاً. وعلى الرغم من أن الأتراك كانوا يعلمون أن من شأن انتصار ألمانيا في الحرب أن يحيل الإمبراطورية العثمانية إلى ما ليس أكثر من كيان دائر في فلك ألماني، فإن ذلك الاحتمال كان أفضل من التعرض للتقطيع على أيدي بريطانيا وفرنسا وروسيا. وعلى المدى الأقرب الألمان وعدهم بإعادة إقليم مصر الذي كان قد اقتُطع من الإمبراطورية منذ أيام نابليون. وبالتالي فقد سمح الأتراك للبوراج الحربية الألمانية بالمرور عبر الدردنيل فدخلوا الحرب علناً في تشرين الثاني من عام (1914 م).

وفيما كان الأتراك في فلسطين يستعدون لإنزال ضربة بالبريطانيين في مصر قطعوا اتصالاتهم كلها بالغرب. وخلال فصلي خريف وشتاء عام

(1914ـ1915 م) أخذت القوات التركية مواقعها على امتداد حدود سيناء فيما بدأت سيول التعزيزات تتدفق على فلسطين نفسها. ومقر قيادة الجيش الثامن التركي كان قد أُقيم في القدس، وقامت قيادة عليا ألمانية ـ تركية مشتركة بوضع خطة المعركة. والقادة في القدس أصابوا حين أدركوا أن قناة السويس كانت قلب استراتيجية الحرب الملكية البريطانية فأعدوا قواتهم لمهاجمة الممر المائي وتعطيله.

في أواسط كانون الثاني من عام (1915 م) اندفعت قوة تركية مؤلفة من حوالي مئة ألف جندي محتشدة حول بئر السبع إلى قلب سيناء. لم يقلل عدم نجاح هذا الهجوم من أهميته الاستراتيجية بنظر الجنرال الألماني كرس فون كرسنشتاين،[6] الذي أمر بهجوم آخر، أقوى، على القناة في صيف عام (1916 م). وهذه المرة كانت قوات صاعقة تركية مؤلفة من خمسين ألفاً، معززة بفرق رشاشات ألمانية، وبمدفعية ثقيلة، وبطائرات، قد رُدتْ على أعقابها بعد محاولتين يائستين لاختراق الدفاعات البريطانية حول قناة السويس. ولكن مأزق الجبهة الشرقية طويل الأمد بات واضحاً؛ فطالما بقيت قوات معادية في فلسطين، لابد من أن محاولات إضافية ستُبْذَل للنيل من عصب حياة الإمبراطورية البريطانية.

ما لبث الفيلد مارشال هوراشيو كيتشنر، مستكشف صندوق استكشاف فلسطين السابق، ووزير الدولة الحالي لشؤون الحرب، أن رأى أن تحركاً جريئاً ما كان مطلوباً؛ وهو الذي طالما أدرك الأهمية العسكرية لبرنامج صندوق استكشاف فلسطين الخاص بوضع الخرائط. (كما فعل الصندوق نفسه، في الحقيقة؛ ففي وقت مبكر يعود إلى عام (1915 م) كتبت النشرة الربعية تقول: إن «المسح، ووضع الخرط، وكل ما من شأنه أن يساهم في تحقيق معرفة أفضل لأي بلد، ولموارده، ولأهله، تنطوي، كما نرى بوضوح، على أهمية عملية كبيرة جداً، وما أنجزه صندوق استكشاف فلسطين كان مفيداً من نواح كثيرة لقضايا نثمنها، ولسنا بحاجة لتعدادها تخصيصاً. . .» وتم استدعاء كل من نيوكومب، ولورنس، ووُلي جميعاً للخدمة في جهاز الاستخبارات التابع للقوات البريطانية في مصر لدى اندلاع الحرب، والعملية الأخيرة لرسم واستكمال خرائط بادية صين كانت قد احتلت

أعلى مراتب الأولوية. وتلقى المشتركون في صندوق استكشاف فلسطين نسخاً من التقرير الأثري لذلك المسح، «حيث لن يجد الأتراك شيئاً كثيراً يساعدهم» غير أن باقي المادة بقي سراً عسكرياً. ومما قاله أمين السر الفخري الجديد تشارلز وطسن[7] «نحن لا نريد أن يحصل الأتراك على خرائط قد تفيدهم في محاولاتهم الهزيلة الرامية إلى الوصول إلى مصر». مع ذلك فإن الآفاق على المدى الطويل لم تكن مظلمة قط بالنسبة إلى الصندوق. ففي اجتماع عقد احتفالاً بالذكرى السنوية الخمسين لتأسيس الصندوق علق رئيس أساقفة كنتربري قائلاً: «لن تتاح بعد الآن فرصة أفضل لدراسة أشياء وجدنا حتى الآن أنها صعبة الدراسة». أما في ذلك الوقت، فقد كان على مساعي صندوق استكشاف فلسطين أن توضع تحت تصرف المجهود الحربي البريطاني. وفي كانون الثاني من عام (1916 م) طلبت وزارة الحرب رسمياً من صندوق استكشاف فلسطين أن يعلق بيع جميع خرائطه ونشراته الجغرافية، وبادر قادة الصندوق إلى الامتثال للطلب. وهم حين فعلوا ذلك إنما كانوا يعبرون عن امتنانهم الراسخ منذ أمد طويل للمهندسين الملكيين الذين أنجزوا هذا القدر الكبير من عملهم ويتطلعون إلى الوقت الذي سيتم فيه استئناف الاستكشاف البريطاني للأراضي المقدسة «دون تأخيرات رسمية طويلة».

جاء صيف عام (1916 م) ليشهد وفاة اللورد كيتشنر على ظهر باخرة جلالة الملك المعروفة باسم هامبشاير[8] التي كانت في مهمة إلى روسيا، وانعطافاً حاسماً نحو الأسوأ في مجرى الحرب بأوروبا. غير أن التأييد لفكرة كيتشنر القائمة على إمكانية كسر الجمود في خنادق فرنسا عن طريق إحراز انتصار صاعق في الشرق الأوسط ما لبث أن تنامى مع سقوط حكومة أسكويث[9] المحافظة وتولي ديفيد لويد جورج[10] منصب رئيس الوزراء. ثمة آفاق واعدة لاحت حول قيام ثورة عربية ضد الأتراك في شبه الجزيرة العربية، والضعف المحتمل للعثمانيين في فلسطين أقنع الحكومة البريطانية بأن الوقت قد حان لقبول نصيحة كيتشنر، بعد وفاته، والمبادرة إلى استئصال الخطر المهدّد لقناة السويس استئصالاً لا عودة بعده.

بادرت قوة الحملة المصرية من الجيش البريطاني، مسلحة بالدعم الكامل من جانب حكومة لويد جورج، إلى الخروج من قواعدها في سيناء لدى حلول آخر شهر كانون الأول من عام (1916 م). وقد اتبعت القوة الطريق التي اعتمدها نابليون بونابرت في عام (1799 م) ذاتها؛ فاحتلت العريش ورفح دون أن تواجه إلا القليل من المقاومة. وبالتالي فإن شبه جزيرة سيناء كله بات الآن تحت السيطرة العسكرية البريطانية الراسخة، غير أن ذلك الاجتياح بقي عديم الفائدة، ما لم تتوافر إمكانية احتلال الجزء الجنوبي من فلسطين أيضاً.

لقيت قوة الغزو البريطاني مقاومتها الحازمة الأولى في غزة. فالمدينة المرفئية القديمة كانت محاطة بخنادق محصنة تحصيناً قوياً، وتم صد الهجوم البريطاني الأول مع تكبيده خسائر كبيرة. كان فصل الجفاف يقترب بسرعة مما جعل تحقيق فوري للأهداف العسكرية للحملة أمراً ضرورياً، قبل أن يصبح الحر والعطش أخطر عدوين بالنسبة إلى البريطانيين. ولتسريع الأمور أصدر قائد قوة الحملة المصرية، سير أرتشيبالد موري[11] أمراً قضى بجلب مؤن وتعزيزات جديدة إلى الجبهة على خط حديدي تم مده عبر سيناء. وفي نيسان صدر أمر بشن هجوم آخر على غزة، ولكن مواقع العدو كانت الآن أقوى أيضاً، بعد أن جرى تعزيزها بوحدات (فيلق آسيا) الألماني، فأثبتت أنها مستعصية على البريطانيين في الهجوم الثاني. مرة أخرى كانت الخسائر البريطانية كبيرة؛ ومثلما حصل مع نابليون، فإن زخم الاقتحام ما لبث أن تلاشى بين ثنايا حصار مكلف.

صدمت هذه الهزيمة غير المتوقعة في معركة غزة الثانية الحكومة البريطانية، وأثارت غضبها، وجعلتها أكثر تصميماً من أي وقت مضى على تحقيق نصر معين في فلسطين. فالجنرال موري جرى إعفاؤه من قيادة قوة الحملة المصرية وتم استبداله بالجنرال إدموند ألّنبي،[12] وهو قائد صارم حصل على لقب (ذ بُلّ) [الثور] في خنادق الجبهة الغربية ومجالها الضيق المحصور. ومنذ تعيين ألّنبي توقفت أوجه الشبه مع الغزو النابليوني لفلسطين كلها. وكان سيتم توفير كل ما هو ضروري لتحقيق النصر. ولدى اجتماعه بألّنبي قبيل مغادرة الأخير لإنجلترا، كان رئيس

الوزراء قد كشف صراحة عن نوايا الحكومة البريطانية. فقد كان يتعين على ذبُل أن يكرّس كل طاقته في الأشهر القليلة القادمة على إعداد (هدية ميلاد) مناسبة للشعب البريطاني. فحسب تأكيدات لويد جورج كان لا بد من احتلال مدينة القدس مع حلول نهاية العام.

ما إن وصل ألّنبي إلى مصر في حزيران عام (1917 م) حتى نقل مقر قيادة قوة الحملة المصرية من رخاء القاهرة إلى قسوة جبهة سيناء المغْبَرّة. وما لبث أن رأى بسرعة أن من شأن أي هجوم آخر مباشر على الخنادق المحيطة بغزة أن يكون محكوماً بالإخفاق، غير أنه لاحظ إمكانية العثور على نقطة ضعف تركية في الطرف الشرقي من الخط التركي حيث انتهى هذا الخط عند بئر السبع في أرض كانت فرقة مسح بادية صين قد استكشفتها قبل أقل من أربع سنوات. وفي آب، علمت القيادة البريطانية أن تي. إي. لورنس على رأس عصبة من البدو غير النظاميين، من الاستيلاء على ميناء العقبة وأسر المدافعين الأتراك. ولورنس هذا كان في العقبة من قبل ومن المؤكد أن استكشافه الوجيز للمنطقة قد وافر أحد مفاتيح انتصاره. وعكف ألّنبي على دراسة منشورات صندوق استكشاف فلسطين جنباً إلى جنب مع مكتبة واسعة من المؤلفات التاريخية الكتابية والصليبية، حتى أصبح، مع حلول فصل الخريف، مستعداً لتنفيذ خطة جريئة.

في الحادي والثلاثين من شهر تشرين الأول تعرضت الدفاعات التركية المحيطة بغزة لقصف مكثف من جانب الأسطول البريطاني، في تمهيد واضح لهجوم جديد. وفي اليوم نفسه اكتشف الحراس الأتراك، بعيداً إلى الشرق من أطراف بئر السبع، حقيبة وثائق سقطت من عنصر استطلاع بريطاني هارب. وبين الأوراق الموجودة في الحقيبة كانت خطة حربية بريطانية، سرية ظاهرياً، تفصّل تحركات قوات كبيرة تمهيداً لهجوم وشيك على غزة. ورداً على هذه المعلومات الاستخباراتية، سارعت قوات تركية إلى التحرك فوراً من بئر السبع غرباً لتعزيز الخنادق في غزة، تاركة بئر السبع نفسها دونما أية حماية تقريباً.

تم جلب حشد كبير من القوات البريطانية، سراً عبر الصحراء، إشارة إلى الهجوم. وقامت هذه القوات مُسْتَرْشِدةً بخرائط تضريسية دقيقة، باحتلال

آبار المدينة الحيوية في حركة سريعة كالبرق، وبإخلاء مربض رماة رشاشات ألمان من تل السبع الواقع إلى الشمال من المدينة، وبإجبار القوات التركية المتبقية على الانسحاب العشوائي غير المنظم.

بعد تحطيم خط الدفاع العثماني في الشرق، بادر ألّنبي الآن إلى إطلاق هجوم استهدف غزة نفسها. وكانت قوة الحملة المَصرية مزوّدة، للمرة الأولى، بالطائرات لأغراض الدعم والاستطلاع، فيما أثبتت الدبابات المصفحة، التي لم يسبق لها أن استُعملت في الأراضي المقدسة من قبل، أنها شديدة الفعالية في عملية الانقضاض على الخنادق المحصنة بكثافة، والتغلب على مقاومة رماة الرشاشات الألمان والنمساويين. وفي فترة زادت قليلاً عن أسبوع كان خط الدفاع التركي قد انهار، وأمر ألّنبي قواته بمطاردة العدو بالسرعة القصوى شمالاً على امتداد الساحل.

كانت العديد من أسماء المكان المذكورة في التقارير الحربية المثيرة الآتية من الشرق مألوفة بالنسبة إلى قراء صحف صندوق استكشاف فلسطين وتقاريره. ففي الحادي عشر من تشرين الثاني من عام (1917 م) قامت القوات البريطانية باحتلال تل حاسي، وبعد أقل من أسبوع تمكن فصيل آخر من قوات ألّنبي من إخلاء تل جازر من المواقع الألمانية التي كانت قد أقيمت بين مَخلفات خنادق وأثلام مكلستر الأثرية. وفيما تابع الألمان والأتراك تراجعهم، كسب البريطانيون مزيَداً من الأراضي في سائر أرجاء فلسطين الشمالية، فارضين سيطرتهم على المناطق التي كان علماء الآثار قد أشبعوها استكشافاً. وبعد التوجه شرقاً من يافا والتقدم للتوغل في أعالي مرتفعات يهوذا، وجه ألّنبي قواته نحو التركيز على الهدف الرئيسي - القدس.

بعد معركة بئر السبع واحتلال غزة ما لبث جو من الرعب والفزع شبه الكامل أن سيطر على القيادة العليا التركية - الألمانية في القدس. فالمدينة كانت ملأى بأسرى الحرب والجرحى من الطرفين، والقسم الأكبر من السكان المحليين كانوا يعانون مما يشبه المجاعة. والقوات البريطانية كانت تتقدم من الغرب، والجنوب، والشمال حين أصدر جمال باشا، في مواجهة احتمال الهزيمة الوشيكة، أمراً قضى بالجلاء التركي عن المدينة.

بادر ضباط أركان مقري القيادة الألمانية والتركية إلى مصادرة السيارات، العربات البدائية، وحتى الجمال، لنقل الأثاث، والسجاد الشرقي، والسجلات الرسمية، والسبائك الذهبية، في أثناء الانسحاب المذعور إلى دمشق. وكل ما له قيمة ولم يستطيعوا أخذه معهم خبؤوه أو حطّموه. وهكذا فإن نُزُل أوغسطا فكتوريا الفاخر ذات يوم على جبل الزيتون، الذي كان مجهزاً لصالح الألمان بأضواء كاشفة ومدافع مضادة للطائرات، بقي الآن خالياً ومهجوراً، إلا من العدد القليل من الشمّاسات اللوثريات اللواتي كنّ يخدمن القيادة العليا الألمانية. وبالقرب من بوابة يافا كانت ثكنات الحامية التركية، التي شكلت مركز السلطة العثمانية في القدس منذ عام (1516 م) سائبة دون حراسة. لقد بدا وكأن كل أثر للحكم التركي في القدس قد تم تكنيسه بصورة مفاجئة.



قائمقام القدس التركي
يستسلم للقوات البريطانية

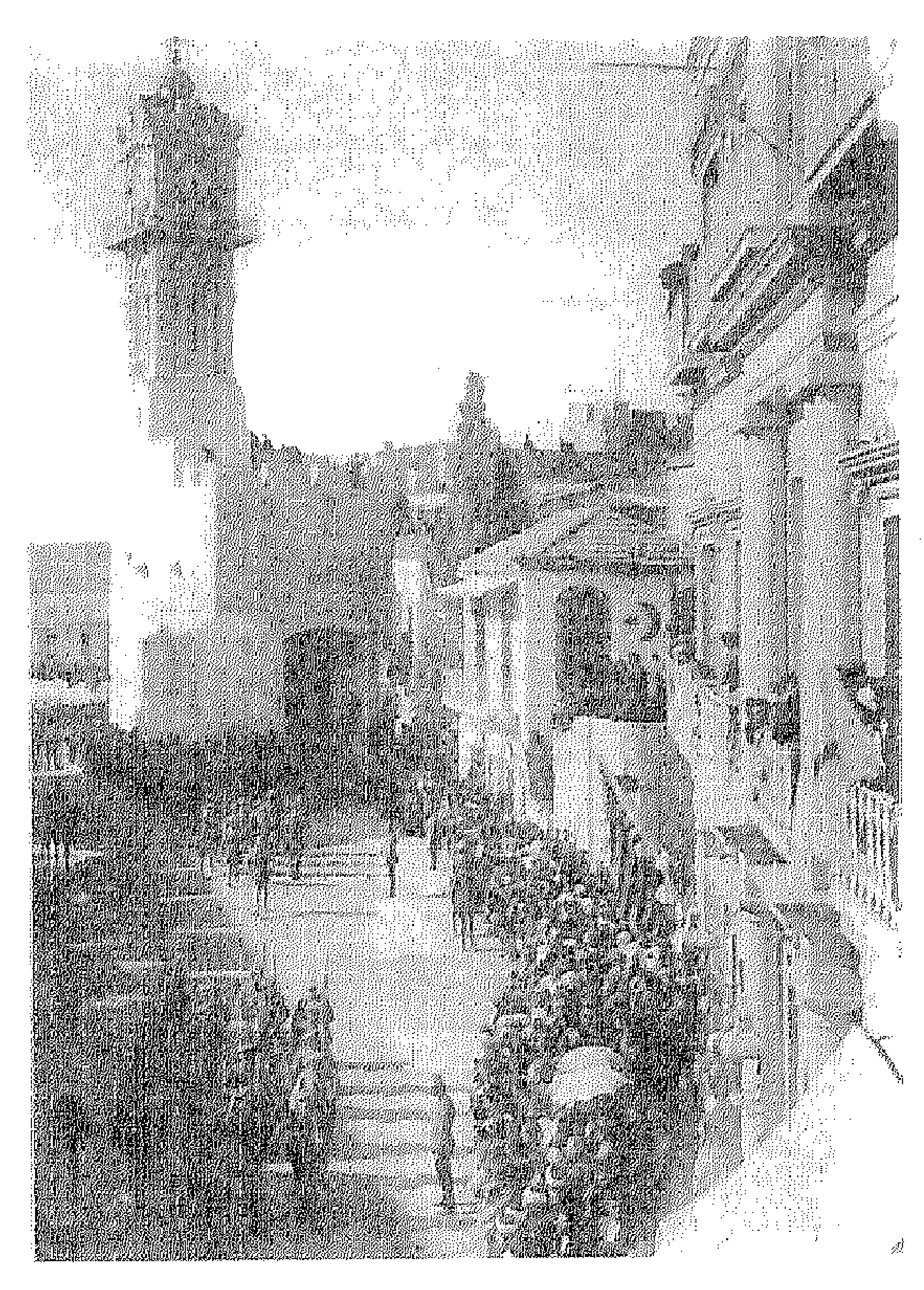
مع حلول اليوم التاسع من شهر كانون الأول، كانت الفلول الأخيرة للقوات التركية قد جَلَتْ عن القدس، وبقي السكان وحدهم لفترة وجيزة من الوقت، منتظرين الهجوم البريطاني النهائي. وبقي رئيس البلدية المدني الحاج أمين النشاشيبي المصدر الرسمي الوحيد للسلطة. وفيما كانت القوات البريطانية تطوّق المدينة والقناصة الأتراك الأخيرون يلوذون بالمخابيء، استعار النشاشيبي شرشفاً من البعثة الأمريكية وخرج من المدينة عبر بوابة يافا، متبوعاً بحفنة صغيرة من الصبية المحليين. وعلى جرف صخري قاحل عند أطراف المدينة تعثر الوفد المتواضع بكشّافين مذعورين من البريطانيين. تبودلت بضع كلمات بالإنجليزية المكسرة حتى باتت نوايا رئيس البلدية واضحة؛ كان الرجل قد جاء ليُسَلِّم المدينة.

وفي غضون ساعات قليلة شقت فصائل كبيرة من القوات البريطانية طريقها إلى داخل المدينة على أصوات تهليل وصلوات شكر سائر الجاليات الدينية. وجال الضباط البريطانيون على المدينة واتخذوا ترتيبات أولية لاحتلال عسكري، أما المقدسيون السذّج فرحبوا بكل ما استطاعوا من حماس بالجنود البريطانيين القادمين. وتطلعت كل واحدة من الجاليات بأمل إلى التلبية الوشيكة لطموحاتها القومية. فالمسلمون المنتشون بنجاح الثورة العربية ضد الأتراك وبالتأييد البريطاني، نظروا إلى القوات البريطانية القادمة نظرتهم إلى حماة دولة عربية مستقلة. أما الأكثرية الصهيونية من السكان اليهود فقد حيوا الغزو البريطاني بوصفه خطوة كبرى على الطريق إلى (الوطن القومي) الذي وعد به وزير الخارجية (البريطاني) اللورد بلفور قبل أقل من شهر. والجالية المسيحية التي طالما كانت رهينة بيد السلطة الإسلامية بادرت إلى رفع صلواتها الخاصة المشبعة بالارتياح ثقة منها بأن الأماكن المقدسة لن تخضع ثانية لسيطرة الكفّار.

في الحادي عشر من كانون الأول من عام (1917 م) وصل الجنرال إدموند ألّنبي إلى بوابة يافا في موكب نصر رمزي. ومترجلاً عن جواده ورافعاً قبعَته العسكرية عن رأسه، خطا عبر بوابة يافا فيما كان برج الساعة ونواقيس الكنائس في المدينة تدق مدشنة بداية حقبة جديدة. وعلى أدراج القلعة التركية قرأ بياناً موجهاً إلى سكان (القدس المباركة) أكد فيه على

أن قوة الاحتلال ترمي إلى الدفاع عن حرية جميع الطوائف الدينية وتحرص على حماية المزارات المقدسة لكل منها أشد الحرص. وبعد ذلك، في الباحة المكشوفة للحامية التركية، حيث كانت الميليشيا الانكشارية العثمانية تمارس هيمنتها على أهل المدينة منذ قرون عديدة، قدم (ألّنبي) رسمياً تحياته إلى كبار الحاخامين، والمفتي، والمطارنة اللاّتين والأرثوذكس، وقادة جميع الأديان والمذاهب والطوائف الأخرى في المدينة.

ومع حلول شهر أيلول التالي كان احتلال الأراضي المقدسة قد اكتمل بالانتصار البريطاني في معركة مَجدُّو، موقع الحفريات الألمانية ورؤيا هر مجدون. وهكذا فإن مسعى العالمَ المسيحي القديم قدَم الزمان للسيطرة على الأراضي المقدسة كان قد تكلل بالنجاح. وبالتّالي فإن الحملات الصليبية قد انتهت أخيراً على ما بدا.



القوات البريطانية تخترق شوارع القدس

خاتمة: مستقبل الماضي:

قَلْبُ علمِ الآثار الكتابي رأساً على عقب

عند وصول عام (1917 م) إلى نهايته كان كل ما بقي من الصراع الذي ظل مريراً حول آثار الأرض المقدسة القديمة متمثلاً بمئة وعشرين صندوقاً خشبياً مخبوءاً في أقبية ومستودعات موزعة على أرجاء القدس كلها. وداخل تلك الأقفاص أو الحاويات كانت مئات القطع الأثرية القديمة التي أخذتها السلطات العثمانية من علماء الآثار الغربيين خلال السنوات الخمسين الماضية، بالمصادرة حيناً وبموجب اتفاقيات رسمية أحياناً أخرى، أشياء كانت قد بدت عديمة القيمة، أو غير مناسبة لأن يتم نقلها لدى سقوط القدس. ولكن الغزاة البريطانيين المحتلين أدركوا قيمة هذه الغنيمة؛ ففي تغطية واسعة لعملية احتلال المدينة كتبت جريدة **التايمز** اللندنية عن اكتشاف الآثار وإنقاذها واقترحت جعلها نواة متحف وطني.

ما لبثت هزيمة الأتراك وإقامة الحكم المدني البريطاني في صيف عام (1920 م) أن أرستا الأساس اللازم لإدخال المبادىء العلمية لعلم الآثار في صلب قوانين البلاد. فحسب بنود انتداب (عصبة الأمم) على فلسطين، المصدقة في خريف عام (1923 م) تم رسم الخطوط العريضة لعمليات التنقيب عن بقايا البلاد الأثرية والحفاظ عليها بشكل صريح. فبعد ذلك التاريخ كانت سائر الدول الأعضاء في العصبة ستتمتع بحقوق متساوية في ميدان التنقيب؛ وكان سيتم استحداث قسم مؤهل وعلمي للآثار وسيتمتع مديره المعين من قبل بريطانيا بحق استملاك الأراضي لأغراض التنقيب،

ورفض إعطاء التصاريح لغير المؤهلين، ومعاقبة لصوص البقايا الأثرية ومخربيها. وهكذا فإن علم الآثار الكتابي الذي طالما تعرض للإعاقة والعرقلة من قبل الباشوات الحرونين والقناصل المتخاصمين، بات الآن قادراً على ولوج عصر جديد أكثر وعداً من نواح عديدة.

في أثناء عمليات تسوية لفتح طريق جديدة على امتداد الشاطىء الغربي لبحيرة طبرية في صيف عام (1920 م) كشف بعض العمال اليهود النقاب عن آثار جدران وأعمدة قديمة في مكان يقع إلى الجنوب من بلدة طبرية. ووفقاً للقانون المدني البريطاني المعتَمد حديثاً تم إيقاف العمل وجرى استدعاء موظفين رسميين من قسم الآثار القديمة إلى الموقع. وبما أن البلدة القريبة كانت يهودية بأكثريتها والآثار لم تبد ذات أهمية خاصة، فإن المدير البريطاني للآثار القديمة، جون ماكي،[1] قرر السماح لجماعة جديدة بدخول حقل علم الآثار الكتابي. وهكذا حصلت [جمعية استكشاف فلسطين اليهودية][2] المؤسسة في القدس قبيل الحرب، على ما يمكّنها من القيام بحفرياتها الأثرية الأولى.

بعد متابعة الحفر طوال شتاء (1920ـ1921 م) في الموقع الذي اعتُبر مكان بلدة الحمة ـ طبرية القديمة، كشف المنقبون اليهود بقايا مبنى بيزنطي ثبت أنه كنيس، وضعوا مخطط أرضيته عبر المراحل المختلفة من وجوده. واكتشفوا (مينورا)[3] حجرية كبيرة ممددة على الأرض حيث تمت الإطاحة بها قبل قرون من الزمن. صحيح أن هذه النتائج المتواضعة لحفريات جمعية استكشاف فلسطين اليهودية لم تُثر إلا القليل من الاهتمام البحثي في ذلك الوقت، غير أن أهميتها كانت ستبرهن أنها قادرة على أن تدوم طويلاً. فالباحثون اليهود في فلسطين كانوا قد تذوقوا النكهة الأولى للاكتشاف الأثري، وبادروا فوراً إلى تقديم خططهم المتضمنة مشروعات أعمال تنقيب أخرى إلى السلطات البريطانية.

على امتداد العقود المضطربة للحكم البريطاني التي توالى على البلاد جراء انتشار أعمال العنف العربية ـ اليهودية المتنامية عبر البلاد، تابعت [جمعية استكشاف فلسطين اليهودية] عملها في مواقع آثار قديمة يهودية مختلفة بهدوء. صحيح أن علم الآثار لم يكن بين الأولويات الأكثر أهمية

لدى مؤسسي الحركة الصهيونية، غير أن الاكتشاف العلمي لبقايا الفترات الكتابية وما بعد الكتابية بات الآن يوافر عنصر تلاحم قوي لصالح العصبية اليهودية في وقت كان يشهد تحركها نحو تأسيس دولة. فالجهود الإفرادية للباحثين اليهود توحدت الآن حول قضية مشتركة. وعلى الرغم من أن التنافس الغربي على الآثار القديمة الكتابية في القرن التاسع عشر قد انتهى، فإن ملابساته السياسية ظلت باقية. لقد تعين على علم الآثار الكتابي أن يغدو سلاحاً مقنعاً في صراع جديد على امتلاك الأرض.

طوال قرون الحج إلى الأرض المقدسة، وجدت منطقة مغطاة بأكوام الرماد إلى الشمال من أسوار مدينة القدس شَدّتْ اهتمام الزوار المسيحيين واليهود على حد سواء. وحسب الأساطير التلمودية والقروسطية كانت أكوام الرماد هذه بقايا القرابين المحروقة المقدمة من قبل الكهنة اليهود في هيكل يهوه وحسب نبوءة إرميا كان سيجري ضمها إلى المدينة المعاد بناؤها في آخر الأزمان. وبالتالي فإن ما كان ممكناً اعتباره في أية مدينة أخرى في العالم مجرد مكان ردميات قديم، تحول إلى مزار ديني في القدس.

غير أن أكوام الرماد، خلافاً لحال المزارات المقدسة الأخرى في المدينة المقدسة، قدمت للزائرين رابطاً ملموساً بين الحاضر والماضي. فدون التردد على القيمين الكنسيين، والحجب الهيكلية، أو الأدلاء، كانوا يستطيعون أن يركعوا بخشوع ويدسوا أيديهم في الرماد، ملامسين بأنفسهم مخلفات الماضي الكتابي. وعبر القرون قام سيل دائم من الحجاج بنقل حفنات، وجيوب، وعُلَب، وقوارير من الرماد المقدس. وقد نشرت هذه العينات الرمادية الصغيرة المبعثرة في سائر أرجاء العالم إغواء بقايا القدس القديمة بين أولئك الذين لم يتوافر لديهم ما يكفي من روح المغامرة، والثروة، أو التقوى لمواجهة أخطار السفر إلى فلسطين بأنفسهم.

غير أن أكوام الرماد بدأت تتقلص مع مرور الزمن. وخلال القرن التاسع عشر، ومع توسع مدينة القدس وبدء المباني الجديدة بالانتصاب خارج أسوار المدينة، لم تعد أكوام الرماد بعيدة، ووجد البناؤون المحليون مادتها مفيدة لصنع الإسمنت. ونشأ الأحياء العربية واليهودية الجديدة

حولها مُلَيّسة ومثبتة بالرماد المأخوذ من مكانه. ومع حلول عام (1900 م) كانت عمليةَ الحت التاريخية قد أكملت دورتها. فالمدينة كانت، كما كان إرميا قد تنبأ، قد استوعبت واحتضنت أكوام الرماد، غير أن أكوام الرماد نفسها كانت قد اختفت دونما أثر.

أما الحقبة التي تلاشت فيها أكوام الرماد فكانت حقبة علم الآثار الذي حطم أسطورتها أخيراً. تجربة مخبرية أُجريت على عينة صغيرة أن قَطَعت أية صلة كتابية: من الواضح أنها لم تكن إلا نفايات مصنع للصابون بات منسياً منذ زمن طويل، بعيداً عن أن تكون مقدسة، أو حتى قديمة. لم يحزن عليها أحد من السكان الحديثين؛ وما لبثت ثمة آثار ومزارات جديدة أن حَلّتْ محلّها. فالأواني الخزفية القديمة، والنقوش، والمدن الدفينة أصبحت موضوعات الاحترام والتقديس الجديدة. لقد غدا علم الآثار العلمي نظام الإيمان الجديد.

مع ذلك، لم يفقد الماضي، رغم هذا الانقلاب، شيئاً من قوة إيحائه وإلهامه. فاليوم يكفي المرء أن يذكر كلمتي (مسعدة) و(لفافات البحر الميت) حتى يفهم مدى ضخامة القوة السياسية والعاطفية التي لا يزال ذلك الماضي منطوياً عليها. والآثار القديمة المنقوبة باتت رموز إسرائيل الأكثر بروزاً ـ وسيلة امتلاك هوية قومية وتوفير رابط ملموس مع الأرض. صحيح أن صراعات القرن التاسع عشر السياسية تركت مكانها لنزاعات جديدة، ولكن الانبهار بعلم الآثار الكتابي مستمر. فامتلاك أرض الكتاب يعني ترجمة تاريخها. وهذه الحقيقة بقيت ثابتة. فقط المترجمون أو المفسرون تغيروا.

الهوامش

المقدمة

1) ارتأينا كتابة الاسم بالصيغة القرآنية للتأكيد على أن المقصود بذلك آثاريات بني إسرءيل (الناشر).

2) المقصود دوماً (الكتاب المقدس) بشقيه العهد القديم والعهد الجديد (الناشر).

3) كافة ما يرد بين العلامتين [ ] مضاف من المترجم أو من الناشر.

4-Titus Tobler. 5-Carl Ritter 6-Henry Baker Tristram.. 7-George Adam Smith. 8-Dr. Richard Barnett. 9-Dr. David Patterson. 10-the Sterling Memorial Library, Yale University. 11-the Beinecke Rare Book and Manuscript Library, Yale University. 12-The Olin Memorial Library of Wesleyan University 13-The Prints and Photographs Division of Congress. 14-The National Archives in Washington D .C. 15-the Ashmolean and Bodleian libraries at Oxford. 16-the Manuseript Department of the British Library. 17 -Palestine Exploration Fund. 18-Mr. Stephen Elliot of Sachem Publishing Assaciates in Guilford, Connecticut. 19-Dr. Kelvin James of New York City.

1) إغواء الأرض المقدسة : فلسطين

1-The Innocents Abroad. 2-Herman Melvill. 3-P. T. Barnum. 4-Palaestina. 5-Philistia. 6-Aelia Capitolina. 7-Nicaea. 8-Godfrey de Bauillon. 9 -The Pilgrimas Progress.

2) ضجة وقعقعة سلاح في الشرق

1 -Campo Formio. 2 -Talleyrand. 3 -Vivant Denon. 4 -General Desaix.

3) أرض الجزار

1 -Edward Daniel Clarke 2 -The Laplanders 3 -Ulrich Seetzen. 4 -The duke of Saxe of Gotha. 5 -Palestine Association. 6 -John Lewis Burckhardt 7-A Brief Account of the Countries Adjoining the Lake of Tibirias, the Jordan, and the Dead sea. 8-James Silk Buckingham. 9 -Lady Hester Lucy Stanhope. 10-William Pitt. 11-Bedlam. 12-Lord Elgin. 13-Charles Irby. 14-James Mangles.

4) رؤى نهاية العالم

1 - نبوءة دانيال؛ (1:12 و2).

2-James Bicheno. 3-The Signs of the Times. 4-Richard Brothers. 5-The Reverend David Austen. 6-Increase and Cotton Mather. 7-John Winthrope. 8-Nathaniel Ward. 9-Bethel. 10-Hebron. 11-New Canaan. 12-Jericho. 13-Bethlehem. 14-Zion. 15-Jushua. 16-Moses. 17-Ebenezer. 18-Abigel. 19-Rebecca. 20-Rachel. 21-The American Board of Commissioners for Foreign Missions. 22-Levi Parsons. 23-Pliny Fisk. 24-Andover Theaological Seminary. 25 -John Quincy Adams. 26-Stockbridge. 27-Old South Church. 28-Samuel Worcester. 29-Prudential Committee. 30-Olivet. 31-The Dereliction and Restoration of the Jews. 32-Sally Ann. 33-Reverend Jonas King. 34-Isaac Bird. 35 -William Goodell. 36-Navarino. 37-Eli Smith.

5) ويكبر الحلم

1-Edward Robinson. 2-Southington. 3-Silvestre de Sacy. 4-Wilhelm Gesenius. 5-The American Biblical Repository. 6-Union Theological Seminary. 7-The Modern Traveller. 8-Templum Domini. 9-Templum solomonis. 10-Order of the Templars.

11 - الكلمات الواردة بين الـ <> مسجلة وفق التهجئة الكنعانية الأصلية.

12 -Biblical Researches in Palestine, Mount Sinai, and Arabia Petraea. 13-Royal Geographical Society.

6) اقتحام الصحراء

1-Christopher Costigan. 2-William Molyneux. 3-William Farncis Lynch. 4-Vera Cruz. 5-John Y. Mason. 6-Supply. 7-Crusader. 8-Funny Mason. 9-Funny Skinner. 10-The New York Herald. 11-Bowie. 12-Union Theological Seminary. 13-Polk. 14-John Dale. 15-Charon. 16-Styx. 17-Hampton Roads. 18-Commerce and the Holy Land. 19-Vicksburg. 20-Potomac. 21-Georama. 22-John Banvard. 23-Pilgrimage to Jerusalem and the Holy Land. 24-The Land and the Book. 25-P. T. Barnum.

7) في سبيل مجد فرنسا

1-Louis-Felecien de Saulcy. 2-fleur-de-lis. 3-General Jacques Aupick. 4-James Finn. 5-Jerusalem Literary Society. 6-Ecole Français. 7-Auguste Mariette. 8-Serapeum. 9-Paul-Emil Botta. 10-Louis-Félicien. 11-Musée d'Artillerie. 12-voyage en Orient. 13-Edouard Dellessert. 14-Florence Nightengale. 15-Ernst Renan. 16-Louis Randon. 17-Gélis. 18-Abbé Jean-Hipploythe de St. Michon. 19-Paul Barrère.

8) قضية كرامة وشرف

1-Jerusalem Explored. 2-Ermete Piroti. 3-James Furgusson. 4-An Essay on the Ancient Topograpy of Jerusalem. 5-The Holy City. 6-Lady Strangford. 7-Bell and Daldy. 8-Sinai and Palestine. 9-The British Institute of Architects.

9) بناء أورشليم الجديدة

1-British and Foreign Bible Society. 2-Ladies Home Missianary Society. 3-Baptist Missionary Society. 4-Church Missionary Society. 5-The London Society for Promoting Christianity Amongst the Jews. 6-The London Jews Society. 7-The Anglican Church Missionary Society. 8-Samuel Gobat. 9-Jahn Irvine Whitty. 10-The Jerusalem Water Relief Society. 11-Angela Burdett - Coutts. 12-Earl de Grey and Ripon. 13-Lucknow. 14-Charles Wilson. 15-Puget Sound. 16-Peninsular and Orient Steamship Company. 17-The Assyrian Excavation Fund. 18-The duke of Argyll. 19-Morton Peto. 20-Walter Morrison. 21-Sir Walter Scott. 22-Royal Architectural Society. 23-Sir Roderick Murchison. 24-Royal Geographical Society. 25-William Thompson. 26-Austen Henry Layard. 27-Ordnance Survey of Jerusalem. 28-The Grand Lodge of Freemasons. 29-The Syria Improvement Committee.

10) تسالي إمبراطورية

1-Corporal Birtles. 2-Noel Temple Moore. 3-Tyropoeon Valley. 4-John Macgregor. 5-Rob Roy. 6-William Russell. 7-William Simpson. 8-Illustrated London News. 9-Dudley Gallery. 10-Palestine Exploration Fund Quarterly Statement.

11) السباق على أثر مقدس

1-Frederick Augustus Klein. 2-The Anglican Church Missionary Society. 3-Dr. Heinrich Petermann. 4-Professor Richard Lepsius.

5- عملة متداولة في ذلك العصر.

6-Herr Karl von Alten. 7-Dr. Joseph Barcley. 8-Charles Clermont - Ganneau. 9-Conte Eugene - Melchior de Vogüé. 10-Journal Officiel. 11-La Stélé de Mésa, roi de Moab, 896 avant J.C. 12-Revue Archeologique. 13-Emanuel Deutsch. 14 Charles F. Tyrwhitt-Drake. 15- Edward Palmer.

12) التجسس على البلاد

1-American Palestine Exploration Society. 2-Edgar Z. Steever. 3-John Paine. 4-The American Missionary College. 5-Lieutenant Claude Conder. 6-James C. Lane. 7-Chester A, Arthur. 8-Horatio Herbert Kitchner. 9-Lt. Kitcheners Guinea Book of Bible Photographs. 10-Tent Work in Palestine: A Record of Discovery and Adventure.

13) مليون جنية إسترليني

1-Baedeker. 2-Pastor Weser. 3-Professor Konstantine Schlottman. 4-Thalers. 5-Baron Von Munchhausen. 6-Dr. Charles Rieu. 7-Friedrich Bleek's Introduction to the Old Testament. 8-Richard Lepsius. 9-Hermann Güthe. 10-Fragmente einer Lederhandscheift, enthaltend Moses's Letze Rede an Kinder Israel. 11-Walter Besant. 12-Dr. Christian David Ginsburg. 13-The Illustrated London News. 14-Prof. Adolf Neubauer. 15-Prof. Archibald Henry Sayce. 16-Academy. 17-Punch. 18-Sharp-eye-ra. 19-Moses Wilhelm Shapira.

14) بلوغ سن الرشد

1-Mycenae. 2-Heinrich Schlieman. 3-Hissarlik. 4-William Matthew Flinders Petrie. 5-Frederick Jones Bliss. 6-The Union Theolagical Seminary. 7-The Palestine Exploration Fund Quarterly Statement. 8-The Russian Orthodox Palestine Society. 9-The White Friars. 10-The American Palestine Exploration Society. 11-Conrad Schick. 12-Dwight Moody. 13-the Garden Tomb Committee. 14-George St. Clair. 15-W. R. Birch. 16-Lord Kimberley. 17-Henry Maudsley. 18-Archibald Dickie. 19-James Glaisher. 20-the Reverend T. E. Dowling. 21-Zikhron Ya'acov.

15) القيصر والسلطان

1-Gottlieb Schumacher. 2-Cook's Crusader. 3-Robert Alexander Stewart Macalister. 4-Blanche - Garde. 5-Dr. Friedrich Rosen. 6-Deutscher Palastina Verein. 7-Ernst Sellin. 8-Samothrace Samo - Trakiye. 9-Dr. Immanuel Benziger. 10 -Heinrich Kohl. 11-Carl Watzinger. 12-The Deutsche Palastina Bank.

16) المنهج الأمريكي

1-The Palestine Exploration Society of New York. 2-The Society of Biblical Literature and Exegesis. 3-Charles C. Torrey. 4-Mrs. Phoebe Apperson Hearst. 5 -The Boston Museum of Fine Arts. 6-George Andrew Reisner. 7-The Harvard Semitic Museum. 8-The Semitic Department. 9-Jacob Henry Schiff. 10-Charles Eliot. 11-Sebaste. 12-Deutsche Orient - Gesellschaft. 13-The Hearst and Harvard expeditions. 14-Ostraca.

17) أسرار جبل الهيكل

1-Valter H. Juvelius. 2-Montague Brownslow Parker. 3-Earl of Morley. 4 -Grenadier Guards. 5-The Duchess of Marlborough. 6-Chicago's meat & packing Armour family. 7-Clarence Wilson. 8-R. G. Duff. 9-Major Foley. 10-The Jameson Raid. 11-Pere Hughes Vincent. 12-Underground Jerusalem.

18) آخر الحملات الصليبية

1-Leonard Woolley. 2-Thomas Edward Lawrence. 3-Captain Stewart Newcombe. 4-Nitzana. 5-Ile de Graye. 6-General Kress Von Kressenstein. 7-Charles Watson. 8-H. M. S. Hampshire. 9-Asquith. 10-David Lloyd-George. 11-Sir Archibld Murray. 12-General Edmund Allenby.

خاتمة

1-John McKay. 2-The Jewish Palestine Exploration Society. 3-Menorah.

ثبت المراجع

الحفريات

William F. Albright, *The Archaeology of Palestine and the Bible.* (New York, 1931.)
Yehoshua Ben-Arieh, "The Geographical Exploration of the Holy Land, *Palesline Exploration Quarterly.* (1972), pp. 81-92.
___: *The Rediscovery of the Holy Land in the Nineteenth* Century (Jerusalem, 1979.)
Walter Besant, Thirty Years' Work in the Holy Land (London, 1895)
___: *Twenty One years' Work in the Holy Land* (London, 1886.)
Frederick J. Bliss, *The Development of Palestine Exploration.* (New York, 1906.)
H. V. Hilprecht, *Explorations in Bible Lands During the 19th Century* (Philadelphia, 1903.)
R. A. S. Macalister, *A Century of Excavation in Palestine.* (London, 1925.)
Palestine Exploration Fund (Walter Besant), *Our Work in Palestine.* (New York, 1873.)
Keith N. Schoville, *Biblical Archeology in Focus.* (Grand Rapids, 1978.)
Charles M. Watson, *Fifty Years' Work in the Holy Land.* (London, 1915)

الأوضاع الاجتماعية

Shmuel Avitsur, *Daily Life in Eretz Israel in the XIX Century.* (Jerusalem, 1975).
Yehushua Ben-Arieh, *A City Reflected in its Times: Jerusalem in the Nineteenth Century*, Vol. 1, The Old City. (Jerusalem, 1977); New Jerusalem (Jerusalem, 1979), Hebrew.
Arnold Blumenberg, *A View from Jerusalem, 1849-1858: The Consular Diary of James and Elizabeth Anne Finn.* (Rutherford, N.J., 1980.)
Alex Carmel, *Palaestina - Chronik 1853 bis 1882.* (Bonn, 1978.)
Elizabeth Ann Finn, *Home in the Holy Land.* (London, 1866.)
Ben-Zion Gat, *The Jewish Community in Eretz Israel 1840-1881.* (Jerusalem, 1974), Hebrew.

Jacob M. Landau, *Abdul Hamid's Palestine*. (London, 1979.)
Laurence Oliphant, *Haifa or Life in Modern Palestine*. (London, 1887.)
Sarah Searight, *The British in the Middle East*. (London, 1969.)
Bertha Spafford Vester, *Our Jemsalem*. (Garden City, N.Y., 1950.)
Charles W. Wilson (ed.), *Picturesque Palestine, Sinai, and Egypt*. (New York, 1881 -1884.)

التاريخ الدبلوماسي والاقتصادي والسياسي

James A. Field, *America and the Meditenanean World 1776-1882*. (Princeton, 1969.)
James Finn, *Stirring Times, or, Records from Jerusalem Consular Chronicles of 1853-1856*. (London, 1878.)
of American-Palestine Relations. (Washington, 1949.)
Moshe Ma'oz (ed.), *Studies on Palestine During the Ottoman Period*. (Jerusalem, 1975.)
William Miller, *The Ottoman Empire and its Successors 1801-1927*. (Cambridge, 1927.)
Vernon J. Puryear, *France and the Levant*. (Los Angeles, 1940.)
___: *International Economics and Diplomacy in the Near East*. (Stanford, 1969.)
H. Temperly, *England and The Near East: The Crimea*. (London, 1936.)
A. L. Tibawi, *American Interests in Syria 1801-1901*. (Oxford, 1966.)
___: *British Interests in Palestine 1800-1901*. (Oxford, 1961.)
___: *A Modern History of Syria*. (Edinburgh, 1969.)
Barbara Tuchman, *The Bible and the Sword*. (New York, 1956.)
Jehuda L. Wallach (ed.), *Germany and the Middle East 1835-1939*. (Tel Aviv, 1975.)

ثبت مراجع فصول الكتاب

1) إغواء الأرض المقدسة

The opening quotation is taken from the end of chapter LVI of The Innocents Abroad. For additional background on western travel and tourism to Palestine, see David Finnie, Pioneers East. (Cambridge, Mass., 1967), and Franklin D. Walker, Irreverent Pilgrims. (Seattle, Wash., 1974)

Jonathan Sumption, Pilgrimage: An Image of Medieval Religion (London, 1975), and John Wilkinson, "Christian Pilgrims in Jerusalem During the Byzantine Period," Palestine Exploration Quarterly (1977), 75-101, provided material for the account of the establishment of the Christian pilgrimage tradition. Michael Avi-Yonah, The Holy Land, from the Persian to the Arab Conquests 536 B.C-A.D. 640 (Grand Rapids, 1966), includes a comprehensive history of the country in the Roman and

Byzantine periods.
For Islamic rule, shrines, and traditions in Palestine, see Guy Le Strange, Palestine Under the Moslems (London, 1890.)
The historical literature of the Crusades is voluminous. See especially Steven Runciman, A History of the Crusades (Cambridge, 1951-1954), and Joshua Prawer, The Crusaders' Kingdom (New York, 1972.)
On the partition of the Christian shrines by the Ottoman authorities, James Finn, Stirring Times (London, 1878), provides the most detailed account and description.
The Protestant idealization of the Holy Land is discussed in Howard M. Jones, "The Land of Israel in the Anglo-Saxon Tradition, "in Moshe Davis (ed.), Israel: Its Role in Civilization. (New York, 1956), pp. 229-250. For another survey of the English tradition, see Barbara Tuchman, The Bible and the Sword. (New York, 1956.)

2) ضجة وقعقعة سلاح في الشرق

The account of the Napoleonic invasion of Egypt and Palestine is based primarily on J. Christopher Herold, Bonaparte in Egypt (New York, 1962), which includes an extensive bibliography of primary sources. A detailed, if opinionated, discussion of the Franco-British rivalry over the Suez caravan route can be found in John Marlowe, Perfidious Albion (London, 1971.)
For the selection and activities of Napoleon's corps of savants, see F. Charles-Roux, Bonaparte Governor of Egypt (London, 1937.) Their massive scientific report is Commission des sciences et arts d'Egypte, Description de l'Egypte (Paris, 1809 - 1828.)
The first modern topographical map of Palestine was published by Colonel Pierre Jacotin as an appendix to Carte Topographique de l'Egypte. (Paris, 1828.) For additional background, see Y. Karmon, "An Analysis of Jacotin's Map of Palestine," Israel Exploration Journal 10 (1960), 157-173, 241-254.
The tradition of Napoleon's public proclamations in Palestine is traced in Franz Kohler, Napoleon and the Jews (New York, 1976.)
Two articles by Mordechai Gihon provide details of the military progress and strategy of the battle of Acre: "Napoleon in Western Galilee in the Spring of 1799" and "Napoleon's Siege of Accho, "in Western Galilee and the Coast of Galilee Jerusalem, 1965) (Hebrew.)
Sir Sidney Smith's march to Jerusalem is recounted in Edward Daniel Clarke, Travels in Various Countries of Europe, Asia, and Africa, Vol. 4 (London, 1817), P. 292.

3) أرض الجزار

Among the earliest travel accounts of the Holy Land in the wake of Napoleon's invasion are those of William Wittman, Travels in Turkey, Asia Minor, and Across

the Desert into Egypt, During the Years 1799, 1800, and 1801 (London, 1803); and J. B. Spilsbury, Picturesque Scenety in the Holy Land and Syria Delineated During the Campaigns Of 1799 and 1800 (London, 1803.) Both authors were officers with the British forces.

The account of Edward Daniel Clarke's journey is based on his own narrative in Travels in Various Countries of Europe, Asia, and Africa (London, 1810-1823.) The section devoted to Palestine appears in Vols. 4 and 5 (both published in 1817.)

For the background to Ulrich Seetzen's travels, see Robin Hallett, The Penetration of Africa (New York, 1965.) Seetzen's own journal was published long after his death: Reisen Durch Syrien, Palaestina, Phoenicien (Berlin, 1854-1859.) The excerpt translated by the Palestine Association was A Brief Account of the Countries Adjoining the Lake of Tiberias, the Jordan, and the Dead Sea (London, 1810.)

On the establishment of the Palestine Association, see Palestine Exploration Fund Quarterly Statement (1876), 154-155.

The career of John Lewis Burckhardt is detailed in Katherine Sim, Desert Traveler (London, 1969.) Additional information was provided by Burckhardt's personal letters to Dr. Edward Clarke published in William Otter, The Life and Remains of Edward Daniel Clarke (New York, 1827), and by his own journal, Travels in Syria and the Holy Land (London, 1822.)

James Silk Buckingham's expansive description of his own achievements in the Holy Land can be found in his Travels in Palestine through the Countries of Bashan and Gilead, East of the River Jordan (London, 1822) and his Travels Among the Arab Tribes (London,1825.)

Lady Hester Stanhope's colorful experiences in the Middle East are related in her authorized biography, The Travels of Lady Hester Stanhope in Three Vols. Narrated by Her Physician (London, 1846.) Other sources are Joan Haslip, Lady Hester Stanhope (London, 1934), and Frank Hamel, Lady Hester Lucy Stanhope (London, 1913.) The account of her treasure hunt at Ashkelon is based on these sources, as well as on a contemporary handwritten report, signed by Lady Hester and dated April 1815, in the collection of the Beinecke Library of Yale University.

4) رؤى نهاية العالم

For the general background to the nineteenth-century millennialist movement, see Ira V. Brown, "Watchers for the Second Coming," Mississippi Valley Historical Review 39 (1952-1953), 441-458; David E. Smith, "Millenarian Scholarship in America," American Quarterly 17 (1965) 535-549; and with regard to the Jews and their millennial return to Palestine, Meir Verete, "The Idea of the Restoration of the Jews in Protestant Thought in England 1790-1840, "Zion 23 (1968) 145-179 (Hebrew), which includes extensive bibliographical references.

The special emotional and religious connection between New England and the Holy Land is surveyed in Moshe Davis, "The Holy Land Idea in American Spiritual History, "in Moshe Davis (ed.), With Eyes Towards Zion: Scholars' Colloquium on America-Holy Land Studies (New York, 1977), pp. 3-33; the same volume includes seven pages of Biblical place - names used in America. Other sources include Samuel H . Levine, "Palestine in the Literature of the United States to 1867, " Early History of Zionism in America (New York, 1958), pp. 21-38; and Robert T. Handy,) Zion in American Christian Movements," in Moshe Davis (ed.), Israel: Its Role in Civilization (New York, 1956), pp. 284-297.
For the establishment of the American Board of Commissioners for Foreign Missions, see Oliver W. Elsbree, "The Rise of the Missionary Spirit in New England 1790-1815, "The New England Quarterly ,. V 1(1928) 295-322; A. L. Tibawi, American Interests in Syria 1800-1901(Oxford, 1966); and James A. Field, America and the Mediterranean World 1776-1882 (Princeton, 1969.)
The account of the organization and departure of the mission to Jerusalem is based on Daniel O. Morton, Memoir of Rev. Levi Parsons (Burlington, Vt., 1830); Alvan Bond, Memoir of the Rev. Pliny Fish (Edinburgh, 1829); and on a monograph of the farewell service in the Old South Church entitled Instructions from the Prudential Committee of the American Board of Commissioners for Foreign Missions to the Rev. Levi Parsons and to the Rev. Pliny Fish (Boston, 18 19), which also includes the texts of their sermons.
The difficulties of the American missionaries and their subsequent evacuation from Beirut is described by William Goodell in his Forty Years in the Turkish Empire (Boston, 1891.)
The dispatch of Eli Smith and his special assignment is recorded in the A.B.C.F.M. Annual Report for the year 1833, p. 44.

5) ويكبر الحلم

The only biography of Edward Robinson was written by the president of the Union Theological Seminary shortly after Robinson's death: Roswell D ., Hitchcock, The Life, Writings, and Character of Edward Robinson. (New York, 1983.)
For the theological climate faced by Robinson upon his arrival at Andover, see Jerry W. Brown, The Rise of Biblical Criticism in America 1800-1870 (Middletown, Conn., 1969.) And for the broader trends of European scholarship on which it was based, see Emil G. Kraeling, The Old Testament Since the Reformation (New York, 1955.)
The account of Robinson's first visit to the Holy Land is based on his own Biblical Researches in Palestine, Mount Sinai, and Arabia Petraea (Boston, 1841), which is also the source for the quotes and identifications used in this chapter.

The political changes occasioned by the resumption of Ottoman rule are fully analyzed by Moshe Ma'oz, Ottoman Reform in Syria and Palestine (Oxford, 1968.) On the establishment of western consulates in Jerusalem, see James Finn, Stirring Times (London, 1878); A. L. Tibawi, British Interests in Palestine (Oxford, 1961); and Yehoshua Ben-Arieh, A City Reflected in Its Times (Jerusalem, 1977), Hebrew. The quote ascribing divine intervention to the modern exploration of Palestine comes from James A. Wylie, The Modern Judea, Ammon, Moab, and Edom, Compared with Ancient Prophecy (Glasgow, 1841.)

6) اقتحام الصحراء

For the background to the western strategic interest in the Ottoman Empire in general, and in Palestine in particular, see Halford L. Hoskins, British Routes to India (Philadelphia, 1928), and James A. Field, America and thei Mediterranean World (Princeton, 1969.)
On the beginnings of Dead Sea exploration, see John Lloyd Stephens, Incidents Travel in Egypt, Arabia, and the Holy Land (New York, 1837), and E. W. G. Masterman, "Threc Early Explorers in the Dead Sea Valley," Palestine Exploration Fund Quarterly Statement (1911) 12-27.
The account of the Lynch mission is based largely on Lynch's Narrative o the United States Expedition to the River Jordan and the Dead Sea (Philadelphia, 1849.) Additional background material was provided by Yehoshua Ben-Arieh, "William F. Lynch's Expedition to the Dead Sea, 1847-8," Prologue: The Journal of the Notional Archives 5 (spring 1973) 15-21, and James A. Field: America and the Mediterranean World.

For additional details of the life and reputation of Aqil Agha, see Walter P. Zenner, "Aqiili Agha: The Strongman in the Ethnic Relations of the Ottoman Galilee," Comparative Studies of Social History 14 (1972), 169-188.

The rival(and unauthorized) memoir of the mission was published by Edward P. Montague(ed.), Narrative of the Late Expedition to the Dead Sea(Philadelphia, 1849.)

A guide to the Georama "moving painting" exhibition, written by the artist John Banvard, entitled Description of Banvard's Pilgrimage to Jerusalem and the Holy Land(New York, 1853), is in the collection of the Sterling Memorial Library at Yale University.

7) في سبيل مجد فرنسا

The account of the disturbance in the Church of the Nativity is based on the details provided in James Finn, Stirring Times (London, 1878), which also documents the subsequent political maneuvering by the various western consuls in Jerusalem.
On the establishment of the Jerusalem Literary Society, see Finn, Stirring Times; and for excerpts from its proceedings, see R. A. S. Macalister, "Gleanings from the

Minute-Books of the Jerusalem Literary Society," Palestine Exploration Fund Quarterly Statement (1908-1910.)

For additional background on the western archeological activity in the Middle East, see Brian M. Fagan, The Rape of the Nile (New York, 1975) for Egypt, and Return to Babylon (Boston, 1979) for Mesopotamia.

The details of de Saulcy's early career and travels come from his Cornets de Voyage en Orient, 445-469 (Paris, 1955), edited by Fernande Bassan, which include supplementary biographical data. De Saulcy's account of his first journey to Palestine, Voyage autour de la Mer Morte (Paris, 1853), was also published in an English translation: Narrative of a journey Round the Dead Sea and in the Bible Lands (Philadelphia, 1854.)

For the causes and aftermath of the Crimean War, see H. Temperly, England and the Near East: The Crimea (London, 1936.)

The final report of Ernest Renan's expedition was published under the title Mission de Phénicie (Paris, 1864.) Additional details on his excavations and subsequent travels in Palestine can be found in Lorenzo O'Rourke (trans.), Renan's Letters from the Holy Land (New York, 1904.)

The quotation concerning the nature of de Saulcy's government service comes from Grand Dictionnaire Universel du XIXe Siécle (Paris, 1875), Vol 14, P. 261.

De Saulcy's second trip to Palestine was documented in his Voyage en Terre Sainte (Paris, 1865.) The condemnation by the Jerusalem Jewish community appeared in the Hebrew newspaper HaMelitz and was quoted in Shlomo Shva and Dan Ben Amotz, Eretz Zion Yerushalayim (Jerusalem, 1973), p. 47, Hebrew. The subsequent condemnation in the London Times appeared on February 1 and 3, 1864. A further critical notice appeared in The Journal of Sacred Literature and Biblical Record IX (1864) 75.

8) قضية كرامة وشرف

Information concerning Pierotti's archeological activities in Jerusalem and the chronology of the later controversy over his conclusions were provided by a pamphlet written by George Williams, Dr. Pierotti and His Assailants, or A Defense of Jerusalem Explored (London, 1864), in the collection of the Beinecke Library of Yale University.

James Fergusson's works on the subject of Jerusalem are An Essay on the Ancient Topography of Jerusalem (London, 1847), The Holy Sepulcher and the Temple at Jerusalem (London, 1865), and the later The Temples of the Jews and Other Buildings in the Haram Area at Jerusalem (London, 1878.)

George Williams' traditionalist view was expressed in his The Holy City (London, 1845)

For the origins of George Grove's interest in Biblical archeology, see Charles Graves, The Life and Letters of Sir George Grove (London, 1903.)
The court-martial document and a notarized translation can be found in the archives of the Palestine Exploration Fund in London (PEF/JLS/8/1-3)

9) بناء أورشليم الجديدة

For the background of the Evangelical movement and its philanthropic societies, see Ian Bradley, The Call to Seriousness: The Evangelical Impact oil the Victorians (London, 1976), especially chapters 4 and 7.
For a detailed account of the British missionary effort in Jerusalem, see A. L. Tibawi, British Interests in Palestine (Oxford, 1961), and for the origin of the idea for the new water supply system, see John Irvine Whitty, "The Water Supply of Jerusalem-Ancient and Modern," Journal of Sacred Literature and Biblical Record IX (1864) 133-157.
A copy of the prospectus for the Jerusalem Water Relief Society can be found in the archives of the Palestine Exploration Fund (PEF/JER/9/1-2.)
The account of Wilson's appointment and subsequent work in Palestine is based on Charles M. Watson, The Life of Maj. Gen. Charles William Wilson (London, 1909), and Wilson's own report, published in The Recovery of Jerusalem (London, 1871.)
Reference to George Grove's participation in the preparations for the Survey of Jerusalem is made in Charles Graves, The Life and Letters of Sir George Grove (London, 1903.)
The establishment of the Palestine Exploration Fund is related in Charles Watson, Fifty Years' Work in the Holy Land (London, 1915), and the quotations of the opening speeches come from the Palestine Exploration Fund Proceedings and Notes (London, 1865-1869.)
Wilson's work was officially published under the title The Ordnance Survey of Jerusalem (Southampton, 1866.)

10) تسالي امبراطورية

The main sources used for the narrative of the Jerusalem excavations are Charles Wilson and Charles Warren, The Recovery of Jerusalem (London, 1871), and Warren's independent (and far more candid) account, Underground Jerusalem (London, 1875.)
Additional biographical information on Warren can be found in Watkin W. Williams, The Life of General Sir Charles Warren (Oxford, 1941)
For the political and religious repercussions of Abdul Azziz's accession and provincial reorganization, see Bernard Lewis, The Emergence of Modern Turkey (London, 1968.)

The description of the long, acrimonious correspondence between Warren and Grove is based on Warren's account in Underground Jerusalem; their original letters and dispatches are missing from the Palestine Exploration Fund Archives.
For a representative selection of the popularized accounts of the Jerusalem excavations, see The Illustrated London News, April 24, 1869; John Macgregor, Rob Roy on the Jordan (New York, 1870); and Robert Morris, Freemasonry in the Holy Land (New York, 1872.)

11) السباق على أثر بالغ الأهمية

The main sources for this chapter are: Charles Warren's account of the affair in Underground Jerusalem, pp. 523-550; F. A. Klein, "The Original Discovery of the Moabite Stone," Palestine Exploration Fund Quarterly Statement (1870), 281-283; H. Petermann, "The Moabite Stone," Palestine Exploration Fund Quarterly Statement (1871), 135-139; and Richard F. Burton and Charles F. Tyrwhitt-Drake, Unexplored Syria (London, 1872), Vol. 11, pp. 317-345, which includes an extensive bibliography.
Background for the organization of the Bedouin of Transjordan comes from Claude R. Conder, The Survey of Eastern Palestine (London, 1889), and from an article published by "A Palestine Explorer" (probably Conder himself) entitled "The Belka Arabs," in Blackwood's Magazine, August 1883, pp. 171-181.
Of the many popular articles that appeared in the western press, G. Rawlinson, "The Moabite Stone," The Contemporary Review XV (August 1870) 97-112, is representative, and it is the source of the quotation about the stone's sudden popularity.
The quotation at the end of the chapter comes from Edward H. Palmer, "The Desert of Tih and the Country of Moab," Palestine Exploration Fund Quarterly Statement (1871), 65

12) التجسس على البلاد

For the debate and decision to undertake the complete survey of the Holy Land, see the reports of the P.E.F.'s annual meetings of 1870 and 1871, in the Palestine Exploration Fund Quarterly Statements for those years.
The results of Wilson's expedition to Sinai were published as The Ordnance Survey of the Peninsula ois Sinai (Southampton, 1869-1872.)
The organization and early history of the American Palestine Exploration Society are documented by its briefly published Bulletin and Statements (New York, 1871-1877.) Additional information comes from Warren J. Moulton, "The American Palestine Exploration Society," Annual of the American Schools of Oriental Research VIII (1926-1927) 55-78.
The Reverend Selah Merrill's popular account of his travels is East of the Jordan (New York, 1881.) Charles Clermont-Ganneau also participated in the survey of

the P.E.F., undertaking a special assignment in Jerusalem. The result of his work is: Archaeological Researches in Palestine During the Years 1873-1874 (London, 1899.)

For Horatio Kitchener's early experiences with the Palestine Exploration Fund, see Sir George Arthur, Life of Lord Kitchener (London, 1920) and Dr. Samuel Daiches, Lord Kitchener and His Work in Palestine (London, 1915.) Kitchener's own publication from this period was his Book of Photographs of Biblical Sites (London, 1876.)

Details concerning the violent interruption of the Palestine Survey come from H. H. Kitchener, "The Safed Attack," Palestine Exploration Fund Quarterly Statement (1875), 195-199; "The Trial at Acre," Palestine Exploration Fund Quarterly Statement (1876), 7-8; and Claude Conder, Tent Work in Palestine (New York, 1878), which provides a detailed narrative of the progress of the entire survey.

The official publication of the mapping project is C. R. Conder and H. H. Kitchener, Memoirs of the Survey of Western Palestine (London, 1881-1888.) Conder's subsequent work in the territory abandoned by the Americans was published by him in The Survey of Eastern Palestine (London, 1889) and in his Heth and Moab (London, 1883)

For Professor Palmer's experiences among the Bedouin, see Edward H. Palmer and Charles F. Tyrwhitt-Drake, The Desert of the Exodus (New York, 1872), and for a full account of his secret mission, see Walter Besant, The Life and Achievements of Edward Henry Palmer (London, 1883.)

13) **مليون جنيه استرليني**

Reliable biographical details on Moses Shapira are, at best, sketchy. Much information can be gleaned from the fictionalized autobiography of his daughter: Myriam Harry, La Petite Fille de Jérusalem (Paris, 1914); from the biographical supplement appended to the Hebrew translation of the same by Ya'acov Assia, Bat Yerushalayim HaKatana (Tel Aviv, 1975); and from John Allegro, The Shapira Affair (Garden City, N.Y., 1965.)

For the events surrounding the Moabite pottery affair, see the correspondence published in The Athenaeum, January 24 and March 7, 1874, reprinted in the Palestine Exploration Fund Quarterly Statement (1874), 114-124. Clermont-Ganneau's final word on the matter is his Les Fraudes Archiologiques en Palestine (Paris, 1885), which also includes his account of the Moabite Deuteronomy.

A list of the most valuable Torah scrolls obtained by Shapira in his various Egyptian and Arabian travels is contained in Reinhart Hoerning, British Museum Karaite Mss. (London, 1889.)

Shapira repeated his story of the discovery of the manuscripts many times with virtually no variation in detail. His most complete account is contained in a personal letter to Professor Hermann L. Strack of Berlin, dated May 9, 1883, preserved in

dossier Additional 41294 of the Department of Manuscripts of the British Library in London. Other similar accounts were published in the Times of London and reprinted in the Palestine Exploration Fund Quarterly Statement (1883), pp. 195-209, which contains a chronology of Shapira's activities in London.
Shapira's letter to Ginsburg is reproduced in Allegro, The Shapira Affair, p. 15 and Pl. 3.
The cartoon in Punch appeared in the issue of September 8, 1883.
Sir Walter Besant, in his Autobiography (London, 1902), provides some unflattering reminiscences of Shapira which seem strongly colored by hindsight.
In the nineteen-fifties, the discovery of the Dead Sea Scrolls sparked renewed scholarly interest with regard to the possible authenticity of the Shapira manuscripts. Cf. a monograph by Menahem Mansoor, The Case of Shapira's Dead Sea (Deuteronomy) Scroll of 1883 (New York, 1956.)
For the ultimate fate of the manuscripts themselves, see A. D. Crown, "The Fate of the Shapira Scroll," Revue de Qumrân 27 (1971) 421, which theorizes that they were destroyed by a fire in the private library of an amateur Biblical scholar and rare book collector.

14) بلوغ سن الرشد

For the advancement of archeological technique in the eighteen-seventies and-eighties, see Glyn Daniel, A Hundred and Fifty Years of Archaeology (Cambridge, Mass. 1976.)
Sir Charles Wilson's suggestion is recorded in the report of the twenty-first annual meeting, Palestine Exploration Fund Quarter y Statement (1887), 5.
For more on Petrie's background and archeological technique, see his Seventy Years in Archaeology (London, 1930.) The fullest accounts of the excavation of Tell el-Hesy(in addition to the ongoing progress reports published in the Palestine Exploration Fund Quarterly Statement) are: W. M. F. Petrie, Tell el-Hesy (Lachish) (London, 1891), and Frederick J. Bliss, A Mound of Many Cities; or Tell el-Hesy Excavated (New York, 1894.)
The social and political background to the Russian excavations near the Church of the Holy Sepulcher is provided by Derek Hopwood, The Russian Presence in Syria and Palestine 1843-1914 (Oxford, 1969.)
The persistence and disruptiveness of Consul Merrill's excavations in Jerusalem were almost legendary; see, for example, Bertha Spafford Vester, Our Jerusalem (Garden City, N.Y., 1950); and Alexander Hume Ford, "Our American Colony at Jerusalem," Appleton's Magazine VII (December 1906), 643-655. Merrill's own definitive account of his Biblical theories is contained in his Ancient Jerusalem (New York, 1908.)
A report on Schick's excavations near the Church of the Holy Sepulcher can be

found in the Palestine Exploration Fund Quarterly Statement (1886), 135.
On General Charles Gordon, his visit to Jerusalem, and his theories, see Laurence Oliphant, Haifa (New York, 1887), pp. 276-279, and Conrad Schick, "Gordon's Tomb," Palestine Exploration Fund Quarterly Statement (1892), 120.
George St. Clair's views on Jerusalem can be found in his book Buried Cities and Bible Countries (London, 1891.)
On the administrative and physical changes in the city of Jerusalem in the last two decades of the nineteenth century, see Yehoshua Ben-Arich, A City Reflected in Its Times (Jerusalem, 1977-1979), Hebrew.
The account of the Jerusalem excavations of the P.E.F. is based largely on Frederick J. Bliss and Archibald C. Dickie, Excavations at Jerusalem 1894-1897 (London, 1898), and from the progress reports in the Palestine Exploration Fund Quarterly Statement.
On the establishment of the "Jerusalem association" of the P.E.F., see Palestine Exploration Fund Quarterly Statement (1892), 86, 178.
A photograph which shows the two characteristic signs inside the Jaffa Gate is published in Jacob Landau, Abdul Hamid's Palestine (London, 1979), p. 41 bottom.

15) **القيصر والسلطان**

For the extensive public works projects undertaken in Palestine in the summer and fall of 1898, see Conrad Schick, "Preparations Made for the Visit of the German Emperor," Palestine Exploration Fund Quarterly Statement (1899), 116-117; and Bertha Spafford Vester, Our Jerusalem (Garden City, N.Y., 1950.)
The political background and progress of Kaiser Wilhelm's Middle Eastern policy is surveyed in Jehuda L. Wallach (ed.), Germany and the Middle Fast 1835-1939 (Tel Aviv, 1975)
Wilhelm's "pilgrimage" to the Holy Land was followed closely in the western press. See, for example, The Illustrated London News, November 19, 1898; Samuel Ives Curtis, "The Emperor William in the Holy Land," The Cosmopolitan, February 1899, pp. 363-378; and for more politically oriented commentaries, "The German Emperor and Palestine," Fortnightly Review 70 (1898) 548-555; "Germany's Influence at Constantinople," Blackwoods Edinburgh Magazine, May 1899, pp. 921-924; and Frederick Greenwood, "The Kaiser in Palestine," The Pall Mall Magazine 17 (1899) 382-388.
The P.E.F. expedition to the Judean tells is fully documented in Frederick , J. Bliss and R. A. S. Macalister, Excavations in Palestine During the Years 1898-1900 (London, 1902.) Additional personal details come from Olga Tufnell, "Excavator's Progress: Letters of F. J. Bliss, 1889-1900," Palestine Exploration Quarterly, (1965), 112-127
For the history of the German consulate in Jerusalem see Mordechai Eliav, "German Interests and the Jewish Community in Eighth Century Palestine," in Moshe Ma'oz

(ed.), Studies on Palestine During the Ottoman Period (Jerusalem, 1975), pp. 423-441. Additional information is provided in the autobiography of the German consul appointed immediately after the Kaiser's visit: Friedrich Rosen, Oriental Memoirs of a German Diplomat (London, 1930.)
Gottlieb Schumacher's eastern Palestine explorations were published by him in Across the Jordan (London, 1886); The Jaulan (London, 1888); Abila of the Decapolis (London, 1889); Pella (London, 1888); and The Northern Ajlun (London, 1890.)
For the Austrian excavations at Tell Ta'annek, see Professor Sellin's preliminary reports in Anzeiger der kaiserlischen Akademie der Wissenschaften, Phil.-Hist. Klasse 39 (1902) 94-97, 120-123; and his final reports in Tell Taannek (Vienna, 1904) and Eine Nachlese auf dem Tell Taannek in Palaestina (Vienna, 1905)
R. A. S. Macalister published the results of the renewed P.E.F. activity in The Excavation of Gezer 1902-1905 and 1907-1909 (London, 1912) and in his earlier work, Bible Sidelights from the Mound of Gezer (New York, 1906.)
On the organization and progress of the German expedition to Megiddo, see Gottlieb Schumacher, Tell el-Mutasellim (Leipzig, 1908), and his several preliminary reports published in Mitteilungen und Nachrichten des Deutsche Palaestina-Vereins.
The survey of the ruins of ancient Palestinian synagogues was published in Heinrich Kohl and Carl Watzinger, Antike Synagogen in Galilea (Leipzig, 1916.) The Austrian-German excavations at Jericho were published by Sellin and Watzinger in Jericho (Leipzig, 1913.)
For a general review of German archeological activity and the impression it made on the other archeological powers, see Ira Maurice Price, "The German Oriental Society," Biblical World 23 (1904) 64-65, and "German Activity in Oriental Exploration," Biblical World 24 (1904) 304-310.

16) المنهج الأمريكي

For the early history of American archeological involvement in the Middle East and the establishment of the American School of Oriental Research, see G. Ernest Wright, "The Phenomenon of American Archaeology in the Near East," in James A. Sanders (ed.), Near Eastern Archaeology in the Twentieth Century (Garden City, N.Y., 1970)
The philanthropic activities of Jacob Henry Schiff are described at length in Cyrus Adler, Jacob H. Schiff: His Life and Letters (New York, 1928.)
The account of the American expedition is based for the most part on George A. Reisner, Clarence S. Fisher, and David G. Lyons, Harvard Excavations at Samaria 1908-1910 (Cambridge, Mass., 1924.)

17) أسرار جبل الهيكل

For an example of Valter H. Juvelius's unique brand of Biblical speculation, see his

Judarnes Tideroekning i ny bel, ysning (Kuopio, 1906.)
The narrative of the Parker affair is based largely on contemporary press accounts at the time of the exposure of the true aims of the expedition in April and May 1911. Additional information comes from Bertha Spafford Vester, Our Jerusalem (Garden City, N.Y., 1950)
The only archeological record of the "excavations" was compiled by Pére Hughes Vincent in Underground Jerusalem (London, 1911), also published in a French version, Jerusalem Sons Terre. Vincent includes a discreetly brief account of the circumstances which led him to join the expedition.
The result of Baron Edmond de Rothschild's purchase of an adjoining strip of land on the Ophel was a later excavation led by a French archeologist named Raymond Weill. Weill worked at the site in 1913-1914 and again in 1923-1924, clearing a wide area and uncovering two badly damaged rock-hewn cavities, which he identified as the remains of the long-sought royal tombs. See Raymond Weill, La Cité de David (Paris, 1920.) For an opposing view of this identification, see Kathleen Kenyon, Digging Up Jerusalem (London, 1974), pp. 31-32.
For the traditions associated with the "Well of the Spirits" on the Temple Mount, see Zev Vilnay, Legends off Jerusalem (Philadelphia, 1973), pp. 26-27.
A battle raged in the pages of the Palestine Exploration Fund Quarterly Statement in the months that followed Parker's escape from Jerusalem; cf. Palestine Exploration Fund Quarterly Statement (1912): Gustav Dalman, "The Search for the Temple Treasure at Jerusalem," 35-39; Charles Warren, "Recent Excavations on the Hill of Ophel," 68-74; and a defense by Pére Vincent himself, 131-134
The quotation about the failure of the "renewed" Parker expedition can be found in the London Times, October 30, 1911.

18) آخر الحملات الصليبية

The account of the survey of the Negev is based on T. E. Lawrence and C. Leonard Woolley, The Wilderness of Zin, published first in the Annual of the Palestine Exploration Fund, Vol. 3 (1914-1915), and later as an independent volume (New York, 1936.) Additional information and personal details were provided by John E. Mack, A Prince of Our Disorder (Boston, 1975); The Home Letters of T E. Lawrence and His Brothers (New York, 1954); and by David Garnett (ed.), The Letters of T E. Lawrence (London, 1938.)
Lord Kitchener's continuing strategic interest in Palestine for the defense of the Suez Canal is discussed in Uri Ra'anan, The Frontiers of a Nation (Westport, Conn., 1976), which also provides an interesting examination of the contribution of the P.E.F. surveys to the ultimate political boundaries of the Palestine Mandate.
For the course of the early military operations along the Suez Canal and the first British counteroffensive, see Colonel A. P. Wavell, The Palestine Campaigns

(London, 1928); Alexander Aaronsohn, With the Turks in Palestine (New York, 1916); and General Friedrich Freiherr Kress von Kressenstein, Mit dem Türken zum Suezkanal (Berlin, 1938.)

General Allenby's appointment and strategic successes are detailed by W. T. Massey in How Jerusalem Was Won (London, 1919) and Allenby's Final Triumph (London, 1920.)

The account of the surrender of Jerusalem and the subsequent British entry into the city is based on details from Bertha Spafford Vester, Our Jerusalem (Garden City, N.Y., 1950), and from a pamphlet written by E. W. G. Masterman, honorary secretary of the Jerusalem association of the P.E.F., The Deliverance Jerusalem (New York, 1918.)

خاتمة

For the recovery of the confiscated artifacts, see the London Times, June 1, 1921, "Archaeology in Palestine-Local Interests to Be Preserved."

The guidelines for the archeological future of Palestine were enumerated in, Article 21 of the League of Nations Mandate.

On the establishment of the Jewish Palestine Exploration Society, see A. J. Braver, "From the Early Days of the Israel Exploration Society," in Western Galilee and the Coast of Galilee (Jerusalem, 1965), pp. 228-236 (Hebrew.) A preliminary report of the Hammath-Tiberias excavation appeared in the Palestine Exploration Fund Quarterly Statement (1921), 183-184, and in the journal of the J.P.E.S., Qovets, Vol. 1, No. 1, 35-37; Vol. 1, No. 2, 49-52 (Hebrew.)

For the tradition of the Jerusalem ash heaps, see Jeremiah 31:38-40, and Zev Vilnay, Legends of Jerusalem (Philadelphia, 1973), P. 226. For their location and travelers' descriptions, see Yehoshua Ben-Arieh, A City Reflected in Its Times (Jerusalem, 1977-1979), Vol. I, pp. 54-55; Vol II, p. 89, Hebrew. The disappearance of the ash heaps was reported by Conrad Schick in the Palestine Exploration Fund Quarterly Statement (1900), 194.



يصدر عن قَدْمُس للنشر والتوزيع

ماركو بولو: هل وصل إلى الصين؟ تأليف: فرنسس وود، ترجمة: فاضل جتكر؛ مراجعة: زياد منى (صدر).

لبنان القديم. تأليف: كارلهاينز برنهردت، ترجمة: ميشيل كيلو؛ مراجعة: زياد منى (صدر).

النهايات: الهوس القيامي الألفي. تأليف: ديتر تسمرلنغ، ترجمة: ميشيل كيلو؛ مراجعة: زياد منى (صدر).

تلفيق إسرءيل التوراتية، طمس التاريخ الفلسطيني. تأليف: كيث وايتلام، ترجمة: ممدوح عدوان؛ مراجعة: زياد منى (صدر).

قديسات وملكات من المشرق السرياني وجزيرة العرب. تأليف: سِبَستيَن برُك وسوزان هارفي، وغْلِن بَوَرْسُك ترجمة: فريدة بولس وميسون الحجيري. راجعها وقدم لها: المطران مار غريغوريوس يوحنا إبراهيم متروبوليت حلب للسريان الأرثوذكس (صدر). الطبعة الأولى: آب (2000 م)؛ الطبعة الثانية: آذار (2001 م).

المسيحية والعرب. تأليف: نيقولا زيادة (صدر). الطبعة الأولى: تموز (2000 م)؛ الطبعة الثانية: آب (2000 م).

الشعر العربي المغنى: دراسة تحليلية لموسيقى الشعر. تأليف: المقدم الدكتور إيليا فرنسيس (صدر).

بحثاً عن إله ووطن: صراع الغرب على فلسطين وآثارها (1799 - 1917 م). تأليف: نِيل سلبرمن، ترجمة: فاضل جتكر، مراجعة: زياد منى (صدر).

الماضي الخرافي: التوراة والتاريخ. تأليف: توماس طُمسُن، ترجمة: عدنان حسن (صدر).

شاركتُ في الخديعة. تأليف: سلوى النعيمي (صدر).

خالد وعمر: بحث نقدي في المصادر عن التأريخ الإسلامي المبكر. تأليف: كلاوس كلير، ترجمة: محمد جديد (صدر).

بنية المسلسل الدرامي التلفزيوني – نحو درامية جديدة. تأليف: قيس الزبيدي (صدر).

الفتوحات العربية الإسلامية الأولى وبيزنطة. تأليف: وولتر كغي، ترجمة: نيقولا زيادة (قريباً).

طب العيون عند العرب: تاريخ وأعلام. تأليف: نشأت الحمارنة (تحت الطبع).

الكتاب المقدس والاستعمار الاستيطاني: السطو على الأرض في التوراة. تأليف: مايكل بريَر،

ترجمة: أحمد الجمل (قريباً).

الظاهر بيبرس. تأليف: بيتر ثورواو، ترجمة: محمد جديد (قريباً).

النظرية السياسية بين اليونان والإسلام. تأليف الدكتور عبد الوهاب مروان (صدر).

الحرب البحرية والسياسة البحرية بين الإسلام والغرب. تأليف: إ. آيكوف (قريباً).

الحمّام في العصر العربي-الإسلامي الوسيط: دراسة ثقافية تاريخية. تأليف: هاينز غرتسفلد (قريباً).

هزيمة المسيحية، خطاب "العودة" واليهود. تأليف: د. أولستر (قريباً).

الطوائف المسيحية في فلسطين من الحكم البيزنطي إلى الفتح الإسلامي - دراسة تاريخية وآثارية. تأليف: روبرت شِك (قريباً).

غوته والعالم العربي. تأليف: كاتارينا مُمزِن (قريباً).

المولوخ - نظرة نقدية لتاريخ الولايات المتحدة. تأليف: كارلهاينز دِشنَر (قريباً).

البحث عن إسرءيل التوراتية. تأليف: فيليب ديفس (قريباً).

إفريقية واكتشاف أمريكا. تأليف: ليو فينَّر. (قريباً).

الفتوحات الإسلامية الأولى. تأليف: فرِد دونَّر (قريباً).

حكايات آرامية من معلولا (قريباً).

الغرب والإسلام - صورة العرب في الغرب وتشكلها في العصر الوسيط المبكر. تأليف: إكهارت روتر (قريباً).

حكومات المسلمين. تأليف: عزيز العظمة (قريباً).

الإستشراق جنسياً: قراءة في خطاب الغرب عن الشرق كآخر. تأليف: إرفين كميل شِك (قريباً).

دراسات قَدْمُس: مجموعة كتيبات تحوي ترجمة دراسات وأبحاث نشر أكثرها في دوريات متخصصة، تتعلق ببلادنا وقضايانا التاريخية والمعاصرة، منها التالي ذكرها:

أباطرة وشيوخ رومان من المشرق العربي. تأليف: غلِن بَوَرسوك، ترجمة: فاضل جتكر؛ مراجعة: زياد منى (تحت الطبع).

(آشور) و(سورية) مترادفتان. تأليف: ريتشارد فراي، ترجمة: فاضل جتكر؛ مراجعة: زياد منى (تحت الطبع).

الألفية والمستوطنات الزراعية في الأرض المقدسة في القرن التاسع عشر. تأليف: ر. كارك، ترجمة: فاضل جتكر؛ مراجعة: زياد منى (تحت الطبع).

أورشليم داود: التلفيق والحقيقة. تأليف: مارغريت شتاينر، ترجمة: فاضل جتكر؛ مراجعة: زياد منى (تحت الطبع).

"عودة" اليهود في الفكر البروتستانتي الإنجليزي (1790 – 1840 م). تأليف: ماير فريته، ترجمة: فاضل جتكر؛ مراجعة: زياد منى (تحت الطبع).

فيليب العربي والمسيحية. تأليف: هانز بولزَنْدَر، ترجمة: فاضل جتكر؛ مراجعة: زياد منى (تحت الطبع).

كنعان، فينيقيا، أرجوان. تأليف: ميخائيل أسطور، ترجمة: فاضل جتكر؛ مراجعة: زياد منى (تحت الطبع).

معركة القادسية. تأليف: س. م. يوسف. ترجمة: ميسون الحجيري؛ مراجعة: زياد منى (تحت الطبع).

معركة اليرموك: إعادة تركيب. تأليف: ج. جندارا. ترجمة: ميسون الحجيري؛ مراجعة: زياد منى (تحت الطبع).

معركة هليوبوليس. تأليف: ألفرِد بَتلَر. ترجمة: ميسون الحجيري؛ مراجعة: زياد منى (تحت الطبع).

تطورات فنون الحرب الإسلامية: الفتوحات الأولى. تأليف: ج. جندارا. ترجمة: ميسون الحجيري؛ مراجعة: زياد منى (تحت الطبع).

حول نقش "بيت دود (داود)". تأليف: كمال الصليبي، ترجمة: زياد منى (تحت الطبع).

دور الجمل والخيل في الفتوحات العربية المبكرة. تأليف: د. ر. هِلّ، ترجمة: ميسون الحجيري؛ مراجعة: زياد منى (تحت الطبع).

جغرافية سفر التكوين (14) في عسير. تأليف: كمال الصليبي، ترجمة: زياد منى (قريباً).

مشكلة (داود وجليات). تأليف: كمال الصليبي، ترجمة زياد منى (قريباً).
الفرار من "أورشليم". تأليف: كمال الصليبي، ترجمة: زياد منى (قريباً).
ملاحظات جغرافية ولغوية على التوراة. تأليف: كمال الصليبي، ترجمة: زياد منى (قريباً).
الإبيونيون وورقة بن نوفل والإسلام. تأليف: زياد منى (قريباً).
مقاطع متطابقة من العهد القديم والشعر العربي. تأليف: فراي هر فون غال، ترجمة: زياد منى (قريباً).
النبي محمد وهرقل. تأليف: أ. شارف (قريباً).
"**بيت داود (دود)" مبني على الرمال**. تأليف: فيليب ديفس: ترجمة: زياد منى (قريباً).
بين المنهجية والجنون: عن توظيف التوراة مرجعاً تاريخياً. تأليف: فيليب ديفس: ترجمة: زياد منى (قريباً).
(نَفَق سِلوان) هلنستي. تأليف: فيليب ديفس: ترجمة زياد مني (قريباً).
الإسلام في الكتابات البيزنطية. تأليف: فولفغانغ آيشنَر (قريباً).
الحركات الدينية في شمالي جزيرة العرب قبل الإسلام. أ. شبرنغر (قريباً).
البحث عن الحلقة المفقودة: الآثار والرأي العام في لبنان. هلغا سيدن (قريباً).
موقف العرب من بيزنطة: الرسمي، الشعبي، العلمي. تأليف: أحمد شبول (قريباً).
هل "عبرية" التوراة لغة؟ تأليف: إرنست أكزل كناوف؛ مراجعة: زياد منى (قريباً).



AN ANCHOR BOOK
PUBLISHED BY DOUBLEDAY
a division of Bantam Doubleday Dell Publishing Group, Inc.
666 Fifth Avenue, New York, New York 10103

ANCHOR BOOKS, DOUBLEDAY, and the portrayal of an anchor are trademarks of Doubleday, a division of Bantam Doubleday Dell Publishing Group, Inc.

Digging for God and Country was originally published in hardcover by Alfred A. Knopf, Inc., in 1982. The Anchor Books edition is published by arrangement with the author.

A letter from M. W. Shapira to Dr. Ginsburg dated August 23, 1883, as published in *The Shapira Affair* by John M. Allegro, is reprinted with the permission of The British Library.

Library of Congress Cataloging-in-Publication Data applied for

ISBN 0-385-41077-8

PRINTED IN THE UNITED STATES OF AMERICA
FIRST ANCHOR BOOKS EDITION: FEBRUARY 1990

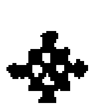
DC

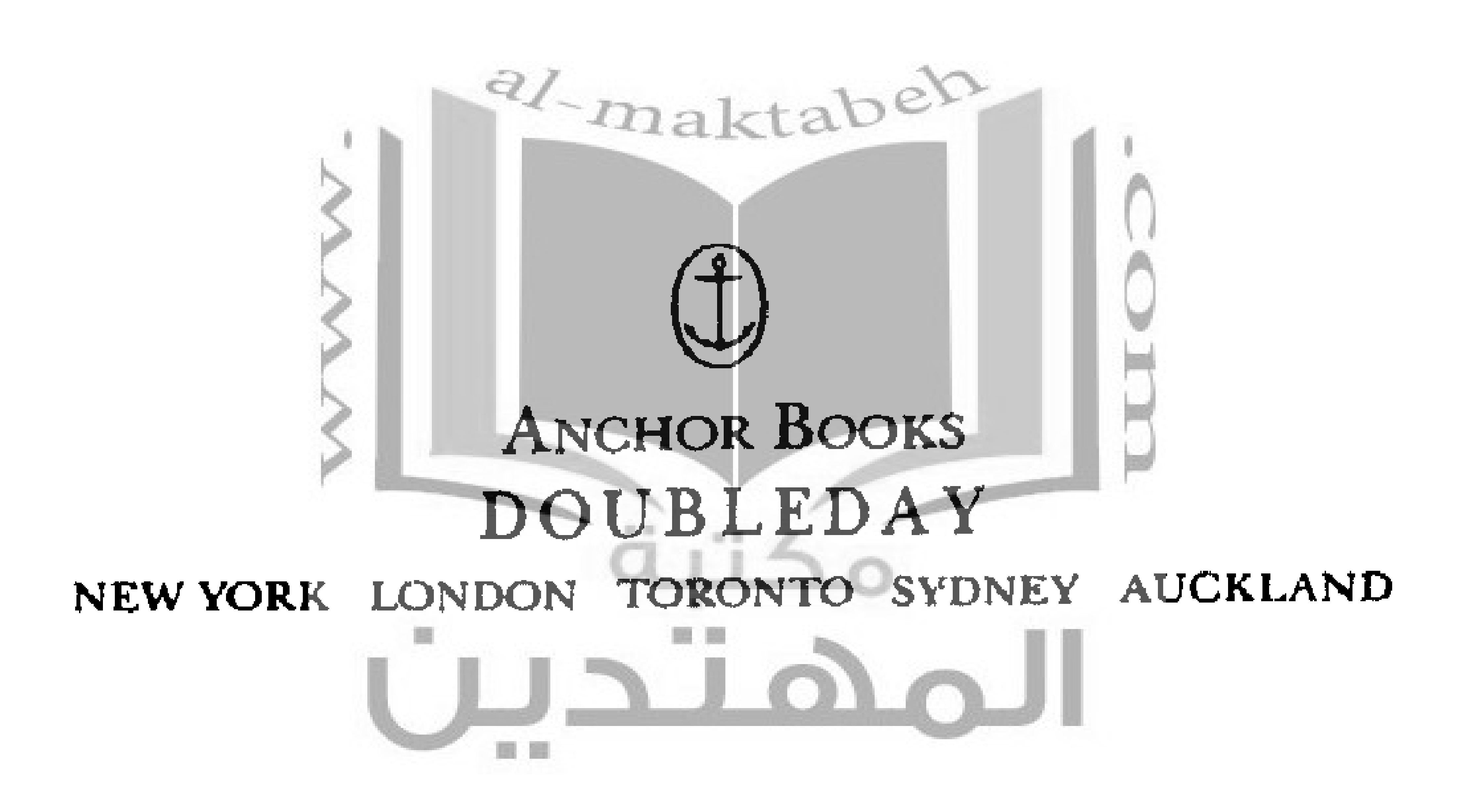


Neil Asher Silberman

DIGGING FOR GOD AND COUNTRY

Exploration, Archeology, and the Secret Struggle for the Holy Land 1799–1917





ANCHOR BOOKS
DOUBLEDAY
NEW YORK LONDON TORONTO SYDNEY AUCKLAND

